13-14-15

الكاتب: أحمد محمد كامل

رقم الإيداع: 23370 / 2018

ISBN : 978 - 977 - 798 - 036 - 4

الطبعة الأولى يناير 2019

دار الحلم للنشر والتوزيع والترجمة ©

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

E-mail: dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

Tel: 00242216335 - Mob: 00201141824562

Sales Manager Mob :00201146644959

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الوارده في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضروره عن آراء الدار، كما أن جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صوره كانت إلا بموجب موافقه خطية من الناشر..

9 789777 980364

13-14-15

الكاتب

أحمد محمد كامل

الحلم
للنشر و التوزيع

"وأعطي عجائب في السماء من فوق وآيات على الأرض من أسفل دمًا ونارًا وبخار دخان. تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم الشهير"

سفر الأعمال الفصل الثاني

"نظرت لما فتح الختم السادس، وإذا زلزلة عظيمة حدثت، والشمس صارت سوداء كمسح من شعر، والقمر صار كالدم"

سفر يوحنا اللاهوتي

اليوم الثالث

مرسيدس

إهداء إلى

محمد كامل المحلاوي

لما حملت حواء طاف بها إبليس وقال: "إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة، لتطيعني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، فسمياه عبد الحارث ". فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا.

ثم حملت لمرة ثانية فأتاهما أيضا وقال: "أنا صاحبكما الذي فعلت وفعلت، لتفعلن أو لأفعلن " فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا.

وكانت حواء تلد أولادًا فيعبدونهم لله فيسمونهم عبد الله وعبيد الله فيصيبهم الموت.

ثم حملت للمرة الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما وقال: "إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش "، فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث.

1

استيقظ محمد ذات ليلة فوجد يده تضغط على خده الأيمن، استغرق لحظة ليتذكر أين هو وما الذي أيقظه في هذا الوقت المتأخر، نظر إلى ساعته الرقمية التي وضعها على الكومود وقد وجهها إليه كي لا يضطر إلى الإمساك بها كلما أراد أن يعرف الوقت، إنها الثانية وعشرون دقيقة صباحًا.

توجه إلى الحمام وهو يعبث بلسانه في أحد أضراسه، لم يرد أن يضيئ الأنوار حتى لا يُقلق زوجته التي كانت مستلقية بجواره على بطنها وفمها مفتوح، اعتمد على ذاكرته في تفادى تضاريس بيته من أثاث وحوائط وأبواب، فتح باب الحمام في سرعة كي لا يصر وقد تذكر أنه ينسى كل يوم تشحيم المفصلات، أضاء الحمام وجلس ليتبول وهو يعبث بلسانه في ذلك الضرس السفلي من ناحية اليمين، شعر بالتسوس يتزايد فيه وقد بدأت أجزاء منه في التآكل فعلياً، حاول تحسس الجزء المتآكل بإصبعه ولكن سرعان ما امتلأ فمه بلعاب ثقيل لزج فقام ليبصق في حوض غسيل اليدين، مال برأسه لينظر في المرآة إلى ذلك الضرس الذي أيقظه ألمه في هذه الساعة.

تناول مسكنا للألم حتى يتمكن من النوم، ثم سيقرر لاحقا ما الذي سيفعله بشأنه، غسل يديه ثم عاد إلى سريره، استلقى على ظهره وشد الغطاء على جسده ثم أغمض عينيه.

فتحهما مرة أخرى وهو يفكر في التقاط صورة لزوجته وهي نائمة مفتوحة الفم، كما قامت ذات مرة بتسجيل صوت شخيره، لكن النعاس غلبه وقد بدأ مفعول المسكن في العمل.

* * *

نام محمد حتى الصباح ليجد الغرفة وقد تشبعت برائحة البيض المقلي الذي يحب تناوله على الإفطار بالإضافة لكوب من النسكافيه دون سكر أو لبن. نهض عن سريره دون أن ينظر إلى الساعة، إنها العاشرة كما اعتاد أن يصحو كل يوم، اتجه إلى الحمام وغسل وجهه بالماء البارد ولم يفوت أن يراقب الضرس في مرآة الحمام مجددًا، إنه لا يشعر بألم في ضرسه ولكنه يشعر بصداع في جانب رأسه الأيمن، كان محمد في أواخر الثلاثينيات، متوسط الجسم، خمري اللون، ذا شعر أسود ثائر يتخلله بعض الشعيرات البيضاء.

خرج إلى طاولة الطعام التي يضعها في الصالة، أمام السفرة شاشة إل سي دي مثبتة على الجدار بالإضافة لريسيفر إتش دي، كان على التلفاز برنامج العاشرة صباحًا فتابع في غير اهتمام المذيعة وهي تتحدث مع أحد ضباط المرور ليصف لها الحالة المرورية في شوارع القاهرة وأماكن تواجد الازدحام، شعر بزوجته هناء تقبل خده ثم جاءت رائحة النسكافيه الزكية لتداعب خياشيمه وعقله.

قالت هناء: "صباح الخير"، وهي تضع مج النسكافيه الأحمر الذي يحرص على شراء العبوة الكبيرة ليحصل عليه.

فرك عينيه بأصابعه فتابعت: "هل ستذهب اليوم إلى المعهد؟"

رشف رشفة من النسكافيه سعد لها قلبه بعد أن تأكد أن زوجته لم تملأ الكوب عن آخره كما يوصيها دوما، كان يتخذها كذريعة ليوبخها إذا نسيت وملأت الكوب بالكامل فيفقد المزيج تركيزه.

رد قائلًا وهو يمسح عينيه بباطن كفيه: "لا، بإمكانهم الانتظار، لن تطير صحون الدش من على الأسطح، لدي أمر أريد القيام به اليوم".

توقفت هناء عند باب المطبخ ونظرت إليه، فتابع: "هذا الضرس يؤلمني حقا، لم أعد أحتمل، أشعر وكأنه يستمتع بتعذيبي، ولكنني لا أحب الأطباء، لماذا لا تشغلين الشفاط؟"

عادت هناء وفستانها الضيق يتأرجح في تناغم مع تفاصيل جسدها الرفيع المتناسق، كانت خمرية اللون ذات عينين واسعتين عسليتين، عيون البقر كما يقول لها، شعرها كثيف قصير يصل إلى الكتفين، يميل لونه إلى اللون الكستنائي، طلبت منه أن يفتح فمه ففعل، اتسعت عيناها وبدت فاتنة في عينيه وهي تحاول تفحص الضرس، أمسكت فكه السفلي بأناملها الرقيقة وآثار النعاس لا تزال تبدو على وجهها.

قالت وهي تتثاءب واضعة يدها على فمها: "إن حالته سيئة يا فتى، أعرف طبيبًا ذهبت إليه صديقتي سوزان لتبييض أسنانها قبل زواجها، تقول إن أسعاره ليست مرتفعة، ولم تكن لتبالي على أي حال، خصوصا إذا كان خطيبها هو من سيدفع".

عادت إلى المطبخ لتحضر صحون الإفطار وهي تقول: "قلت لك ألف مرة بأن فيشة الشفاط محترقة".

تابع محمد شرب القهوة وهو يفكر في الاتصال بالمعهد الأزهري الموجود في نهاية الشارع للاعتذار عن إتمام عمله اليوم في تركيب صحون الأقمار الصناعية التي اتفقوا معه على تركيبها بالإضافة لبعض الأعمال الفنية الأخرى التي يمكنه القيام بها، إنه صنايعي مجتهد ويجيد كسب الزبون وإرضائه، إنه يتمني حقا لو كان كل الصنايعية والعمال لديهم اجتهاده وإصراره، تذكر يوما جلس فيه مع أصدقائه على القهوة وطلب كوبًا من النسكافيه دون لبن، وجد الطلب دون لبن ولكنه من النوع الذي يأتي في أكياس اثنين في واحد، أي نسكافيه بالمبيض، كان على سطح المشروب طبقة سميكة من الرغوة التي لا يحبها، علم حينها بأن عليه أن يقول نسكافيه بلاك دون رغوة أو لبن، إنه لا يستكبر من أخذ التعليمات من زبائنه ومعرفة كيف يريدون تنفيذ طلباتهم، بالنسبة له لم يكن الأطباء (لا سيما أطباء الأسنان) سوى "صنايعية" في مجال لا يعرف عنه شيئا وهو الجسم البشري، وفي هذه الحالة لن يستطيع إملاء شروطه وإيضاح كيف يريد أن تتم (الصنعة).

تراصت أطباق الطعام على الطاولة، سألته هناء: "لماذا لم تذهب من قبل لعلاج هذا الضرس؟"

تناول لقمة من البيض اللذيذ وقال: "لا أتخيل أن أفتح فمي لأحد فيفعل به ما يشاء دون أن أفهم ما يقوم به، إنني أحب تقييم الصنعة التي أفهمها، كما أن بعض هؤلاء الأطباء مهولون حقا، إنهم

يعملون على تضخيم الأمور وإعطائها أكبر من حجمها كما لو أننا نجد المال في أكياس الشيبس".

ردت قائلة: "حسنا، لا أظن أنه من المفترض أن نفهم كل شيء، أعتقد أن عليك الذهاب قبل أن يسوء الأمر أكثر من هذا".

تناولت لقمة من البيض ثم تابعت: "تأكد يا عزيزي أن كثيرين لديهم نفس الرأي بشأنك، يظنون أنك تقوم بأمور لا يحتاجونها حقا، وإذا فعلت فهم يرون أنك تأخذ أكثر مما تستحق".

تناولت رشفة من كوب الشاي باللبن الذي أعدته لنفسها ثم تابعت: "سأتصل بصديقتي لأسألها عن عنوان ذلك الطبيب، ستذهب اليوم بدلًا من أن يتعكر مزاجك بسببه فتفتعل شجارًا معي".

لم يرد وتظاهر بأنه يتابع إعلانا تجاريا للتسويق العقاري.

ترك محمد رغيف الخبز من يده وبدأ في تناول الطعام بالشوكة، كان يتحاشى الضغط الشديد على الضرس المعطوب، جال بخياله مشهد كوب النسكافيه المليء بالمبيض والمغطى بالكريمة فقال: "كما أنني قلق بعض الشيء بشأن تركيز الأطباء، لدي صديق ذهب يوما إلى طبيب أسنان ليخلع ضرسه وفوجئ في النهاية بأنه خلع الضرس الخاطئ، لا أدري حقا كيف تمر هذه المواقف".

كانت ترشف من كوب الشاي باللبن أثناء حديثه وحين انتهى وضعت الكوب على الطاولة وتحدثت بتلك اللهجة الحازمة وقد اتسعت عيناها الساحرتان حتى أنه تساءل متى ستطرف هاتان

العينان: "حسنا، البعض يحتاج إلى المزيد من الدقة لمعرفة ما يريده الآخرون".

لم يرد، أومأ برأسه لليمين ورفع حاجبه الأيسر، ثم أمسك بالريموت كنترول وأطفأ التلفاز قبل أن يصاب بالدوار.

* * *

كان محمد خلاف وهناء عبد الكريم قد ذهبا إلى الدكتور أحمد الخولي طبيب النساء لإجراء الفحوصات بعد عامين من زواجهما، كانا يرغبان في الحصول على طفل وعندما تأخر الأمر اتفقا على إجراء الفحوصات والعلاج، بالنسبة إليهما لم يكن الأمر (هيا لنبحث عن المخطىء، بل هيا لنبحث عن الخطأ). قابلهما الدكتور أحمد بعد إجراء التحاليل اللازمة لهناء، كان جالسا خلف مكتبه، عاقدا كفيه بينما يجلسان على الكرسيين المواجهين له، مشهد مألوف ومتكرر مر به الطبيب مُكرهًا على حمل الأنباء السيئة لمرضاه، كانت هناء تعاني من مشكلة خلقية لا تُمكنها من الإنجاب.

لم يحزن محمد على إرادة الله التي تمنعهما من الحصول على طفل بقدر حزنه على الفترة التي مرت على هناء بعدها، كان يعود من عمله ليجدها تشاهد التلفاز في صمت وقد جفت دموعها على وجهها، يستيقظ من نومه ليسمع صوت بكائها المكتوم، كانت تقضي وقتا طويلا في الحمام لتخرج وقد احمر وجهها وانتفخت عيناها، ثم جاء ذلك اليوم حين قالت: "ماذا الآن؟"

كان يقرأ الجريدة على الأريكة التي يضعونها في الصالة وكانت هي بجواره تشاهد مسرح مصر، رفع عينيه عن الجريدة ونظر إليها قائلا: "ماذا؟ ماذا؟"

ردت قائلة: "ماذا نويت أن تفعل؟"

لم يتظاهر بعدم فهمه لما تتحدث عنه، ابتسم وترك الجريدة على طاولة الأنتريه ثم احتضنها فاستسلمت لذراعيه.

قال لها: "هل تطلب منك كل هذا الوقت لتستجمعي الشجاعة اللازمة لفتح هذا الموضوع؟"

تراجعت هناء وقد عاودت الدموع للظهور في عينيها، أمسك بيديها وقال: "اسمعي.. أنت أغلى عندي من أي شيء في العالم، لن أقول لك ما تريدين سماعه بل سأقول لك الحقيقة، لقد سعينا لنبحث عن العلاج وكان من الممكن أن أكون صاحب المشكلة، تُرى ماذا كنت ستفعلين حينها؟"

ردت دون أن تنظر إليه: "لا أدري، ربما كنت سأستبدلك بمروحة (بتلف لوحدها) من الشركة السعودية، ما كنت لأتركك حتى لو عشت بقية حياتي لا أرى سوى وجهك العابس كل يوم".

اتسعت ابتسامته قائلًا: "يمكننا أن نتبنى طفلا، أليس كذلك؟"

كان وقع كلام محمد لذيذا على قلب هناء التي احتضنته في حب حقيقي ولم تعد تبكي لهذا السبب مجددًا.

❁ ❁ ❁

2

بعد أن أنهى محمد إفطاره توجهت هناء بالصحون إلى المطبخ، ذهب إلى الحمام ليتناول قرصًا مسكنًا من كابينة الأدوية، فتح العلبة الكرتونية برتقالية اللون وأخرج الشريط الذي تراصت فيه الأقراص كالأزرار، كبس على أحد الأقراص ليخرجه من الغلاف القصدير، بلع القرص الدائري دون أن يتبعه بشرب الماء، إنه يعلم أنها عادة سيئة ولكنه لا يدري لماذا يصر على فعلها كلما أراد أن يتناول دواء، ولكن من يبالي؟ الجميع لديهم عادات غير مفهومة وخاطئة، يقومون بها لسبب أو دون سبب، لقد كان مدخنًا في السابق ولكنه قرر أن يتوقف، لا حفاظا على صحته ولكن توفيرا لماله، التدخين عادة مضرة لك ولمن حولك، المدخن يضبط مزاجه بسيجارة أو بالشيشة، ربما ليضيع الوقت في نفخ الدخان، ربما للتفكير العميق، البعض يدخن لحبس الطعام، البعض لإثبات الرجولة، تذكر صوت جميل راتب وهو يقول: (الكيف نزاهة طول ما فجيبك تمنه).

هناك إدمان من نوع آخر، إدمان الأدرينالين، نذهب لمشاهدة المخاطر في شاشات السينما أو التلفاز أو التجمهر أمام مشاجرة على القهوة، نشاهد المصارعة والأفلام، نبحث عن المقاطع الدموية على الإنترنت، البعض يحب التجربة بنفسه فيتشاجر لأي سبب، يجازف للقيام بأمور خطرة كالقفز من المرتفعات، الذهاب إلى دريم بارك،

قيادة السيارات والدراجات النارية بسرعات عالية، لماذا نقف بسياراتنا لنشاهد حادثا على جانب الطريق؟ أهو لتقييم الأضرار أم للتلذذ بمشاهدة الدمار؟ الوحيد الذي تفهم محمد قيامه بالمخاطر هو جايسون ستاثام في فيلم كرانك حيث تم حقنه بسم صيني يقل مفعوله بزيادة مستوى الأدرينالين في دمه!

أغلق علبة المسكن وهو يفكر في عادته التي لا يرى لها سبباً وجيهاً، إن تلك العادة تتعلق بكيفية حصوله على هذا المسكن، كان يركب ذات يوم مع أحد أصدقائه في سيارته متجهين إلى حفل زفاف في الزمالك، ثم جاءت تلك اللحظة التي نزل فيها صديقه من السيارة لشراء علبة سجائر من كشك على جانب الطريق، وقعت عينا محمد على علبة المسكن التي كانت على تابلوه السيارة، دون تردد مد يده إلى العلبة ودسها في جيب سرواله، لماذا فعل ذلك؟ إنه لا يدري، إنه لن يبخل على نفسه بشراء الدواء إذا احتاج إليه، لكنه لا يعتبر نفسه سارقًا، اللصوص يسرقون لأسباب معلومة، إنه فقط ذلك الطنين، الطنين الذي لا يسمعه سواه، يدير رأسه إلى مصدر ذلك الطنين فيجد شيئا، لا يقاوم الحكة التي تصيب يده فيمدها ويأخذ ما أمامه ثم يضعه في جيبه، لديه الآن كرتونة في دولاب الملابس يخزن فيها ما يأخذه من الآخرين، كانت الكرتونة تحتوي على مفك، قلم، مشبك ورق أو علبة مسكن!

❁ ❁ ❁

3

بعد أن انتهى الدكتور سليمان محروس من إفطاره، خرج من بيته حيث يعيش مع والديه وأخيه الأصغر في ألف مسكن، ركب المواصلات متجها إلى المستشفى حيث يقضي فترة الامتياز بعد أن أنهى دراسة طب الأسنان بجامعة عين شمس، كان يقضي معظم الوقت في الطريق شارد الذهن يفكر في آماله وطموحاته التي يشاركه فيها أي طبيب مصري حديث التخرج، الدراسات العليا، الدورات التدريبية وورش العمل المعتمدة، السفر، العمل الحكومي، العمل الخاص، الزواج وإنزال الكرش.

لم يفكر في الحصول على أي درجة علمية من بلاده فهو يرى أن قدراته أفضل من أن يضيعها في هذا المستوى العلمي المتدني، سيسافر إلى الخارج فيعمل ويدرس وربما يتزوج بامرأة يتفاخر بها أمام زملائه وأصدقائه، إنه يستحق أن يعيش في مستوى أفضل يثير الحسد، إنه ينتمي إلى مكان أفضل. بعد أن يقضي سنة الامتياز سيكون قد جمع ما يكفي من المال لشراء تذكرة إلى الخارج، هذا بالطبع إذا لم يدخل الجيش أو "يلبس" كما يقولون.

ماذا سيفعل إذا "لبس" إذن؟

طرد الفكرة من ذهنه فورا، إنه أفضل من أن يحدث له ذلك، لن يدخل الجيش لسبب ما لا يدري ما هو، حسنا.. ما هي المواصفات التي يحب أن يراها في زوجته المستقبلية التي تنتظره في

ألمانيا أو إيطاليا؟ أمريكا؟ لا لا، إنه واقعي جدا، ويرى أن الذهاب إلى أمريكا أكبر من إمكانياته بكثير، كان يشعر بالزهو والفخر من نفسه حتى وهو يجمع الأجرة من الركاب ليناولها للسائق، سند برأسه في طريقه إلى المستشفى على زجاج النافذة المجاورة بينما يستمع إلى أحاديث الركاب التافهة. كان السائق يتعامل مع السيارة كما لو أنه في مضمار سباق، لابد أن تلك السيارة كانت موجودة عندما كانوا يجربون محركات الاحتراق الداخلي للمرة الأولى، لن يرضى سليمان بركوب أقل من بي إم دابليو عندما تتحسن أحواله في أوروبا، حتما سيصور كل زاوية من السيارة وينشرها على الفيس بوك مع تعليق (لا عزاء للأغبياء). أخرج جهاز التابلت الصيني الذي اشتراه له والده عند تخرجه، فتح حساباته الاجتماعية لمتابعتها بدلا من الاستماع إلى أحاديث واهتمامات الركاب السمجة، تنهد وهو يفكر: (لن يتقدم هذا الشعب أبدا).

بعد أن ينتهي سليمان من عمله في المستشفى الحكومي، كان يعود إلى بيته لتناول الغداء والراحة، لن يجلس مع زملائه في المقهى لتناول الغداء طبعا إذا أراد توفير المال، إنه يعمل فترة مسائية في مستوصف بمدينة العبور حتى الحادية عشرة مساء، كان يسلك طريق الإسماعيلية- القاهرة، وكان السائق يقف أحيانا في بنزينة توتال العبور للتموين، سأل سليمان نفسه: لماذا لا يقوم هؤلاء السائقون بتموين عرباتهم إلا ومعهم الركاب؟

إن المستوصف يدر عليه دخلًا جيدًا، بالطبع كان يرغب في العمل كمساعد بإحدى العيادات الكبرى كما يفعل بعض زملائه،

ولكن مثل هذه الأمور تحتاج إلى الكثير من التملق والتلون ولم يكن يجيد هذه الصفات، ليس لعزة نفسه بل لغروره.

كانت لديه مشكلة في العودة ليلًا، إن عليه الانتظار حتى تمر سيارة أجرة أو باص فيعود إلى منزله في الواحدة صباحًا، ينام ليستيقظ مبكرًا ليوم آخر، إنه يذكر نفسه دائمًا: (أنت أفضل من هذا).

4

يقع بيت محمد في الهايكستب، كان يستخدم "الفزبة" في قضاء مشاويره. استعد للذهاب عصر ذلك اليوم إلى طبيب الأسنان الذي وصفته له زوجته والذي اتضح بأنه في مدينة العبور، مدينة العبور! ولكن بحق هل يجب عليه قطع كل تلك المسافة للذهاب إلى طبيب أسنان؟ إن محمد كأي فرد من المجتمع يرفض التجريب على نفسه، يذهب إلى الحلاق بالسمعة، الجزار بالسمعة، البقال بالسمعة، لا يجلس على القهوة إلا إذا كانت سمعتها جيدة. بعد أن أدار محرك "الفزبة" سمع صوت محرك سيارة تقترب لتقف بجواره. كانت سيارة صديقه رؤوف بيجو 504، رأى رؤوف يبتسم من خلف الزجاج الأمامي الملوث بالغبار قبل أن يخرج من باب السيارة حاملا كرشه معه، كان يرتدي تي شيرت "ليكرا"، بدا وكأنه كيس لوسادة ضخمة وقد كُتب عليه بالإنجليزية التي يجيدها محمد خريج الآداب: (تذكر دائما أن أفضل الشواطيء في ميامي).

أطفا محرك "الفزبة" واحتضن صديقه مرتطما بكرشه، قال محمد: "روفاا.. ما الذي أتى بك وبكرشك؟ هيا اصعد معي للبيت".

أمسك رؤوف بيده وقال: "أمسكتك في الوقت المناسب، لماذا لا ترد على الهاتف؟ اتصلت بك سبعين مرة".

قال محمد: "آه، ربما....".

قاطعه رؤوف: "إلى أين أنت ذاهب؟ أحتاجك في أمر ضروري، ثم مد يده إلى فمه واتضح أنه يحمل سيجارًا سحب منه نفسا".

رد محمد: "خير؟".

قال رؤوف وهو ينفخ الدخان: "اشتريت صحن استقبال وريسيفر إتش دي، أريد مشاهدة المباريات كما لو أنني في المدرجات".

مط محمد شفتيه وقال: "لا يرى المرء منكم سوى المتاعب، لدي موعد مع طبيب الأسنان، ضرسي يؤلمني بشدة"، كان محمد يقف ويديه على وسطه فرفع يده اليمنى وأشار بإصبعه إلى الضرس الذي نغزه موافقًا.

شعر بأن في ضرسه طاقم عمال مجدين لديهم كافة المعدات والإمكانيات للحفر في طبقات الأسنان من مجاريف وفؤوس، وحين يأتي الدور على المثقاب الذي يستعمل في حفر الأسفلت بضغط الهواء، هنا يأتي الألم الذي ينطلق كتيار كهربائي عالي الجهد، كانت وردية العمل المسائي هي الأسوأ حيث يكون العمال بكامل طاقتهم ونشاطهم، إن لديهم جدولًا عليهم الالتزام به وتسليم الأنفاق في مواعيدها.

قال رؤوف: "أين هذا الطبيب؟".

رد محمد: "في العبور".

مال رؤوف برأسه إلى الخلف وقال: "سأصطحبك إلى هناك بنفسي بعد أن ننهي المصلحة، ماذا تقول؟ من ينتظر رأيك أصلا، هيا تول أمر الفزبة واركب معي".

نظر له محمد وقال: "حسنا.. بشرط أن تتوقف عن كونك زنطور".

دفعه رؤوف وقال: "زنطور بالحلال ولا دوري بالرشاوي والتطبيل يا بيب بيب".

قال محمد وهو يتجه بالفزبة إلى الجراج: "إني أشفق عليكم فعلا يا ولدي، ثم عاد ومعه صندوق العدة الذي يثبته خلف كرسي الفزبة".

5

بعد أن أنهت هناء مكالمتها مع صديقتها سوزان التي قامت بعمل التبييض عند الدكتور سليمان، عادت سوزان لتتصل مجددًا.

- "نعم، اسمعي يا بنتي سأزورك اليوم؛ لأقضي معك بعض الوقت".

ردت هناء: "خير، لست معتادة على زياراتك، إن كنتِ تفكرين في اقتراض بعض المال من أجل الفرح....".

- "أي مال يا (شحاتة)، لدي من المال ما يشتري منطقتكم بالكامل".

- "ماذا إذن؟".

قالت سوزان: "أبدًا، أول الأمر أنني لم أرك منذ مدة".

- "نعم، منذ أن انتقلت إلى المرج، وثانياَ؟".

- "لدي أمر أريد الحديث معك بشأنه".

انقبض قلب هناء لسبب غامض، لقد قضت أعوامها الجامعية كشخصية مشهورة، كانت شخصية بارزة ومعروفة في أكبر جروب على مستوى الكلية، تسافر الرحلات مع أصدقائها من الإسكندرية وحتى أسوان، تشترك في الأنشطة، كزيارة الأيتام، جمع التبرعات لمستشفى مجدي يعقوب لعلاج أمراض القلب، الحقائب الرمضانية. لم تكن من المتفوقات دراسياَ ولكنها من النوع الذي يكتسب حب

واحترام الآخرين دون أي مجهود. لديها حس فكاهي غير مبتذل، أسلوب سلس في الحديث، طريقة حياة بسيطة وأنيقة في نفس الوقت بحيث تقف متحيراً لا يمكنك تحديد مستواها المادي، كل هذا حتى تخرجت وبدأت تواجه المجتمع الحقيقي، حيث لا يعود في إمكانك التعامل بنفس معايير المجتمع الجامعي، تشعر حينها بأن والديك قد نسياك داخل مول تجاري وأنت صغير السن، فبالرغم من توافر جميع أسباب السعادة لطفل من حلوى وألعاب إلا أنك تقف وحيدًا مذعورًا تحاول إخفاء خوفك ومقاومة انهيارك، حينها تدرك بأن العالم يختلف كثيرا عن الدائرة الآمنة التي يحيطك أهلك بها. والأكثر من هذا أنك لا تعرف كيف يجب أن تتصرف، تشعر بالضيق وقلة التنفس فلا يعمل عقلك بكفاءة على إيجاد حل للخروج من هذا المأزق، بعد أن واجهت هناء الحياة الحقيقية غير المقنعة لم يعد يثير اهتمامها الكثير من الأمور التي اعتادت عليها سابقا، لم يعد من المهم لديها شراء نوع معين من الهواتف مادام هاتفها يدخل على الإنترنت، لم تعد تسجل الأرقام على هاتفها بأسماء مفخمة ومنمقة، إنها تكتفي الآن بكتابة حرفين أو ثلاثة وربما تحديد الرقم بحفظ آخر عددين فحسب، لم يعد من المهم اختيار اللغة الإنجليزية لتكون لغة هاتفها الأساسية مادامت لا تستخدم سوى العربية عند استعمال كارت الإيه تي إم لسحب المال من الحساب الذي أنشأه لها محمد. توقفت عن شراء ملابسها وأحذيتها من مدينة نصر مادام الشراء من العتبة يفي بنفس الغرض

وإن قلت مدة الاستهلاك، لم تعد تشتري طلبات المنزل من الهايبر مادام السوق الشعبي يوفر نفس الأغراض بأسعار أقل.

كانت تفرح لتلقيها مكالمة من أحد أصدقائها أو أقاربها، أما الآن فهي تشعر بالهم على قلبها عند سماعها صوت اهتزاز الهاتف بعد أن توقفت عن اختيار الأجراس الصوتية بعناية، كانت جميع مكالماتها حول الزواج والترشيحات من هنا وهناك و(مش هنفرح بيك بقى)، ثم ظهر محمد بشكل رسمي والذي وضعت عينيها عليه من أيام الجامعة، بالطبع كانت عيناه عليها أيضا ولكنه لم يفاتحها في الموضوع لأسباب تتعلق بـ (المستقبل) و(الكفاح) و(تكوين الذات)، كل ما في الأمر أنها أعطته الإشارة في خوض كل ذلك معها، حتى بعد زواجها لم تسلم من المكالمات والمقابلات التي تعلم سلفا محاور حديثها من (ما تشدي حيلك بقى)، ثم تناثرت الإشاعات بعدم قدرتها على الحمل ليتأكد الأمر بعد مرور الوقت دون أي أخبار جدية أو نفي لتلك الإشاعات. تحولت محاور الحديث بعد ذلك إلى (وهو ناوي يعمل إيه؟) و(خلي بالك دول أنا عارفاهم كويس)، لم يفوّت البعض طبعا عمل دعايات إعلانية للطبيب فلان والدجال علان الذي يعالج مثل هذه الأمور.

صارت هناء تتمنى أن ينساها الناس ويتركوها وشأنها بعد أن كانت من أوائل المشاركين والمتطوعين في جميع الأنشطة، أصبحت تشعر بالراحة في قلبها كلما أمسكت الهاتف فلا تجد مكالمات فائتة.

ملأت صدرها بالهواء ثم زفرت بعيدًا عن ميكروفون الهاتف ثم قالت: "أووووه، هل أنتِ متأكدة أنك سوزان التي أعرفها؟ لم أعهدك تتحدثين بهذه الجدية من قبل!".

تحولت نبرتها إلى نبرة جادة بالفعل وهي تقول: "سأركب الآن وآتي إليك، مسافة السكة".

6

حين ركب محمد مع رؤوف كان سليمان قد وصل إلى المستوصف في الخامسة والنصف عصراً، توجه إلى السوبر ماركت واشترى قنينة سبرايت وكيس دوريتوس، صعد إلى الطابق الثاني من المستوصف حيث توجد عيادة الأسنان، من حسن حظه أنه لا يدخن ولا يفكر في ذلك وإلا قل من جيبه ثمن علبة سجائر كل يوم بالإضافة إلى ثمن الدوريتوس والسبرايت. كان يدخل كل يوم إلى عيادته دون أن يسلم على سلمى موظفة الاستقبال ومسؤولة الحسابات، إنه لا يريد أن يعطيها الفرصة لكي تطمع فيه كما يظن، أمام التلفاز كان يقف مجموعة من الأطباء مرتدين البلاطي البيضاء، طبيب الأمراض الباطنة الدكتور حسام نصر، وطبيب الجراحة الدكتور رمزي عزيز، وطبيب المسالك البولية الدكتور رفعت أيوب، وقفوا يتابعون إحدى المباريات وهم يمسكون بأكواب من الفلين يتصاعد منها حلقات من البخار. سلم عليهم فردوا عليه في فتور، دخل سليمان عيادته وانتظر مواعيده التي ستبدأ في السادسة، جلس خلف مكتبه وأخرج كتابا لتعليم اللغة الألمانية، بدأ في حفظ الكلمات بينما يتناول قطع الدوريتوس ومن حين لآخر يسمع أصوات الأطباء الحماسية المتفاعلة مع المباراة، فكر في شرود

أن هؤلاء القوم يضيعون أوقاتهم، رفع عينيه عن الكتاب ناظرًا إلى الجدار حيث ملصق الضرس الضاحك وهو يشير بقبضته علامة تمام رافعا إبهامه لأعلى، بدا لسليمان كما لو أن الضرس يتفق معه في الرأي.

7

بعد أن شرب سليمان آخر قطرة من السبرايت كان محمد ورؤوف قد انتهيا من شرب القهوة الإسبريسو في كافيتريا محطة توتال العبور، حيث توقف رؤوف لرغبته في دخول الحمام، جلس رؤوف على المرحاض يقرأ الكلام المكتوب على باب الحمام (نداء يستمر، الغلاء إن لم تتحجب النساء)، و(السيسي أمه يهودية)، ثم كان هناك قلم من لون آخر وقد أشار بسهم من الجملة الأخيرة وكتب (السيسي علم عليك)، كما لو أنه يعلق على البوست. كانت هناك أرقام هواتف مكتوب بجوارها (مطلوب نيجاتيف للعلاقة الجادة). راقب رؤوف الكلام وهو لا يصدق الفراغ النفسي الذي يعيشه هؤلاء، في الطريق كان على الراديو أغنية لمحمد فؤاد ردد رؤوف كلماتها، بعد انتهاء الأغنية استمعا إلى الأخبار قبل أن يتابعا برنامجًا حواريًا حيث استضافت المذيعة شخصية ما، توقف رؤوف عن الحديث مع محمد بعد أن استرعى انتباهه محور حديث البرنامج، تحدثت المذيعة عن ظاهرة كونية نادرة وفريدة جدًا، حيث شهدت السماء ولمدة ثلاثة أيام متتالية قمرًا كاملًا مكتسيًا بالحمرة وهو ما يُطلق عليه "القمر الدموي أو قمر المحاربين"، تحدث ضيف البرنامج عن سبب هذه الظاهرة وكيفية حدوثها قائلا: "يكون القمر أقرب ما يكون إلى الأرض فيظهر بحجم كبير أو ما يسمى بالسوبر مون، من المعلوم أن سطح القمر عاكس وليس

مصدرًا للضوء فحين يسقط ضوء الشمس على القمر ينعكس إلى الأرض، ولقرب القمر من طبقات الأرض الغازية، فإن لهذا الغلاف الغازي القدرة على فلترة جميع الألوان الصادرة من الخارج ما عدا اللون الأحمر الذي ينعكس إلى القمر مرة أخرى فيظهر بالشكل الأحمر الدموي، تماما كما يحدث حين تتلون الشمس بالحمرة عند الغروب".

ضحكت المذيعة وقالت: "لا داعيَ لكل هذا الرعب يا سيدي، ربما علينا أن ننظر للأمر بشكل رومانسي، لماذا لا ندعوه مثلا بالقمر الوردي؟ أو قمر الحب؟ هههههه".

شاركها الضيف الضحك وقال: "ربما، لم لا؟ الأمر الذي يجعل هذه الظاهرة فريدة أنه لم يحدث وأن تكرر القمر الأحمر لثلاثة أيام متتالية إلا ثلاث مرات فقط خلال الخمسمائة عام الماضية".

ردت مقدمة البرنامج: "اعتاد الناس على تسمية هذه الأيام التي يكتمل فيها القمر بالأيام البيض، حتى أنهم يقولون صيام الثلاثة البيض، ربما علينا إذن أن نسمي هذه الأيام بالثلاثة الحمر، هههههههه".

شاركها الضيف الضحك مجددا ثم قال: "ومن حسن الحظ لمن فوتوا مشاهدته اليومين الماضيين أنه لا يزال في إمكانهم رؤيته الليلة وهي ليلة الخامس عشر من الشهر العربي، ومن يدري متى تتكرر هذه الفرصة مجددا؟".

صاح رؤوف: "يقول لك قمر أحمر وقمر أصفر، هناك أناس تموت من الجوع يا سيدي، إن هؤلاء القوم ليس لديهم ما يشغلهم

سوى الثرثرة والضحك"، أشاح بيده وتابع ناظرا إلى محمد: "ما الذي سأقبضه إذا كان القمر أحمر أو أخضر أو حتى "فحلقي" ؟".

ضحك محمد وقال: "ماذا إذا كان الأمر عن وجود مشويات مجانية على المريخ؟ ستركب أجنحة لسيارتك وتهجر زوجتك وتحلق إلى هناك".

رفع رؤوف كتفيه وقال: "بالطبع لن أفعل، فمادامت مجانية فهناك احتمال لا بأس به أن تكون.. هاو هاو"، ضرب محمد يده على فخذه وشارك رؤوف الضحك.

وصلا إلى منزل رؤوف بجوار سوق العبور، عند بدء مباراة الزمالك والمصري، كانا يتبادلان الاتهامات بشأن أداء الحكام والأراء في أداء اللاعبين، جاء مينا بن رؤوف ذو العشر سنوات حاملا صحنا من الكعك ووضعه على طاولة الأنتريه، قال رؤوف: "سلم يا ولد على عمك"، ولكن مينا أخرج لسانه لمحمد وركض ضاحكا، قال محمد: "تعال وإلا أكلت أذنيك".

أخذ مينا يغني أغنية لأحد أفلام الكرتون وهو يتراقص مع ستارة مدخل الصالة، صاح به رؤوف: "اذهب يا ولد نحن نشاهد الماتش"، غضب مينا ودفع الستارة وأخذ يرمقهما شذرا، سمع محمد صوت شهيق فنظر ليرى مينا يملأ صدره بالهواء ثم يغلق فمه فتنتفخ خدوده كالبالون، ركض مبتعدا ويقول "هوووووو"، ثم عاد مجددا وهو يعاود الشهيق وقد اتسعت عيناه، أغلق فمه وقد امتلا صدره بالهواء ثم ركض إلى الداخل ليقول "هووووو"، عندما عاد مرة أخرى لتكرارها قال محمد: "رؤوف.. ماذا يفعل ولدك الأهبل؟"،

نظر رؤوف إلى مينا الذي ركض نافخا صدره إلى الداخل ليصيح "هووووو"، عندما عاد قال رؤوف: "ماذا تفعل؟ ألم أقل لك إننا نشاهد الماتش؟"، رد مينا متحديا: "أقوم بإفراغ الصالة من الهواء حتى تختنقوا وتموتوا".

اتسعت عينا محمد ونظر إليه رؤوف في نفس الوقت كمن داس على سلك كهربائي عاري، ثم انفجرا ضحكا ومحمد يضرب كفيه ببعضهما، قال رؤوف: "لم أر إصرارا على الشر هكذا من قبل".

قال محمد وقد عاد ليتابع المباراة: "يذكرني ببراين الذي يريد السيطرة على العالم، فليحفظه لك الله".

رد رؤوف: "وليرزقك الله يا عزيزي".

أومأ محمد برأسه دون أن يلتفت إليه ولم يقل شيئًا.

بعد المباراة استغرق محمد في العمل وقتا أكثر مما توقع حتى بدأ في القلق بشأن زيارته إلى الطبيب، كانا يتبادلان الحديث أثناء تثبيته للصحن واستغل رؤوف فرصة وجوده على سطح العمارة فأشعل سيجارة لأن زوجته تمنعه من إشعال السجائر في المنزل، دفع رؤوف محمد في كتفه وهو يقول: "اسمع اسمع هذه القصة.. كنت أشاهد برنامج توك شو ذات يوم أنا وميرنا، ثم جاء ذلك الخبر عن شاب أقاموا عليه الحد، وكان على خلاف مع عائلة أخرى....".

توقف رؤوف وأطلق ضحكة وتابع قائلا: "المهم أن الفتى قام بسرقة هاتف محمول من أحد أفراد العائلة الأخرى والذي اتضح بأنه بلطجي يمثل دور شيخ المنطقة وكان لديه أتباعه، قام الشيخ بإحضار الفتى وقطع يده....".

نظر له محمد في دهشة فتابع رؤوف: "انتظر.. اتصل مقدم البرنامج بأخت الفتى السارق فقالت إنهم أحضروا سيفا من أيام الكفار، وقالوا لا إله إلا الله، ثم قطعوا يد أخيها، ولكنه كان بريئا ولم يسرق منهم شيئا، كنت أتقافز من الضحك فوبختني ميرنا وتساءلت عم أضحك إنها مأساة، فقلت لها، إنها مسخرة مأساوية، أترى؟ الأمر كله أشبه بكوميديا سوداء، وحين اتصل المقدم بأخت الشيخ الذي قطع يد الفتى....".

قاطعه محمد قائلًا وهو يحرك لاقط الصحن بحثا عن إشارة: "دعني أخمن، قالت لسنا نحن، لم نفعل شيئا".

هنا سالت دموع رؤوف ولم يملك نفسه من الضحك وقال: "نعم تماما، قالت لم نفعل شيئا، قالت إن عائلة الفتى السارق معروفة في المنطقة بكثرة المشاكل، كان مقدم البرنامج يسألها ولم يستطع إخفاء غضبه: "وتلك اليد من الذي قطعها يا سيدتي؟" فكانت ترد: "لا ندري، لم نفعل شيئا يا أستااااذ"، أعتقد بأن البرنامج سيتابع هذه القضية، لا أستطيع الانتظار لمعرفة ما الذي حدث بعد ذلك، هههههه".

ابتسم محمد وهو يثبت الصحن بعد أن التقط الإشارة أخيراً.

8

لم يكن إيجاد المستوصف سهلًا، قاما بسؤال بعض المارة عن موقع مستوصف النيل، في النهاية توقف رؤوف أمام محل ميكانيكي سيارات، كان الأسطى رجلًا في الخمسينيات، ذا شعر أشعث فضي اللون ولحية حديثة النمو، يرتدي تي شيرت أخضر به خطوط زرقاء وسروالًا "جينز" باهتًا وكانت ثيابه ملطخة ببقع من الشحم هنا وهناك، جلس الأسطى حسنين على كرسي خشبي وأمامه شيشة نحاس، قال رؤوف وهو يفتح النافذة المجاورة لمحمد: "اسأل هذا الحاج".

قال محمد رافعا صوته: "سلام عليكم يا أسطى، من فضلك كيف نصل إلى مستوصف النيل؟"

عدل الأسطى حسنين منظاره السميك على عينيه وسعل ثم بصق على الأرض، قال من بين أسنان بنية كما لو أنها مغطاة ببن القهوة: "قال لك فين؟"، فكر محمد ثم رد وقد بدأ يشعر بأنهما يضيعان وقتهما: "لا أدري، قال لي إنه في العبور فحسب، هل يمكنك إرشادي؟".

- "امشي طوالي واسأل هناك"، ثم أعاد وضع مبسم الشيشة على شفتيه ولم يقل المزيد، تصاعدت فقاقيع الماء في قاعدة الشيشة الزجاجية قبل أن يختفي وجه الأسطى حسنين خلف شبورة الدخان.

أشار له محمد وقال: "شكرا يا حاج".

انطلق رؤوف بسيارته وهو يقول: "شكرا على خدمتك العظيمة، كنا لنتوه من غيرك".

لم يصدق رؤوف ومحمد نفسيهما بعد أن اكتشفا صحة وصفة حسنين أفندي، فبعد أن قطعا الشارع إلى آخره وجدا في ناصية الطريق مبنى مكون من ثلاثة طوابق، كانت هناك لافتة كبيرة كُتب عليها بخط أحمر(مستوصف النيل).

صاح رؤوف: "هذا هو".

رد محمد: "شكرا على خدمتك العظيمة، كنا لنتوه لو لم تكتشف أنه هو".

نظر له رؤوف بجانب عينه ثم قال رافعا حاجبه: "أي خدمة".

في الاستقبال وقفت الموظفة التي كانت ترتدي يونيفورم خاصًا لتخفض صوت التلفاز، كانت سلمى قصيرة القوام ممتلئة الجسد، تضع على شفتيها قلم شفاه وردي بالإضافة إلى كحل على عينيها اللتين تنمان عن قوة شخصية لا يمكن العبث معها.

قال رؤوف: "نريد طبيب الأسنان من فضلك يا آنسة".

هزت سلمى رأسها وقالت: "آسفة جدًا، ولكن سينتهي من هذه الحالة ويغادر".

أغمض محمد عينيه وتخيل العمال وهم يسجلون دخولهم إلى موقع العمل استعدادا لبدء التنقيب.

فتح عينيه وقال: "أرجوكِ، لا أستطيع النوم، أخبري الطبيب بشأننا وسندفع ما يريد".

صمتت سلمى للحظة ثم اتجهت إلى عيادة الأسنان وهي تتمتم: "لا تتذكرون أسنانكم إلا بعد فوات الأوان!"، طرقت الباب ودخلت، سمعا صوت همهمة من الداخل ثم عادت وهي تقول: "حسنا.. بإمكانكما الانتظار".

شكراها على مساعدتها وفكر محمد في إعطائها عشرة جنيهات بعد الخروج من غرفة الكشف، بمجرد جلوسهما على مقاعد الاستقبال، بدأ رؤوف بالحديث عن مطعم الكبدة الجديد الذي فتح في شارعهم، لم يكن محمد قادرًا على التركيز في كلامه، لقد بدأ الألم في الانتشار من ضرسه إلى باقي فكه، شعر بنبض في لثته اليمنى، ارتجفت ركبتاه ولم يتمكن من إخفاء ذلك فقام بوضع يديه عليهما، بدا وكأن كل من في الغرفة يراقبه ويسجل انفعالاته، رفع رأسه حين فتح باب غرفة الكشف ليرى رجلا يخرج ممسكا بخده وبدا كما لو أنه يعض على شيء ما، هل هذا قطن؟ تبا.

قالت سلمى بنفاد صبر: "هيا يا أستاذ".

استند محمد على ركبة رؤوف للقيام، شعر بتنميل في قدميه وهو يقطع المسافة متثاقلا إلى باب الغرفة الموارب وتمنى لو أنها تبعد أميالا، دفع رؤوف الباب فتسارعت دقات قلب محمد وهو يلقي نظرة على الغرفة، لم يكن الأمر بهذا السوء حقا، مجرد غرفة أنيقة نظيفة، كان كرسي الأسنان اللبني في المنتصف وعلى الجدار صور طبيعية وملصقات هزلية لأسنان تحاول أن تبدو مرحة، رأى مكتبًا وأدراجًا من الألوميتال، لابد أنها تحوي الكثير من أدوات

التعذيب، سلم الدكتور سليمان عليهما ودعاهما للدخول، تمدد محمد على كرسي الأسنان بينما رؤوف يتفحص هذا الطبيب صغير السن، أراح محمد ظهره على الكرسي ونظر إلى السقف المزخرف بينما قلبه يعترض على كل هذا، لن يتمكن من النهوض عن الكرسي حتى ولو أراد، لقد تخدر جسده وهو الآن تحت رحمة هذا الطبيب، لم يلحظ رؤوف أيا من مخاوف محمد، بل انشغل بمحاولة التعرف على الطبيب، كان سليمان يرد على أسئلة رؤوف باقتضاب وعدم اهتمام، توجه رؤوف إلى المكتب وأخذ يتصفح كتاب تعليم اللغة الألمانية في فضول، نظر له سليمان وقال: "ضعه من فضلك".

قطب رؤوف جبينه ورفع حاجبا وقد دهش من هذا الرد الفج، أعاد رؤوف الكتاب إلى سطح المكتب دون أن يرد، جلس سليمان على كرسي بجوار محمد وقال: "كيف يمكنني مساعدتك؟".

حاول محمد الحديث ولكنه شعر بقبضة في قلبه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة. في النهاية تمكن من الحديث قائلًا: "لدي هذا الضرس في الأسفل من اليمين إنه مكسور وأريد خلعه"، ثم أشار بإصبعه إلى الضرس، لاحظ سليمان خوفه فقال: "حاول أن تهدأ ليس هناك سبب للخوف، أعدك بأنك لن تشعر بشيء".

أغمض محمد عينيه وقد بدأ يشعر بقطرات من العرق البارد تتجمع على جبينه، قال سليمان: "خذ نفسا عميقا وأخرجه، كرر ذلك عدة مرات حتى تهدأ".

فعل محمد كما يقول الطبيب حتى بدأ يهدأ شيئا فشيئا، طلب منه الطبيب أن يفتح فمه، لم يدر لماذا شعر بالحرج وهو يفتح فمه، اقترب وجه سليمان من فمه حتى صار في إمكانه رؤية ما بداخل أنف الطبيب.

قال وهو يتفحص الضرس المصاب: "ماذا تريد أن تفعل بشأنه؟".

رد رؤوف: "لماذا لا تقل أنت يا دكتور؟ ألست أنت الدكتور؟".

تجاهله سليمان فقال محمد: "أريد خلعه"، وأشار بقبضته كما لو أنه ينتزع ضرسه بيده.

قال سليمان: "هناك حلول أخرى يمكننا أن....".

قاطعه محمد: "لا لا.. أريد خلعه من فضلك".

نهض سليمان ليحضر الأدوات اللازمة، تابع محمد الطبيب وهو يرص أدوات الخلع على اللوح الملحق بالكرسي، راقب محمد حقنة التخدير في يد سليمان فتمنى لو أن في إمكانه الغوص في الكرسي، اقترب سليمان بالحقنة من فمه وقد لمع السن تحت أضواء اللمبات النيون، كان سليمان يقترب منه ممسكا بالحقنة وعيناه مثبتتان عليه كوحش مفترس ثم قال: "إنها كبيرة الحجم ومخيفة، لكن سنها رفيع جدا ولا يؤلم"، ثم قام بنقر السن الدقيق بإصبعه فتراقص في الهواء.

ثم تابع: "افتح فمك الآن".

قال محمد وهو يمسك بيد الطبيب: "أين ستضربها يا دكتور؟".

نزع سليمان يده وقال: "لن يفيدك أن تعرف، أرجوك أن تهدأ وتساعدني من فضلك".

قال رؤوف: "تحمل يا محمد حتى ننتهي من هذا الأمر، وجع ساعة ولا كل ساعة".

فتح محمد فمه في عصبية وأغمض عينيه.

قال سليمان: "هذا جيد، لا تتحرك، وسننتهي بسرعة".

أحس محمد بوخزة بالقرب من ضرسه وشعر بشيء بارد يتسرب إلى أنسجته، هذا كل شيء، لم يكن الأمر بهذا السوء أبدا، شعر بشيء من الطمأنينة بينما تخرج الحقنة من فمه، بعد بضع دقائق أمسك سليمان بآلة تشبه الكماشة فقال محمد: "دكتور هل سأشعر بشيء؟".

هز سليمان رأسه دون أن يقول شيئا، بعد لحظات لم يصدق محمد نفسه وهو يرى الضرس بين قبضتي الكماشة، إن هذا الشاب جيد حقا، لم يشعر بأي شيء، وضع سليمان كرة من القطن مكان الجرح وطلب من محمد إغلاق فمه، نهض محمد عن الكرسي وهو يستمع إلى تعليمات ما بعد الخلع، شكر محمد الطبيب ثم اتجه هو وصديقه إلى الاستقبال للحساب، وفي غمرة الراحة نسي محمد أن يكرمش عشرة جنيهات في يد السكرتيرة.

خرج سليمان من غرفة الكشف وقد خلع البالطو، كان يرتدي سروالًا "جينز" غامقًا وقميصًا كاروهات وفي يده حقيبة من التي تباع على الموقف، فكر رؤوف أن كتابه الثمين داخل هذه الحقيبة

بالإضافة إلى شطيرة فلافل وزجاجة عطر تركيب، قال محمد محاولا الحديث والقطن في فمه: "هل لديك سيارة؟".

رد سليمان: "كنت أتساءل إن كان في إمكانكما أخذي إلى القاهرة؟".

قال رؤوف: "في الواقع سنقف عند الهايكستب"، وجذب محمد من ذراعه، ولكن سليمان تابع قائلا: "إذن سأذهب معكما، وأنزل عند بنزينة توتال".

9

نزل سليمان عند محطة البنزين فانطلق رؤوف ومحمد ليكملا طريقهما.

عبر سليمان الطريق السريع متجها إلى المحطة، دخل إلى السوبر ماركت لشراء باكيت بسكويت ثم ذهب إلى الكافيتريا لشراء كوب من الشاي، جلس على إحدى الطاولات وتناول البسكويت والشاي على أنغام الموسيقى المنبعثة من السماعات الخفية، لم يكن هناك الكثير من الناس كما في الأوقات العادية. فقط أسرة من أب وأم وطفلة ذات سبع سنوات ترتدي منظارا وشعرها مربوط بضفيرتين، نهض يتفقد البضائع المميزة التي تبيعها المحطة ثم اتجه إلى الحمام، غسل يديه على الحوض ثم أحكم إغلاق حزام سرواله، أمسك بحقيبته ونظر إلى الجمل المكتوبة على الباب، أخرج قلمه الحبر وكتب (مر من هنا الدكتور سليمان محروس)، بعد خروجه رأى على إحدى الطاولات امرأة ينطبق عليها لفظ ساحرة الجمال، إنه ذلك الجمال غير المريح للأعصاب، ذلك الذي يجعلك تشعر بالتحفز والعصبية عند الاقتراب أو النظر إليه، نظرت له بعينين مزينتين بأدوات تجميل لا يعرف حتى كيف ينطق اسمها. كانت نظراتها كقابس كهربائي موصل بقلبه مباشرة، شعر كما لو أنه تلقى صدمة من جهاز إنعاش، رفعت إلى فمها يدًا نحيلة ممسكة

بسيجارة. سحبت نفسا ونفثته باتجاهه وقد ضيقت عينيها كما لو أنها تتفحصه، كانت تلك اللحظة مجرد ثوان معدودة ولكنه شعر كأنها ساعات، لم يكن قد رأى أي فتاة في جمالها، ليس لأنها أجمل من رأى ولكن جمالها غريب ومختلف، شعر أن هناك هالة كهربائية تحيط بها، توقع سليمان أنها أجنبية، لم ينتبه إلى الكثير من التفاصيل من هذا اللقاء القصير، لم ينتبه إلى لون شعرها أو هيئة ثيابها. كل ما تذكره هي تلك السبحة التي تلفها على معصم يدها الممسكة بالسيجارة. ترى هل تخيل أنها تنظر إليه بينما كان يمر بجوارها خارجا من الكافيتريا وهي تضع ساقا فوق الأخرى؟ كم عمرها يا ترى؟ إنه ليس جيدًا في تحديد أعمار النساء، يظن أحيانا أن الفتاة في العشرينيات ليكتشف أنها مجرد مراهقة والعكس، ولكن هذه الفتاة بالذات بدت كما لو أنها تجاوزت حدود الزمان والمكان حتى انتهى بها الأمر في هذه المحطة التي تضيء مصابيحها النيون كمنارة لإرشاد السفن التائهة، كم كان يرغب في الحديث معها، لم تكن أعصابه لتتحمل سماع صوتها، للحظة توقف عن التفكير مندهشا للمرة الثانية وهو يتفحص تلك المرسيدس الحديثة الواقفة أمام الكافيتريا، كانت صفائحها سوداء لامعة تحت أضواء المحطة، كشافات أنيقة عجيبة مميزة للمرسيدس بنز، زجاج فاميه من جميع الجوانب، شعر بلعابه يسيل لرؤية هذه السيارة التي لم ير واحدة منها بهذا القرب من قبل، كانت تقف كملكة وسط باقي

السيارات متفاخرة بحسنها وقوتها وشراستها أيضا، من المحتمل أن يغير رأيه بشأن البي إم دابليو بعد أن رأى هذه التحفة الصناعية.

على الطريق السريع كان تردد مرور السيارات ضعيفًا، من حين لآخر يدوي صوت محرك لإحدى السيارات فيقطع صمت الطريق الصحراوي وهي تخترق ظلمته بكشافاتها، بدأت وتيرة العمل تقل تدريجيا في المحطة، راقب سليمان السيارات تأخذ دورها في تموين البنزين والسولار، تمنى أن تأتي سيارة أجرة لتمون كتلك التي عاب عليها هذا الصباح، واحدة من التي لا يمون سائقوها إلا ومعهم الركاب، بدأ كل شيء يستسلم لشباك الليل التي ألقت نسيجها على كل شيء، كل شيء ما عدا ذلك القمر الذي ثبت متحديا للظلام وحيدا في وسط السماء، قمر مصبوغ بلون من الحمرة القانية، لقد رأى هذا المنظر في الليلتين الماضيتين أيضا، شعر برهبة ممزوجة بشيء من الدهشة كما لو أن المشهد إشارة لحدوث شيء مروع، حوّل نظره عن ذلك النذير الغامض متمنيا أن تشرق الشمس بعد ساعات لتجمع هذه الشبكة بما فيها من أوجاع وإرهاق وهموم الأحياء، لولا هؤلاء الأوغاد الذين جاؤوا متأخرين للحق بآخر باص متجه إلى القاهرة، تمنى سليمان أن تخرج الفتاة فيتبادل معها بضع كلمات، إن هذا هو جل ما يطمح إليه مع فتاة كهذه، بعد لحظات فكر في الخروج من المحطة وانتظار أي سيارة لتقله إلى القاهرة، وبالفعل عبر الطريق السريع بعد أن انتظر عبور تلك الشاحنة التي انطلقت في سرعة تهز الأرض من تحتها، مرت من أمامه فشعر بها

تسحب معها تيارات من الهواء جعلت قميصه يرفرف في موجات، رفع عينيه مجددا ليشاهد ذلك القمر المكتمل ولكن هذه المرة لم يبد كضوء الإنذار الأحمر في حالات الحروب والكوارث والذي يكون مصحوبا عادة بسرينة إنذار نائحة، بدا القمر هذه المرة لسليمان مصبوغا بالدم وكأنه يبارك سفك دماء قد سالت أو على وشك. لم يفكر في الإشارة لسائق الشاحنة، لسبب ما لا يشعر بالارتياح لسائقي الشاحنات، غرق في الظلام بعد أن ابتعد عن دائرة ضوء المحطة، أطل على المحطة من الجهة الأخرى من الطريق، لافتات مضيئة، مصابيح نيون، سيارات، بشر وحياة، أحس حينها بشعور المهاجرين غير الشرعيين حيث يتعلق الفرد بطوق النجاة غارقا وحيدا في المياه يقاوم أمواج البحر المتوسط الباردة التي تثيرها الرياح العاتية، يحاول أن يفتح عينيه متجاهلا ألم المياه المالحة، يبصق ما دخل في فمه منها، مثيرة الدوار والغثيان، لا يحاول تقدير المسافة من قدميه إلى القاع، يشاهد بعينين حمراوتين متألمتين أضواء الشواطىء الإيطالية حيث النجاة والحياة السعيدة.

لقد سمع كثيرا عن هؤلاء الشباب الذين يفضلون الموت غرقا عن إيجاد أي عمل في بلادهم، ولكنه كان يفهم مالم يفهمه الآخرون الذين كانوا يسخرون من هؤلاء الشباب وهم يتابعون البرامج الحوارية بينما "يقزقزون" اللب ويبصقون بالقشر على الأرض، ليس الأمر بالنسبة لهؤلاء الشباب مجرد بحث عن حياة أفضل، ليس لمجرد أنه لم يجد عملا في بلاده، إن عقدة الفشل والاضطهاد هو ما

يلاحقهم، كل من حوله من أهل وأصدقاء يسخرون منه ويتهمونه بالفشل والعوالة، يمنون عليه بعلبة سجائر أو بقميص رخيص أو بكوب شاي على القهوة، يقارنونه بأقرانه الذين سافروا إلى ليبيا أو الخليج (كما لو أن من يفعل ذلك يسافر ليكون رجل أعمال)، يسخرون من أي محاولة منه للعمل ويسألون في سخرية (بتاخد كام؟) وهم يعلمون أن كل ما يأخذه هذا الشاب المبتدئ مجرد ملاليم.

وبمجرد حصوله على هذه الملاليم تنقطع علبة السجائر التي ينتزع ثمنها من والده انتزاعا، الحذاء الرخيص الذي يشتريه له أخوه الأكبر، ثم تأتي الأم لتطلب منه المشاركة في مصروف البيت، إنه يعمل الآن ويجب أن يدفع كما دفعوا له من قبل حتى حصل على (الدبلون)، يفشل في الحب والدعم المعنوي، تُواجه كل أفكاره بالسخرية والتحطيم، إن هؤلاء الشباب لا يهربون من الفقر فحسب، إنهم يهربون من دائرة الجحيم التي يوقدها كل من حوله من أهل وأصدقاء وأقارب، إن أعظم ما يصيب المرء يكون غالبا من أولئك الذين أحبهم ووثق بهم يوما ما.

سأل سليمان نفسه هل من الممكن أن يفعل مثلهم يوما؟ كان ليفضل بأن يكون له أهل غير مسؤولين لتكتمل صورة الشاب المضطهد ولكن والديه يحبانه ولم يقصرا يوما في تلبية مطالبه بقدر الإمكان، وإن كان يستخدم ضدهم بعض العبارات التي يتعلمها من قراءاته، عبارات مثل عنف أسري، رجعية، فرض رأي وتسلط إلى

آخره من المصطلحات التي يدفعها في وجه والديه ليشعرهما بالتقصير والتسبب في كل ما يمر به من مشاكل، لن يحتمل ما قد يواجهه من متاعب لتحقيق آماله وطموحاته هنا على أي حال، النجاح في الخارج أسهل وأسرع.، لم يكن الدافع إلى نجاحه الارتقاء بنفسه ومستقبله وتشريف والديه بل لإثارة الحسد والغيرة في نفوس من يحيطون به، إذا وقع يوما في موقف اختيار فسيلقي بنفسه في البحر في سبيل الخروج من هذا البلد، عندها سيبدأ حياة جديدة، لن يعرف أحد أبدا أنه في وقت ما كان يزحف على رمال الشاطىء الإيطالي خارجا من البحر، لن يعرف أحد أنه خلع سترة نجاته وألقاها أرضا ثم خلع ثيابه تماما، لن يعرف أحد أن الطبيب الذي تعب أهله في تعليمه قد وقف عاريا يرتجف وسط تيارات الهواء الباردة، لن يعرف أحد أنه وقف يعصر سرواله (ربما السروال نفسه الذي يرتديه الآن) وباقي ملابسه ثم يطمئن على الكيس البلاستيكي الذي لفه بالسلوتيب وبداخله جواز سفره، بعض النقود بالإضافة لعدة نوكيا، في أقرب فرصة سيتصل بوالده ويخبره بأنه قد وصل بالسلامة وأنه يخرج الآن من المطار، ركل حصاة كانت أمام قدمه وراقبها تتدحرج على الأسفلت، التفت يساره ناظرا إلى وهج كشافات إتش دي قوية، راقب السيارة المتجهة إلى القاهرة، بدا له أن سرعة هذه السيارة تقل تدريجيا وقد مال سائقها باتجاهه، اقتربت منه السيارة حتى صار في إمكانه سماع صوت هدير المحرك، أوقف السائق السيارة بمحاذاة سليمان، كانت سيارة مرسيدس وإذا

لم يكن المكان مظلمًا لرأى جسمها الأسود ونوافذها الغامقة، راهن بأنها نفس السيارة التي رآها عند الكافيتريا. ظلت العربة واقفة بجواره للحظات قبل أن ينزل شباك النافذة، لم تكن معالم السيارة واضحة من الداخل ولكنه رأى على ضوء القمر ظلا لملامح السائق. أضيئت المركبة بالكامل بالمصابيح الداخلية، فتح سليمان فمه ورفع حاجبيه حين رأى السائق!

10

بعد أن أوصل رؤوف محمدًا إلى بيته، كانت هناء نائمة فوق الأريكة وعلى التلفاز قناة توب موفيز، أغلق باب الشقة ووضع مفاتيحه على طاولة السفرة ثم وقف يشاهد الفيلم المعروض على الشاشة وهو يخلع قميصه ويضعه على كرسي السفرة، غسل وجهه وذراعيه في الحمام ثم عاد ليجد هناء لا تزال نائمة، ظل صامتا للحظة ثم صفق بكفيه صائحا: (مااااااااء)، انتفضت هناء عن الأريكة صارخة وجذبت الغطاء حتى عينيها المتسعتين، أغمضت عينيها وتأوهت من تأثير الفزع حين رأت محمد يضحك ممسكا ببطنه، أمسكت بالريموت كنترول وألقته عليه قائلة: "تبا لك"، ثم عادت لتستلقي على الأريكة ممسكة برأسها، احتضنها محمد وهو يزمجر: (هاو هاو هو. مااااااء). ضربته على كتفه قائلة متباكية: "لن أتحدث إليك مجددا، كل يوم تخيفني هكذا".

قال وهو يمسح على شعرها: "حبيبي.. حبيبي، لم أتوقع أنك لم تسمعي صوت فتح وإغلاق الباب".

نهضت تمط ذراعيها ثم قوست ظهرها وهي تتثاءب ثم لفت ذراعيها حول رقبته، كانت ترتدي ترايننج سوت لبنية "ليكرا"، قال لها: "كيف حال مزتي؟"، قبلته على شفتيه وقالت: "بخير، العشاء في الفرن يا صايع، هل ذهبت إلى الطبيب؟".

أخذ محمد الريموت عن الأرض وركب البطاريتين اللتين وقعتا منه ثم بحث عن قناة إخبارية، أخبرها كيف سار يومه حتى ذهب إلى الطبيب، كان يشعر أنه أخف بخمسة كيلو جرامات، ربما عشرة، كانت فكرة الذهاب إلى طبيب أسنان حملا ثقيلا، اتجه إلى الحمام ليستحم وقام بفحص المنطقة التي اعتاد ضرسه التواجد فيها قبل أن يقرر صاحب الموقع إيقاف المشروع وتسريح العمال، جذب شفته السفلى بإصبعه لينظر إلى اللثة الحمراء التي توقفت عن النزيف، إنه يشعر بألم خفيف من أثر الخلع فحسب، أخيرا سيتمكن من الاستمتاع بعشائه، دخلت هناء لتنام على السرير فقام محمد برص أطباق الطعام على السفرة متابعا سكاي نيوز، سمعها تقول من غرفة النوم: "صديقتي سوزان كانت هنا اليوم".

خفض من صوت التلفاز وهو يقول: "آه.. جيد، متى ستتزوج؟".

- "في الصيف القادم، سأخرج معها غدا لأساعدها في شراء لوازم الزواج".

تناول بشوكته قطعة من شاورما الدجاج وهو يقول: "تمام. أين ستذهبون؟"، ردت وهي تتثاءب: "وسط البلد وربما العتبة أيضا".

أمسك بالريموت وبحث عن قناة أفلام عربي، مر عليها سريعا بعد أن وجد على كل قناة إعلانا عن أبليكس، هذه القنوات ليست قنوات أفلام بل قنوات إعلانات ذات فواصل فيلمية، عاد إلى سكاي

نيوز مرة أخرى وتابع تناول العشاء وهو يضغط على أسنانه دون الشعور بأي ألم.

* * *

لم يكن من عادة هناء النوم في هذا الوقت، إنها تنتظر عودة زوجها في الغالب ليتناولا العشاء ويشاهدا فيلما سويا، لقد تعرضت لعبء نفسي بسبب زيارة سوزان حتى أنها هربت إلى النوم بمجرد خروجها، شدت الغطاء على جسمها ودفنت رأسها في الوسادة وهي تشعر بالذنب لاضطرارها إلى الكذب بشأن وجهتها يوم غد، استعادت مشهد دخول سوزان إلى شقتها عصرا، كان أول ما استرعى انتباهها هو فقدان صديقتها للنفرين الذين كانت تحملهما معها.

اتسعت عينا هناء وهي تحتضن جسدها النحيف قائلة: "(يا بنت الإيه)، لقد فقدت ثلثي وزنك!".

جلستا تشربان الشاي وتتبادلان الأحاديث حين سألتها هناء: "كيف فقدت وزنك بهذه السرعة؟ لقد رأيتك من ثلاثة أشهر وكنت كسيد بيك قشطة!"

رفعت سوزان عقيرتها بالضحك قائلة: "(ده عز يا معضمة)".

ضحكت هناء وقالت: "لأ صحيح، كيف فعلتيها؟".

صمتت سوزان وهي تدور بإصبعها حول قمة الكوب الزجاجي، رفعت عينيها إلى هناء قائلة: "حسنا.. هذا هو الأمر الذي أردت الحديث معك بشأنه".

عاد قلب هناء ينقبض مجددا وإن حافظت على مظهر ابتسامتها ثم قالت: "خير؟".

وضعت سوزان يدها على ساق هناء وهي تضع الكأس الفارغ على طاولة الأنتريه ثم قالت: "اسمعيني.. ولكن دعيني أقول ما لدي إلى النهاية".

لم ترد هناء وضربات قلبها تزيد متوقعة ما سيأتي، قالت سوزان: "لقد فقدت وزني بمساعدة معالج روحاني".

دفعت هناء يدها عن ساقها وقالت وقد احمر وجهها: "لن أذهب إلى دجالين، انسي الأمر".

اتسعت عينا سوزان وهي تقول: "يا بنتي اسمعي، ليس هناك دجال في الأمر، إنه معالج روحاني، مثقف جدا، ولن يأخذ شيئا إلا بعد الشفاء".

نظرت إليها هناء بعينين حادتين وهي تجز على أسنانها.

تابعت سوزان: "سنذهب غدا، وإذا لم يعجبك الأمر سنخرج في الحال، تمام؟".

❁ ❁ ❁

11

استيقظ محمد في الصباح شاعرا بتحسن كبير، شعر ببعض الندم على فقدان الضرس وترك مكانه فارغا، تذكر ذات مرة عندما كان مراهقا يعمل في ورشة نجارة، يومها سمع الأسطى هشام وهو ينفعل على أحد العمال وقد رفع سلاح المنشار أمامه، لم يتذكر تفاصيل الكلمات التي قالها الأسطى موبخا العامل الذي كان وجهه كليمونة معصورة، لكنه تذكر بوضوح قوله (الصباع اللي يوجعني أقطعه)، قالها وهو يحرك المنشار للأمام والخلف كما لو أنه ينشر شيئا، تذكر محمد أيضا شاربي هشام وهما يتقافزان لأعلى وأسفل بينما يتحدث بسرعة وعنف، ضحك وهو يستعيد مشهد الشاربين الذين أخذا يرفرفان كجناحي غراب، خرج بعد الإفطار إلى المعهد الأزهري راكبا الفزبة وقد ثبت صندوق العدة خلفه، اتصل به رؤوف ليطمئن عليه فطمأنه محمد أنه بخير حال، عاد في المساء فلم يجد هناء أمام التلفاز تتابع مسلسلا كالعادة، كانت لديها عادة في متابعة المسلسل أكثر من مرة، وحين يعود من عمله تجلس وتقص عليه أحداث المسلسل بينما يتناول عشاءه، سمع صوت الماء المتدفق من الدش في الحمام، جلس محاولا الاسترخاء فاردا ذراعيه على ظهر الأريكة، بعد لحظات خرجت هناء من الحمام وسط سحابة من البخار وقد وضعت روب الاستحمام على جسدها دون

أن تربطه بإحكام، كان كتفاها عاريين وقد ظهر الفرق ما بين ثدييها.

قالت وهي تجفف شعرها بمنشفة بيضاء: "أرى أنك في تحسن، كان عليك ألا تترك الأمر ليصل إلى ذلك".

رد محمد: "هيا يا فتاة أحضري العشاء"، ثم صاح من حلقه قائلا: "فين الأاااااااكل؟".

ضحكت هناء وجلست بجواره على الأريكة قائلة: "حاضر يا مفجوع، لن ترتاح حتى يظهر لك كرش ككرش رؤوف"، ضحك ومال برأسه للخلف على الأريكة، وضعت المنشفة بجوارها وكان في يدها علبة مرطب للجسم، فتحت العلبه وأخذت كمية بأصابعها، مسحت الكريم بين يديها ومالت لتدلك به ساقيها، سقط الروب من على كتفيها وتجمع عند وسطها كاشفا ثدييها المتماسكين، قالت وهي تمسح ذراعيها بالمرطب: "متى سنذهب لإحضار الغسالة؟ سينتهي العرض وسيكون عليك دفع الفرق دون اعتراض".

استلقى محمد على الأريكة ساندا رأسه على فخذها ثم قال: "تحت أمرك يا جميل، بمجرد أن أستلم أموال الجمعية سنذهب لشراء الغسالة "التوماتيكي"".

غطت وجهه بشعرها المبلل وهي تقبَله، شعر بطعم شفتيها وقد اكتسبتا طعم حلوى الكرز التي تحب تناولها، لف رقبتها بذراعيه ونهض ليصف لها كم هو سعيد ومحظوظ لكونه يحظى بمثل تلك الزوجة الجميلة اللذيذة.

* * *

استلقيا على الأريكة وهي تضع رأسها على صدره، قال لها: "كيف كان يومك مع سوزان؟ هل وجدت ما تبحث عنه؟".

- "هممم نعم، ستعود للشراء فيما بعد".

أغمضت عينيها وهي تسمع دقات قلبه في أذنيها، تحولت دقات القلب إلى صوت طرقات سوزان على باب السيد أبو المعاطي ظهر اليوم.

فتح لهما رجل أربعيني يرتدي بذلة رسمية ويمسك في يده بمسبحة من الكهرمان، كان له وجه أبيض ملتحي بشوش، رحب بهما وهو يضيق عينيه المكحلتين، دخلت مع سوزان إلى مكتب مكيف عطر الرائحة، دعاهما للجلوس على المقعدين المواجهين للمكتب، فتح باب ثلاجة صغيرة بجانب المكتب قائلا: "ها.. كل شيء موجود، ماذا تفضلون؟".

نظرت هناء إلى رف الثلاجة حيث علب المشروبات الغازية والعصائر، قالت سوزان مبتسمة: "اثنين بيبسي يا سيد أبو المعاطي".

رفعت هناء كفها قائلة: "شكرا، لا أريد".

نظر لها أبو المعاطي بحنان الأب قائلًا: "عيب يا بنتي، هذا واجب الضيافة".

فتحت لها سوزان علبة البيبسي لتطمئنها أنها مغلفة جيدا، ضحك أبو المعاطي ضحكة قصيرة وهو يجلس خلف مكتبه ولكن ضحكته زالت ما إن لمس جسمه الكرسي، قطب جبينه متأوهًا فقالت سوزان: "خير، ألف سلامة".

تقلص وجهه وهو يقول: "البواسير، أحيانا يصير الأمر مؤلما"، ثم عاد إلى ضحكته القصيرة وهو يقول: "باب النجار مخلع".

ضحكت سوزان ثم وضعت علبتها على طاولة المكتب أمامها وهي تقول: "هذه صديقتي التي أخبرتك عنها، حكيت لها كيف ساعدتني في التخلص من الوزن ورأيت أن ترى ما يمكن فعله لحل مشكلتها".

نظر أبو المعاطي إلى هناء التي جلست ناظرة إلى الأرض وهو يقول مبتسما: "لماذا أنت قلقة يا سيدة هناء؟ كما ترين.. لست بمشعوذ أو دجال، هل سبق وأن رأيتم مشعوذا يجلس على مكتب؟ههههههه"، قالها وهو يهز يده فضربت مسبحته سطح المكتب عدة مرات.

شاركته سوزان الضحك فتابع: "حسنا.. سأكون واضحًا معك يا بنتي، أعترف أنني أستعين بالجن في العلاج، ولكن الكذب خيبة، لن أدعي أبدًا أنني أقوم بعلاج أحد كما يدعي الدجالون".

نظرت له هناء قائلة: "ماذا إذن؟".

نشر كفيه أمامه وهو يمط شفتيه ثم قال: "أنا مجرد واسطة خير، أقوم بعرضك على الأطباء وهم يقومون بعمل اللازم لعلاجك، ولا نأخذ منك مليمًا إلا بعد العلاج".

ردت هناء: "هل تستعين بالجن أم بالأطباء؟".

رفع إصبعين من يده الممسكة بالسبحة ليقول مبتسمًا: "الاثنين".

أنزل يده مجددا على المكتب لتضرب المسبحة بالسطح مرة أخرى، تابع قائلًا: "سأشرح لكِ كل شيء، في الواقع لدي فريق أطباء كامل من الجن".

نظرت له هناء لترى إن كانت ملامحه جادة أم ماذا، تابع أبو المعاطي وهو يضم أصابعه كمن يلقي درسا: "يا بنتي.. ألم تسمعي الآية الكريمة.. بسم الله الرحمن الرحيم (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا)؟".

هزت رأسها قائلة: "تمام".

عاد ليضرب سطح المكتب بمسبحته وهو يقول: "لقد استمعت الجن إلى القرآن، وليس هذا فحسب، لقد تعجبوا منه وتدبروا قوله، أليست الجن مخلوقات عاقلة ومكلفة مثلنا؟".

قالت سوزان: "طبعا".

قال: "كل ما في الأمر أنني ورثت خدمًا عن أهلي وأجدادي لديهم علومًا في الطب، منهم من تعلم في هارفارد ومنهم من تعلم في ميتشيجين ومنهم تعلم في أوكسفورد".

ردت هناء وهي تقاوم ضحكتها: "أتعني أنهم ذهبوا إلى المحاضرات والسكاشن وجلسوا يذاكرون للامتحانات؟".

"بالرغم من نبرتك الساخرة إلا أن هذا ما حدث بالضبط، ليس هذا فحسب، لقد انتظموا في أكبر كليات الطب في العالم منذ

إنشائها، إنهم أكثر علما وكفاءة من البشر، لا يحتاجون إلى أشعة أو تحاليل أو مشارط".

قالت هناء: "حسنا، أيمكن أن أطلب طبيبا خريج جامعة طنطا؟"، ثم ضحكت فقالت سوزان: "علامَ تضحكين؟".

اتسعت عينا هناء وهي تقول: "ألا تسمعين ما يقول؟".

ظل أبو المعاطي جالسا مشبكا كفيه على المكتب ثم قال: "إذا كنت نصابا كنت سأطلب منك دفع دم قلبك كما يفعل الآخرون، إنني أعرض عليك خدماتي مجانا حتى تشفي وبعدها ستدفعين لي 5000 جنيه عمولتي في الموضوع".

ردت هناء: "يعني أنت تأخذ 5000 جنيه عمولتك كـ (واسطة خير)، وماذا عن الجن أقصد الدكاترة؟ كيف يأخذون أتعابهم؟".

قطب أبو المعاطي جبينه وهو يقول: "ها؟ قلت إنني قد ورثتهم عن عائلتي".

بعد لحظات كانت هناء ممددة على سرير طبي في غرفة جانبية بمفردها، أخبرها أبو المعاطي بأن تسترخي وتترك الأطباء يقومون بالكشف، اتسعت عينا هناء وهي تشعر بأيدٍ باردة تتحرك على بطنها، فكرت في النهوض والهرب عن السرير ولكن الخوف شلها عن الحركة وهي تشعر بالأيدي تتحرك داخل أحشائها.

لم تتحرك من مكانها حتى جاءت سوزان وساعدتها على النهوض، هرعت هناء إلى الحمام لتفرغ مثانتها.

عادت للجلوس أمام المكتب مع سوزان ليخبرهما أبو المعاطي بنتيجة الكشف: "أبشرك يا بنتي، يمكنك الإنجاب بإذن الله، ستخضعين لعملية على يد الدكاترة".

* * *

غفا محمد على الأريكة في تلك الليلة مع هناء ليرى أنه يدخل إلى المستوصف، كان مختلفًا من الداخل عما رآه مؤخرا، لم يكن هناك مكتب أو مقاعد انتظار في صالة الاستقبال التي امتلأت بضباب يشبه سحابة البخار التي خرجت مع هناء بعد انتهائها من الاستحمام، لم تكن هناك شاشة تلفاز أو مراوح أو تكييف، لكنه رأى سلمى، لم تكن ترتدي يونيفورم المستوصف. كانت ترتدي بالطو تمريض ولم تكن تلف شعرها بالطرحة= بل جمعته تحت قبعة تمريض ثبتتها فوق رأسها، كان هناك دولاب معدني كبير مليء بالأبواب الصغيرة، فتحت سلمى أحد الأبواب لتسحب حاملا استلقى فوقه جسد عاري، اقترب محمد من سلمى دون أن يحرك قدميه كما لو أنه يطفو فوق الأرض، نظر إلى الجسد الممدد على الحامل والذي تبين أنه كان داخل ثلاجة لحفظ الموتى، رأى على الحامل جسد الدكتور سليمان طبيب الأسنان، بدا ميتا غير أن عينيه كانتا مفتوحتين تحدقان لسقف الغرفة، رفع محمد رأسه فوجد

سلمى تنظر إليه بعينين شاردتين غائبتين عن الوعي، لم يبد عليها أنها تعي ما تفعل، بدت كما لو أن شخصا ما يحركها ويقودها، فتحت بابا آخر وسحبت الحامل الذي أطلق صوتا معدنيا أثناء خروجه من الفتحة المربعة، حين رأى محمد الجسد الذي خرج من الداخل فتح فمه ليصرخ ولكن صوتا لم يخرج من شفتيه بينما يحدق إلى الجسد الذي تمدد على حامل الثلاجة، كانت جثته وكان مفتوح العينين أيضا، رفعت سلمى يدها مشيرة بإصبعها إلى الوراء، التفت إلى الخلف فرأى مكتب الاستقبال وكان يجلس خلفه ظل أسود غير واضح الملامح، كان ينظر إلى محمد بعينين حمراوتين غاضبتين، قال ذلك الكيان: "دورك يا أستاذ"، ولكنه سمع تلك الجملة بصوت سلمى نافذ الصبر من بين شفتي الكائن (أو أيا كان ما يستخدمه للكلام) الجالس خلف المكتب، رأى محمد بابًا يُفتح فوجد أنه باب غرفة الأسنان، كانت هناك اللافتة التي كُتب عليها (عيادة الأسنان)، ولكن بدلًا من ذلك كُتب عليها جملة لم يفهمها (dominus infernum).

استيقظ محمد فزعًا من نومه فوجد أنه لا يزال على الأريكة بجوار هناء، كان الروب لا يزال حول وسط هناء بينما كان هو لا يرتدي سوى البوكسر. أغمض عينيه شاعرا بعرق بارد يغمر جبهته، التقط أنفاسه مقاوما شعوره بالاختناق ثم ابتلع ريقه، وضع يده محاولا تخفيف الألم الذي تجدد في مكان ضرسه المفقود، رفع يده

متأوهًا بعد أن شعر بالألم يزداد كما لو أنه لمس بيده جمرة من النار، نهض واتجه إلى الحمام، نظر إلى اللثة في المرآة فوجدها منتفخة ومحمرة بشكل مخيف.

(تبا، هل سأصاب بالسرطان؟)

جلس على المرحاض وحاول أن يسند بيده على خده ولكنه سندها على رأسه، حاول تذكر تفاصيل الكابوس الذي راوده منذ قليل، لقد تبخر وتلاشى من ذاكرته كما يتصاعد البخار من كوب شاي، كل ما تذكره هو سلمى تدعوه في ضجر للدخول إلى حجرة الكشف كي تعود إلى بيتها باكرًا، تناول قرصين من المسكن ثم عاد إلى زوجته وأيقظها لتنام على السرير.

12

انتهى محمد من عمله في اليوم التالي ثم اتجه إلى المستوصف لإعادة الكشف. ركن الفزبة أمام المستوصف وأمنها ثم صعد إلى الطابق الثاني، كان الألم قد قل بشكل ما نتيجة تعرضه للهواء البارد أثناء قيادته إلى المستوصف، شاهد من خلف الباب الزجاجي سلمى وهي تراقب شاشة الكمبيوتر في شرود، لابد بأنها تلعب السوليتير، الغريب أنها كانت تضع ماسك طبي على وجهها وأنفها، فتح الباب الزجاجي وبمجرد أن دخل سعل ووضع يده على أنفه، كان المكان مشبعًا برائحة.. ماذا يقول؟ نتنة؟ عفنة؟ ثم استقر على وصفها بأنها نتانة متعفنة، شعر كما لو أنه يرتدي قناع غاز بداخله فأر ميت، اقترب من سلمى بعينين متسائلتين فشم رائحة لمعطر جو رشته حولها في محاولة يائسة لإخفاء الرائحة، كان الأمر أشبه بقط ميت وسط حديقة من الزهور، قطب جبينه وهو يسألها عن الطبيب، نظر إليها بعينين متسائلتين على أمل أن تخبره بأمر هذه الرائحة، اكتفت بالإشارة له بالجلوس دون أن تفتح فمها ربما خوفا من دخول الرائحة إليه، جلس ولم يكن معه في الانتظار سوى ثلاثة مرضى للكشف الباطني، كان يعي أن حاسة الشم لدى النساء تتفوق على الرجال. أحس بمعاناة سلمى التي حاولت التركيز في شاشة الكمبيوتر، فُتح باب عيادة الأسنان.. (دورك يا أستاذ).

خرجت امرأة ذات عباءة سوداء ومعها طفلًا يصيح، ثبتت المرأة منديلا على أنفها مقطبة جبينها، أشارت له سلمى بالدخول، شعر محمد بقوة الرائحة تزيد مع اقترابه من العيادة، كان الدكتور سليمان يجلس عاقدا كفيه خلف مكتبه. لاحظ محمد على الفور أن شيئا ما مختلف بشأن هذا الشاب، لم يكن كتاب اللغة الألمانية أمامه كما في المرة السابقة، رفع عينيه إلى محمد الذي ارتاب من تلك العينين المليئتين بالشر، أشار لمحمد بالدخول بإصبعه السبابة كأنه محقق يدعو المتهم للجلوس والاعتراف وعدم تضييع الوقت. كان على سطح المكتب جهاز تابلت بالإضافة إلى مفاتيح يبدو من منظرها أنها مفاتيح سيارة، متى حصل متسول الطريق هذا على سيارة؟ هكذا فكر محمد، جلس على الكرسي المواجه للطبيب وكانت الرائحة قد بلغت حدا لا يطاق، شعر محمد وكأنه يجلس في بلاعة صرف صحي مع هذا الشاب، شرح مشكلته للطبيب الذي كان يهز رأسه متابعا وقد ثبت عيني المحقق على محمد منتظرا منه إنهاء اعترافه.

شرح سليمان أن ما يمر به هو أمر وارد لمن يقوم بعملية الخلع، إن كل ما يحتاج إليه هو بعض العلاج الدوائي ثم أمسك بقلم أزرق جاف وخط بعض الأدوية على روشتة صفراء اللون، قام سليمان لتجهيز كرسي الفحص كي يكشف عليه، استبعد محمد أن يكون سليمان هو مصدر الرائحة حتى عندما شمها منه أثناء مروره من أمامه متجها إلى الكرسي، لا يمكن أن يكون لأحد رائحة كهذه حتى

ولو أراد، لا يمكن لأحد أن تكون له رائحة كهذه إلا إذا.... إلا إذا كان ميتًا!

سمع محمد طنينا مميزا يعرفه جيدا، بدأ الطنين بهمهمة بسيطة ثم تزايدت شدته تدريجيا، شعر بحكة في يده وهو يلتفت إلى مصدر الطنين ليرى المفاتيح، بدا وكأنه لم يكن على المكتب أي شيء آخر غيرها، لم ير حتى جهاز التابلت، كان كالمنوم فلم يستطع رفع عينيه عنها، مد يده إلى المفاتيح لتختفي في طرفة عين بداخل جيبه، نظر إلى الطبيب فاطمأن حين رآه وقد أدار ظهره إليه، أمسك وصفة الدواء ونهض عن كرسيه وقال: "أتعلم.. لدي موعد مهم أنا في عجلة من أمري، سأتناول الدواء وأعود إذا لم يسر الأمر كما ينبغي".

لم يكن قادرا على البقاء في هذا التابوت أكثر من ذلك، رمقه سليمان بارتياب ولم يقل شيئا، تمنى محمد ألا يضعه هذا التصرف في دائرة الشك.

كان العلاج غالي الثمن ولكنه فعال بحق، شعر محمد بالراحة مرة أخرى ونام جيدًا، نام وقد نسي تماما بأمر المفاتيح التي باتت في جيبه، لم يتذكر أمرها إلا في الصباح، أخرجها من جيبه وأخذ يتفحصها في الحمام، كانت علامة مرسيدس منحوتة على المفاتيح، رأى في الحلقة جهازا به الكثير من الأزرار، بلا شك جهاز الإغلاق المركزي، لم يكن هذا الجهاز كأي جهاز تحكم رآه من قبل، كان مضلعا، كبير الحجم نسبيا، وقد توسطت الأزرار شاشة صغيرة، لم يسأل نفسه عن غرض أخذه للمفاتيح، فقد توقف عن التفكير في إجابة لهذا السؤال منذ زمن بعيد، ذلك السؤال الذي يراوده كلما

أخذ شيئا لا يخصه، إنه لا يذكر أنه رأى أي سيارات مرسيدس في محيط المستوصف، لم تكن بالشيء الذي يمكن إغفاله، شك أن تكون هذه السيارة ملكا للطبيب (بالنظر إلى نوعها)، وإذا كانت له فلماذا لم يركنها أمام المستوصف حيث ركن رؤوف سيارته، لم يكن هذا المتعالي ليفوت فرصة التفاخر بها أمام الجميع. استنتج محمد أن ذلك الشاب قد سرق السيارة بطريقة ما وقام بإخفائها، ولكن إذا كان قد سرقها فلماذا لم يخف المفاتيح دليل جريمته، من الواضح أن الكثير من الشهود قد رأوه وهو يتلاعب بها، بالتأكيد وقف في شموخ يجيب أسئلتهم عن سيارته الجديدة، بالطبع قال للجميع إنه يركنها في جراج آمن كي لا يعبث بها الحاسدون.

13

في اليوم التالي قاد محمد الفزبة متجها إلى المستوصف وفي ذهنه فكرة واحدة (إذا سرقت فاسرق جملًا)، فقط إذا حصل على هذه السيارة فسيجلب لهناء ما هو أكثر من مجرد غسالة، ركن الفزبة في أحد الجراجات وانطلق بحثا عنها. كان يمشي وهو يضغط على زر الإغلاق المركزي، ذهب إلى كل جراج في المنطقة، تظاهر بأنه يتحدث في هاتفه المحمول بينما يضغط بإصبعه على الزر، لقد قضى معظم اليوم بحثا عن السيارة حتى فقد الأمل في إيجادها.

كان يأخذ المفاتيح إلى كل مكان يذهب إليه، اعتاد على هذا حتى أصبح يفعل ذلك لا إراديا، يدندن الأغاني وهو يسير ضاغطا الزر مع رتم الأغنية، وجد نفسه ذات يوم يتمشى في التحرير وهو يدندن تي تي تريرين مانا مانا ولاشعوريا يضغط الزر في كل مرة يقول فيها مانا مانا، كان يضغط على الزر حتى عندما ذهب مع زوجته إلى سينما راديو بوسط البلد، ضغط الزر في جراج مول طلعت حرب بعد أن شاهدا الفيلم.

فكر محمد بالذهاب إلى رؤوف ولكنه انتظر يوم مباراة الزمالك والإنتاج الحربي، اتصل برؤوف يومها قائلا: "روفااا.. أين تختفي هذه الأيام؟".

قال رؤوف الذي كان صوته ناعسًا: "تعال يا ولد لمشاهدة الماتش معي اليوم، تعال وتعلم كيف يكون لعب الكرة".

رد محمد: "نعم.. كنت على وشك إخبارك بقدومي إليك اليوم، هل تريد أن أحضر لك ساندويتش كفتة؟".

قال رؤوف: "ربما لو أحضرت معك قرصين فيجا فسأكون سعيدًا".

ضحك محمد قائلا: "وهل تملك ما تستخدم له الفيجا؟ أعتقد بأنه دفن داخل كرشك، ربما تحتاج إلى ملقاط للبحث عنه يا صديقي، هذا ما تحتاج إليه حقا".

ضحكا معا وقال رؤوف: "لقد صار لسانك أطول من بقية أعضائك، سأنتظرك سلام".

ضحك محمد وقال: "سلام"، ثم أغلق المكالمة.

كان رؤوف يعمل في صيانة الهواتف المحمولة، أراد محمد أن يسأله بشأن ذلك الجهاز الملحق بالمفاتيح، ظل يتابع المباراة في شرود بينما يتحمس رؤوف مع الهجمات ثم يضرب فخذه بيده عند ضياعها، فكر محمد في إعادة المفاتيح التي صارت ثقيلة ومقلقة كما لو أنه يحمل في جيبه فك الحمار الذي قتل به قابيل هابيلًا، ربما يذهب مدعيًا عودته للاطمئنان على حالة الضرس، سيرميها في مكان ما، لكن.. ماذا إذا كان الطبيب قد ربط وجوده المرة السابقة مع اختفاء المفاتيح؟ خصوصا بعد انصرافه المفاجىء، لن يتمكن من الإنكار حينها، يكفي نظرة واحدة من تلك العينين اللتين لا تطرفان، يكفي بأن يقرب رأسه من وجه محمد عاقدا كفيه على المكتب،

سيقول له: (ها.. ألن تخبرني أين مفاتيحي؟ إنها ليست أي سيارة، لا داعي لأن أخبرك كم عليك أن تكد في حياتك لكي تجمع المال الكافي لشراء أحد إطاراتها، لن أقول ذلك حتى لا تتهمني مشاعرك الحساسة بالعجرفة والتعالي)، لم يعد في الإمكان التراجع الآن.

بعد انتهاء المباراة جلس محمد ورؤوف في البلكونة يشربان الشاي ويتناولان البيتي فور الذي قدمته لهما ميرنا، إنه المكان الوحيد في المنزل المسموح لرؤوف بالتدخين فيه، أخرج محمد المفاتيح من جيبه، قذفها في الهواء والتقطها بيده، التفت إليه رؤوف وهو ينفخ دخان المارلبورو، أمسك محمد بأحد المفاتيح تاركا المفتاح الاحتياطي والجهاز الغامض يتدليان لأسفل.

قال رؤوف: "ما هذا؟ مفاتيح مرسيدس؟ ماذا تفعل معك هذه المفاتيح".

ناوله محمد المفاتيح قائلا: "لقد وجدتها على الأرض، أردت الذهاب بها إلى الشرطة ولكنني شعرت بالفضول لمعرفة ذلك الجهاز المرفق أولًا"، ثم أشار إلى الجهاز بإصبعه كما لو أنه يشكو إلى طبيبه مشيرا إلى عدوى جلدية أصابت مرفقه لا يعرف أي شيء عنها.

ثم تابع: "يبدو لي كجهاز إغلاق مركزي، ولكن تلك الشاشة الغريبة لا أدري ما هيِ".

سحب رؤوف نفسًا من السيجارة ونفثه لأعلى، سعل وهو يعبث بالأزرار ممسكا السيجارة بإصبعيه السبابة والوسطى وقد تصاعد منها حلقات من الدخان، لمعت عينا محمد حين رأى الشاشة وقد

أضاءت، ضغط رؤوف على الأزرار ثم قال: "هذا جهاز تعقب وتحكم، جزء خاص بالتحكم في إغلاق الأبواب والتأمين، جزء آخر للتعقب يسمى (GPS TRACKER) "

رد محمد: "وبالعربي؟".

التفت له رؤوف وقال: "إنه جهاز تعقب مكون من جزئين، جزء يثبت في السيارة ويتم توصيله بالبطارية وبالدوائر الكهربائية بها، كما أن به بطارية خاصة احتياطية".

رفع رؤوف الجهاز وقال: "عن طريق هذه الشاشة يمكنك تعقب مكان تواجد سيارتك".

سال لعاب محمد وأحس بنشوة في قلبه وهو يستمع إلى رؤوف الذي تابع: "تخيل أنك قمت بركن سيارتك في جراج سيتي ستارز ثم نسيت أين وضعتها، هل تعرف تلك المزحة السخيفة حين تضيع شيئا كالريموت أو المفاتيح فيقول لك أحدهم في سماجة (رن عليه)، فيقوم جزء عميق منك بإصدار أمر إلى عقلك للبحث عن هاتفك و.. ترن عليه؟ حسنا.. هذا ما يحدث بالضبط هنا، يمكنك رؤية موقع السيارة عن طريق برنامج الخرائط، ليس هذا فحسب، يمكنك التحكم في سرعة السيارة عن بعد إذا كان شخص آخر يقودها، يمكنك إطفاء المحرك أو تشغيله، يمكنك أيضا التنصت على من بداخل السيارة، الجديد أنه يمكنك الاستغناء عن هذه الشاشة والاستعانة بهاتفك الذكي لفعل كل هذا بعد تثبيت تطبيق خاص".

خفق قلب محمد وهو يتلقى كل هذا الكم من المعلومات التي كان متعطشا لمعرفتها، تذكر مشهد ترينيتي في فيلم ماتريكس حين أخذت عينيها تطرف متسارعة بينما يقوم تانك بتحميل برنامج قيادة الهليكوبتر إلى عقلها.

قال محمد: "هل في إمكانك معرفة مكان وجود هذه السيارة الآن؟"

ضغط رؤوف على الأزرار ثم قال وقد قطب جبينه: "شيء غريب، ما يظهر أمامي في الخريطة أن السيارة موجودة بجوار المدرسة الدولية!".

ثم التفت إلى محمد الذي هز رأسه في عدم فهم فتابع: "أتذكر عند ذهابنا إلى المستوصف؟ لقد مررنا في طريقنا بمدرسة دولية وكان بجوارها أرض فضاء خالية من أي مباني".

صمت رؤوف للحظة وهو يتأكد من موقع السيارة على الخريطة ثم تابع: "من الذي يترك سيارة مرسيدس في مثل ذلك المكان؟ إن الأمر غريب ومريب إذا فكرت في ذلك".

عرف محمد المكان الذي يعنيه رؤوف ولكنه فكر بأن الأمر ليس غريباَ على الإطلاق، إذا سرقت سيارة فستفكر أولا في إخفائها قبل أن تقرر كيف ستستفيد منها، لقد مر بتلك المنطقة عدة مرات سواء حين ذهابه إلى المستوصف أو للبحث عن السيارة، إنه لا يذكر رؤيته لأي سيارة في ذلك المكان (مرسيدس أو حتى شاهين)، من الواضح أن ذلك الفتى قد أخفاها خلف إحدى الكثبان الرملية

المرتفعة المتواجدة بكثرة فِي تلك المنطقة، ظل محمد عند رؤوف حتى الحادية عشرة مساء، قرر أن يفتش عن السيارة في طريق عودته إلى المنزل، سيقودها ويُخفيها في مكان آخر، كان يعلم تماما أن ما يقوم به الآن يختلف تماما عن مجرد أخذ قلم جاف من مكتبه أو ملعقة شاي من كافيه، (كما فعل في كافيتريا توتال)!

❁ ❁ ❁

14

بعد أن خرج محمد من منزل رؤوف ذاهبا إلى موقع السيارة، اتصلت هناء بسوزان تطلب منها تحديد موعد العملية، كان الأمر بالنسبة لها أملًا عليها أن تتمسك به ولو بدا غريبًا مريبًا، رفض عقلها استيعاب ما تنوي القيام به وكانت على يقين أنه قد يتعين عليها دفع ثمن تلك الحماقة، فقط قلبها ووعيها ظلا محتفظين بصورة سوزان التي فقدت وزنها في أشهر قليلة، الأيدي الخفية التي شعرت بها تتفحص بطنها وأحشاءها، الشعور القاتل بالأمومة الذي استولى على كيانها منذ ذلك اليوم، اتصلت سوزان بأبي المعاطي تطلب منه تحديد موعد لعملية هناء فصرخ في الهاتف ثم أغلق الخط في وجهها. حاولت الاتصال به عدة مرات فوجدت رقمها محظورا، نظرت إلى الهاتف فاغرة الفم، لم تتبين ما قاله أبو المعاطي إلا بعد أن استعادت لحظة المكالمة مرارًا وتكرارًا.

(لا أريد رؤيتك أنت أو صديقتك بعد اليوم، ستقطعوا عليّ أكل عيشي، الله يخرب بيوتكَم)

لم تحاول الاتصال به مجددا، حتى هناء قالت: "أحسن"، بعد أن أخبرتها سوزان بما حدث وهي تشعر بالغرابة من النبرة والأسلوب العجيب الذي حدثها به.

(وماذا عن الجن، أقصد الدكاترة؟ كيف يأخذون أتعابهم).

(البواسير، أحيانا يصير الأمر مؤلمًا).

لم تعلم سوزان أو هناء أن ذلك المشعوذ كان يعالج الناس بالوهم والإيحاء، لم تعلم أي منهما أن الأطباء كانوا يتقاضون أتعابهم بقضاء وقت حميم مع أبي المعاطي في مقابل إيهام الناس بالعلاج فيصيب مرة ويخفق مرارًا، لم يعلما أن الأطباء قد أعجبوا بهناء، حتى أنهم طلبوا منه أن يتفاوض معها لتكون شريكة معه فجُن جنونه وصرخ في سوزان يطلب منها ألا تتواصل معه مجددًا.

***

15

حين وصل محمد إلى المنطقة المنشودة أوقف الفزبة ساندا بقدميه على الأرض، مسح بعينيه المنطقة التي كان ظلامها دامسًا، اعتمد على الضوء القليل المنعكس عن القمر الذي عاد لونه إلى الأبيض الطبيعي.

نزل عن الفزبة وأطفأ المحرك ثم قام بدفعها وهو ينحدر عن الأسفلت داخلا إلى عمق الأرض الترابية، كانت قدماه تتعثران في الرمال والحصى، اضطر أحيانا إلى أن يدير مقود الفزبة لتفادي الصخور، تعجب لدى رؤيته لأصداف وقواقع تملأ الأرض وقد لمعت تحت ضوء القمر، كيف وصلت كل هذه الأصداف البحرية إلى هنا؟!

لم يكن محمد خبيرا جيولوجيا ولكنه استنتج أن تلك المنطقة كانت مغمورة بمياه البحر يوما ما منذ عشرات الآلآف من السنين (ربما الملايين)، هل يمكنه اعتبار تلك القواقع أثرا تاريخيا مهما؟ ركل إحدى الصدفات وقال: "ليست آثارا".

تذكر حينها تلك الرسالة التي جاءت إلى هاتفه المحمول عن طريق الخطأ (أو هكذا ظن في البداية)، إنه يذكر نصها حتى الآن (ارجع البلد بسرعة أبوك لقى مقبرة فرعونية وعايزين حد يصرفها)، مط محمد شفتيه متذكرا خروجه ذلك اليوم لشحن رصيده الذي كان منتهيا، قام بالاتصال بالرقم فرد عليه شاب بدا وكأنه يحاول

الحديث بلكنة صعيدية، حاول محمد أن يعرض خدماته مقابل الحصول على نسبة من الكنز، ادَّعى الشاب عدم معرفته عما يتحدث عنه محمد، أخذ يتحدث في عناد عن علاقاته وقدرته على التعامل مع هذا الأمر ولكن الشاب أنكر في كل مرة علمه عن أي رسائل يتحدث، أصر محمد (وقد بدأ يفقد أعصابه) على الاشتراك في إخراج الآثار، في النهاية طلب منه الشاب القدوم إلى الوادي الجديد ومعه عشرة آلاف جنيه، ستكون دفعة للشيخ الذي سيطرد الجن الرصد عن المقبرة، لم يصدق محمد أذنيه حين استجاب الشاب أخيراً، تمكن من تدبير المبلغ وانطلق راكبا الباص إلى أسيوط ومن ثم ركب مواصلات أخرى إلى الوادي الجديد حيث عنوان الشاب، تذكر كم كان يشعر بالتميز والقوة، كأنه عميل سري في طريقه للحصول على معلومات لا تُقدر بثمن، كأنه إنديانا جونز يتعامل مع غموض الفراعنة ولكن في الحقيقة.. سيلمس الآثار العجيبة بيديه بدلا من رؤيتها خلف زجاج المتاحف، سيرى التاريخ بعينيه، سيحصل على الملايين، هل هناك ما هو أفضل من هذا؟ إنه من النخبة، من المختارين، كان ينظر حوله إلى الناس مبتسما في خبث (ليتكم تعلمون ما أعلم، أو ترون ما سأرى)، تذكر كيف انهالوا عليه ضربا بعد أن سرقوا أمواله (باستثناء ثمن العودة)، هددوه بالقتل إن تكلم، قال له أحدهم (إننا صعايدة ويمكننا إيجادك في أي مكان فيك يا بلد)، كان قد أخبر هناء بأنه سيذهب إلى أسيوط لعزاء أحد أصدقائه من أيام الجيش، سب نفسه وهو يتخيل ماذا كانت ستفعل لو لم يتركه هؤلاء اللصوص وشأنه؟

وصل الآن إلى عمق الأرض الخالية دون أن يرى أي أثر لضالته، ترك الفزبة على جانبها أرضًا وقد أصابه التعب من دفعها، كانت نوافذ المدرسة الدوليه تحدق إليه في اتهام من خلف السور المرتفع، أخذ يدور حول الكثبان الرملية دون جدوى، ظل يبحث حتى بدأ يلهث من التوتر والإحباط، سند بيديه على ركبتيه وترك رأسه يتدلى لأسفل، رفع رأسه ثم أقام جذعه ووضع يديه على خصره، مسح وجهه بكم قميصه، أراد أن يصرخ ولكنه خشي أن يسمعه أحد فاكتفى بزمجرة غاضبة وهو يضرب الأرض بقدمه، فكر فيما حدث واستنتج عدة إجابات:

(أن يكون الطبيب قد سحب السيارة بطريقة ما من هنا)،
(أن يكون رؤوف قد أخطأ في تحديد المكان الصحيح)،
(جميع ما سبق)،
(لا خيار مما سبق).

أيا كانت الإجابة فهي بالتأكيد تثير الغيظ، لن يقوم بسؤال رؤوف مجددا حتى لا يثير تساؤلاته وبالطبع لن يغامر بسؤال أي شخص آخر، صاح محمد: "ياللحظ العاثر".

لم يبال حتى ولو سمع أحد صراخه (ومن سيسمع في هذا الفضاء الفارغ)، قام بإخراج المفاتيح من جيب سرواله وأخذ يضغط على الأزرار آملا أن يعرف طريقة تحديد المواقع، رمى بالمفاتيحِ في إحباط، وضع يديه على خصره وأخذ يدور حول نفسه ناظرا إلى القمر الذي شعر أنه يراقبه في شماتة، تذكر هناء التي تنتظره في البيت، أحس بشيء من الراحة، سيأخذ الفزبة ويعود إليها وكأن

شيئًا لم يحدث، أخرج هاتفه المحمول وأضاء الكشاف بحثًا عن المفاتيح، التقطها عن الأرض وقد التصق الغبار بالبلاستيك الأسود، أطفأ كشاف الهاتف ووضعه في جيبه، أخذ يسير في خطوات إيقاعية راقصة مغنياَ

I sing in the rain, yes I sing in the rain.

بدأ يشعر بالمرح وهو يغني ويرقص وحيدًا في الصحراء تحت ضوء القمر، في نهاية الأغنية وقف في احترام ثم انحنى للجمهور، وقف مبتسما ورفع يده لأعلى ثم ضغط على زر الإغلاق المركزي في المفاتيح وكأنما يعلن إسدال الستار عن حفل الليلة، لم يصدق حين سمع صوت نغمة مكتومة، نغمة يعرفها جيدًا تأتي تأكيدا على إغلاق أبواب المركبات، ظل واقفا رافعا يده للأعلى وضغط على زر الإغلاق المركزي مجددا، شعر بأن جمهوره قد صمت تماما وقد مالوا بآذانهم ليتأكدوا أيضا من سماع الصوت الذي صدر مرة أخرى مع ضغطة الزر، إنه صوت السيارة ولا خطأ هناك، أخذ يتحرك في المكان ضاغطا الزر، إنه يسمع نغمة السيارة لكنه لا يراها في أي مكان، تتبع مصدر الصوت المكتوم، كان أمامه تل رملي، صعد التل وقد صار الصوت أقوى. نظر إلى قدميه في ذهول ثم انبطح أرضا كما لو أنه جندي يختبأ من إحدى الدوريات المعادية، وضع أذنه على الأرض ثم قام بضغط الزر، اتسعت عيناه وهو ينصت إلى صوت السيارة ثم قال: "تبا!".

16

حدَّق سليمان في المرأة التي بادلته النظر وهي تستند برسغيها على المقود ممسكة سيجارة بإصبعي يدها اليمنى التي صبغت أظافرها بلون أسود، كانت نفس المرأة التي رآها في الكافيتريا منذ لحظات، رأى في عينيها الحادتين نظرات معناها (ألم نلتق من قبل؟ إن الدنيا صغيرة كما ترى)، فتحت شفتيها لتخرج سحابة من الدخان فبدت كشمس تشرق من خلف الضباب، لم يفهم كيف فوّت ملاحظة الكثير من تفاصيل تلك الفتاة في المرة الأولى، كيف لم يسترعى انتباهه ذلك الشعر الطويل الفاحم شديد السواد واللمعان؟ غطى شعرها المنسدل على جانبي وجهها جزءا من عينين حادتين بلون أزرق فاتح كالزجاج، بالتأكيد كان حول معصمها الأيمن سبحة بنية اللون، لم يتمكن حتى الآن من رؤية شيء من ثيابها سوى التي شيرت الكحلي، لقد رآها في المرة الأولى جالسة خلف طاولة، وهي الآن جالسة خلف مقودها وقد وضعت حقيبة يدها على فخذيها فلم يتمكن من معرفة ما ترتديه على رجليها، لابد بأنها رفعت الحقيبة عن الكرسي المجاور لتُفسح له المجال للجلوس، هل تريد منه مرافقتها في السيارة؟ ذكره منظرها بقريبته التي تعاني من ثقب في القلب. كان وجهها شاحباً شديد البياض يميل إلى الزرقة ولونِ شفتيها بنفسجي قاتم بسبب نقص الأكسجين، كان التفاعل غريباَ بين بشرة الفتاة شديدة البياض والكحل الأسود على عينيها

وقلم الشفاة الغامق على شفتيها، إن في هذا (اللوك) شيء ساحر غريب، لم يصدق كيف لم ير تلك الفصوص الفضية المثبتة على جانب جبهتها الأيمن، تذكر اسمه، إنه يدعى(piercing)، عندما تلاشت سحابة الدخان فتحت شفتيها هذه المرة لتقول بصوت عميق مبحوح (بسبب السجائر وربما الخمور أيضا): "أين يذهب أنت؟" ثم تابعت: "إلى كايرو أنا يذهب".

تراقص قلب سليمان وهو يهنئ نفسه على استنتاج أنها أجنبية، بدأ يشعر بذوبان الحاجز الجليدي بينهما فرد عليها: "نعم إلى كايرو يذهب أنا".

استمتع برده عليها بنفس الطريقة المضحكة، لم تقل شيئا، عاودت النظر إلى الأمام وأشارت له بأصابعها للدخول، بعد أن فتح الباب سمعها تقول شيئا بلغة أجنبية لم يميز منها سوى كلمة (puerta)، التي تعني باب بالأسبانية، لابد أنها كانت تقول له شيئا يتعلق بالباب، جال بفكره أنها لو كانت مصرية فبالتأكيد كانت لتقول له لا تغلق الباب بشدة كما تغلق باب (الزريبة)، ابتسم وهو سعيد بحظه الذي أوقع هذه الأسبانية الجميلة في طريقه، لو كان محظوظا أكثر فلربما استطاع إثارة إعجابها والارتباط بها بدلا من أن يجد نفسه متزوجًا بمصرية نكدية!

قبل أن يدخل ليجلس على الكرسي، رمق المحطة بنظرة أخرى، ليس عليه أن يقطع كل تلك المسافة إلى إيطاليا عبر المتوسط، إنه مغربي يقيم بقرب مضيق جبل طارق، يراقب السفن كل يوم تتجه

إلى ميناء الجزيرة الخضراء أو (الجثيراس) كما يسميه الأسبان، يطلب من حداد أن يصمم له خطافًا كبيراً ثم يربط به حبلًا قويًا، سيسبح حتى يقترب من خط سير السفن ثم يرمي الخطاف ليتعلق بجسم إحدى السفن المتجهة إلى إسبانيا!

ألقى سليمان بجسده على الكرسي المريح ووضع حقيبته بجانب قدميه، تسلل إلى أنفه خليط من الروائح القوية، معطر السيارة مع البرفان الشخصي للسائقة وقد علق بهما رائحة لجلد الكراسي الطبيعي، شعر بالسعادة وهو يسترخي على المقعد مستمعًا إلى موسيقى الراديو وسط أجواء من الروائح الساحرة، مدت الفتاة ذراعها بحقيبتها لتضعها في الخلف، كانت ترتدي جينز كلاسيك أسود اللون، أطفأت الإضاءة الداخلية ثم انطلقت بسيارتها ذات الهدير الخفيف، شعر كما لو أنه يركب بساط الريح وبجانبه شهرزاد، قال لها: ."?español "

ردت قائلة: "?si, si. Hablas español"

رد قائلا: "لا، لا.. أتحدث أسباني، إنجليزي وألماني".

قالت: "أنا يتحدث عربي شوية شوية".

بدا مبهورا بصيده الثمين، قال لها: "أنت يعيش في مصر؟".

قالت: "نعام، أنا يعمال في موتحاف ماسري".

- "ماذا يفعل هنا في الليل؟".
- "مممم، كان يزور صديقًا".

- " آه، آه جيد".

فكر سليمان إن الفرص الجيدة لا تأتي كثيرا، ربما مرة واحدة في العمر، لن يخرج من هذه الصدفة الجميلة بمجرد توصيلة، ربما كان مظهرها يختلف عما كان يتصوره عن الجمال ولكن من هو ليقاوم هذا السحر، لقد عانى في حياته كثيرا من الحظ العاثر ولن يترك هذه الفراشة لأحد الأوغاد الفلاحين العاملين في المتحف المصري أو في أي مكان آخر ليلقي براثنه عليها، إن المسافة إلى القاهرة ليست قريبة وسيستغل كل ثانية لإثارة إعجابها، إذا تمكن من إيقاع هذه الفتاة الجميلة، الثرية و(الأجنبية) في حبه فلن يكون عليه السفر لأي شيء، يكفي أن يدخل بها يوما إلى المستشفى الذي يعمل به صباحا مشبكا أصابعه في أصابعها وعلى شفتيه ابتسامة سعادة وفخر، تُرى كيف سيشعر دكتور محمد شاهين المشرف على طلبة الامتياز حينها؟ لقد اعتاد أن يضطهده ويعاقبه على أقل الأخطاء، بالطبع لأنه يغار منه، إن النساء يحبون الرجل المرح خفيف الظل، لم يكن سليمان يتمتع بأي من تلك الصفات ولكنه قرر أن يتقمص شخصية أحد أصدقائه الذي كان لا يكف عن المزاح.

تبادل معها الحديث في كثير من الأمور مراعيا أن يترك تعليقًا ظريفًا في كل جملة بطريقة تمكنها من فهمه، شعر بالسعادة في كل مرة ضحكت فيها على تعليقاته، شعر ببعض الريبة لأنها كانت تضحك أكثر مما ينبغي بصوتها المبحوح، يوما ما سيسافر معها إلى إسبانيا لحضور مباراة الكلاسيكو (التي لم يتابع أيا منها في حياته)،

سيلتقط الكثير من الصور وينشرها على الفيس، صاح فجأة: "أنا لم يعرف اسمك".

ضحكت من رئتين مشبعتين بالقطران وقالت: "أناستازيا، وأنت؟".

كان صوتها كصوت فرقعة الفقاعات الهوائية التي توضع في كراتين الشحن.

- "سوليمان، كالملك سولومون في الإنجيل".
- "أنت مسيحي؟".
- "لا"، ثم صمت ولم يقل المزيد، لن يترك الاختلافات الدينية لتقف عائقا، إنه يحقق تقدما جيدا، سيجاريها في أي شيء حتى لو كانت تعبد "هبل".

سألته: "لديك حساب على الفيس بوك؟".

- "بالطبع". رد في سعادة وفخر كما لو أنه يملك حسابا ذا مبلغ من ستة أصفار في السي آي بي!

التقطت هاتفها الذكي من الحامل الخاص، أمسكت المقود بيدها اليسرى وأخذت تضغط على الشاشة بإصبعها، ناولته الهاتف وقد ظهرت صفحة الفيس ذات الإطار الأزرق، بحث عن اسمه الذي بدأه بكلمة (دكتور)، قام بإضافة حسابه إلى قائمة أصدقائها ثم ناولها الهاتف، قلبت صفحة حسابه للحظات ثم قالت: "لديك الكثير من الصور الجيدة، لقد أعجبتني".

وجهت الشاشة إليه ثم قالت: "هذه تعجبني أكثر".

ضحك وهو ينظر إلى صورته في السكشن وقد وقف مرتديا البالطو ناظرا إلى الكاميرا في تحدٍ، قال: "هذه صورتي في عيادات الجامعة".

قالت مبتسمة: "I like it".

ابتسم وهو يسترخي في مقعده وقد بدأت السرعة تقل نسبيا، لابد أنها تستمتع برحلتها معه، أخرجت سيجارة وناولته واحدة فأخذها وقال: "Gracias".

مدت العلبة إلى فمها والتقطت واحدة بشفتيها، مد سليمان يده إلى الولاعة وقام بإشعال السيجارتين، سعل حين دخل الدخان إلى صدره، أخذ يسعل في شدة وقد احمر وجهه وسالت الدموع من عينيه، ما هذا القرف إنه يشعر كأن في فمه روث بهائم، مع مرور الوقت قال سليمان ما يذكره من النكات وكانت دوما تضحك بصوتها الغريب المبحوح، بدا كما لو أنها تبالغ في الضحك، قال لها: "أنا معجب بكِ يا أناستازيا".

ابتسمت وقالت: "وأنا معجبة بك يا عزيزي".

هل سمعها حقا تقول له يا عزيزي؟ تذكر فيلما لعادل إمام عندما كان في المصعد ومعه بعض السكان فوجد لبلبة على باب المصعد مرتدية فستانًا قصيراً، كانت تحدث عادل إمام ثم قالت له يا حبيبي فرد رجل مسن يرتدي منظارًا سميكًا في هيام: "نعم".

أخيرا تبتسم الحياة للشاب البائس عاثر الحظ، كان يشعر بأنه يركب طائرة تأخذه بعيدا إلى أرض الأحلام، سحب نفسا من سيجارته وشارك أناستازيا في انتشار الدخان داخل السيارة، وضع

يده على مسند الباب محاذرا أن يحرق غطاء الباب الداخلي بلهيب سيجارته، سند برأسه على زجاج النافذة مراقبا الصحراء والمباني تمر أمام عينيه، بدأ المشهد يتغير كما لو أن النافذة قد أصبحت شاشة تلفاز، رأى أحداث حياته بما فيها من مصاعب ومتاعب، الدراسة المرهقة، الشجار مع الناس، الفقر، تذكر حينما كان يستعير الأدوات من زملائه في الجامعة، البنات الذين حاول التقرب إليهن، تذكر كيف قضى حياته المدرسية حيث لم يكن له سوى صديقين أو ثلاثة، لم يكن صبيا محبوبا أو اجتماعيا بل على العكس، لقد كان من ذلك النوع من الصبية الذي يتعامل معهم زملاؤهم كما لو أنهم يحملون لافتة كُتب عليها (أنا غريب الأطوار أرجوكم ضايقوني)!

ذات يوم في الصف الرابع الابتدائي كان في غرفة تبديل الملابس أثناء حصة التربية البدنية، ارتدى ثياب الرياضة التي يسخر منها الجميع بسبب الرقعة الموجودة عند الركبة، سمع صوت طرقات إيقاعية على الباب، رأى سليمان هاني وعصابته المكونة من سليم وأكرم يرتدون ثياب الرياضة، أخذ هاني يطبل على الباب بكلتا يديه وهو يدندن (وفيها إيه) لحكيم، ثم تقدموا وسدوا الطريق عليه، لقد رسبوا أربع مرات حتى الآن فصاروا وبالا على كل من الطلاب والمعلمين على حد سواء، غاص قلب سليمان في أمعائه وهو يتذكر السمعة التي يتمتع بها هاني وأصدقاؤه، كانوا كما قال له صديقه وليد (بيعملوا حاجات وحشة للولاد)، لقد تحرشوا به بالفعل عدة مرات من قبل ولكنه لم يكن يفهم ما الذي يريدونه بالرغم من إحساسه بالضيق والحصار، كل ما يعرفه هو أنهم يريدون فعل

(حاجات وحشة)، وفي كل مرة يتمكن من الهرب منهم، دفعه أكرم على باب إحدى خزانات الثياب المعدنية فاصطدم ظهره بقوة، سمع صوت أغراض تتصادم داخل الخزانة حين ضربها سليم بكفه واضعا ذراعه بجانب وجه سليمان، قرب سليم رأسه من رأس الصغير وقال: "كيف حالك يا قطة؟"، سمع سليمان أحدهم يقول في رقاعة: "مياااااوووو".

تابع سليم مبتسمًا: "هل ستذهب للعب الكرة؟ لن يختلف الأمر كثيراً، نحن أيضا نريد اللعب"، ثم تابع: "ستحب اللعب معنا".

حاول سليمان الفرار من تحت ذراعه ولكنه طوقه بذراعيه وأحس بقدميه ترتفعان عن الأرض، سمع صوت سليم يصيح في أذنه وهو يشم رائحة السجائر المندفعة من فمه: "إلى أين يا قطة؟ لم تنته الحصة بعد".

أمسك سليمان بذراعي سليم وأخذ يركل بقدميه في الهواء وقد سالت الدموع على وجهه، قال بصوت مبحوح مكتوم: "اتركني.. اتركني".

كانت الكلمات تخرج من حلقه ككرات البنج، صاح هاني ضاحكًا وهو يصفع سليمان على خده الأيمن: "انظر إليه، لقد احمر وجهه".

ضحكوا وهم يشاهدون الدماء تتجمع في وجه سليمان على شكل أصابع، شعر بخيط من الدماء يسيل من شفتيه التي أخذت تنبض في ألم، أوقفهم هاني بإشارة من يده وقال كما لو أنه يشرح لهم شيئا: "لا لا، هذا لا يصح يا شباب"، نظروا إليه فتابع: "لا بد أن يكون كل شيء متوازنًا، كما يقول علي وزة مدرس العلوم"، ثم

التفت ليهوى على خد سليمان الأيسر ففزعوا من صوت فرقعة كفه للحظة ثم عادوا إلى الضحك.

قال هاني: "الآن يحمر وجهه الآخر".

كان قلب سليمان يضرب في عنف محاولا الخروج من صدره، شعر بجسده يهوى ليصطدم بالأرض حين أفلته سليم وقد بدأ يحس بسائل دافئ يتسرب على فخذيه، لم يبد عليهم أنهم لاحظوا شيئا.

مال أكرم أمام سليمان وقال: "هل مؤخرتك حمراء كوجهك يا فتى؟".

ضحك هاني وقال: "لا عليك.. إننا نعرف طريقة تحميرها الآن".

صاحوا جميعًا ضاحكين وهم يضربون كفوفهم ببعضها.

تخدر جسد سليمان وهو يقاوم الغرق في ذلك البحر الذي سيفقد فيه وعيه.

قال هاني لسليم: "اذهب وأمن الباب، أكرم.. امسك لي هذا الولد الوسيم".

ثم أمسك رأس سليمان وضغط على خديه بكلتا يديه حتى التصقت شفتاه عموديا، قرب هاني وجهه منه قائلا: "لا تتحرك ودعني أفعل كل شيء، إياك أن تعمل ببيي عليّ وإلا تبولت في فمك اللعين، لن تستطيع حينها الاستمتاع بصينية البطاطس التي تعدها مامييي".

أمسك أكرم الفتى من تحت إبطيه ورفعه عن الأرض، جذب هاني السروال الأخضر الذي يرتديه سليمان وقال لأكرم: "أخرج هاتفك وصور لي هذا الأرنب".

أخرج أكرم هاتفه وبحث عن برنامج الكاميرا حين اندفع سليم راكضًا وقد اتسعت عيناه في رعب قائلًا: "سعد شنودة.. سعد شنودة قادم".

رفع هاني سروال الفتى وأعاد أكرم هاتفه إلى جيبه، أخرج هاني مطواة وقام بفتحها ثم أشار بها إلى رقبة سليمان قائلا: "إياك أن تتحدث عن هذا وإلا قطعت قضيبك الضئيل وعلقته في ميدالية مفاتيحي".

هز سليمان رأسه موافقًا فتركه يهوى أرضا، اندفع الأستاذ سعد مدرس التربية البدنية إلى الغرفة ثائرًا وفي يده عصا الخيزران التي يسير بها دوما. تأرجحت الصافرة التي يعلقها حول رقبته وهو يصيح: "كنت أعلم يا أبناء الكلاب أنكم تدبرون أمرًا، لقد رأيتكم تتسللون كالفئران، لن أترككم إلا في الجحيم أيها الأوغاد"، ثم انطلق إليهم ليهوى على أجسادهم بالخيزرانة في غل، كانوا يلوحون بأيديهم محاولين صد الضربات حين قال هاني: "لم نفعل شيئا يا أستاذ، حتى اسأله".

صاح فيهم أن يقفوا صفا أمام الدواليب ثم جلس على ركبتيه ليطمئن على الفتى الممدد أرضًا على بطنه، وقد تصاعدت رائحة البول من البقعة الغامقة على مقعد سرواله الأخضر: "هل أنت بخير يا ولد؟ ما اسمك؟ ماذا حدث؟ قل لي".

نظر له سليمان وقال: "اسمي سليمان عبد الفتاح".

- "ماذا فعلوا لك؟ أخبرني".

- "لا شيء".

قال هاني: " كنا نمزح فقط يا أستاذ".

نهض سعد وهوى عليه بالعصا قائلًا: "اخرس حتى أطلب منك الكلام، لن تفلتوا هذه المرة إلا على جثتي".

أخرج هاني مطواته وفتحها على طريقة الشوارعية ثم قال ملوحا بها أمام أستاذه: "فليكن على جثتك إذن".

كان الأستاذ سعد محقا، لم تمر هذه الحادثة كما مر الكثير من الحوادث المماثلة، انتهى الأمر بهاني وعصابته بالرفد من المدرسة ودخول إصلاحية الأحداث بينما انتهى الأمر بسليمان بتلقيبه بـ (آكل البطاطس).

❁ ❁ ❁

17

استند سليمان برأسه على زجاج نافذة السيارة التي تسير بانسيابية وخفة، امتلأ قلبه غلا وكراهية نحو كل من آذاه في حياته، أبناء الجيران الذين كانوا يوقفونه دائما لحراسة المرمى لعدم إجادته لعب الكرة، زملاء المدارس على كافة المراحل، الأولاد الذين كانوا يضربونه ويسرقون منه ساندويتشات الجبن الرومي، المدرسين الذين عاقبوه بشدة على تقصيره في أداء واجباته، أصدقاء الجامعة الذين لم يتفقوا مع أنانيته وغرابة أطواره مدعين أنه (شايف نفسه)، (الكوسة) التي يرى أنها منعته من الحصول على تقدير الامتياز الذي يرى أنه يستحق التخرج به، المرضى الذين يجعلونه يجز على أسنانه غيظا من أفعالهم المستفزة، الغباء الذي يراه في تعاملات الناس وبطء تفكيرهم، الحكومة التي لا توفر للشباب من أمثاله ما يتمتع به نظراؤه في الدول (اللي بجد)، والديه اللذان لم يكتفيا بإنجابه لوحده برغم فقرهم فجاءوا له بأخ يشاركه المصروف والنفقات، لكنه الآن يشعر ببعض من الارتياح وقد بدأ مسار حياته يتغير للأفضل، شعر بيد تتحسس فخذه فأجفل ودفعها، اصطدمت يده بيدها في عنف ربما أكثر من اللازم، صاحت أناستازيا في دهشة وفزع ثم أوقفت السيارة على جانب الطريق، أمسكت بيدها قائلة: "ماذا بك؟ لقد آلمتني، لم أعرف أنك لا تحب المزاح".

تلعثم سليمان وتمتم بكلمات غير مفهومة دون أن يلاحظ جملها العربية التي صارت سليمة، شعر بالحرج من تصرفه الغاشم بعد أن كانت الأمور تسير على ما يرام، قالت في صوت ضعيف يدعي الألم: "أنا لا أعجبك؟ ألست سعيدًا معي؟"

وجد لسانه أخيرا، فرد على الفور: "نعم، أنا سعيد جدا، صدقيني".

- "أنت لم تفعلها من قبل أبدًا؟".

فكر عما تقصده بسؤالها ثم رد قائلًا: "لا، لم أفعلها من قبل، أهذا أمر جيد أم لا؟".

قالت متباكية وهي لا تزال تمسك يدها: "أفهم أنك لا تريدني، لا عليك، لا تريد أن تهدر مرتك الأولى عليّ".

شعر بالرغبة والخوف معا، لم يكن يتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد في ذلك الوقت القصير الذي قضياه معا، اعتقد أن عليه أن يقضي بعض الوقت في التعرف عليها، التنزه والذهاب إلى المطاعم وربما السينما، لم يكن ليظن بأنها ستسمح له بتقبيلها قبل مرور أشهر من التسكع سويا، ساوره ذلك القلق وهو يشعر بعدم قيادته لتلك العلاقة، صحيح أنه كان يحلم بأن تكون امرأته أجنبية، ولكن ليس أجنبية إلى هذا الحد، تُرى كم مرة فعلتها من قبل؟ إنه لا يريد أن يعلم ولن يهمه، المهم أنها ستكون معه وله، لم يشعر بالغرابة حين انتفخ الجينز بين قدميه، كره سليمان إحساسه بالعذرية، إنه يشعر كما لو أنه طفل أخرج (الكاكا) في سرواله، ثم وقف في حيرة

لا يدري ماذا يفعل سوى أن ينادي ماما لتنظفه، لقد فاته الكثير وهو محبوس في غرفته يدرس الكتب الغليظة، بالرغم من هذا شعر كأن في داخله وحشا ينتظر فك أسره، أمسك سليمان يد الفتاة بكفيه وربت عليها قائلًا: "سامحيني على ضربك".

سحبت يدها من بين كفيه ثم أمسكت رأسه بكلتا يديها كما فعل هاني من قبل في غرفة الملابس، شعر في الظلام بشيء طري دافئ يعبث بشفتيه، كان طعم شفتيها المصبوغة باللون القاتم لاذعا كالنعناع، أحس بثدييها المنتفخين خلف التي شيرت يحتكان بصدره، تراجعت أناستازيا ضاحكة وقالت: "لقد أعجبك الأمر أيها الفاسد، أستطيع الشعور بهذا"، ابتسم سليمان ابتسامة بلهاء ولم يقل شيئًا، قالت له: "يمكنك أن تجرب وتفعلها معي".

اقترب سليمان محاولًا تقبيلها ولكنها دفعته على الكرسي، نظر في تساؤل فقالت: "ليس هنا، قد يرانا أحد".

اعتدلت على كرسيها، شغلت الضوء الداخلي ونظرت في المرآة الأمامية وهي تعدل من وضع شعرها، أطفأت الضوء ثم انطلقت بالسيارة، بعد لحظات مالت إلى اليمين لتدخل موقفًا جانبيا، كان به مقاعد من الرخام تعلوها "تندة" من الصاج، بعد أن توقفت السيارة قامت أناستازيا بفتح الضوء الداخلي، لم يعترض سليمان خوفًا أن يراهما أحد راكبي السيارات المارة، صحيح أنهما كانا بعيدين عن مرأى الناظرين ولكن قد يرتاب أحدهم لرؤية سيارة مضاءة واقفة فيأتي ليعرض المساعدة، قالت أناستازيا وقد زادها

اللون الأصفر للضوء جمالًا وسحرًا: "أريدك أن ترى كل شيء يا فتى".

كان سليمان قد رأى الكثير من الأفلام الإباحية على شاشة جهاز الكمبيوتر الذي طلبه عند دخوله الجامعة؛ لأنه سيفيده في الدراسة.

شعر كما لو أنه في حلم، لم يكن يسعى إلى الاستمتاع بقدر رغبته في تطبيق ما كان يراه في تلك الأفلام، لقد جاءته الفرصة ليجرب كل شيء فاستغلها في إصرار كما لو أنه يتقاضى مالا على ذلك، كانت انفعالاتها تدل على إعجابها بأدائه، تجاوبت معه وسايرته في كل ما أراد حتى أنها كانت تريه الطرق الصحيحة لفعل بعض الحركات، تساءل سليمان، هل سيستيقظ من هذا الحلم على سرير غرفته غار قا في العرق والسوائل؟ إذا كان حلمًا فلن يفيق منه حتى تنفد طاقته بالكامل.

* * *

أغلق عينيه مسترخيا على الكرسي الذي أراحه للخلف، استلقت أناستازيا فوقه واضعة رأسها على صدره، أحاط كتفيها بذراعه وهو يسمع صوت أنفاسها، فتح عينيه بعد أن غفى لبعض الوقت، لم تكن أناستازيا بجواره حين أفاق، كانت واقفة في الخارج مرتدية ثيابها، ارتدى ثيابه وخرج من السيارة، كانت تقول شيئا وهي تنظر إلى القمر الدموي، قال لها: "ماذا تفعلين؟".

نظرت له وابتسمت قائلة: "لا شيء".

ناولته زجاجة من الماء، فتح الزجاجة وشرب في نهم ثم صب بعض الماء في يده ومسح وجهه، شعر بالانتعاش عندما هب الهواء

البارد على وجهه المبلل، قال لها: "أناستازيا.. هل أنتِ نادمة على هذا؟ لا أشعر أنك سعيدة".

لم ترد، اتجهت إلى السيارة وجلست على مقعدها لتشغل المحرك وقالت له: "اركب".

بعد أن ركب سليمان خرجت السيارة من الموقف الجانبي وانضمت إلى الطريق السريع، حاول تذكر ما قالته أناستازيا وهي تنظر إلى القمر، هل شعرت بالندمٍ فطلبت من ربها المغفرة؟

قالت له: "هل قضيت وقتًا جيدًا؟".

شعر ببعض الراحة فقال: "نعم، وأنتِ؟".

لم ترد، هل شعرت بأنها قد تسرعت لَفعل هذه العلاقة؟

قال لها: "أناستازيا.. أنا أحبك، أريد أن نظل معا دائما".

ضحكت ضحكة قصيرة تختلف تماما عن تلك الضحكات القاسية التي كانت تجيب نكاته، آثر سليمان ألا يثيرها وأن يتركها في صمتها، بدأت السيارة في التباطىء ثم انحرفت إلى اليسار باتجاه الملف المؤدي إلى طريق الإسماعيلية، اعتقد سليمان أنها نسيت شيئا في محطة البنزين وستعود لأخذه، بعد أن مرت السيارة بجوار المحطة دون توقف سألها: "إلى أين نذهب؟".

ردت قائلة: "انتظر يا صديقي، لم تنته الحفلة بعد".

(إلى أين يا قطة؟ لم تنته الحصة بعد)!

تابعت قائلة: "انتظر، أريد أن أريك شيئا".

انطلقت السيارة مخترقة الظلام بكشافاتها، تباطأت سرعتها وهي تنحرف لليسار ناحية الملف المؤدي لطريق القاهرة، بعد لحظة من

السير على طريق القاهرة رأى سليمان مبنى بدا كما لو أنه لمدرسة أجنبية، بعد أن تجاوزت السيارة المدرسة قلت السرعة تماما حتى توقفت بجانب الطريق، لم تطفيء المحرك، بدا من صوتها أنها تنظر إليه في الظلام وهي تقول: "الآن استمع إليّ جيدًا".

كان صوتها صارما!

تابعت: "لقد أخذت شيئا، يجب أن تعطيني شيئًا في المقابل".

لم يرد سليمان وقد بدأ يشعر بالقلق، بدا كما لو أنه كسر فازة في محل أنتيكات ليقول له البائع: "الفازة التي كسرتها هذه ثمنها..."، هل سيعترض قائلًا: (لماذا أسعاركم مرتفعة بهذا الشكل؟).

(يجب أن تدفع ثمن الفازة وإلا طلبت البوليس، حسنا سأكون طيبًا معك لأنك تبدو ابن حلال، ستساعد العمال في نقل الأنتيكات والتحف ثم تنظف الحمامات وهذا لمدة شهر، هذا محلي وهذا سعري).

ولكن الأمر يختلف هنا، إنه لم يأخذ شيئا يمكن الفصال في ثمنه، خصوصا إذا كان الطرف الآخر (طبقا لنبرة صوته) مصرًا على تقاضي الثمن.

نظرت أناستازيا إلى الأمام وهي لا تزال ممسكة بمقودها ثم قالت: "لماذا تبدو متوترًا هكذا كقط محبوس؟ ماذا كنت تتوقع؟ أن تقف لك فتاة مزة كما تقولون ثم تمارس معك الجنس بهذه البساطة؟".

همس سليمان: "كم تريدين؟".

ضحكت أناستازيا تلك الضحكة المجلجلة التي كانت تجيب بها على نكاته الرديئة حتى أنها أخذت تضرب المقود بكفها عدة مرات ثم قالت: "وهل أبدو لك كعاهرة؟ ألا ترى ماذا أقود؟ ماذا تظنني بالضبط؟".

لم يرد سليمان فتابعت: "لا أريد منك الكثير، لقد تركتك تفعل بي ما تشاء، وأتوقع منك المثل".

- "كيف؟"، وقد بدأ يشعر بالأمل.

- "لا تخف، لن أؤذيك، أعدك بهذا، فقط إذا نفذت ما أريد".

قال في لهفة: "نعم، أي شيء".

من بين كل ما تخيل سليمان أنها قد تطلبه منه، أجابته بطلب لم يكن يتوقعه أبدًا، لم يصدق أذنيه وهو يسمعها تقول ضاغطة على حروفها: "أريد منك طفلًا".

شهق سليمان كما لو أنه غرق في ماء مثلج، أشاح بيديه قائلًا: "لا، لا"، اتسعت عيناه وتابع: "لن أفعل هذا".

التفت إلى الباب وفتحه ليخرج، سمعها تصرخ حين وقع حذاؤه على الأسفلت: "انتظر".

تجمد سليمان وتخدر جسده.

قالت: "عد إلى الداخل".

قال وقد بدأ صوته يعود إليه: "لا، سأذهب من هنا".

- "انظر إلى هذا إذن".

عاد إلى المقعد وراقبها وقد أضاءت شاشة متصلة بالتابلو، لم يصدق حين رأى الفيديو على شاشة التابلو، كان فيلما إباحيا بطله سليمان وهو يقوم بأحد الأوضاع الجنسية الصعبة.

(أريدك أن ترى كل شيء يا فتى)!

ارتجفت شفتاه وفغر فاه وهو يسمع أناستازيا تقول: "قل مرحبًا للكاميرا".

ثم أشارت بإصبعها ذي الصبغة السوداء إلى نقطة مضيئة صعبة الملاحظة على سطح التابلو، ركن ظهره على الكرسي ورفع رأسه لأعلى وتساقطت الدموع من عينيه!

بعد أن انتهى الفيديو قالت أناستازيا: "الخيار لك، إما أن تغلق الباب أو تخرج منه، من الجيد أن لديك الكثير من الأصدقاء على الفيس بوك، ستكون مشهورًا".

- "هذا ابتزاز".
- "الابتزاز يكون عند طلب المال، أما هذا فيسمى مقايضة".

بعد لحظات مسح سليمان عينيه بكم قميصه وأغلق باب السيارة.

بدا عليها الرضا وهي تقول: "ولد جيد"، ثم تابعت: "إذا فعلت ما أطلبه فسوف أمسح الفيديو ويذهب كلا منا في طريقه".

إن صاحب محل التحف يملي شروطه، سيفعل ما يُطلب منه كي لا يبيت في القسم على أمل ألا يراه أحد معارفه وهو يمسح سيراميك مدخل المحل. خرجت بسيارتها من الطريق المعبد منحدرة

إلى الصحراء، سارت ببطء على الأرض غير المستوية ضاغطة بقوة على دواسة البنزين من حين لآخر لتخرج إطارات السيارة (ذات الثمانية سلندر) من المناطق الرملية، بدا كما لو أنها تعرف تضاريس المكان، كانت كسائق أجرة يعرف كل مطب وكل (نقرة) في الطريق الذي يسير عليه كل يوم جيئة وذهابًا، توقفت ثم أطفأت المحرك والكشافات، لم يسألها سليمان ما الذي دفعها للنزول إلى ذلك المكان، سيسايرها في هذا الجنون، لقد وعدته بأن ينتهي الأمر بعد ذلك، ولا يملك سوى أن يصدقها بالنظر إلى وضعه.

18

استمع محمد إلى صوت الإنذار بالإغلاق يجيبه من تحت الرمال، ابتسم ابتسامة شريرة وهو يتخيل وجه الطبيب حين يعود فلا يجد كنزه، قال محمد: “finders keepers” .

نهض عن الأرض ثم وضع المفاتيح في جيبه، جلس على ركبتيه وبدأ يحفر الرمال ويزيحها بيديه، لم يستغرق الأمر طويلًا حتى لامست أطراف أصابعه الجسم المعدني للسيارة، كانت الرمال تنهال فتردم الحفر الصغيرة التي يحفرها بيديه، خفق قلبه وهو يحفر في جنون، لقد أخفى الطبيب السيارة كما تُخفي الكلاب العظام في الأرض حتى تعود وتستخرجها لاحقا، نهض وركض باتجاه الفزبة التي استلقت على جانبها، فتح الصندوق المثبت خلف المقعد لتخرج العدة متساقطة على الأرض، كان الصندوق مليئًا بالعدة التي يستخدمها في تركيب صحون الأقمار الصناعية وتثبيت الشاشات الجدارية. أخرج وعاء حفظ الطعام الذي تملأه هناء بالأرز واللحم ليتناول غداءه في الخارج، كانت تذكره دائما بإعادة تلك الأوعية ولكنه كان ينساها دائما في العمل، في القهوة أو في صندوق العدة، نزع غطاء الوعاء وألقاه أرضًا ثم جرى إلى موقع السيارة، صار الحفر أسهل بكثير من استعمال يديه، امتلأ جبينه بقطرات من العرق بدأت تسيل لاذعة على عينيه فيمسحها بكم قميصه. بدأت ملامح السيارة في الظهور، إنه يحفر في المقدمة عند

الكبوت، صعد على الكبوت ثم اعتلى السقف، أخذ يزيح الرمال ويلقيها بعيدا حتى ظهر السطح المعدني، لابد أن ذلك الوغد قد استعمل وسيلة بدائية كهذه في الردم، لقد اكتفى بجعلها تبدو كأي كثيب رملي عادي، وبينما هو يحفر شعر بحركة من خلفه، اتسعت عيناه وهو يلتفت إلى ذلك الكائن الذي يقف على مسافة قريبة منه وقد لمعت عيناه على ضوء القمر، إنه ذئب، سينتهي به الأمر داخل أمعاء ذئب، ليس هو فحسب بل داخل باقي جماعته الذين سيهرعون إليه، في حركة لا إرادية انحنى محمد والتقط حجراً من الأرض، كانت هذه الحركة كافية لإخافة الكلاب في قريته حين ينبحون عليه، هل ستُجدي هذه الحركة نفعًا مع الذئاب؟

غالبًا سيثير غضبه، الغريب أنه قد خاف فعلًا والتف هاربًا، ابتسم محمد وهو يشاهد ذلك الذيل الطويل المخروطي، إنه أبو الحصين كما تسميه هناء، لا يدري لماذا شعر بالسعادة لرؤيته يفر بطريقة كوميدية، أخذ يضحك وهو يراقب الثعلب الذي بدأ يختفي في الظلام، ألقى بالحجر أرضًا ثم عاود إزاحة الرمال.

بعد أن ظهر معظم جسم السيارة ألقى محمد الوعاء أرضا ثم خلع قميصه، أخذ يمسح بقميصه طبقة الرمال الرفيعة التي لا تزال تغطي جسم السيارة، كانت الرمال لا تزال تغطي الإطارات ولكنه يعرف أن محرك هذه السيارة قوي وسيمكنه إخراجها حتمًا، أخرج المفاتيح من جيبه وشعر بالنشوة وهو يستمع إلى صوت فتح الأبواب، كان صوتًا مرتفعًا رنانًا، اتجه إلى باب السائق وفتحه، أغلقه بسرعة وهو يسعل وقد هبت رائحة نتنة من الداخل، أدار وجهه

للخلف وهو يستنشق الهواء النقي ليزيل أثر تلك الرائحة التي تشبه رائحة دجاج تم تركه في الثلاجة لثلاثة أيام دون كهرباء.

(أين شم هذه الرائحة من قبل؟)!

لف قميصه على أنفه ثم فتح الباب مرة أخرى، لا يزال يشم تلك الرائحة ولكنه قاومها وهو يخرج هاتفه من جيبه، شغل كشاف الهاتف وتفحص السيارة من الداخل، لوهلة بدت السيارة فارغة ولكنه تراجعِ صارخًا ليتعثر ويسقط أرضا، لقد وجد العظم في الكرشة فعليا، كانت هناك جثة ملقاة على الكرسي الخلفي!

19

خرجت أناستازيا من السيارة ثم فتحت الصندوق الخلفي، أخرجت حقيبة سامسونايت وعصا بطول متر تقريبا.

كانت العصا مليئة بالزخارف والنقوش، راقبها سليمان وهي تمسك الحقيبة بكلتا يديها بشكل أفقي، ثنت ركبتيها ثم وضعتها بشكل مستوي على الأرض في احترام بالغ، نهضت مرة أخرى ثم تجردت تماما من ثيابها، أمسكت بالعصا وبدأت تخط شيئا على الأرض، خرج سليمان من السيارة وأغلق الباب، قال لها: "ماذا تفعلين؟".

لم ترد، كانت ترسم شكلًا هندسيًا لم يتبينه تماما على ضوء القمر، عادت إلى الحقيبة ففتحتها وأخرجت أصابع من الشمع، أخذت قداحة من جيب سروالها واتجهت إلى مخططها، أشعلت كل إصبع على حدة، ثم وضعته في مكان محدد من الرسم، كانت تقول بصوت حاد: **Principio immense**

Materia e spirito

.Te invoco, o satana

كررت الجملة الأخيرة مرارًا وتكرارًا وهي تزيد من قوة صوتها تدريجيًا، شعر سليمان بقشعريرة تسري في جسده، كان اللعاب في فمه ثقيلًا معدنيًا فابتلع ريقه كما لو أنه يبتلع الخل.

(قلت لك مليون مرة لا تضع الربع جنيه في فمك كي لا تختنق وتموت)

راقبها وهي تبدو كمشعوذة في ضوء الشموع والقمر الوردي، كانت عيناها تلمعان كالقطط وملامحها تزداد قسوة وهي تميل لتضع الشمع على الأرض فينهمر شعرها لأسفل، أضافت الشموع شيئًا من الضوء فرأى سليمان أن أناستازيا تقف داخل نجمة خماسية يعرفها جيدًا، نظر إلى الشموع عند رأس كل طرف من أطراف النجمة المحاطة بدائرة لتصل كل الأطراف ببعضها، لم يستطع أن يرفع عينيه عن النجمة في إعجاب ودهشة، بالنسبة له لم تكن مجرد نجمة، لقد بدت كما لو أنها بوابة تقود إلى بعد آخر، لم تطرف عيناه الشاردتان وهو يراقب أناستازيا وقد أخرجت من الحقيبة تمثالًا بدا كما لو أنه لرأس كبش لتضعه عند رأس النجمة.

تحول كيان سليمان بالكامل إلى عينين لا تطرفان كما لو أن أحدًا قد نومه مغناطيسيًا، بعد أن انتهت أناستازيا من تجهيز محرابها التفتت إليه، تبادلا النظرات دون أن يقولا أي كلمة، لم يعد الأمر يتعلق بدفع أي ثمن، إنه لا يشعر بأنه مرغم على فعل أي شيء، كان يشعر بالقوة كما لو أنه يستمدها من الدائرة، شعر برغبة عارمة في الدخول إلى مصدر هذه الطاقة، أراد أن يحاط بها، أن يستحم بها، لم يشعر سليمان بأصابعه وهي تفك أزرار قميصه ثم يلقيه أرضًا لتهب النسائم الباردة على صدره، مال ليفك أربطة حذائيه لينزعهما، تجرد من باقي ثيابه وشعر بقدميه تلمسان الأرض الباردة المليئة بالأصداف.

(هل توجد عقارب هنا؟)

بدا على أناستازيا الرضا وهي تراقبه يتجه كالروبوت إلى الدائرة، تمدد على النجمة بحيث يكون كل طرف من أطرافه على أحد أطراف النجمة، كان رأسه عند رأس النجمة بالقرب من تمثال الكبش، لم يكترث للرمال الباردة تحت ظهره، راقب النجوم في السماء وقد توسطها القمر الوردي الذي بدا كما لو أنه قد تعامد عليه، شعر بالقوة والطاقة تسري في عروقه، رأى أناستازيا وقد أمسكت محقنًا لتسحب الدماء من أحد أوردتها، دارت حول النجمة لتقطر الدماء عند كل طرف من أطرافها.

(محقن؟ لماذا لا تستعملين سكينا فحسب أيتها الفراشة؟)

كانت تنادي بصوت كفحيح الأفاعي: "Te, invoco, o satana"

شعر بالنشوة والنرجسية بينما يسري في جسده خدر لذيذ، كانت أنفاسه منعشة كالنعناع، إنه في الجنة.

لو كان يعرف أنه سيعيش هذه التجربة لما جادل في فعلها، فكر أنه ربما لم يكن عليها ابتزازه لتجبره على طاعتها، ولكن من يدري؟ إن هذا الشعب غارق تماما في الأفكار الموروثة والصور النمطية، إن الجهل يحكم الجميع بمخالب من فولاذ حتى أصبح يرفض كل ما لا يُفهم وإن كان في مصلحته، إنه شعب يُقاد باختلاف درجاته التعليمية كالأغنام ثم يتفاخرون بالمنطق وحرية التفكير، تأكد بأنه كان ليرفض رغبة أناستازيا في مشاركتها لهذه التجربة لو كانت قد طلبت منه بلطف، ربما كان ليفر منها لمجرد رؤيتها إذا كان مظهرها كمظهر عبدة الشيطان الذين رآهم ذات مرة في أحد البرامج

الحوارية، لقد شعر (كما شعر الشعب المتخلف) بالقرف والاستنكار، لم تتعمد أناستازيا أن تبدو كهؤلاء الهواة، ليس عليها أن ترتدي الثياب السوداء المزينة بالنجوم والجماجم، لم ترفع صوت مشغل الإسطوانات بأغاني مارلين مانسون، إن مظهرها عادي وغير مفتعل، يمكنك أن تراه في الشارع دون أن تدير رقبتك لتقول (ربنا يهدي) وأنت تحدق في الوشوم التي تغطي جسمها أو القرون الصناعية التي زرعتها جراحيا في مقدمة رأسها.

من المؤكد أنها لم تمارس الجنس معه للضغط عليه فحسب، يبدو أن ذلك كان طقسًا في حد ذاته، لم يفكر كثيراً لماذا اختارته بالذات، إن هؤلاء الطوائف يقومون بمثل هذه الطقوس مع بعضهم البعض، ولكن ماذا إذا كان الطقس يقام على فرد ذي دم جديد؟ ماذا إذا كان (لم يفعلها من قبل)؟!

إن ذلك يُعطي طاقة أكبر للطقس بالتأكيد، جلست أناستازيا فوق بطنه كالفارسة، كانت قد رسمت نجمة بدمها أسفل بطنها حيث يوجد الرحم.

قالت بصوت خطابي: **In nomine dei nostril satanas**
.A te ii virginei

لقد كان محقا، لقد قالت كلمة تشبه(**virgin**)، كانت تريد شخصا لم يمارس الجنس من قبل.

مالت حتى اقترب فمها من أذنه فلامس أنفه أطراف شعرها ثم قالت: "أريد بعضًا من دمائك، لن تشعر بشيء، كدنا أن ننتهي".

- (هذا جيد، لا تتحرك وسننتهي بسرعة).

شعر سليمان كما لو أنه قد تلقى صفعة على وجهه حتى أنه فقد الرغبة في حك أنفه الذي أثارته شعيراتها، أفاق فجأة من غيبوبته، لم نتفق على هذا. ومن قال إن هناك اتفاقًا في هذه الأمور؟

هز رأسه في عنف وهو يراقبها تُخرج محقنًا من غلافه، لقد أعطى الكثير من إبر (البنج) لمرضاه واعدًا إياهم بأنهم لن يشعروا بأي ألم، وعد كان يعلم تماما أنه لا يمكنه الوفاء به بالنظر إلى ردود أفعالهم حين تدخل الإبرة أنسجتهم، لم يكن ليذهب لأي طبيب أسنان حتى لو صارت أسنانه خرابا، كان يبحث دائما عن بديل إذا وُصفت له الحقن للعلاج من البرد.

قالت وهي تغرس السن في وريد ذراعه: "سأجعل منك خادمًا مثلي، وحينها ستحقق مالم تحلم بتحقيقه في أكثر أحلامك جرأة".

صرخ سليمان في رعب دون أن يشعر بألم فعلي، كان يشعر بالخوف والحصار.

(امسك لي هذا الولد الوسيم)

طوح سليمان بذراعه فطار المحقن من ذراعه، أجفلت أناستازيا ثم نظرت له كأفعى غاضبة.

- "أيها الوغد اللعين"، هكذا صاحت وهي تزمجر كالنمور ثم تابعت: "ستفسد عليّ طقسي أيها الأناني".

صاح سليمان: "لا أريد هذا".

كان سليمان يعني بـ (هذا) أن يتعرض للحقن، لكنها فهمت أنه تراجع عن متابعة الطقس الذي تقوم به.

أحاطت عنقه بيديها وقالت: "إذن يجب أن تموت".

كانت قبضتها قوية حول عنقه، حاول أن يلتقط أنفاسه في عجز، أمسك بمعصميها وحاول إبعادها ولكنها زادت من قوة قبضتها، تأرجحت ساقيه لتضرب الهواء والأرض كما لو أنه يقاوم الغرق في بحر أو بئر عميق. كشفت عن أسنانها وتطاير لعابها عليه وهي تزمجر في وجهه، شعر بألم رهيب في رقبته وقد بدأ يفقد الإحساس بجسده، كان يغوص في بئر لن يصل لقاعها إلا ميتاً، اتسعت عيناه ناظرا إلى القمر الأحمر الذي اتضح أنه يشهد ويبارك سفك دمائه، بدأت نجوم حمراء في التشكل والاختفاء أمام عينيه حول القمر مع كل ضغطة من قبضتي أناستازيا، صاح بما تبقى في رئتيه من هواء دافعا إياها بجذعه، ارتفعت قليلًا عن بطنه ثم عاودت الجلوس عليه بإحكام وقد ثبتت ركبتيها على الأرض كالأوتاد.

قالت ضاحكة: "تقافز أيها الحصان الجامح، سأروضك".

مالت للأمام لتلقي بحمل جسمها على رقبته وقد اقترب وجهها من وجهه، قطبت جبينها مضيقة عينيها في غل، كورت أنفها وشفتيها حتى صار وجهها مرعبا، بدت كما لو أن عينيها وأنفها وفمها قد تجمعوا في نقطة واحدة وسط وجهها، استسلم سليمان للموت حتى يغرب عنه هذا الوجه، أغلق عينيه ثم أفلت يديه عن معصميها، ألقى ذراعيه بجانبه وهو يفكر بأنه لن يرى أوروبا أبدًا.

(لا تتحرك ودعني أفعل كل شيء)

عندما استقرت أصابعه على الأرض أحس بجسم بلاستيكي بين الأصداف والقواقع، أمسك بالمحقن الذي طار من ذراعه ولم ير كيف استقر السن الرفيع في رقبة أناستازيا، لم يلحظ حتى إبهامه الذي ضغط على المكبس لا إراديا في غضب وشراسة، تراخت يداها عن رقبته فاندفع الهواء البارد إلى رئتيه التي شعر بالنيران تشتعل فيهما، شهق بقوة ثم سعل وقد بدأت الدماء في العودة إلى وجهه، ارتجفت شفتاه وهو يشعر بسائلٍ دافئ يغمر فخذيه.

كان جسد أناستازيا مستلقيًا فوقه وقد ضغطت على صدره بثدييها الذين كان يمتصهما كما يمتص طفل ثمرة مانجو، دفعها في مقت فتراخى جسمها ليسقط على الرمال وقد تدلى المحقن من رقبتها، علم سليمان أنها لم تمت من سن الإبرة، فعندما ضغط على المكبس انطلقت الدماء القليلة التي سحبتها منه بالإضافة إلى كمية لا بأس بها من الهواء إلى عروقها، لم يكن عليها أن تقلق بشأن دمائه التي يحتمل بأن تكون ملوثة من أحد المرضى الذين يتعامل معهم في العيادة، كان الأخطر في الأمر هو كمية الهواء التي انطلقت لتكون جلطة هوائية في أحد أوعيتها المهمة داخل المخ.

20

ثبت محمد القميص على أنفه بيده وهو يوجه الكشاف بيده الأخرى إلى الجثة العارية المستلقية على الكرسي الخلفي، كانت امرأة (بالنظر إلى الثديين اللذين بدءا في الترهل) و(الشعر المنسدل على وجهها وكتفيها)، كانت ركبتاها منثنيتان لأعلى وقد مال وجهها مواجهًا لظهر الكرسي الخلفي من الناحية اليمنى وفوق بطنها كومة من الملابس، أخرج رأسه من السيارة وأغلق الباب. لابد من التفكير في هذا الأمر، فتح الباب مرة أخرى ومد ذراعه لالتقاط سروال الفتاة من بين كومة الملابس وهو يقاوم رغبته في القيء، أغلق الباب مجددا ثم قام بالتفتيش في جيوب الجينز الغامق، وجد في جيبها الأيسر محفظة من الجلد بنية اللون، ترك السروال أرضا ثم فتح المحفظة، كان بها ثماني مائة جنيه، بعض الكروت الشخصية، رخصة قيادة ورخصة مركبة باسم أناستازيا جونزاليس، وضع المحفظة في جيبه الخلفي، كان في جيبها الآخر هاتف ذكي فقام بإعادته دون أن يفكر بالاحتفاظ به، سمع محمد صوتا صاخبا فقفز في خوف قبل أن يسترخي وهو ينظر إلى هاتفه المحمول الذي استخدم كشافه في قراءة بيانات الرخصة، زفر في ارتياح وقد ظهر رقم هناء على الشاشة، ضغط على زر الرد وقال بعد أن أزاح القميص عن وجهه: "جميييييل.. كيف حالك؟".

ردت هناء: "كيف حالي؟! كيف حالك أنت يا عزيزي؟ ما كل هذا التأخير؟ اعتقدت أنك ستعود مبكرًا".

- "آه، نعم حبيبي، تعلمين لدي عمل عند أحد أصحابي".

صاحت: "نعم أعلم، أعلم أنك تحب أن تفعل الواجب مع أصدقائك حتى لو كان على حسابي".

- "هناء.. هناء.. حبيبتي هذا عمل مستعجل وجاد، إنه لا يحتمل التأخير".

صمتت هناء للحظة، إنها تعرف جيدا كيف تفرق بين الدلع والجد وكان محمد يحب ذلك جدا ويريحه.

قالت: "حسنا"، ثم عاودت الصياح: "وليكن في علمك أنني لن أتناول عشائي حتى تعود، بس"، ثم أغلقت الاتصال، ابتسم محمد على الرغم من الظروف التي يمر بها، إنه يحبها وسيفعل أي شيء لإسعادها، وضع الهاتف في جيبه ثم رفع عينيه إلى السيارة كما يرفع النمر عينيه من بين الأحراش مراقبا فريسته، أمسك بوعاء الطعام الذي لن تستعمله هناء مجددا في حفظ الطعام وبدأ يحفر في بقعة من التربة غير القاسية، استمر حتى حفر مساحة تكفي لتكون قبرا، نهض وهو يلهث، مسح العرق عن جبينه، ألقى بالوعاء ثم اتجه إلى السيارة، فتح الباب الخلفي ثم أمسك بالفتاة من كعبيها وسحب الجسد الذي بدأ في التحلل، تمدد ذراعاها وشعرها للخلف بينما انزلق جسدها على الجلد الفاخر الذي يغطي الكراسي، بدت له كما لو أنها تفرد ذراعيها لتحتضن حبيبها على السرير،

ارتطمت رأسها بدواسة الباب قبل أن تسقط لتصطدم بالأرض فضغط محمد على أضراسه كما لو أنه يمتص الصدمة ثم قال: "آه.. معلش".

سحب الجثة لترسم طريقا على الرمال قبل أن تتوقف، جذبها محمد من كعبيها بقوة فلم تستجب لسحبه، تسارعت أنفاسه وتحفزت أعصابه، ترك كعبيها ثم أمسكها من وسطها وحاول سحبها مجددًا، اهتز جسدها مع محاولاته لجذبها دون أن تتحرك من مكانها، تمتم قائلًا: "بسم الله، ماهذا؟!".

خشي أن تكون ملبوسة أو أي أمر آخر يضيف له المزيد من الحظ العاثر.

أخرج هاتفه مجددا وأشعل الكشاف، أخذ يتفحص الجسد الممدد حتى نظر إلى يديها المفرودة خلفها، التقط أنفاسه متنهدًا ثم أعاد الهاتف إلى جيبه، مد يده إلى المسبحة الملفوفة حول معصمها الأيمن ليحلها عن تلك الشجيرة التي اشتبكت بها وهو يسحبها، همس وهو يعود ليمسكها من كعبيها: "بالطبع لا يعجبك الأمر، أتفهم اعتراضك ولكنني لست من فعل بك هذا".

وبذكر الأمر، لم يحتج إلى الكثير من التفكير ليكتشف من فعل بها هذا.

(أيها المجرم)

تركها محمد ممددة بجوار الحفرة ثم دفعها ليلف جسمها مندفعا إلى قبرها الثاني والنهائي حيث استقرت على ظهرها، جمع كومة الملابس وألقاها فوق الجثة، هل كان عليه أن يلبسها ثيابها؟

لقد فات الأوان على هذا الحنان. استخدمِ الوعاء ليغمر الحفرة بالرمال وراقب وجهها وهو يختفي تدريجيا، توقع أن تفتح عينيها اللتين ابيضتا تماما ثم تنفض التراب عن جسدها وتقول له (عيب عليك).

الجيد في الأمر أنها لن تتهمه بقتلها ولكنه ليس بريئًا تمامًا، ستنظر له كما نظرت له هناء يوما عندما قامت لتحضر شيئا من المطبخ فقام بأكل رغيف الحواوشي الخاص بها ظنا منه بأنها قد أنهت عشاءها، هل عليه أن يتلو شيئا؟ ومن أدراه ما ديانتها؟

عاد إلى السيارة التي لا تزال مشبعة برائحة الموت، أدار محمد المحرك وقام بفتح جميع الأبواب والنوافذ ثم شغل جهاز التكييف بأعلى طاقته، أمسك بالوعاء مرة أخرى وبدأ في إزالة الرمال عن الإطارات، اتجه إلى الفزبة وسار بها إلى مؤخرة السيارة، فتح الصندوق الخلفي، وجد تمثالًا قبيحا يبدو وكأنه رأس كبش، قلص شفتيه وهو ينظر إليه في اشمئزاز، أخرج ورقة صنفرة من صندوق عدته فأمسك بذلك التمثال المقزز وألقاه بعيدا في الصحراء، قام برفع الفزبة ولكنها هوت أرضا بعد أن عجز عن حملها، رفع العجلة الأمامية حتى وضعها داخل الصندوق ثم رفع المؤخرة ودفع بالفزبة للداخل بقدر الإمكان، لن يغلق غطاء الصندوق تمامًا بالطبع، نفض محمد ثيابه من الرمال والغبار ثم ارتدى قميصه، أعاد وعاء الطعام إلى صندوق العدة مرة أخرى، تفحص المكان ليتأكد أن كل شيء على مايرام، حاول إخراج السيارة من الرمال بعد أن أغلق الأبواب الأربعة ولكن الإطارات أخذت تدور في مكانها ناشرة سحابة من

الغبار والرمال، جرب مجددا فقام بضغط دواسة البنزين في قوة وإصرار حتى لامست فرش الأرضية، أخذت الإطارات تدور في شراسة بينما يزأر المحرك تحت الغطاء الأمامي، استمر في الضغط على دواسة البنزين، بدأ يشعر بالعربة تتأرجح للأمام والخلف، رفع قدمه تماما عن البنزين حين تراجعت السيارة للخلف وحين وصلت إلى أبعد نقطة في الوراء كبس على البنزين بكل قوته فانطلقت السيارة للأمام ثم توقفت وبدأت العجلات تدور في مكانها للحظة قبل أن تقفز خارجة من الرمال، ضغط على الفرامل بعد أن تأكد من خروجها بالكامل.

21

استلقت هناء على الأريكة في الصالة تتابع مسلسل الحقيقة والسراب للمرة الخامسة، بينما يقوم محمد بالحفر بوعاء الطعام، عند الفاصل قامت بالاتصال به لتلومه على التأخير، بعد أن أغلقت المكالمة وضعت هاتفها على طاولة الأنتريه ثم رفعت الصوت لتشاهد فيفي عبده وهي توبخ ابنتها مي عز الدين. رن جرس الباب فقطبت جبينها، أمسكت بالهاتف لترى الساعة التي اقتربت من الواحدة صباحًا، نهضت عن الأريكة واتجهت إلى الباب.

- "من في الخارج؟".

لا رد.

- "من؟".

لا رد.

ربما رن أحدهم على الباب الخاطئ ثم تدارك خطأه وذهب، استدارت لتعود إلى الأريكة حين رن الجرس مجددًا، انتفضت هناء ثم التفتت إلى الباب الذي شكل حاجزًا بسُمك بوصة بينها وبين المجهول.

(كم مرة أخبرته أن يضع عينًا سحرية؟)

ألصقت أذنها على الباب وقالت: "من في الخارج؟".

لم يرد أحد.

كان قلبها ينبض في توتر وترقب وهي تحاول أن تلتقط أي صوت من الخارج، لم تسمع سوى صوت هدير الأجهزة الكهربائية التي سرت ذبذباتها على جسم الباب، رفعت أذنها ثم قامت بتثبيت سلسلة الأمان في مجراها المثبت على الباب، فتحت الباب بما يكفي لتُلقي نظرة، اندفع تيار من الهواء البارد فارتجف ثوبها في تموجات، لم يبد لها أن أحدًا يقف في الخارج، فتحت الباب أكثر حتى أوقفته سلسلة الأمان، نظرت بكلتا عينيها، لا شيء، هل هذه مزحة؟ ماس كهربائي؟ توقفت عن التخمين وهي تصرخ بعد أن شعرت بجسم يندفع إلى البيت محتكًا بساقها، رفعت ساقها عن الأرض في رد فعل سريع ثم أغلقت الباب، التفتت إلى داخل البيت وهي تقف متحفزة مكورة قبضتاها، اتسعت عيناها وهي تراقب تلك الهرة السوداء التي انطلقت كالبرق إلى الحمام، كانت تخشى القطط وتقشعر منها لا سيما إذا كانت سوداء، ركضت إلى الحمام وجذبت الباب لتغلقه، أصدر الباب صوت تزييق وصرير حاد وهو يدور حول محوره قبل يستوي مع الجدار.

(كم مرة طلبت منه تزييت هذه المفصلات؟)

تنهدت وهي تؤكد لعينيها أن الباب مغلق، بالطبع لم تقم هذه القطة بالضغط على الجرس، ربما كانت جالسة على السلم حين رن

ذلك السمج الجرس فهرعت إلى الداخل حين فتحت الباب، ستتركها محبوسة في الحمام حتى يأتي محمد لإخراجها، عاودت الجلوس على الأريكة وقد بدأت دقات قلبها تقل تدريجيا، انتظمت أنفاسها وهي تتابع المسلسل، ظلت ترمق باب الحمام المغلق من حين لآخر غير شاعرة بالراحة لوجود ذلك المخلوق المثير للاشمئزاز معها في نفس البيت.

22

سار محمد بالمرسيدس على الطريق الأسفلتي متجها إلى القاهرة، فتح النوافذ الأربعة تماما وقام بتشغيل جهاز التكييف بكامل طاقته، في الأحوال الطبيعية كان ذلك كافيا لإزالة أي روائح من أي مركبة، لم تختف الرائحة تماما، إن السيارات لديها خاصية عجيبة في التقاط الروائح وتخزينها، الفضل يعود إلى خامات المقاعد والمفروشات بالإضافة إلى بقاء السيارة مكتومة لفترات متفاوتة، إنها خاصية جيدة عند استخدام المعطرات ولكنك لن تحب أبدا أن تحتفظ سيارتك برائحة جثة يعلم الله وحده كم من الوقت ظلت محبوسة في الداخل تحت طبقات من الرمال، نظر محمد إلى لوحة إعلا نات ضخمة وقد طُبع عليها مشهدا خلابا لماونتن فيو، قرر أن يقوم بنقع جسمه في حوض الاستحمام لمدة ساعة حالما يعود إلى بيته، سيقوم كذلك بالتخلص من هذه الملابس في القمامة، توقف تفكيره حين رأى على ضوء الكشافات لجنة مرورية تسد الطريق، ماذا كان يظن؟ (هي البلد سايبة؟)، لقد قطع هذا الطريق مرارًا عند ذهابه وعودته من عند رؤوف، لم ير أبدا لجنة مرورية على الطريق، لكنه يراها الآن، كانت السيارة تندفع بسرعتها إلى اللجنة وشعر محمد بأن أمعاءه تلتف على بعضها حتى صارت كرة غليظة ككرة خيط الحياكة الذي تستعمله هناء، لن يستطيع الفرار، سيثير

الشكوك حتما إذا دار بسيارته عائدا إلى الوراء، عندما وقف في صف السيارات شعر بمضرب بيس بول يندفع في مؤخرته مخترقا قلبه.

شعر بالندم على أخذه للمفاتيح وإصراره على إيجاد السيارة، ندم على أخذه لكل شيء امتدت يده إليه، انسحبت الدماء من وجهه وهو يقف في صف السيارات منتظرا دوره، ذات يوم وقف صفا مع زملائه في الصف الثاني الابتدائي لتلقي حقن التطعيم، كان يقف في الصف منتظرا دوره كما يفعل الآن بسيارته (هل أصبحت سيارته؟)، لم يملك أن يمنع نفسه يومها من النظر إلى زملائه وقد اخترق سن المحقن أكتافهم، كان يتمعن في ملامح وجوههم الصارخة في خوف وهو يعلم بأن دوره قادم، إن الأمر لا يختلف كثيرا هنا، كل ما في الأمر أنهم لن يكتفوا بإعطائه حقنة ثم يقولون له لا تفعل هذا مجددا.

تمتم قائلًا وهو ينظر في المرآة إلى الباص السياحي الذي وقف خلفه: "أنا من جلب كل هذا لنفسي".

تقدم بالسيارة في استسلام مقتربا من ضابط المرور، شعر ببعض الراحة حين لاحظ أن الضابط يشير لسيارات النقل بالوقوف ويشير للسيارات الملاكي بالعبور دون تفتيش، هل يمكنه أن يأمل في الخروج سالما من هذا الموقف؟ تبقت سيارة واحدة أمامه، جهز نفسه للاندفاع حال انطلاق السيارة الواقفة في الأمام، بعد مرور السيارة ضغط على بنزين سيارته ناظرا أمامه في براءة كما لو أنه لا

يتوقع أن يتم إيقافه، خفق قلبه في سعادة وهو يتجاوز الضابط. أصدر عقله أمرًا إلى قدمه بزيادة الضغط على البنزين ليخرج من اللجنة حين سمع صوتا ينادي: "انتظر يا مرسيدس".

تجمد محمد وضغط على الفرامل، كاد أن يقول (أنا؟)، لكنه كان يعلم أنه المقصود حتمًا، تلاحقت أنفاسه وهو يراقب الضابط يتقدم نحوه عبر المرآة الجانبية، فكر وقد صار جسده كتمثال من الشمع (لقد انتهى أمري، سأبيت الليلة في السجن).

زفر الضابط الذي اتضح أنه ملازم أول حين اقترب من نافذة السيارة، قال الضابط: "تبا، ما هذه الرائحة القذرة، هل خلعت حذاءك في السيارة؟".

نظر محمد إليه محاولًا أن يبدو وجهه بريئًا وتمتم بكلمات غير مفهومة كطالب في امتحان شفوي لم يذاكر له حرفا.

قرب الضابط أذنه من محمد وصاح: "نعم؟"، صمت محمد ولم يرد وهو يفكر (لماذا لا تقتلوني لننتهي من هذا؟).

اعتدل الضابط ومد يده قائلًا: "الرخص"؟

شعر محمد بلمبة موفرة عالية الواط تضيء في عقله، نعم الرخص، قال وهو يضع يده في جيبه الخلفي: "حاضر يا باشا".

كان قد نسى أمر المحفظة تماما، أخرج رخصة المركبة ثم فتح محفظته وأخرج رخصة قيادته الخاصة، ناول الرخص للضابط الذي تفحصها وهو يقلبهما في تمعن.

قال الضابط: "أين السيده جونزاليس يا سيد محمد؟".

رد محمد فورًا: "أنا أعمل سائقًا للسيدة يا باشا، لقد أمرتني بإحضار سيارتها من توكيل مرسيدس فذهبت بفزبتي ووضعتها في الصندوق"، ثم أشار بيده إلى الفزبة التي كان جزء منها خارجًا من الصندوق الخلفي، رفع الضابط عينيه عن الرخص وقال: "وهل هناك توكيل مفتوح الآن في هذه الساعة؟"، ثم تابع: "اخرج من السيارة".

شعر محمد بمضرب البيس بول يخرج من مؤخرته ثم يندفع مجددا بقوة، فتح الباب وخرج من السيارة، أمره الضابط بإخراج الفزبة من الصندوق.

أخرج محمد الفزبة لتصطدم إطاراتها أرضًا.

سندها بيده بينما يفتش الضابط في الصندوق الذي كان به لمبة صفراء، رأى الضابط ممسكا بورق يشبه ورق البردي، أخذ يقلب فيه وقال له: "ماهذا؟".

هز محمد رأسه في صدق قائلًا: "لا أعلم، إنها خاصة بالسيدة جونزاليس".

كانت هناك رسومات لوحوش وزخارف غريبة حيث انتشرت كتابات بأحرف لم يرها في أي لغة من قبل، لو كانت رسومات فرعونية لاتهمه بتجارة الآثار فورا.

قال الضابط وهو يلقي باللوحات في صندوق السيارة: "ماذا كنت تفعل بالسيارة طوال هذا الوقت؟".

قال محمد: "انظر يا باشا، سأقول لك الحقيقة".

لم يرد الضابط وانتظر أن يُنهي كلامه.

تابع محمد محاولًا أن يبدو منطقيا: "أردت أن أقلب عيشي فوجدت أسرة في بنزينة توتال تريد السفر إلى الإسماعيلية، قمت بتوصيلهم وأخذت ما فيه النصيب".

تمنى محمد ألا يسأله الضابط عن عنوان السيدة صاحبة المرسيدس، لم يصدق حين رأى الضابط يمد يده بالرخص وهو يقول: "إذا كررتها فسأعمل على سجنك بنفسي".

أخذ محمد الرخص وقال: "شكرا.. شكرا جزيلا يا باشا".

رفع الفزبة إلى الصندوق الخلفي كما فعل في المرة الأولى، رمق بجانب عينه فتاة مراهقة تنظر إليه في فضول من الباص السياحي الذي كان خلفه في الدور.

(هل تشاهدين فيلما أم ماذا؟)

قال له الضابط: "اربط هذه الفزبة جيدا حتى لا تتسبب في إحداث مصيبة لمن خلفك".

أخرج محمد حبلًا خاصًا بسحب المركبات وثبت الفزبة، اتجه إلى باب السائق وهو يركل كوبًا كبيراً من الفلين عليه شعار ماكدونالدز المرح، شعر بغرابة لرؤيته في مثل هذا المكان، إنه لا يرى أكواب

وعلب الوجبات سوى في الفود كورت، قرر أن يتوقف ليشتري وجبتين بيج تاستي كومبو التي تحبها هناء.

أشار محمد للضابط وهو ينطلق مبتعدًا، أخذ يشهق ويصرخ ليخرج التوتر الذي سيطر على جسمه، شعر بالراحة بعد أن خرج مضرب البيس بول من مؤخرته، كان يعلم جيدا أن موقفا كهذا لا يمر مرور الكرام أبدًا، لا يدري لماذا انتابه شعور بالثقة، شعور بأنه كان ليمر على أي حال، شعور بأن شيئا لن يوقفه أبدًا.

23

وصل سليمان إلى منزله في ألف مسكن صباح اليوم التالي بعد قتله لأناستازيا، غمر اللون الأزرق المريح كل شيء، كانت السكينة والهدوء هي المظهر العام للمشهد، الطيور تغرد مستعدة للبحث عن أرزاقها، لقد مر الليل ساحبا عباءته المظلمة ليحل الشروق مبشرا ببداية جديدة.

كان الأمر بالنسبة لسليمان كأن معركة قد دارت بين جيشين طوال الليل، لم يعد في ساحة المعركة الآن سوى السكون والهدوء بعد أن استنفد كلا منهما الآخر، لا مزيد من الصياح والصراخ، لا مزيد من الألم والموت، دخل إلى الشقة في هدوء كي لا يُقلق أسرته، فوجئ بوالدته تخرج من المطبخ وعيناها تتساءلان في لهفة وقلق.

قالت له: "أين كنت يا ولدي؟ لماذا لم ترد على الهاتف؟".

ترك سليمان حقيبته على طاولة السفرة ثم خلع حذاءه وقال: "كنت عند أحد أصدقائي يا أمي، لم أنتبه أن هاتفي كان صامتًا"، تثاءب ثم تابع: "أمي أريد أن أنام من فضلك لست في مزاج للحديث الآن".

قالت الأم: "هل أنت بخير؟ تبدو....".

بحثت عن كلمة مناسبة فلم تجد، كادت أن تقول له (تبدو متعبًا)، ولكنها شعرت أن شيئًا ما خاطئ ومختلف، شعرت أن ولدها قد تورط في مشكلة ما.

تابعت قائلة: "هل كل شيء على مايرام؟ ما بك؟".

رد قائلًا وهو يتجه إلى غرفته: "نعم.. نعم.. كل شيء على ما يرام".

ثم تابع: "أريد أن أنام فحسب، لا توقظيني فلن أخرج اليوم".

كادت أن تطلب منه البقاء لتناول الإفطار ولكنها آثرت أن تتركه ليرتاح، قاومت قلقها ورغبتها في الاطمئنان عليه، لم يكن قد اعتاد على المبيت خارج المنزل، وإذا فعل فإنه يعود دون تلك النظرة الآثمة في عينيه، وماذا بشأن تلك الرائحة المقززة التي انبعثت منه بمجرد دخوله إلى المنزل؟ أين بات ابنها بالضبط؟ وماذا كان يفعل طوال الليل؟!

أغلق سليمان باب غرفته واستلقى على السرير بثيابه، اعتقد أنه سينام بمجرد أن تلامس رأسه الوسادة، آلمته عيناه وهو ينظر إلى سقف الغرفة، شعر أنه ليس ذات السقف الذي يعلو سريره كل ليلة، كان يعلم بالطبع أن المشكلة ليست في السقف، هناك لحظة في حياتك تدرك فيها أنك لن تكون أبدًا كسابق عهدك، لن تشعر بما تشعر به كل ليلة حين تستلقي على سريرك مراقبا السقف في شرود ما قبل النوم، لحظة ستبدو فيها كل مشاكلك السابقة ومخاوفك المستقبلية ضئيلة تافهة، إن حياتك ستتغير للأبد حتى أنك ستتمنى أن تعود إلى الماضي بآلامه ومخاوفه، لن تشعر بنفس الرغبة في تناول أطعمتك المفضلة أو المتعة في شرب كأس من الماء البارد، لن

تعمل أو تحدث أصدقاءك كما كنت تفعل في السابق، لن يعرفك أهلك كما اعتادوا أن يعرفوك طيلة حياتك.

تذكر حين نهض عن الأرض صارخًا عاريًا وهو ينظر إلى جثة أناستازيا التي صبغت جسمه بالدماء التي رسمت بها على جلدها، لقد انتهى أمره، إنها أجنبية وهو القاتل، ماذا إذا وُجدت السيارة عاجلا أم آجلا؟

لقد نسي بأن يمسح بصماته عن السيارة بل والأكثر من ذلك أنه نسي مسح الفيديو الذي سجلته له.

لن تُسر الحكومة أبدا عند إيجاد الجثة، ليس بعد ما حدث مع ريجيني، لن يُسر الأسبان بالتأكيد وسيسعون لإثارة المشاكل، ستعلق به الكثير من التهم، إساءة العلاقات الدبلوماسية، توقف السياحة الأسبانية (إذا وجدت)، القتل وربما الاغتصاب أيضا، أمسك برأسه و بكى متحسراَ، لقد انتهى مستقبله وتبخرت أحلامه، كل هذا بسبب طمعه وغروره، لقد كان سعيه للمستقبل أنانيا وغير مدروس، لم يكن يبالي سوى بنفسه وهو يرى أنه أفضل من الجميع، لم يهتم أبدا لأمر أهله أو يقدر تعبهم ومعاناتهم لإيصاله إلى هذه المكانة التي يقلل منها، لم يبال في التفريط بشرفه ورضا ربه، لم يتردد في بيع روحه للشيطان نفسه في مقابل أن يكون مع أناستازيا، أن يكون لها، أن يكون مثلها، قويا مثلها، غنيا مثلها، لكنه لا يملك

ترف التمني بأن يكون كل ما مر به مجرد كابوس يمكنه الاستيقاظ منه، عليه أن يفكر في حل لهذه الكارثة.

(نعم يا عزيزي، هناك حل حتما لكل شيء).

سمع هذا الخاطر في عقله حين وقف حائرًا بجوار الجثة كما وقف قابيل يوما في نفس الحيرة بجوار جثة أخيه.

(اهدأ وتصرف بحكمة).

شعر أن أحدًا يرشده ويقوده، قام بحمل الجثة واتجه إلى السيارة فسقط المحقن من رقبتها أرضًا، وضعها على الكرسي الخلفي ثم أخذ التمثال والشموع وألقاها في الصندوق الخلفي، جمع ثيابها ورماها فوق جثتها ثم أغلق الباب، شعر كأنه ذبابة سقطت في بركة ماء.

(سأخرجك من هذا ثم نتفق).

سمع هذا في عقله فقال لاهثًا: "نعم.. نعم.. أي شيء".

سيفعل أي شيء ليخرج من بركة الماء ثم يقف ليجفف أجنحته وأرجله تحت الشمس.

(لن يعرف أحد أنه وقف عاريًا على الشاطئ يجفف ثيابه من المياه).

ركب السيارة وقادها ثم توقف ملاصقًا لكثيب رملي مرتفع، أطفأ المحرك وأخرج المفاتيح، أغلق باب السيارة ثم ضغط على زر الإغلاق المركزي.

أغلق سليمان عينيه محاولا الاسترخاء على سريره، إنه لا يذكر كل ما حدث بعد ذلك، كل ما يذكره أنه وقف على قمة الكثيب الرملي ثم استعمل الحقيبة السامسونايت ليدفن السيارة تحت الرمال، لم يعد يتذكر أين أخفى الحقيبة أو متى ارتدى ثيابه، بل إنه لا يذكر كيف وصل إلى منزله، لم يعد وعيه إليه إلا أثناء فتحه للباب وخروج أمه من المطبخ، لاحظت الأم شحوب ابنها وتغيره ولكنها لم تلحظ كم كان سعيدًا لرؤيتها، كم شعر بالحنين إليها والخجل منها، لم تلحظ رغبته في احتضانها والبكاء على كتفها عالما بأنها لن تقدر أبدا على إخراجه هذه المرة من ورطته، غاص سليمان أخيراً في نوم عميق خالٍ من الأحلام.

24

تجول محمد بالسيارة في القاهرة كما لو أنه قد ورثها عن والده، لقد قادها في تحدِ إلى وسط البلد للشراء من ماك، ستُسر هناء لرؤية علب الساندوِيتشات اللطيفة وأكواب الكولا التي تطفو عليها قطع الثلج، كان يسير في ثقة وقد شغل الراديو على إذاعة نجوم إف إم، سند كوعه على الشباك وهو يستمع إلى الأغاني، سمع في عقله (إنها لك يا محمد لن يوقفك أحد).

تذكر الحالة المزرية التي مر بها عند اللجنة المرورية فضحك من نفسه، توقف عند أحد معارض السيارات المستعملة ليرى كم سيساوي كنزه.

- "يا ساتر، ما هذه الرائحة يا أستاذ؟ كيف تحتمل السير بها؟"، هكذا قال له الأستاذ حمدي صاحب المعرض وهو يُغلق الباب.

رد محمد وهو يضع يده على سقف السيارة: "بغض النظر، أريد أن أعرف كم تساوي هذه القطعة".

بدا حمدي كما لو أنه يحسب فرص هذه السيارة ثم قال: "لا يمكن القول هكذا بالنظر، لابد من رفعها وفحص الموتور وبقية الأجزاء".

- "لنقل إنها استعمال خفيف، كم؟".

شبك حمدي كفيه ونظر إلى محمد قائلا: "انظر يا سيدي"، ثم صمت كما لو أنه يتأكد أن محمد يصغي إليه جيدا، تابع قائلًا: "ذات مرة حكى لي أحد أصدقائي صاحب معرض في رمسيس عن سكودا أوكتافيا".

أومأ محمد متابعا، قال حمدي: "لقد اشترى صديقي هذه السيارة بعشرة آلاف جنيه فقط، تخيل".

صمت حمدي مدققا في ردة فعل محمد، قال محمد: "كيف؟".

- "حسنا.. لقد مات صاحب السيارة بداخلها وظل بها أسبوعا قبل أن يكتشفه أحد، لقد وصف لي صديقي الرائحة التي شمها عند فحص السيارة، اسمح لي أن أكون جادًا معك، أنا لم أشم أبدًا رائحة تلك السكودا للأمانة، ولكن لو كنت أملك فيلا في الساحل الشمالي لراهنتك عليها أن رائحة السكودا التي وصفها صديقي هي نفس الرائحة المنبعثة من سيارتك اللطيفة الآن، لقد حاول أن يزيل تلك الرائحة بكل الطرق التي لا تتخيلها ولكن دون جدوى، بالإضافة إلى انتشار قصة تعفن صاحبها بالداخل، كل هذا أدى إلى خسف الثمن بالأرض".

لم يرد محمد، وظل ينظر لحمدي في تحد.

قال حمدي: "سأضيف على رهاني أيضا أنك قد سرقتها".

فتح محمد فمه ليعترض وقد أنزل يده من على سقف السيارة، رفع حمدي كفه وتابع: "لا يهمني الطريقة التي حصلت بها على

السيارة، فأنا كما ترى لست سوى بيس بيس مان لا أهتم سوى بشؤوني الخاصة".

صمت للحظة وقام بإخراج علبة سجائر من جيبه، التقط منها واحدة ناولها لمحمد الذي رفضها رافعا كفه، أشعل حمدي السيجارة وقال وهو ينفخ الدخان في وجه محمد: "خمسون ألفًا، ما رأيك؟".

كان ليقبل لولا نبرة الابتزاز التي تحدث بها حمدي.

قال محمد: "في الواقع كل ما أردته هو معرفة سعر بيعها، لقد اتفقت بالفعل مع صنايعية ليقوموا بتفكيكها وبيع كل مسمار فيها".

جاء دور حمدي ليصمت ويكتفي بالاستماع فتابع محمد: "لو كنت أملك فيلا في الساحل الشمالي لراهنتك عليها أن قطع السيارة المفككة ستساوي أكثر من خمسين ألف، ألا تتفق معي؟ أنت ابن سوق وتفهم في هذه الأمور".

فتح محمد باب السيارة قائلًا: "عن إذنك؟".

قال حمدي بعد أن انطلقت السيارة: "حسنا، انتظر...".

رفع محمد مستوى الصوت ولم يسمع ما قاله حمدي.

25

ركن محمد السيارة بجوار المعهد الأزهري في نهاية الشارع الذي يسكن فيه، أمن السيارة واتجه إلى بيته حاملًا الكيس الورقي الكبير ذا الحرف M، كان يلعب بالمفاتيح بيده قبل أن يضعها في جيبه، طرق باب بيته قبل أن يخرج مفاتيحه من جيبه ليفتح الباب، توقف الباب بفعل سلسلة الأمان، تعجب وسأل هناء حين رأى أصابعها تزيح السلسلة عن الباب: "لماذا أغلقتِ الباب بالسلسلة؟".

فتحت له وقالت ملوحة بكفها وقد اتسعت عيناها: "لا أدري، قام أحدهم بطرق الباب وعندما فتحت لم أجد أحدا، ما هذا؟ ماك؟".

تغيرت ملامحها وهي تبتسم ناظرة إلى أكياس الطعام.

أخذت منه الطعام ووضعته على طاولة الأنتريه وهي تقول: "محمد غير ثيابك واستحم، هل سقطت في بالوعة مفتوحة أم ماذا؟!".

ثم توقفت فجأة واستدارت إليه وقد عاد إلى وجهها الجدية والدهشة: "لا.. انتظر.. هناك قطة سوداء في الحمام، أعلم بأنني أبدو مجنونة ولكن هذا ما حدث، لقد دخلت حين فتحت الباب لأنظر خارجا".

ابتسم محمد وقال: "يا لك من شريرة، قمتِ بحبس القطة المسكينة في الحمام، في الحمام يا ظالمة؟"

- "وماذا كنت تتوقع؟ أن أفتح لها الثلاجة وأدعوها لتأخذ ما تشاء؟ لم تعطني الفرصة لأرحب بها على كل حال، لقد انطلقت كالبرق إلى الحمام، الغريب أنها لم تموء وتعبث في الباب بمخالبها محاولة الخروج، القطط تصاب بالجنون إذا تم حبسها، أليس كذلك؟".

أمسك محمد بالمكنسة الخشبية واتجه إلى باب الحمام، راقبته هناء عن بعد وهو يفتح الباب ثم وقفت فوق الأريكة، لم يفتح محمد الباب تماما، مجرد فرجة صغيرة لتغري القط بمحاولة الهرب، لم يشعر بأي ردة فعل من الداخل، قال: "بس بس بس بس بس"، ثم فتح الباب الذي نسي تشحيمه حتى هذه اللحظة، مد يده ليضيء المصباح ثم تفقد الحمام فلم يجد شيئا، حوض الاستحمام فارغ، النافذة مغلقة، نظر خلف الباب فلم يجد شيئا!

شعر بهناء تطل من فوق كتفه، كان يمسك المكنسة بيده اليمنى ومقبض الباب باليسرى، اتسعت عيناها وهي تنظر غير مصدقة إلى الحمام الخالي من أي قطط لا سيما السوداء منها، قالت وهي تشهق: "ربما هربت من الناف..."،

صمتت وهي تنظر إلى النافذة الموصدة.

قال محمد وهو متأكد بأ نها لا تكذب أو تفتعل الأمر: "ربما كنتِ تحلمين؟"

فتحت فمها لتعترض ولكنها توقفت ثم قالت: "ربما".

ذهبت إلى المطبخ لإحضار بعض المخللات وهي تستعيد مشهد القطة المندفعة إلى حمام بيتها، إنها لا تظن أبدًا أنه كان حلمًا أو وهمًا، لم تكن تريد الإصرار على ذلك أمام محمد فيتحدث معها عن الوقت الطويل الذي تقضيه وحدها في المنزل، وبالتأكيد لن يفوت أن يفتح موضوع العمل الذي سيشغلها ويجدد نشاطها، لم يكن لديها اعتراض على العمل ولكنها لا تقبل أن يتسلط عليها أو يتحرش بها أحد.

26

حين استيقظ سليمان من نومه، استغرق لحظة ليتذكر أين هو، لحظة أخرى لتستعيد ذاكرته أحداث ليلة أمس، كانت مروحة السقف تعمل بكامل طاقتها بينما يحاول الذباب مقاومة تياراتها ليقف على جسده، النوافذ مفتوحة تماما، نهض واتجه متثاقلا إلى الصالة حيث كانت والدته تُشعل النار بأعواد البخور وقد لفت طرحة حول أنفها، شعرت به فالتفتت قائلة: "هل استيقظت؟ عزيزي لماذا لا تغير ثيابك وتستحم؟".

قال متثائبًا: "حاضر.. أعدي لي كوبا من الشاي حتى أنتهي".

- "حسنا، ولكن بعد أن تتناول الغداء".

عاد إلى غرفته ليخرج طقم ثياب نظيفة من دولابه، اتجه إلى الحمام وهو يُمني نفسه بمغطس ممتلئ بالماء الدافيء، دخل سليمان إلى الحمام ثم أغلق الباب، علق ثيابه النظيفة ثم خلع ثيابه المتسخة وألقاها في صندوق الغسيل.

- (لقد ملكت روحك).

انتفض سليمان في فزع وهو يسمع هذه الجملة مدوية في الحمام، كان صوتًا حادًا رفيعًا كصوت رجل عجوز مصاب بالتهاب في الحنجرة، تلفت حوله وهو يقول هامسًا: "من؟ من؟".

شعر أنه صوت مألوف سمعه من قبل، ربما عندما كان حائرًا في الصحراء، إنه الصوت الذي أنقذه وساعده على الهرب من فعلته.

رد الصوت: (أنا سيدك، لي اسم عظيم لم ترق بعد لتحيط به).
دار سليمان في الحمام محاولا معرفة مصدر الصوت الذي تابع: (قتلت خادمتي ولكنك بعت لي روحك حتى صار لي عليك سلطانا).
توسل سليمان: "أنا آسف، لم أقصد قتلها".

- (إن روحك ملك لي الآن، إن رائحتك النتنة هي رائحة جثتك الميتة، أنت جسد بلا روح، بلا حياة إلا عن طريقي، أطعني وعش خادما محققا كل ما تتمنى، جرب واعص أمري وراقب جسدك يتحلل حتى تتساقط أطرافك وأسنانك، سينتفخ بطنك وتندلق أمعاؤك، ستسيل عيناك من محجريهما، سينسلخ جلدك عن لحمك وعظامك، ولن تموت حتى أسمح لك بالموت).

رد سليمان: "ماذا؟ ماذا تريد مني أن أفعل؟".
لم يسمع ردًا من الصوت، على الأقل في ذلك الوقت.

27

- (لقد أخذت شيئًا، يجب عليك أن تُعطي شيئًا).

سمع محمد هذه الجملة في الحمام بعد أن نزع ثيابه، لم ينتفض خائفًا كما فعل سليمان، ظل واقفًا صامتًا كالحجر وقد مال رأسه لأسفل، تمنى أن يكون ذلك الصوت مجرد وهم، رفع عينيه ونظر إلى المرآة المثبتة فوق الحوض، سمع الصوت الحاد يتردد مرة أخرى: (أنت أخذت عربة خادمتي وأخرجتها لنفسك).

لقد جاء وقت الحساب، لم يشعر محمد بالغرابة لسماع الصوت في حمام بيته، لقد سمعه طوال الطريق وهو يطمئنه أن أحدًا لن يوقف سيارته.

قال محمد: "اسمع، أنا حقا آسف، لا أريدها".

هنا سمع الصوت كالرعد: (أنت أخذت شيئا ويجب أن تعطي شيئا).

قال محمد: "ماذا تريد مني؟".

لم يرد الصوت.

سمع محمد صوت صرير باب الحمام وهو يفتح ببطء كما لو أن اليد التي تفتحه تستمتع بتلك الموسيقى المخيفة.

خرج عاريًا من باب الحمام، كانت الساندويتشات على السفرة، لكن هناء لم تكن هناك.

(لابد أن الكولا قد فقدت الصودا)

صاح محمد: "هنااء؟"

كانت ركبتاه ترتجفان وهو يسحب قدميه على الأرض، نظر إلى غرفة النوم المظلمة إلا من ضوء خافت بدا كأنه ضوء شموع، وقف عند باب غرفة نومه وقد تلاحقت أنفاسه، شعرِ بمضرب البيس بول يعود لاغتصابه وهو يقول: "لا، هذا ليس حقيقياَ".

28

تظاهر سليمان طيلة الأيام التالية بعدم ملاحظته للرائحة المنبعثة منه، كان الجميع يعلق عليها في اشمئزاز أثناء مروره في البيت، العمل والمواصلات، سمع والديه وهما يتحدثان بشأنه في غرفتهما دون أن يفهم ماذا كانا يقولان من خلف الباب المغلق، ترك شقيقه الأصغر البيت وبقي عند أحد أصدقائه، يركب المواصلات فينظر الركاب حولهم وقد وضع البعض مناديل ورقية على أنوفهم، يقوم أحدهم بفتح النافذة وهو يتمتم: "ما الذي يأكله هؤلاء؟!".

صاح السائق ذات مرة: "والنبي يا أفندية، إذا خلع أحدكم حذاءه فليلبسه، لا ينقصنا سوى هذا القرف على الصبح"، ثم تناول رشفة من كوب الشاي الذي لا يقع أبدا من التابلوه، يشيح بيده من حين لآخر وهو يسب زبائن هذا الزمن الذين يستحقون الحرق أحياء.

بل إن طفلة تقيأت ذات مرة داخل السيارة على عباءة أمها السوداء، نظر الراكب المجاور إلى بقايا الطماطم والخبز فسالت دموعه وهو يقاوم التقلصات في حلقه وقد امتلأ فمه باللعاب استعدادا للتقيؤ، كان سليمان يراقب كل هذا وهو يدعي الانشغال في شاشة التابلت.

في المستوصف اتفق الجميع على أنه مصدر الرائحة، ارتدت سلمى "ماسك" طبيًا وقد وضعت بداخله قطنًا مشبعًا بالفيكس،

كانت ترش المكان بمعطر للجو من حين لآخر، ذات يوم اختفت مفاتيح المرسيدس التي تعمد إظهارها أمام من يحيطون به، إنه لا يذكر أين وضعها بالضبط، لم يشعر بالقلق لفقدانه المفاتيح، إن سيده يتولى كل شيء، تعلم سليمان كيف يصلي وينفذ الطقوس لسيده، بل إنه صار يضحك ضحكة أناستازيا الحادة على كل مزحة، بالإضافة إلى شرائه سبحة ليلفها حول معصمه الأيمن، ذات يوم دخل الدكتور حسام طبيب الباطنة ليجد سليمان واقفًا بجوار سلمى عند مكتب الاستقبال، كانا يتبادلان الحديث والضحك، اعتادت سلمى أن تطلق على سليمان الرجل الآلي ولكنه الآن يبدو مرحًا ظريفًا بالنسبة لها، إنها تبدو سعيدة بحق دون أدنى تأثر من الرائحة، لم يكن من الطبيعي أن يضحك سليمان أو أن يقف ليمازح الموظفين، لو أنه رأى سلمى في الشارع ربما لم يكن ليلاحظها إلا إذا كانت ترتدي يونيفورم المستوصف، بالنسبة له ليست سوى (البت الواقفة برة)، مر الدكتور حسام بسرعة متجها إلى عيادته دون تعليق قبل أن تصل الرائحة إلى أنفه، في وقت لاحق أخبر الدكتور حسام في إفادته للشرطة بأمر آخر لاحظه في سلمى، كانت عيناها مفتوحتين في شرود بينما يحدق هو فيهما بعينين حادتين قويتين، بدت كما لو أنها غائبة عن الوعي!

❁ ❁ ❁

29

وجد محمد زوجته مستلقية على السرير عارية تمامًا من الثياب، نظر إلى عينيها المحدقتين في السقف دون أي علامة على رؤيتها أو إدراكها لأي شيء، عاد إلى ذهنه منظر الجثث التي كانت تسحبها سلمى من ثلاجة الموتى في حلمه، أحاط بجسد هناء ما يشبه الدائرة تم رسمها بلون أحمر على السرير، انقبض قلب محمد وهو يراقب خيط الدماء الذي سال من رسغيها وهي تقبض على سكين بيدها اليسرى، كانت هناك رسمة لنجمة خماسية أسفل بطنها بنفس اللون الأحمر، إنه لا يشك بأن تلك الرسومات قد تمت بدمائها، أضيئت الغرفة بأربع شمعات عند كل ركن من أركان السرير الخشبية وواحدة خامسة على ظهر السرير عند رأسها.

همس محمد وقد قاوم رغبته في تحريك جسدها: "هناء.. هناء".

صاح قائلًا وهو ينظر إلى أنحاء الغرفة: "ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟".

لم يكن يدري هل يقصد بسؤاله ذلك الصوت الشرير أم يقصد نفسه لتسببه في الوصول إلى هذا الوضع.

لم يرد الصوت.

صاح محمد: "ماذا تريد مني؟".

رد الصوت من الحمام: "الأمر بين يديك، أطعنا نتركها تعيش ونكافئك، اعصنا فتموتان معًا).

انتظر محمد أن يقول الصوت طلبه، بعد قليل سمع الصوت الرفيع المبحوح: (أنت أخذت شيئا، نحن نريد منك أن تعطينا طفلًا في المقابل).

قطب محمد جبينه وقال: "ولكن كيف؟ إنها لا تنجب".

- (إذا أطعتنا فبأمرنا سيخرج منها طفلك ليكون لنا خادمًا وعبدًا، أليس هذا ما أردته دوما؟ ألم تحاول علاجها؟ ألم تحلم دوما بطفل يناديك أبي؟).

هز محمد رأسه والدموع في عينيه: "لطالما أردت طفلًا".

رد الصوت: (سيكون لك طفل، ستكون العربة لك، اطلب أي شيء).

صاح محمد: "كيف وصل بي الحال إلى هذا؟".

قال الصوت من الحمام: (كما يصل المرء إلى أي شيء في حياته، خطوة بخطوة).

لم يعد يشعر بالخوف، لم يعد يهتم بسلامته أو سلامة هناء، كل ما كان يفكر به هو الطفل الذي لطالما تمناه، الطفل الذي سيربيه ويراقبه يكبر، لم تتوقف الدموع عن النزول من عينيه.

ابتسم محمد ولمعت عيناه على ضوء الشموع وهو يراقب جسد هناء الذي لم يتوقف الدم عن الخروج من جراحها.

قال: "لطالما أردت طفلًا".

بدت نبرة الرضا على الصوت: (وطفلًا سنعطيك).

تقدم محمد من هناء وقال: "سامحيني يا حبيبتي، أنا من جلب كل هذا علينا".

مسح عينيه بظهر كفه الأيمن وتابع: "كل ما أردته هو أن تكوني سعيدة".

مط شفتيه وهو يقول متأملًا جسد هناء: "أتعلم؟ معك حق، لطالما أردت طفلًا".

لم يرد الصوت.

تابع محمد: "ولكن ليس بهذه الطريقة".

ثم التفت إلى مصدر الصوت المنبعث من الحمام صارخًا وهو يشيح بيديه: "تبا لك فلتذهب إلى الجحيم أيها الشيط....".

توقف عن الصراخ وهو يشعر بألم انتشر كالصاعقة في جسده بالكامل، غاصت السكين حتى مقبضها في ظهر محمد، شعر بها كنصل من النار، فتح فمه ناظرا إلى الأرض، سالت الدماء على ظهره لتغمر مؤخرته وفخذه، اصطدمت ركبتاه بالأرض وقد خارت قواه، سقط على بطنه والتقط بزاوية عينه هناء تقف خلفه وقفة قاتل متسلل!

سمع الصوت يقول: (إذا أنت تموت، إذا هي تموت).

بدأت الرؤية تتلاشى أمام عينيه، حاول أن ينطق الشهادتين ولكنه وجد نفسه ينطق بصوت مدوي بكل ما تبقى في صدره من أنفاس: "أعلم أن الله على كل شيء قدير".

❁ ❁ ❁

30

لم تذكر هناء أي شيء بعد فقدانها لوعيها، كل ما تذكره هو ذلك الحلم العجيب الذي رأته حينها، كانت ملقاة داخل بئر عميقة، أفاقت وهي جالسة على ساقيها المنحنيتين فوق الرمال الجافة ورأسها مائل على جدار البئر الصخري، نهضت شاعرة بالوحدة والحصار حتى ضاقت عليها أنفاسها، تردد صوت شهيقها وزفيرها المرتفع في الجسم الأسطواني، بدأت تصرخ وتستنجد بأحد ليخرجها أو يساعدها، رفعت عينيها لأعلى لترى دائرة زرقاء صغيرة تمثل السماء وسط ظلمة البئر العميقة، وضعت أصابعها بين الصخور محاولة تسلق الجدران الصخرية الغامقة التي تخللتها جذور الأشجار اليابسة، انزلقت قدمها لتسقط على ظهرها ومرفقيها، أخذت تدور في أنحاء البئر الجافة القديمة وهي تنادي لكي يسمعها أحد، جلست ساندة ظهرها على الجدار تدعو بالنجاة والخروج، شعرت بالرمال تبتل من تحت قدميها، نظرت فرأت بقعة سوداء وإذا بالمياه تتسرب خارجة من الرمال مشكلة فقاقيع تشبه الغليان، وقفت ووضعت يديها على الجدارالصخري وهي تراقب المياه تنفجر من تحتها لتغمر ساقيها فخفق قلبها في رعب.

أخذت تصرخ عندما غمرت المياه صدرها مواصلة الارتفاع لإغراقها، لم يتبق سوى رأسها فوق مستوى الماء فأخذت تتنفس محاولة ملء رئتيها بالهواء، أخذت نفسا عميقا قبل أن تغمر المياه

جسدها بالكامل، مدت ذراعيها بجانبيها محاولة الوقوف دون أن تفقد توازنها بعد أن رفع الماء قدميها عن أرضية البئر، سندت بيديها على الجدار وفقاقيع الهواء تخرج من أنفها حتى نفدت الأنفاس من رئتيها، أصابها الهلع وهي تدفع بيديها ورجليها فانقلبت على ظهرها، تسربت المياه إلى أنفها فأصابتها نوبة من السعال ولكنها استسلمت ولم تعد تقاوم الغرق بذراعيها فتركت الماء يدخل إلى أنفها وفمها، فتحت عينيها لتنظر إلى البقعة الزرقاء المتموجة من أسفل الماء، عم جسمها شعور بالراحة والسكينة وهي تعتدل بجسمها غير شاعرة بالاختناق، أرخت نفسها والمياه تواصل الارتفاع إلى قمة البئر، اندفع جسمها فجأة مرتفعا لأعلى فرأت محيط الدائرة السماوية يزيد تدريجيا وهي تقترب من فم البئر، واصل جسمها الارتفاع دون أي تدخل منها حتى طفا على سطح الماء كما تطفو البالونة فصار رأسها خارج الماء وقد التصق شعرها بجانبي وجهها، واصلت المياه الارتفاع حاملة جسد هناء إلى الخارج، حين وصلت إلى سور البئر الخارجي مدت يدها متمسكة بالصخور محاولة الخروج، شعرت بيد تمسك بيدها، أجفلت وحاولت سحب يدها ولكنها سمحت لصاحب اليد بمساعدتها على الخروج، سندت بقدميها على الصخور دافعة بنفسها إلى الخارج، لامست قدميها الأرض فجلست ساندة ظهرها على السور الخارجي والمياه تنهال عليها شلالا، رأت رجلا وسيما هادئ الملامح لم تره من قبل، شعرت بالسلام والخلاص لرؤية ذلك الرجل، رفعت عينيها ناظرة إلى الرجل الذي وقف وقد انحرفت المياه عن جسده يمنة ويسرة وقد مر من

فوق رأسه قوس قزح، نظرت حولها فوجدت أرضا قاحلة يابسة، كانت المياه تخرج من البئر لتغمر الأرض فتنبت بالأشجار والأزهار والحشائش، ابتسم لها الرجل ابتسامة صافية ثم قال: "كم لبثتِ؟".

ردت قائلة: "ما.. ماذا؟".

- "كم لبثت في البئر؟".

شعرت بالطمأنينة لسماع صوته الرخيم الهادئ.

هزت رأسها وقالت: "لا.. لا أدري، إنني لا أذكر شيئًا". قال لها: "لقد كنتِ دائمًا هنا، أنتِ هنا منذ البداية، لكنكِ الآن حرة".

نظرت إليه للحظة دون أن تقول شيئا والمياه تندفع حول جسديهما لتروي الأراضي القاحلة ثم ردت قائلة: "أعلم أن الله على كل شيء قدير".

❁ ❁ ❁

31

فتح محمد عينيه شاهقا، سعل ثم صرخ والدموع تسيل من عينيه، أخذ يصرخ حتى أحس بيد تمسك به، شعر بوخزة في ذراعه ثم سمع صوتًا أنثويًا يقول: "اهدأ.. اهدأ يا أستاذ محمد".

شعر بالاسترخاء بينما تسحب الممرضة سن المحقن من ذراعه، نظر إليها في دهشة ثم نظر حوله، كان جسده ممددًا على سرير ذي أغطية بيضاء، بدت الغرفة كغرف المستشفيات، قامت الممرضة بقياس ضغطه وعدّ نبضات قلبه. حاول النهوض عن سريره ولكنه شعر بشعلة من النار في ظهره، قالت الممرضة: "لا تحاول الحركة، حمدًا لله على سلامتك".

قال لها: "أين أنا؟".

قالت: "أنت في المستشفى، لقد كنت مصابًا بطعنة في ظهرك بالقرب من القلب، جاء بك الأستاذ رؤوف إلى هنا وبقيت في غيبوبة لمدة أسبوع، إنك محظوظ جدا إذا كان لي أن أقول".

أغمض عينيه محاولا تذكر ما حدث ليلة إصابته.

قالت الممرضة: "ماذا كنتم تفعلون بالضبط؟".

قال محمد بصوت مبحوح: "أين هناء؟ هل هي بخير؟".

ردت الممرضة رافعة كفها: "اطمئن.. لقد فقدت بعض الدماء بعد محاولة للانتحار ولكنها ستعيش، الشرطة تقول إنها طعنتك في ظهرك قبل أن تشق شرايينها، ما الذي حدث بحق؟".

أغمض عينيه وهو يشعر بأنياب النعاس تطبق على وعيه.

❁ ❁ ❁

32

أفاق محمد شاعرا بتحسن كبير، استغرق لحظة ليؤكد لنفسه أنه لا يحلم بالوجه الناظر إليه، كان وجه زوجته غارقا في الدموع، أحس بيديها تمسحان على يديه، نظر إلى الشاش الملفوف حول رسغيها، ضحكت كاشفة أسنانها الناصعة حين لاحظت عودته إلى وعيه، ابتسم محمد وقال: "أهلا".

ردت عليه: "أهلا، حمدًا لله على سلامتك".

سالت الدموع من عيني محمد وقال: "آسف.. آسف جدا.. سامحيني".

قالت: "أنت بخير، وهذا ما يهمني".

أومأ برأسه وقال: "اعتقدت أنني لن أراكِ مجددا".

وضعت يدها على شفتيه ثم رفعتها لتحيط رأسه بيديها.

قصت له هناء ما حدث تلك الليلة، كان آخر ما تذكره جلوسها على الأريكة تنتظر خروجه من الحمام وتناول الساندويتشات، أشعلت بعض عيدان البخور بسبب الرائحة الكريهة التي كانت في المنزل ثم شعرت بحركة من ورائها بعد أن ثبتت آخر عود، التفتت وقد شعرت أن شعرها قد وقف فأصبح كالشوك، رأت القط الأسود يقف أمامها، لكنه اختلف كثيرا عن القط الذي رأته يندفع إلى منزلها، كان ما يقف أمامها الآن نفس القط ولكن في حجم الحمار، شعره غليظ شديد السواد، عيناه حمراوتان كالجحيم، حاولت

الصراخ ولكنها شعرت أن وعيها ينسحب منها وهي تحدق في عيني القط، أخذت عيناه تتموجان بألوان فاقعة في سرعة رهيبة، ألوان خضراء، صفراء، حمراء، زرقاء، لم تقدر على رفع عينيها عن عينيه وقد صار كل عالمها ومحيطها مجموعة من الألوان المتموجة الصارخة حتى شعرت بالدوار ثم غاب عقلها عن الوعي تماما.

استيقظت هناء من حلمها في تلك الليلة على صوت صراخ بدا وكأنه يصدر من الحمام، كان كصراخ خنزير مطعون في رقبته.

وجدت نفسها ممددة على الأرض غارقة في الدماء، فتحت عينيها بصعوبة بسبب الدم الذي تجلط على رموشها، اعتدلت وهي تشعر بالدماء الجافة على شعرها ووجهها وصدرها، كانت رائحة الغرفة مفعمة برائحة الدم التي تشبه رائحة الحديد الصدئ، شعرت بألم في رسغيها فرفعت يديها، بكت من منظر رسغيها حيث لا يزال الدم يسيل منهما، رأت من بين يديها وأصابعها الحمراء زوجها محمد وقد تمدد على بطنه وفي ظهره مقبض سكين أسفل كتفه، كان ظهره غارقًا في الدماء السوداء المتجلطة، وقفت هناء معتمدة على رجليها ومرفقيها متحاشية استعمال يديها، شعرت أن رأسها على لعبة دوارة من ألعاب الملاهي المثيرة للغثيان، قدماها مخدرتان واهنتان كأقدام غزال حديث الولادة، ذهبت إلى الحمام مادة معصميها للأمام حيث تدلى كفاها كما لو أنها ترتدي قميصًا ذا أكمام أطول بكثير من مقاسها، فتحت كابينة الفوط النسائية، أخرجت فوطتين وألصقتهما على جروح رسغيها مستعملة إصبعين فقط.

قاطعها محمد: "لم تقُمي بقطع رسغيك أو طعني، أعلم ذلك".

ردت هناء فورا وقد اتسعت عيناها بتلك الطريقة التي يعشقها محمد: "أبدًا ا أبدًا يا حبيبي، لم أكن لأفعل ذلك أبدًا، نعم بشكل عملي أنا من فعل كل هذا، ولكنني لم أكن في وعيي حينها".

صمتت لتلتقط أنفاسها فربت محمد على كفيها، مسحت دموعها وتابعت: "لقد ظننت أنك ميت بالفعل، لا أدري كيف أمسكت بالهاتف واتصلت برؤوف، قمت بتغطيتك ببطانية ولبست "روبًا"، ثم انتظرت وصول النجدة، لا أذكر أي شيء بعد ذلك"، صمتت قليلا ثم تابعت: "أعتقد أن علينا إجابة الكثير من أسئلة الشرطة".

لم يرد محمد وشرد ذهنه وهو يحتضن زوجته التي حرصت ألا تضغط على جرحه.

33

فتح الدكتور محمود يحيى باب إحدى غرف الحبس الانفرادي بمستشفى العباسية، واضعًا منديلًا مشبعًا بالفيكس على أنفه، كان جسد سليمان ممددًا على السرير في آخر الغرفة التي تم تغطية جدرانها بأنسجة مضادة للصدمات لمنع محاولات الانتحار، السرير نفسه خالٍ من الأطراف الحادة والصلبة.

قال الدكتور محمود: "قم يا دكتور لديك زيارة".

نهض سليمان عن سريره ناظرًا إلى الشخص الواقف بجوار الدكتور محمود، لم يبد على هذا الشخص أنه متضرر من الرائحة القذرة التي تفعم أجواء الغرفة، تقدم منه الشخص الذي بدأ يميزه الآن.

قال سليمان: "أنت أخذت مفاتيحي"، ثم ابتسم مقاومًا الضحك: "هل قدمت شيئا في المقابل؟".

جلس محمد على ركبته اليسرى عند قدمي سليمان، ابتسم ثم مد يده في جيبه، أخرج يده وضربها على فخذ سليمان، شعر سليمان بشيء معدني في يد محمد وهو يضربه على فخذه، لم ينتظرعقل سليمان أن يرفع محمد يده ليعرف أن المفاتيح اللامعة تستقر على فخذه.

وقف محمد قائلًا: "أنا لا آخذ شيئًا"، ثم التفت إلى سليمان متابعًا: "أنا لا أعطي شيئًا"، كانت نبرته نبرة رجل تم النصب عليه فجاء ليسترجع أمواله.

ثم أضاف: "أنت لم تأخذ السيارة، أعتقد أنني أعرف ما الذي أخذته".

نهض سليمان عن سريره مواجهًا محمد وقال: "سيخلصني سيدي، سأنفذ طقوسه حتى يطلعني على اسمه العظيم، سيبعث في الحياة حتى تزول عني رائحة الموت، سأصبح خادمًا قويًا".

لم يرد محمد، ظل ينظر إليه في مقت واحتقار، ثم التفت ليخرج من الغرفة، توقف عند الباب ثم التفت إلى سليمان وقال: "لماذا لا يقوم سيدك ببعث الحياة في خادمته التي قتلتها؟".

بُهت سليمان، وفتح فمه بحثًا عن رد فلم يجد.

34

لقد لاحظ الدكتور حسام الذي يعمل في المستوصف التغير المفاجئ الذي حدث لسلمى، أخذ يراقبهما لأيام في حذر، ذات يوم لم يرحل سليمان في الوقت الذي اعتاد عليه كل يوم، لقد بدا كما لو أنه ينتظر خروج جميع العاملين، ذكر الطبيب حسام في إفادته للشرطة أنه خرج وانتظر ليراقب من خارج المستوصف، رأى سلمى موظفة الاستقبال تعود إلى المستوصف كالمنومة، رأى الضوء وقد انطفأ فقام بالاتصال بالشرطة، ذكر أيضا أنه يعرف أنها ليست من هذا النوع من الفتيات، لقد بدت كما لو أن أحدا يتحكم في وعيها، أو أنها تعرضت لنوع من الابتزاز أو الإكراه أو السحر.

ذكر ضابط الشرطة في تقريره أنهم اقتحموا المكان في وقت خارج مواعيد العمل ليجدوا رائحة لا تطاق تنبعث من الداخل، كانت سلمى قد تمددت عارية على الأرض فوق رسم هندسي حوله مجموعة من الشموع والأنوار مطفأة تماما، كان المتهم سليمان يقف عاريًا ممسكًا بسكين رسم بها نجمة على صدره، لم يخف لرؤيتهم بل أصابته نوبة من الغضب، لم تكن قضية آداب عادية، هناك طقس نجس وجو شيطاني يعم المكان، لقد قبضت الشرطة على الكثير من أعضاء هذه الطوائف بتهمة تعاطي المخدرات،

المثلية الجنسية، ارتكاب أمور مخالفة للآداب وإقامة حفلات دون ترخيص، غير أن ما رأوه هذه المرة يختلف عما اعتادوا رؤيته مع هؤلاء الصبية الهواة الذين بدوا كأطفال سعداء بمسدسات العيد، كانت المرة الأولى التي يرون فيها شيئا بهذا الجنون، كما لو أن صبياَ يمسك بمسدس حقيقي هذه المرة وهو يعي تماما كيف يستخدمه.

35

بعد مرور سنة من تلك الأحداث كانت هناء تعاني من أعراض انقطاعِ الطمث، حاول محمد تهدئة نفسيتها وشرح أن ذلك أمرًا طبيعيًا لعدم حملها من قبل، قالت له: "لماذا لا تكف عن القيام بدور المعالج النفسي وتأخذني إلى المستشفى؟ كل ما أريده هو تخفيف الألم الذي أشعر به في بطني"، ثم تابعت: "من قال لك إنني حزينة لعدم الإنجاب؟ إنني أعاني بما يكفي في تربيتك، شكرا سيدي، لا مزيدًا من الأطفال".

ضحك محمد وقال: "شكرا يا ماما".

انتظرها في اليوم التالي بغرفة الانتظار حتى تنتهي من الكشف في عيادة النساء، جاءته ممرضة شابة وقالت: "أستاذ محمد؟".

رفع رأسه فقالت: "زوجتك الأبلة هناء طلبت مني أن أقول لك مبروك المدام حامل".

كان محمد يلعب لعبة الزومبي على هاتفه الذكي فوقع منه أرضًا وقال: "زوجتي من؟".

"زوجتك السيدة هناء عبد الكريم، كم زوجة لك؟".

تلفت محمد حوله كما لو أنه يظن أنها تحدث شخصًا آخر، نهض وقال: "لا تمزحي يا سيدة، هناء لا يمكنها الإنجاب".

"ليس هذا كلامي يا سيد، الدكتور كشف عليها وطلب تحليلًا من المعمل وقال إنها حامل منذ أربعين يوما تقريبا"، التفتت الممرضة لتعود إلى عملها، راقبها محمد وهي تختفي وسط حشود الناس من أطباء وتمريض ومرضى، هز رأسه كما لو أنه يريد أن يفيق لو كان يحلم، أغمض عينيه مبتسما، رفع ذراعيه ورأسه للسماء، شعر كأن الأمطار تنهال على جسده بعد أعوام من الجفاف واليأس، فتح فمه دون أن يقوى على قول أي شيء، خفق قلبه في امتنان وسعادة وهو يتلقى تلك الرحمة السماوية.

شعر بيد تلمس كتفه وسمع صوتًا خشنًا من شرب الدخان: "تليفونك وقع منك يا أستاذ"، كانت مخارج حروفه تدل على فقدان الكثير من الأسنان.

تابع الرجل: "خذ الحذر فقد تنكسر منك الشاشة".

التفت محمد إلى الرجل بعينين مليئتين بالدموع ثم مد يده لأخذ الهاتف، بعد لحظة رن الجرس فوجد اسم رؤوف على الشاشة.

كان رؤوف يصيح في سعادة ومرح مهنئًا محمد بتلك المعجزة، قال محمد: "كيف عرفت! لقد علمت لتوي".

رد رؤوف: "وهل تظنني قاسي القلب مثلك؟ طلبت من ميرنا الاتصال للاطمئنان على هناء فأخبرتنا إنهم يقومون بعمل بعض التحاليل قبل أن تخرج".

عادت الدموع في عيني محمد فقال: "رؤوف؟".

رد رؤوف: "نعم؟".

قال محمد وهو يمسح دموعه بكم قميصه: "ذلك الولد الذي سرق الهاتف...".

قاطعه رؤوف ضاحكًا: "الذي أقاموا عليه الحد؟".

رد محمد: "نعم، ما الذي حدث له بعد ذلك؟".

قال رؤوف: "نسيت أن أحكي لك باقي القصة، لقد جاء الفتى في حلقة أخرى، قال إنهم أمسكوا بسيف وقطعوا يده، نظر الفتى فوجد يده ملقاة على الأرض، نظر حينها إلى الدبلة الفضة على إصبعه السبابة فتأكد فعلا أن ذلك الكف يخصه، أمسك بمعصمه الذي سالت منه الدماء على قميصه ويده الأخرى وانطلق صارخًا إلى المستشفى، بعد أن وصل إلى المستشفى جلس في الاستقبال باكيًا صارخًا والأطباء يحيطون به، رأى من بين دموعه صبيًا في العاشرة يتجه إليه حاملًا كيس بقالة أسود، رفع الصبي الكيس ثم قال: "عمو.. عمو، خذ يدك"، هع هع هع هع هع، هل تتخيل؟ "عمو خذ يدك، وجدتها ملقاة في الشارع"".

حاول محمد الضحك ولكنه لم يقو إلا على إخراج زفرة سالت معها دموعه.

تابع رؤوف: "المهم أنهم قاموا بعلاجه وأعادوا توصيل يده جراحيًا، أعتقد أنه سيكون بخير".

أنزل محمد الهاتف عن أذنه، ابتسم ولا تزال الدموع تسيل من عينيه، زادت ابتسامته حتى برزت أسنانه، ضحك ضحكة، ثم ضحك مرة أخرى، هوى على ركبتيه ورفع رأسه إلى السماء فاتحًا فمه عن

آخره واستمر في الضحك. كان يلتقط أنفاسه في شهيق عميق قبل أن يصيح ضاحكًا حتى تنقطع أنفاسه فيسعل ثم يتنفس مرة أخرى ليضحك، لم يكن في إمكان الجالسين في الانتظار الجزم ما إذا كان يضحك أم يبكي أم يصرخ أم كل ذلك معًا!

36

بعد خمس سنوات من ولادة هناء، فتح محمد باب بيته ليسلم على رؤوف وميرنا وابنيهما مينا ومرقص.

صار مينا الآن مراهقًا وقد ظهر فوق شفتيه شارب خفيف، كان اليوم هو عيد ميلاد خضر ابن محمد وهناء، جلس خضر يشاهد قناة ميكي مع بعض الأطفال من أبناء أصدقاء محمد الذين جاءوا لحضور عيد الميلاد، هرع خضر ليسلم على عمه رؤوف وعائلته، أخذ الهدايا التي تم لفها في ورق لامع جميل، نادى محمد على هناء قائلا: "أحضري التورتة الآن، سأشغل رؤوف بأي شيء حتى يأكل الأطفال أولًا"، ثم ضحك وهو يضرب رؤوف على كتفه، توقف محمد عن الضحك حين سمع صوت هناء الجاد وهي تقول: "محمد تعال لحظة من فضلك".

قال رؤوف: "أوباا.. اذهب يا معلم، أقترح أن تُحضر التورتة أولًا".

دخل محمد المطبخ فوجد هناء ترتدي "روبًا" رصاصيًا وقد شبكت أصابعها أمام صدرها، كانت تخطو خطوات متوترة داخل المطبخ فقال محمد: "ماذا هناك؟ ما سبب هذا القلق؟".

فردت هناء راحتيها وقالت: "هناك شيء أردت إخبارك به منذ زمن ولكنني أردت التأكد أولًا".

- "وما هو يا ترى؟ هل حملت مرة أخرى؟".

- "محمد إنني لا أمزح".
- "لماذا لا تتحدثين إذن وتُريحين أعصابي؟".

أمسكت برأسها ثم أنزلت يديها مرة أخرى فتناثر شعرها حول وجنتيها قبل أن تقول: "أتذكر ذلك الحلم الذي رأيته تلك الليلة؟ أنت تعلم.. تلك الليلة التي...."

قاطعها محمد وهو يشعر بغصة في قلبه: "أعلم عن أي ليلة تتحدثين، أذكر الحلم أيضا، تابعي".

قالت هناء: "لقد أخبرتك أن رجلًا مد يده ليُخرجني من البئر، حسنا.. محمد ذلك الرجل كان ابنك خضر".

لم يقل محمد شيئًا.

تابعت: "أعلم كيف يبدو الأمر، ولكنني شعرت بالأمر منذ يوم الولادة، انتظرت حتى يكبر وتبدأ ملامحه في التشكل، لا تتصور كيف استجمعت شجاعتي اليوم لأخبرك بهذا".

صمتت وهي تقاوم دموعها: "اليوم فقط يمكنني أن أقولها، ابنك خضر هو الرجل الذي قام بإخراجي من البئر تلك الليلة".

ظل محمد صامتًا للحظة، خرج ووقف عند باب المطبخ وهو يراقب ابنه الذي كان يفتح الهدايا التي جاء بها رؤوف.

لم يسمع رؤوف وهو ينادي من الصالة: "أمحماااه، فين التورتة؟".

لم يرفع محمد عينيه عن ولده وهو يفكر (إنك معرض دائمًا لاتخاذ القرارت، بعض القرارت قد تكون بسيطة في البداية، مع

الوقت تزداد خياراتك وقراراتك تعقيدًا وخطورة، في كل مرة تتخذ فيها قرارًا خاطئًا تزداد قدماك عمقًا في الوحل، لا تعود حياتك حينها كما كانت أبدًا، إذا كانت لديك نية وإرادة صالحة فإنك تتخذ الخيارات الصحيحة معظم الأحيان، حتى وإن غاصت قدماك في الوحل فإن الله سيعطيك الفرصة للخروج والنجاة مهما كان عمق وحل آثامك، ليس هذا فحسب، بل سيكافئك أيضا بما لم تكن تتوقع أبدًا، حتى لو كان طفلًا من زوجة لا تُنجب الأطفال، حتى لو طُعنت طعنة قاتلة في ظهرك، حتى لو كان فريقك المفضل هو الزمالك، و..... حتى لو قُطعت يدك بسيف من أيام الكفار).

أحمد المحلاوي

December 2017

اليوم الثاني

سنين

إهداء إلى

الشهيد النقيب/ محمد عادل رزق

الشيخ/ أحمد مسلم

رامي ميلاد سلامة

الإعلامية/ ريهام سعيد

"إذا رأيتم الرايات السود فالزموا الأرض فلا تحركوا أيديكم، ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم ضعفاء لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، هم أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثاق، يدعون إلى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى، ونسبتهم القرى، وشعورهم مرخاة كشعور النساء، حتى يختلفوا فيما بينهم، ثم يؤتي الله الحق من يشاء ".

علي بن أبي طالب

"يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقرأون القرآن بألسنتهم، لا يجاوز تراقيهم، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فمن لقيهم فليقتلهم، فإن في قتلهم أجرًا عظيمًا عند الله لمن قتلهم ".

صحيح البخاري

1

وقف فرانك جوليان وزوجته نيكول أمام بوابة أحد الفنادق الفخمة في ميدان التحرير، كانا في انتظار تاكسي أوبر الذي طلبته نيكول منذ دقائق، قالت وهي تتابع تحركات العربة على برنامج الخرائط مبتسمة: "كم أشعر بالامتنان لتلك الفتاة؟".

التفت إليها فرانك وأخرج هاتفه من جيب سرواله الجينز الأبيض لينظر إلى الساعة ثم قال: "أي فتاة؟".

"تلك الفتاة هدى، دليلتنا في المتحف المصري".

"آه تذكرت، لقد كانت لطيفة جدا"، قال وهو يعيد الهاتف إلى جيب سرواله.

تابعت نيكول قائلة: "لقد قامت بتحميل التطبيق على هاتفي وشرحت لي كيفية استخدامه"، رفعت رأسها تراقب الشارع قبل أن تتابع: "إنه على وصول بالفعل، لن نتأخر عن رحلتنا".

وضعت نيكول هاتفها في جيب سروالها الكتان البيج.

قال فرانك مبتسماً وهو يقلب في ألبوم صور الكاميرا النيكون التي علقها حول رقبته: "كان يومنا أمس جميلا بحق، لقد التقطت لك صورا رائعة".

رفع الكاميرا ليريها صورة لها مع شباب مبادرة مصر آمنة Egypt (is safe)، ثم تابع: "إنهم ظرفاء وودودون".

ضحكت نيكول ورفعت معصمها قائلة: "لقد أهدتني إحداهن سوارا فرعونيا، انظر كم هو أنيق".

رفع فرانك نظارته عن عينيه الزرقاوين ومسح وجهه ذا الذقن والشارب الأبيضين ثم عدل قبعة البيس بول على رأسه الأصلع إلا من قوس من الشعر الأبيض الطويل يمتد من جانبي رأسه وينتهي إلى الخلف حيث ينساب على ياقة قميصه المشجر. كانت نيكول أصغر من زوجها (الذي يبلغ الخمسين من العمر) بعامين، لها ملامح رقيقة، لم يؤثر عليها السن كثيرا، عيناها زرقاوان بدرجة أغمق من عيني زوجها، بشرتها بيضاء تخللتها بعض التجاعيد الخفيفة التي زادت منها وقارًا وعقلانية. انساب شعرها الفضي حول وجهها وكانت ترفع الخصلات من حين لآخر عن عينيها بأنامل نهشها النقرس، ارتدت نيكول لهذا اليوم من أوائل أكتوبر تي شيرت رصاصياَ وجاكيت بنياَ من الفيبر، وصل التاكسي فأشار له فرانك، نزل السائق وسلم عليهما:"bonjour".

ردت نيكول:"bonjour. Comment sa va? "

"bien. Merci"

قام رمزي سائق التاكسي بوضع حقيبتي فرانك ونيكول في الحقيبة الخلفيm وفتح لهما الباب ليركبا.

مدت نيكول يدها بكارت إلى رمزي وقالت بإنجليزية ركيكة: "من فضلك خذنا إلى هذا العنوان".

نظر إلى الكارت وأعاده إلى نيكول ثم قال: "أعرفها يا سيدة، أرجوا أن تستمتعا بوقتكما".

ابتسمت نيكول قائلة: “merci”.

انطلق التاكسي إلى شركة السياحة في المهندسين حيث ستخرج الرحلة المتجهة إلى سانت كاترين، لقد وضحت الشركة ضرورة التجمع في الموعد المحدد وذلك للوصول إلى جبل موسى ورؤية الشروق من القمة، في الطريق راقبا الشوارع المزدحمة، قال فرانك وهو يمضغ العلكة: "أترين؟ تسير العربات التي تجرها الخيول جنبا إلى جنب مع السيارات الفارهة، لقد عددت ثلاثين سيارة رينو حتى الآن، ذكريني أن أركب إحدى عربات الخيول".

أشاحت نيكول بيدها التي حولها النقرس إلى أصابع من العظام الملتفة بالعروق الخضراء تكسوها طبقة رقيقة من الجلد قبل أن تقول: "إن منظرها مهيب، يمكنك أن تشعر بالقوة والسلطة كما كان يشعر الملوك عند ركوبها، لا تمزح معي لقد صارت فترات الملوك موضة قديمة، ولكن الناس لا تزال تجد المتعة في ركوب عربات الخيول ومراقبة الآخرين يسيرون على أقدامهم"، ثم تابعت: "أو

حتى في سياراتهم، دعك طبعا من تلك اللحظة التي لا يتردد فيها الحصان في إفراغ أمعائه، إنه يملك حرية لا يساومه عليها أحد".

- "بالأمس رأيت رجلا يفعلها أمام أحد الأسوار".

نظرت له نيكول وقوست شفتيها لأسفل، تابع فرانك: "الغريب أن المارة كانوا يتابعون سيرهم بجواره دون أن يشعر أحدهم بشيء من الغرابة!".

مرت لحظات من الصمت في السيارة التي قطعت طريقها بين الزحام والإشارات والمتسولين.

- "هل أعجبك طعام البارحة؟"، قال فرانك.

ردت نيكول: "أعجبتني طريقة شوي الدجاج المتبل على الفحم، كان الأرز لذيذًا مع الفاصوليا ذات المرق الثقيل".

ثم تابعت: "افتح لي زجاجة من الماء لآخذ علاجي".

أخرج فرانك من حقيبة يدها زجاجة مياه معدنية صغيرة وعلبة أقراص النقرس، بعد أن أخذت نيكول الدواء قال فرانك: "كيف حال يديك؟".

- "في تحسن، ليس الجو شديد البرودة حيث يصير الأمر عذابًا"، صمتت للحظة ثم تابعت: "حينها أشعر بأن لحمي

يتآكل عن عظامي كما لو أن أحدا قد وضع يدي في زيت مغلي".

أمسك فرانك بيدها وربت على فخذها قائلًا: "سترتدين قفازاتك الحرارية قبل صعود الجبل حيث تنخفض درجة الحرارة".

- "هممم، بالطبع إنها تشعرني بالراحة، المشكلة أنني لا أتمكن من استعمال يدي بكفاءة، حين أحركهما أشعر كأنهما داخل كومة من الشوك".

2

جلس خالد فاروق وزينب شكري في شركة السياحة بالمهندسين على كراسي الانتظار استعدادا لانطلاق الرحلة إلى سانت كاترين، امتلأ المكتب بالعديد من المسافرين من المصريين والأجانب متجهين إلى الغردقة أو الأقصر وأسوان. بالإضافة إلى خالد وزينب، لم يشاركهما في رحلة سانت كاترين سوى عزيز حنا وزوجته مارثا شوقي وابنتهما ماريا، شغل المسافرون وقتهم في الحديث، الأكل والشرب، مشاهدة شاشة التلفاز الكبيرة أو النظر إلى شاشات الهواتف الذكية، فقط ماريا كانت تقرأ كتابا بالفرنسية، بالإضافة إلى زينب التي كانت تقرأ القرآن، وقف البعض في الخارج يدخنون السجائر، أما الموظفين فكانوا يعملون أمام أجهزة كمبيوتر، أمسك بعضهم بسماعات هواتف أرضية ذات سلك لولبي للاتصال بالفروع الأخرى ومتابعة تحركات الباصات، ارتدى خالد قميصًا كاروهات فوقه صديري صوف بني وسروالًا جينز من التوحيد والنور، كان مهندسًا معماريًا أربعينيا أصلع الرأس، قمحي اللون، ذا ذقن متوسطة وشارب خفيف، يضع على عينيه نظارة من مغربي، أما زينب فكانت مدرسة رياضيات ارتدت سروالًا جينز أسود من فوقه فيست زيتي طويل الأكمام وقد لفت شعرها بطرحة بيج، لم تضع على وجهها قمحي اللون هادئ الملامح أي مساحيق تجميل كما

يأمرها زوجها دوما، أخذ خالد يمرر سبابته على شاشة التابلت وهو يقول: "ما كل هذا الانتظار؟ لماذا أصروا إذن أن نأتي باكرا؟".

ردت زينب دون أن ترفع عينيها عن المصحف الذي تقرأ فيه: "أرجوك لا تبدأ في التذمر، أنت من أصرّ على هذه الرحلة، لست في صحة تسمح لي بتسلق الجبال ولكنني لن أتذمر على أي شيء".

نظر لها خالد بجانب عينيه وعاد لتصفح الفيس بوك.

قالت مارثا محدثة عزيز: "هكذا هو الأمر دوما، مع مختلف الشخصيات والطبقات، الكل يأتي متأخراَ ولا يتلقى اللوم".

رد عزيز وهو ينظر في هاتفه الذكي: "يقول لك (داخل عليك) بينما لا يزال يستحم في بيته".

- "نعم، الوحيد الذي يندم هو من يأتي في موعده، لهذا تتم جميع المواعيد بالتقدير".
- "بالطبع لا يوجد موعد بالساعة، دعك من أن يكون بالدقيقة، فقط لدينا بالنهار، آخر النهار، المغرب، في الليل"، ثم ضحك قبل أن يتابع: "إذا أردتِ إعطاء موعد فاختاري أي توقيت مما سبق والذي يمتد كَل واحد منهم لأربع أو خمس ساعات".

كان عزيز صيدلياَ أربعينياَ، ارتدى في ذلك اليوم سويت شيرت رمادياً وسروالًا جينز أزرق، أما مارثا فكانت بدينة بعض الشيء، ترتدي سروالًا جبردين أسود من فوقه بادي أبيض اللون وجاكيت

من الفيبر الأسود، تملك مارثا عينين عسليتين مع وجه مستدير شاهق البياض يحيط به شعر كستنائي تركته ينسدل على كتفيها.

قالت ماريا: "تُرى ماذا سيكون وضعكم إذا استعملتم هذه القواعد مع شخص يحترم مواعيده؟ سيتهمكم بالتخلف".

التفتت مارثا إلى ابنتها وقالت: "وما الذي تقترحينه أيتها المتحضرة؟".

"لا أقترح شيئًا، أنا أذهب في الموعد المتفق عليه وأنتظر 10 دقائق فقط لا غير، لا أقوم بالاتصال حتى لا يقول لي (داخل عليك)، ثم أذهب في سبيلي بعد انتهاء المهلة".

ضحك عزيز فتابعت ماريا: "لو كنت صاحبة القرار هنا لاستردت أموالي وغادرت المكتب فورا".

قالت مارثا رافعة كفيها: "أي أموال؟ إنني أحلم بهذه الرحلة منذ أن كنت في عمرك، وحين تأتي الفرصة تطلبين مني أن أغادر؟".

ردت ماريا بلهجة هادئة لتخفيف عصبية والدتها: "إذا توقفي عن التذمر يا عزيزتي".

نادت مارثا أحد العاملين: "هل اقترب الباص يا سيد هلال؟".

ابتسم هلال بشفتيه وعينيه وقال: "داخل علينا يا سيدة، لا تقلقي".

اتسعت عينا عزيز وماريا وضحكا ناظرين إلى مارثا التي ضمت شفتيها ولم تقل شيئا، ثم نهضت قائلة: "سأحضر لنفسي بعض الشاي".

فتح عزيز فمه فقاطعته: "لست عاملة القهوة التي تجلس عليها مع رؤوف ومحمد خلاف، أحضر ما تريد بنفسك".

ابتسم عزيز وقال: "حاضر يا معلمة".

تظاهر هلال بتلقيه مكالمة مهمة على الهاتف الأرضي، عادت ماريا لتتابع قراءة كتابها، كانت ماريا في الثانية عشرة من العمر، ترتدي جينز أزرق وسويت شيرت أحمر وقد استلقى على صدرها صليب فضي علقته حول رقبتها.

التفت الجميع ناظرين إلى الفرنسيين وهما يدخلان من البوابة الزجاجية للمكتب، فتح فرانك الباب لزوجته بينما يُحضر رمزي سائق التاكسي الحقائب من الخلف.

رمقتهما مارثا في ريبة قبل أن تجلس وهي تقلب الشاي بملعقة من البلاستيك، راقبت فرانك وهو يُحدِّث هلال بإنجليزية ركيكة عن رحلة سانت كاترين، أومأ هلال برأسه عدة مرات فابتسمت وقالت في نفسها: (أعطهم عذرا لتأخر الرحلة أيها الذكي، جرب أن تقول إن الباص داخل علينا الآن مثلا).

جلس فرانك ونيكول بينما تحدث هلال في الهاتف مجددا وقد بدا عليه الاهتمام، أنهى المكالمة ثم أغلق زر جاكيت البدلة الكحلي واتجه نحو ركاب رحلة سانت كاترين.

بدا كالفأر المبتل وهو يفتح زر الجاكيت قائلًا: "أرجو الانتباه من فضلكم، في الواقع لم يتأخر الباص، لقد أخذ الركاب من الفروع الأخرى وانطلق دون أن يعلم بوجود ركاب هنا".

نفثت مارثا وقال خالد: "هل نذهب إلى بيوتنا الآن إذن؟".

تصبب العرق على جبين هلال وقام بإغلاق زر الجاكيت مرة أخرى وقال: "لا لا، في الوقت الذي نتحدث فيه الآن تم تجهيز ميكروباص سياحي فاخر وهو في اتجاهه إلى المكتب، لن يأخذ الأمر دقائق، أعد بأنكم سترتاحون أكثر في هذه الرحلة، وستصلون إلى قمة الجبل مع الشروق".

قال هذا ثم اتجه إلى الفرنسيين ليترجم لهما ما حدث قبل أن يتلقى المزيد من الاعتراضات، هز فرانك ونيكول رأسيهما وقالا: "لا مشكلة، المهم أن نلحق بالشروق"، ابتسم هلال ورفع قبضته مبرزا إبهامه لأعلى وعاد إلى مكتبه.

3

وصل الميكروباص السياحي إلى المكتب في الحادية عشرة صباحًا، أطل جميع موظفي المكتب في خلاص وارتياح إلى الميكروباص، تنهد هلال بسبب العبء النفسي والعصبي الذي وضعه رواد الرحلة عليه، إذ لم يتوقفوا عن إلقاء اللوم على تلك الشركات التي لا يهمها سوى جمع الأموال من الناس بأي ثمن، قال لركاب الرحلة الذين لم يتبق في الصالة غيرهم تقريبا: "استعدوا يا سادة لقد وصل الباص، تفضلوا بالركوب وسيقوم السائق بتحميل أمتعتكم".

نهض الجميع متجهين إلى الباص في حين قام السائق بفتح الباب الجانبي، انطلق خالد ساحبا زوجته من يدها ليحتلا الكنبة الأمامية خلف السائق، نظرت له مارثا في اشمئزاز متمتمة: "لا تدفع أيها الغبي، لن تصل قبل الجميع لمجرد جلوسك في الأمام".

دخل عزيز وجلس على الكنبة الثانية فنادته مارثا وهي تتجه إلى الكنبة الثالثة: "تعال إلى هنا يا عزيز، لا أحب الاستماع إلى ثرثرة الآخرين".

التفت إليها خالد كما لو أنه لعبة تم جذب خيط محركها، نهض عزيز ليجلس بجوار زوجته وابنته على الكنبة الثالثة، دخل فرانك ونيكول ليجلسا في الكنبة الخلفية في آخر الباص، قام السائق برفع حقائب الظهر ووضعها فوق شبكة الباص وأحكم وثاقها، جلس

صبي في العاشرة أسمر اللون في المقعد المجاور للسائق، بدا مشغولا بشيء في يديه ولم يبد عليه أي اكتراث بالركاب الجالسين في الخلف، تحدث السائق الأسمر مع هلال قبل أن يصافحه ويركب في مقعد القيادة، التفت إلى الخلف وقال: "أهلا وسهلا بكم جميعا، أعلم أنكم تنتظرون منذ وقت طويل ولكنني أعدكم بأنكم سترتاحون أكثر من الرحلة التي فاتتكم، اسمي سالم محجوب وهذا ولدي وسيم"، لم يتفاعل وسيم مع سماع اسمه على لسان والده، تابع سالم: "سأكون السائق والدليل الخاص بكم طوال الرحلة، إنني أعمل في رحلات سانت كاترين منذ خمس سنوات وسأشرح لكم تفاصيل الرحلة ولكن كلًا في وقته، أريدكم أن ترتاحوا وتحاولوا النوم فلا يزال الطريق طويلا".

ترجم سالم ما قاله بالإنجليزية للفرنسيين الذين ابتسما وشكراه.

بعد لحظات من سير المركبة ارتفع صوت وسيم فجأة قائلًا: "الفااااتحة"، ثم رفع كفيه أمام وجهه ليتلو الفاتحة بصوت مرتفع، بعد ذلك أخذ لعبة الروبيك التي وضعها على التابلوه ليعاود ترتيب ألوانها.

سار الميكروباص في شوارع القاهرة الشبيهة بالأوعية الدموية المكتظة بالخلايا، راقب الركاب الشوارع في ملل محاولين الاسترخاء في مقاعدهم، أمسك فرانك الكاميرا النيكون وقام بتصوير رجل يبيع البطاطا عند إحدى الإشارات، تزايدت سرعة العربة مع سلوكها

طريق السويس الصحراوي، كانت نيكول تأكل إصبعا من الموز وهي تسند رأسها على كتف زوجها الذي أخذ يطالع خارطة ورقية لسانت كاترين.

بعد لحظات قام خالد بتشغيل ملف صوتي لسورة الإسراء بصوت الشيخ المنشاوي على جهاز التابلت، أمسك الجهاز بيده اليمنى وسند بذراعه اليسري على ظهر الكنبة ناظرًا من النافذة بجوار زينب، شعر بأصابع تطرق على كتفه مع صوت أنثوي ينادي: "أنت يا أستاذ؟"، التفت خالد إلى الوراء فوجد ماريا بجوار النافذة تقرأ كتابا وقد بدأ الدم يتصاعد إلى خديها بينما عزيز عند طرف الكنبة مغمض العينين وقد وضع سماعتين في أذنيه، كانت مارثا هي صاحبة النداء وقد رسمت على وجهها ملامح من البرود تُخفي خلفه الكثير من العصبية، هز خالد رأسه قائلًا: "أفندم؟"،

رفعت مارثا يدها اليمنى وقربت إصبعيها السبابة والإبهام حتى أوشكا أن يتلامسا وقالت: "هل من الممكن أن تسمع بواسطة الهاند فري؟".

هز خالد رأسه وقال: "وإذا لم يكن من الممكن؟".

صاحت مارثا وقد ذاب لوح الثلج عن فوهة البركان: "يا أسطى سالم؟ من فضلك اجعله يُوقف هذا الإزعاج، لا أستطيع النوم".

صاح خالد وقد اعتدل ليواجه مارثا: "أسطى سالم من يا هانم الذي سيوقفني؟ لن أوقف شيئًا"، ثم رفع صوت التابلت، فتح عزيز عينيه وأزال السماعتين عن أذنيه قائلًا: "ماالأمر يا مارثا؟".

التفتت إليه وقالت واللعاب يتطاير من بين أسنانها: "لا أستطيع النوم بسبب هذا الأفندي".

رفعت ماريا عينيها عن كتابها للحظة ثم عاودت القراءة بعد أن وضعت سماعتين في أذنيها، راقب الفرنسيان المشهد دون تعليق.

نظر سالم في المرآة الأمامية حين قال عزيز: "بالله عليك يا أستاذ، لا نريد مشاكل، اسمع ما تريد في سماعتك".

نهض خالد عن كرسيه فأمسكت زينب بذراعه قائلة: "ضع السماعات في أذنيك يا خالد ولننتهي من هذا".

نادى سالم من الأمام: "يا جماعة صلوا على النبي، إننا في رحلة".

صاح خالد وقد انتفخت أوداجه: "عليه الصلاة والسلام يا عم".

صرخت مارثا: "لماذا تفرض على الجميع أن يستمعوا لما تستمع إليه أنت؟ فلتستمع إلى ما شئت في سماعاتك".

بادلها خالد الصراخ: "وهل يقدر أحد أن يطلب منك نفس الشيء إذا كنت تستمعين إلى قداس على هاتفك؟".

أشاحت مارثا بيدها قائلة: "عندما تراني أستمع إلى القداس بصوت مرتفع اطلب مني حينها أن أغلقه"، ابتلعت ريقها وهي

ترمقه بنظرات نارية فلو كانت تدق شررا لاشتعلت لحية خالد ولانشغل بإطفائها عن متابعة الشجار.

تصاعدت أنفاس وسيم وبدأ في الأنين فالتفت إليه والده وطلب منه أن يضع كفيه على أذنيه.

قال سالم: "من فضلك يا سيد خالد، ضع السماعات في أذنيك واستمع لما شئت".

اعتدل خالد على مقعده وهز التابلت وهو يقوم بإغلاق مشغل الصوتيات ثم قال: "ها.. سأغلقه تماما لكي ترتاحوا جميعا".

ثم التفت إلى مارثا وصاح مشيحًا بكفه: "لا إله إلا الله".

حدقت به مارثا وهو يعاود الاعتدال للأمام ولم تقل شيئا، التفتت زينب إلى الخلف ونظرت إلى مارثا معتذرة ثم عاودت النظر للأمام.

❁ ❁ ❁

4

استمرت الرحلة حتى وصل الباص إلى نفق الشهيد حمدي، أخرج الجميع كاميراتهم وبدت الإثارة على الفرنسيين بينما يسلك الميكروباص المنحنيات داخل النفق الأنبوبي حيث اختفى ضوء الشمس وحلت محله الأضواء الكهربائية، ارتفع صوت هدير المحرك بالإضافة إلى أصوات مرور السيارات المعاكسة، ابتسم الفرنسيان وقد وجهها كاميراتهم إلى مخرج النفق وانبهرا بعودة ضوء الشمس لتغمر الباص مجددا.

بعد عبور النفق سارت الرحلة في طريق من حارتين فقط حتى وصلوا إلى مفترق طرق، سلك سالم الاتجاه الأيمن وهو ينادي: "يمكنكم الاستمتاع بالمناظر الطبيعية طوال الطريق، سنمر في طريقنا على عيون موسى وبعد عبور رأس السدر سنتوقف للاستراحة عند محطة بنزين موبيل".

التفت سالم إلى ولده وقال: "ماذا تفعل يا وسيم؟".

التفت إليه وسيم ورفع الروبيك الملون بجانب رأسه قائلًا: "ألعب يا بابا".

- "جيد.. تابع اللعب، هل تريد أن تصعد الجبل؟".
- " نعم، أريد أن أصعد الجبل حتى الأعلى، حتى الأعلى من فوق".

ابتسمت مارثا والتفتت إلى عزيز قائلة: "من حسن الحظ أنه لا يوجد إرهاب في جنوب سيناء وإلا ما تمكنا من زيارة هذه الأماكن الـ...".

- "أي إرهاب يا مدام؟"، قال خالد وقد عاود الالتفات إلى الخلف متسع العينين.

خفق قلب مارثا وتصاعد الدم إلى وجهها وهي ترد: "لا تعرف أي إرهاب؟ إرهاب، قتل، تفجير، غدر".

- "نعم أعلم، ومن الذي يقوم بذلك؟"، قالها خالد وقد ارتجفت شفتاه.

- "من يقوم بذلك هم الجماعات المسلحة الإرهابية، لا تعرف من؟ سأقول لك، داعش، حماس، الإخوان".

رفع خالد إصبعه وأخذ يهزه قائلًا: "توقفي عن الاتهامات دون دليل يا هذه"، ثم صرخ قائلًا: "لو سمحت".

مدت مارثا رأسها للأمام وصاحت: "لَن تخيفني يا هذا بصوتك المرتفع".

نادى سالم: "اعتقدت أننا انتهينا من هذا يا حضرات. إننا....".

- " ثم ليس اسمهم داعش، هذا ما يقوله إعلامكم المضلل، اسمهم تنظيم الدولة".

طلب سالم من ولده أن يضع السماعات على أذنيه، لم يبد على الفرنسيين أي اكتراث بما يحدث، اكتفيا بالمراقبة بعينين ناعستين، لم ترفع ماريا عينيها عن كتابها ولم يتدخل عزيز هذه المرة، ترك

السماعات في أذنيه وعقد ذراعيه أمام صدره محاولا النوم، تابع خالد الذي حاولت زينب جذب ذراعه ولكنه دفعها قائلا: "الحكومة هي رأس الإرهاب والجيش عميل وقاتل، آلاف من الإخوة لقوا حتفهم في سجون الحكومات المصرية المتعاقبة، دنسوا أعراض الأخوات، دمروا حياة الأبرياء، ستة آلاف من المسالمين ماتوا في اعتصام رابعة حرقًا وخنقًا وبالرصاص".

- "كنت أعلم أنك إخوانجي، لماذا لا تتحدث بالمرة عمن قُتلوا بأيديكم؟ قتلتم الوزراء والحكام والمدنيين والمجندين في التفجيرات والعمليات الإرهابية".
- "نعم.. نعم، قتلنا، الدم بالدم والبادئ أظلم".

رفعت كفها وصاحت: "ومن البادئ؟ من الذي جاء من الصحاري والخيام ليحتل بلاد الآخرين ويستضعفوا أبناء البلد الأصليين ويفرضوا عليهم الجزية ويجبرونهم على تغيير عقائدهم؟".

- "ها.. نعم.. صدقي هذا، أبناء البلد الأصليين الذين لم يتجاوزا حينها العشرة بالمائة من مجموع الشعب، تمزقهم الخلافات والانقسامات، يعذبهم الرومان ويُلقون بهم للتماسيح والأسود الجائعة، يعاقبونهم بالجلد وفرض الضرائب، ذلك المحتل يا سيدة هو من حماكم من الانقراض وأعاد الأنبا بنيامين إلى كرسي الكنيسة الأرثوذكسية، لم يثبت تاريخيَا أن قبطيَا واحدًا تم إرغامه على الإسلام،

والجزية التي تتحدثين عنها مقدارها دينارين سنويًا مقابل حماية البلد من غزو الرومان".

اتسعت عينا مارثا وقالت: "هذا التاريخ الذي تُفضل أن تعرفه أنت، والذي كتبه شيوخك، وما الفرق بين ما قام به الرومان وما تقومون به الآن؟ جعلتمونا نشعر بالغربة في وطننا كما لو كنا دخلاء عليه، نبذتم جنسنا وحرمتمونا من الكثير من حقوقنا، استأثرتم بكل التميزات لأنفسكم، أظهرتم الحب وأبطنتم الكراهية برغم الظلم الذي وضعتموه علينا، استبحتم دماءنا وأرواحنا، لا يمر لنا عيد أو مناسبة إلا وقضيناه حدادًا على شهدائنا، حتى اعتدنا على القتل بأيديكم".

- "ألم ترقصوا وتؤيدوا اليد التي قتلت إخواننا؟ يجب إذن أن تتحملوا النتائج".

صاح سالم: "الدم كله حرام يا أستاذ، لا فرق بين مسلم ومسيحي من أبناء الوطن الواحد الذي سالت دماء الجميع دفاعا عنه".

تجاهله خالد وتابع: "تتحدثين عن الحب، أنتم تُظهرون لنا الحب وحسن المعاملة وحين تختلون بأنفسكم تهزأون منّا وتسخرون من عاداتنا، يا له من حب!".

ردت مارثا: "نعم، أتحدث عن الحب، لأن إلهنا طلب منا أن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا، لهذا السبب لا تجد منا ردًا حقيقيًا شافيًا عندما تُزهق منا الأرواح وكل ما نفعله هو الاستهزاء بكم

والسخرية منكم كما تقول، أليس نبيك هو من أمر برفع السيف على الجميع؟".

ثم نظرت موجهة حديثها إلى زينب: "أليس قرآنك يا سيدة هو ما يأمر بالقتل في كل آية من آياته؟".

احمرّ وجه خالد حتى صار كثمرة طماطم على وشك الانفجار في أي لحظة لتنثر الصلصة على الجميع بما فيه المكعب الذي يلعب به وسيم والمرآة الأمامية التي سيكون على سالم مسحها ليرى ما خلف المركبة.

رفع خالد جهاز التابلت وقال: "لدي على الجهاز العديد من الآيات في الإنجيل التي تأمر بالقتل والحرق والدمار أيضا".

رفعت مارثا يدها مشيرة إلى تابلت خالد قائلة وهي تهز رأسها: "وهل تفهم أيًا من معانيها لكي تتحدث؟".

رد خالد: "وهل فهمتِ أيًا من معاني ما جاء في كتابنا قبل أن تتحدثين؟".

- "لا أحتاج لفهم أي شيء، ما أراه أمامي كل يوم من قتل وفتاوى من شيوخكم باستباحة دمائنا وكراهيتنا يكفي عن أي شيء".
- "وماذا عن قصص الذين تعذبونهم في كنائسكم لاعتناقهم الإسلام؟".

ردت في برود: "كما قلت أنت، مجرد قصص، هل رأيت أيًا من ذلك؟ كالكثير من القصص التي تزعمون أنها تحدث في كنائسنا".

قال متهكمًا: "مجرد قصص تسببت في ذبح 21 مسيحيًا في ليبيا على يد الأخوة المجاهدين الذين سيخلصوننا من عصابة السيسي وجيشه بإذن الله ثم نعود إلى الأقصى ونحكم بشرع الله".

- "أي شرع هذا في ذبح الأبرياء والزواج من الأطفال ولبس الخيام على الأجساد؟".
- "نساؤنا جواهر يحفظون أجسادهن و....".
- "من حقي أن أرى من أتحدث إليها ونرى جميعا حقيقة التي أمامي".
- "وأنا من حقي أن أطلب منك أن تزيلي كل تلك الأصباغ والمساحيق عن وجهك ليرى الجميع حقيقة التي أمامي".

شهقت مارثا واصطدم ظهرها بمقعدها، أمسكت ماريا شفتيها محاولة منع نفسها من الضحك وهي تُبدي الانشغال بالنظر من النافذة، زفر عزيز ونظر إلى زوجته قائلًا: "ها.. ألم تكتفِ بعد أم ماذا؟"، ثم التفت إلى خالد قائلًا: "من فضلك يا أستاذ، اعتدل وانظر أمامك لقد سأمت من هذا".

- "ذلك الوغد، انظر ماذا قال عني"، صاحت مارثا وقد تناثر اللعاب من فمها.
- "من الوغد أيتها الـ....".

أمسك عزيز رأسه بيديه وصاح: "يكفي هذا، أقسم بالله إن لم تتوقفا أن أترك الباص وأعود إلى القاهرة مشيا".

تفحص خالد ومارثا بعضهما قبل أن يعتدل خالد في مقعده.

بعد لحظات قال عزيز مخاطبا مارثا: "لقد أخطأتِ".

زفرت مارثا وقالت: "هو الذي استفزني أولًا".

قالت ماريا : "حتى وإن فعل، لم يكن عليكِ أن تنحدري معه في نقاشك بهذا الشكل".

نظرت لها مارثا بجانب عينها في حين قال عزيز: "لم أكن أعلم أبدًا أنك تفكرين بهذه الطريقة".

❁ ❁ ❁

5

"إنها لأرض فريدة"، هكذا قالت نيكول وهي تراقب المسافات الشاسعة من الصحاري التي اختلطت بالخضرة والأشجار، مسافات من الرمال لا تخلو من العيون والآبار والجداول، جبال متراصة جنبا إلى جنب في تناسق بديع من الصخور مختلفة الألوان والأحجام، لا يمكن أن تفوت تلك التكوينات الصخرية البديعة التي شكلت فنا تجريديا بفعل عوامل النحت والرياح.

قال فرانك: "يالها من لوحة فنية! الأمر المشترك في كل المكونات هو الخشوع لذلك التجلي الإلهي الذي شهدته تلك البقاع منذ آلاف السنين".

ردت نيكول: "يمكنك رؤية الجبال تستعرض قوتها وضخامتها لكن في سكينة ووقار، الأشجار تنكس أوراقها وغصونها تواضعا، الأراضي الشاسعة لا تزال مباركة من الأقدام التي سارت عليها من الأنبياء والرسل والقديسين، لا يمكنك أبدا أن ترى أيا من هذا في الصور كما تراه الآن بشكل حي".

- "انظري" أشار فرانك إلى السماء، "لدينا ها هنا أسراب من الطيور لتكمل عناصر اللوحة، أشعر بالحياة تدب في جسدي".

ردت نيكول وهي تشير إلى الخارج: "أيا كانت قناعاتك وآراءك، فإنك لن تملك أمام هذا المنظر سوى أن تراقب وتصمت، ترى تلك

العظمة التي تخبرك بأنك لم تر كل شيء بعد، كل خبراتك التي بنيت عليها تصوراتك للأمور، كل الآراء التي تجادل دفاعا عنها لا تساوي شيئا أمام خبرات تلك البقاع التي رأت أكثر مما رأيت أنت، لو تحدثت لسمعت ما لم تكن لتعلمه ولو عشت عشرين عمرا على عمرك".

بعد لحظات قال سالم: "نحن الآن بمحاذاة عيون موسى التي فجرها الله لبني إسرائيل بعد العبور إلى سيناء، سنتوقف عندها ولكن في رحلة العودة".

بعد مرور الميكروباص برأس السدر استمرت الرحلة لبعض الوقت قبل أن تتوقف عند محطة بنزين موبيل.

نادى سالم: "استراحة يا جماعة، سنتوقف لنصف ساعة قبل أن نتابع".

أفاق الركاب من نومهم حيث ألقت زينب رأسها على كتف خالد الذي خلع نظارته ومسح عينيه، كانت ماريا قد نامت مسندة رأسها على النافذة بينما نامت أمها وقد مال رأسها للخلف لتتنفس من فمها المفتوح بجوار عزيز الذي عقد ذراعيه حول صدره ومال برأسه للأمام، أيقظ فرانك زوجته التي كانت ممددة على الكنبة الخلفية ساندة رأسها على فخذه، تثاءب عزيز وهو ينزل من الباص خلف خالد وزوجته، نزلت مارثا متثاقلة وقد تنملت رجلها اليمنى فكانت تستند على الكراسي في نزولها، نزل سالم ومط ذراعيه مقوسا ظهره للوراء، اتجه إلى الباب المعاكس ليوقظ وسيم الذي نام وفي يده لعبة الروبيك.

- "وسيم.. استيقظ، انهض لآخذك إلى الحمام".

نزل الولد من الكرسي الأمامي ممسكا المكعب الملون ولا يزال النعاس على عينيه، رد على والده قائلًا: "أعرف كيف أدخل الحمام لوحدي يا بابا، ماما علمتني كيف أخلع السروال وألبسه بمفردي، ماما قالت لا تخلع ثيابك أمام أحد، لا أعرف لماذا ولكن هذا ما قالته وسأطيعها، سأدخل إلى الحمام بمفردي".

ضحك سالم وربت على كتفه وقال: "جيد، جيد، لا تنس أن تُغلق سحاب السروال أيضا، هذا مهم جدا يا ولد، تعلم أنني أحبك أليس كذلك؟".

رفع وسيم رأسه وقال: "وأنا أحبك يا بابا، بجد، بجد".

ثم أمسك بيد والده وقبلها قائلًا: "انظر كم أحبك، بارك لك الله في شعبان وبلغك رمضان".

- "قل لي، ما أخبار الروبيك؟".

اتسعت عينا وسيم ورفع الروبيك قائلا: "أستطيع ترتيب كل الألوان، كل الألوان جميعها بسرعة، بجد، بجد، انظر".

أخذ يحرك ألواح المكعب قبل أن يناوله لسالم قائلا: "لا لا، خذ ولخبط الألوان".

أمسك سالم المكعب وغير ترتيب الألوان في جوانب المكعب، التقط وسيم الروبيك وقال: "انظر يا بابا، أستطيع ترتيب كل الألوان".

راقب سالم المكعب وقد بدأت الوجوه تأخذ لونا موحدا، صفق لولده وقال: "ممتاز، ممتاز".

رد وسيم: "لماذا تضرب يديك ببعضهما يا بابا؟ ستشعر بالألم".

ضحك سالم وقال: "أنت نجم يا وسيم".

رد وسيم وكأنما يحل لغزا: "أنا نجم الروبيك يا بابا".

جلست الأسر على طاولات الاستراحة يتناولون المشروبات والشطائر، حاول خالد شراء قطعة شيكولاتة سنيكرز ولكنه اعترض على السعر قائلًا: "ولكنها أرخص في القاهرة".

رد عليه البائع قائلًا: "إذن اذهب واشتريها من القاهرة"، ثم التفت ليحضر علبة بيبسي لمارثا ولكنه التف إلى خالد مجددًا قائلًا: "ولا تنس الجوابات".

كتمت مارثا ضحكتها قبل أن تأخذ البيبسي وتعود للجلوس مع أسرتها.

كان الفرنسيان سعيدين برحلتهما بعكس الجميع الذين بدوا كما لو أنهم في رحلة عمل ثقيلة الظل.

بعد الاستراحة اتجهوا إلى الباص وقد سار كلا من خالد ومارثا في المؤخرة يتجادلان حتى بديا وكأنهما خطيبان يختلفان في شكل فستان الزفاف، لم يحاول أي من الركاب إيقاف الجدل فيما بينهما، اتجهت ماريا إلى وسيم الذي كان واقفًا أمام العربة، وقفت بجواره تراقبه دون أن يبدو عليه أنه قد لاحظها.

- "لقد رأيتك تلعب بالروبيك، ما هو اسمك؟".

نظر وسيم إليها بجانب عينيه دون أن يلتفت.

قال سالم: "وسيم، ماذا قلنا عندما يحدثك أحد؟".

التفت إليه وسيم وقال: "أنظر إليه في عينيه يا بابا".

ثم التفت إلى ماريا ناظرًا إلى عينيها كما لو أنه يؤدي فرضًا لا يدري ما المغزى منه.

- "اسمي وسيم سالم عبد الصمد محجوب، وُلدت في الجيزة بمستشفى العجوزة، بابا وُلد في النوبة بمحافظة أسوان، أما ماما فوُلدت في أسوان أيضا وماتت في الجيزة يوم 23 أغسطس من عام 2013، مساكِ الله بالخير ورزقك الوقوف على جبل عرفات".

أشار بعدها بكفه مستفهما وسأل ماريا التي كانت تبتسم ابتسامة هي أقرب للضحك: "وأنتِ، ما اسمكِ يا آنسة؟".

ضحكت ماريا وقالت: "اسمي ماريا عزيز حنا، وُلدت في المهندسين".

ثم مدت يدها إليه، لم يفهم وسيم تعبيرها فقال سالم: "سلم عليها يا وسيم".

مد وسيم يده وأمسك بيد ماريا ليهزها بقوة لأعلى وأسفل، مال ظهر ماريا للأمام وهي تقول: "مهلا، مهلا، ليس هكذا، سأعلمك، مد يدك للأمام ولا تفعل شيئًا".

مد وسيم يده دون أن يرفع عينيه عن عيني ماريا حتى حين حولت نظرها إلى يده، أمسكت بيد وسيم برفق وهزتها في لين قبل أن تضع يدها الأخرى على شفتيها الضاحكتين.

اقترب سالم وقال: "المعذرة آنسة ماريا، إنه مصاب بالتوحد و....".

- "أعلم، أعلم، إنه ظريف جدا".

وضع سالم يده على رأس وسيم وقال: "إنه لا يحب التعامل مع الغرباء عادة ولكن يبدو أنه أحبّك".

- "وأنا أيضا أحب وسيم".

رد وسيم قائلا: "الله يحييكِ ويمسيكِ بالخير يا ماريا".

اتجه سالم إلى مقعد القيادة وهو يتابع وسيم الذي رفع كفيه أمام وجهه قائلا: "أذكرك يا ماريا بكثرة الدعاء والاستغفار لأمي في السماء، الفاااااتحة".

ثم بدأ في تلاوة الفاتحة بصوت مرتفع، رفعت ماريا كفيها أمام وجهها وتلت بعض الصلوات ثم انتظرت حتى انتهى وسيم وصاحا معا: "آآآميييين".

قال سالم: "اركب يا وسيم لكي لا نتأخر".

قالت ماريا: "هل تسمح لي إذن أن أجلس بجوارك لأعلمك بعض الرسومات في مقابل أن تعلمني كيف ألعب الروبيك؟".

- "أنا ألعب الروبيك، أستطيع ترتيب كل الألوان، كل الألوان جميعها بسرعة، أنا نجم الروبيك".

اتجهت ماريا لتخبر أمها أنها ستجلس في المقعد الأمامي مع وسيم، أعطتها أمها قطعة من الشيكولاتة وقالت: "أعطِ هذه للولد".

بعد أن ركب الجميع انطلق الميكروباص عائدا إلى طريق سانت كاترين، راقب خالد في فتور ماريا وهي تغير ترتيب الألوان بشكل عشوائي ثم تناول المكعب لوسيم الذي يدير الألواح بدوره في وقت قصير قبل أن تتوحد ألوان كل وجه من وجوه الروبيك لتضحك ماريا رافعة حاجبيها في دهشة.

بمرور الوقت عاد الجميع إلى النوم ما عدا وسيم وماريا حيث كانت ماريا ترسم رسومات في كراستها وتترك وسيم ليخمن الرسمة.

كان يصيح في انتصار: "فيل"، "حصان"، "بيت".

ولكن حين رسمت وردة بدا عليه الانزعاج وقد قطب جبينه قائلًا: "واا، وااا".

- "نعم، صحيح، أكمل"، قالت له ماريا.

قال سالم: "هناك كلمات لا يتمكن من نطقها فيكتفي بنطق الحرف الأول فقط".

أومأت برأسها وقالت: "وردة، قل وردة".

مط وسيم شفتيه وقال: "وااا، يكفي هذا، لا أحب الرسم، سنلعب لعبة الحرب على هاتفي، الله يحييكِ ويمسيكِ بالخير يا ماريا".

ضحك سالم: "ها قد بدأنا، لا تحاولي إيقافه، سيصر على شرح استراتيجياته في اللعب بالدبابات والأسلحة لتحرير الرهائن من الأشرار".

قال وسيم: "يجب أن أقتل كل الأشرار ليعود السجناء إلى بيوتهم ليأكلوا الحلويات ويشاهدون الكارتون".

قالت ماريا: "هل تحب مشاهدة الكارتون؟ هل تتابع قناة ميكي".

- "أتابع قناة ميكي كل يوم الساعة الخامسة مساء، على تردد 11257 أفقي".

ضحك سالم ودفنت ماريا وجهها في كفيها ضاحكة.

أخرجت ماريا هاتفها لالتقاط صور لهما ولكن وسيم أصر على أن يتولى تصويرهما باستعمال الكاميرا الأمامية.

بمرور الوقت وضعت ماريا سماعة في أذنها وأخرى في أذن وسيم وناما وهما يستمعان إلى أغاني شاكيرا.

أخذ الباص يسلك بعض المنحنيات الخطرة حين قال سالم: "نحن الآن بالقرب من حمام فرعون وهي عيون مياه كبريتية طبيعية تُستخدم للاستشفاء".

6

وصلت الرحلة إلى سانت كاترين مع السابعة مساء، بدت المدينة محاطة بالجبال من جميع الاتجاهات، وقف الباص أمام الفندق الذي تم الحجز فيه للاستراحة، صعد الجميع إلى غرفهم بينما قام العمال بحمل الحقائب التي كانت عبارة عن حقيبة ظهر لكل فرد بها أغراضه الشخصية وحقيبة متوسطة الحجم لكل أسرة بها ملابس ثقيلة. كانت فرصة ثمينة لسالم لكي ينال قسطا من النوم فنام مع وسيم في الغرفة المخصصة لهما واستيقظ في الحادية عشرة حيث اجتمع مع المسافرين في استراحة الفندق.

- "سنتجه الآن إلى جبل موسى لنبدأ في الصعود، ارتفاع الجبل 2500 متر فوق سطح البحر، يستغرق الصعود من أربع إلى خمس ساعات كما يوجد استراحات على طريق الصعود، يمكنكم ركوب الجمال لصعود طريق الخديوي عباس الذي يمتد من سفح الجبل وحتى السلالم الحجرية، وهي عبارة عن 750 درجة تُدعى درجات التوبة كما يسميها الرهبان".

تابع المسافرون سالم باهتمام وهو يرسم لهم خط سير الرحلة بينما يقوم من حين لآخر بالترجمة للفرنسيين.

رفع سالم إصبعه قائلا: "من المهم أن نبقى سويا، لسنا في سباق وإلا وجدت نفسك وحيدا بين الصخور، إذا شعر أحدكم بالتعب ولم يرغب في الاستمرار يمكنه الانتظار في إحدى الاستراحات حيث يمكنه

رؤية الشروق أيضا، أنا أعرف كل أصحاب الاستراحات وجميعهم أمناء وطيبين، بالنسبة لحقائب الظهر سنحضر بشكل أساسي ملابس ثقيلة إضافية تحسبا لانخفاض درجات الحرارة، باور بانك، قارورة من المياه ولا ينصح بشرب الكثير من الماء أثناء الصعود".

دار سالم بعينيه في الجالسين وقال: "تبدو ملابسكم مناسبة، ولكنِ لن ينفع الحذاء الجلد معك يا سيد خالد، يُفضل أن ترتدي حذاءً رياضياً ويُستحسن أن يكون برقبة عالية كي لا تلتوي قدماك".

رفع خالد عينيه عن هاتفه وقال لزينب: "أحضري لي "الكوتشي" من الحقيبة البنية".

- "حاضر، لماذا تبدو منزعجًا؟".
- "لا يوجد شبكة في كل الخطين اللذين في الهاتف، وأريد الاتصال بإبراهيم بشأن أحد مشاريع المكتب".

قال سالم: "لا تتعب نفسك يا سيد خالد، فقط موبينيل تعمل هنا للأسف".

بدا على خالد خيبة الأمل وهو يعيد الهاتف إلى جيبه.

ضربته زينب بمرفقها قائلة: "اسأل المسيحيين لابد أن معهم خط 012".

تجهم خالد وقال: "لا، ليس الأمر مهمًا".

- "ولكنك قلت....".
- "قلت ليس الأمر مهما".

ولكن خالد اتجه إلى عزيز في طريقهم إلى ركوب الباص وقال: "هل معك خط 012، أحتاج إلى مكالمة ضرورية للعمل".

بدا على عزيز التردد قبل أن ينظر بجانب عينه إلى مارثا التي قالت: "أليس هذا الـ012 الذي تسخرون منه وتسمونه خط المسيحيين؟".

لم يرد خالد عليها هذه المرة بل ظل ناظرًا إلى عزيز في توسل، أخرج عزيز هاتفه وناوله لخالد دون أن ينظر إليه.

فرح خالد بمظهر الأعمدة المكتملة للشبكة وقام بإجراء الاتصال ثم أعاد الهاتف إلى عزيز الذي قال له: "ما تخلي".

لم يرد خالد واكتفى بشكره قبل أن يجلس بجوار زوجته في الكنبة الأولى.

❁ ❁ ❁

7

ركن سالم الميكروباص أمام سور حجري قصير بجوار دير سانت كاترين ثم بدأوا في صعود الجبل سالكين طريقًا ترابيًا.

أمسكت كل أسرة في أيدي بعضهم البعض وفي يد كل منهم كشافا، كان سالم ووسيم في المقدمة وقد وضع سالم كشافه تحت مقدمة الآيس كاب الذي يرتديه.

شاهد خالد على ضوء الكشاف بعض الصخور وقد كُتب عليها بعض المغامرين أسماءهم مع تاريخ أسفل كل اسم، كانت السماء كسجادة سوداء مرصعة بقطع من الألماس متفاوتة الأحجام والألوان.

قال فرانك وهو يراقب نيكول التي بدأت في الإمساك بيديها: "لقد بدأت البرودة تؤثر على يديك، ربما حان الوقت لارتداء القفازات".

أخرج فرانك القفازات وساعدها على ارتدائها لتشعر ببعض الراحة.

ظهرت بعض أضواء لكشافات من بعيد مع صوت صيحات.

قال سالم: "تلك إشارات من المجموعات المتقدمة لإرشاد المجموعات الخلفية إلى الطريق الصحيح".

مرت المجموعة في طريقها بعدة استراحات مضاءة بمولدات تعمل بالوقود وقد تم بناؤها بالحجارة والملاط، تراصت الكراسي البلاستيكية أمام كل استراحة حيث جلس بعض المتسلقين.

قال سالم مع وصولهم إلى الدرجات الصخرية: "سنصعد هذه السلالم ببطء، وجهوا أضواء كشافاتكم إلى مواضع أقدامكم لأن الدرجات مختلفة الأبعاد، سنتوقف عند الاستراحة القادمة".

بعد صعود بعض الدرجات بدأت النساء في التذمر وقد بدا عليهن التعب والإعياء بسبب تقلصات عضلات القدمين حتى أن مارثا قد طلبت من عزيز حملها، نادت ماريا وسيم قائلة: "حاسب يا وسيم".

- "أحاسب على إيه؟ ولكن ليس معي مال، أنا آسف"، رد عليها وسيم وهو ينتقي خطواته على الدرجات.

ردت ماريا: "انتبه لكي لا تقع، وتوقف عن إضحاكي من فضلك".

أخذوا يتسلقون الدرجات الوعرة رافعين أقدامهم في صعوبة مع كل درجة، كانت نيكول تلهث وهي تصعد مستندة على ذراع فرانك بيدها ذات القفاز الحراري، نظروا في أمل إلى أضواء النيون التي سطعت من الاستراحة القادمة.

خرج رجل بدوي من باب الاستراحة الحجري والذي لا يسده سوى مفرش من الوبر الملون، قام بتوجيه كشاف يدوي على المجموعة ثم صاح عند رؤية سالم: "أهلين أهلين، حمدًا لله على سلامتك يا ولد العم".

رد سالم: "أهلين بك يا ريس داوود".

كان داوود أسمر اللون حاد الملامح، يرتدي جلباباً من الصوف الرمادي وجاكيت فيبر وعلى رأسه آيس كاب.

احتضن داوود سالم ثم صافح وسيم قائلًا: "إيش لونك يا ولد يا وسيم".

- "لوني أسمر، مثلك يا عمي داوود".

أمسكه داوود من أذنه قائلًا: "يا ولد يا شقي، لازلت تذكرني".

رحب داوود بباقي المجموعة ودعاهم للدخول حيث الدفء.

كانت الأرضية مفروشة بالحصير الملون، الجدران مغطاة بمفارش من الوبر رسم عليها خيام وجمال وخيل، انضم المتسلقون إلى مجموعة أخرى جلسوا على مقاعد بلاستيكية تحيط بطاولات مستديرة.

- "أفضل الجلوس في المجلس العربي لأمدد ساقي"، قالت نيكول متجهة إلى ركن الغرفة الذي وُضع عنده مجلسَا عربيَا مكونًا من مفرش ومساند ومراكي.

فتح داوود ثلاجة الاستراحة وأخرج دورقين كبيرين من المياه للمسافرين ثم سألهم عن طلباتهم.

- "لا عليك يا داوود، سأعد لهم بعض الشاي البدوي"، قال سالم وهو يتجه إلى الموقد الذي كان عبارة عن كومة من الحطب المشتعلة يتصاعد منها الدخان إلى خارج الاستراحة

عن طريق مدخنة، نادى سالم ولده قائلا: "تعال يا وسيم لنعد الشاي".

وقف وسيم بجوار والده وانضمت إليهما ماريا ومارثا.

علق سالم إبريق الماء على حامل معدني ثم أمسك سيخا حديديا وأخذ يقلب في الحطب قبل أن يمسك بكير من الجلد لينفخ في النار التي زادت توهجا وقد تبعثر الرماد بفعل ضغط الهواء.

قالت مارثا: "هل هذا الشاي مختلف؟".

رد سالم: "الشاي المغلي على الحطب له مذاق خاص، كما أنهم يضيفون إليه نباتا يسمى المرمرية كما نستعمل نحن النعناع، ها قد غلت المياه".

- "بكم يا بابا؟ غليت بكم؟"، تساءل وسيم في براءة قبل أن تجيبه ضحكاتهم وقد وضعت مارثا كفها على رأسه قائلة: "لا تقلق، لم تزد أسعار المياه، على الأقل حتى الآن"، ثم التفتت إلى سالم قائلة: "بالطبع لا يفهم المعاني المعنوية للألفاظ ويأخذ الكلام بالمعنى الفعلي".
- "صحيح وهذا....".

قاطعته ماريا قائلة: "وهذا يثير ضحكي إلى حد البكاء".

سألت مارثا وسيم قائلة: "ماذا تريد أن "تطلع" عندما تكبر يا وسيم؟".

رد وسيم في شرود وهو يراقب والده الذي بدأ في إضافة الشاي والمرمرية إلى الماء المغلي: "أريد أن "أطلع" الجبل".

ضمت ماريا قبضتيها ورفعت رأسها ضاحكة وهي تقول: "أوه، لا، ليس مجددا".

قالت مارثا مبتسمة: "أعني ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟".

التفت إليها وسيم هذه المرة واتسعت عيناه ورفع ذراعيه للأعلى قائلا: "أ ريد أن أصبح كبيييراً، مثل أبي".

أغمضت مارثا عينيها مبتسمة في حين قالت ماريا: "لنشرب الشاي قبل أن يقتلنا وسيم من الضحك".

صب داوود الشاي للجميع الذين رحبوا بالأكواب الزجاجية التي تصاعدت رائحتها الزكية مع حلقات البخار.

نهض سالم عن مقعده البلاستيكي معلنا انتهاء الاستراحة، أخذ المتسلقون حقائب الظهر استعدادا للمتابعة.

- "أعتقد أنني سأراقب الشروق من هنا يا سيد سالم"، قالت نيكول من المجلس العربي وقد مددت ساقيها أمامها، التفت إليها فرانك الذي كان في طريقه إلى الحمام قائلًا: "نيكول، لا تقولي إنك جادة".
- "لا أعتقد أنني في مزاج للمزاح أو لتسلق المزيد من الصخور، لكن لو خيرتني بين الاثنين فسأفضل أن أكون مستر بين"، ردت نيكول وهي تغطي كفيها بغطاء من الصوف.
- "أنا أيضا"، رفعت ماريا يدها، ففتحت مارثا فمها لتعترض فتابعت ماريا: "لدي مغص ولا أريد أن أجد نفسي وسط الصخور إذا زاد الأمر عن ذلك".

مطت مارثا شفتيها ورفعت كفيها ناظرة إلى عزيز.

قال سالم: "لا تقلقي يا مدام، الريس داوود صديقي وستكون ابنتك بأمان".

ثم التفت إلى فرانك ليقول له نفس الشيء.

قال فرانك: "ابقِ هنا، ولا تتحركِي حتى نعود".

- "ومن الذي يرغب في الخروج في مثل هذا الجو إلا إذا كان مجنونًا مثلك، لا سيدي"، ردت نيكول وهي تحتضنه ثم أضافت: "عُد إليّ سالما، أنا أمشي بصعوبة ولن أتمكن من قضاء بقية حياتي في مساعدتك على دخول الحمام".

ضحك فرانك وقبّل زوجته قبل أن ينضم إلى رفاقه في التسلق.

قالت مارثا لعزيز: "لست مرتاحة إلى تلك الشمطاء، لديها عينان كعيون الثعالب".

رد عزيز: "لولا الحياء لفضلت البقاء في هذه الغرفة الدافئة برفقة تلك الشمطاء عن الخروج في هذا الجو، ربما علينا أن نكون أكثر قلقًا على أنفسنا".

8

وصلوا إلى قمة الجبل قبل الشروق بساعة قضوها في الاستراحة الصخرية، كان النعاس قد بدأ يتسلل إلى بعضهم ولكنهم شغلوا الوقت في الحديث.

قالت مارثا محدثة سالم: "أخبرنا يا سيد سالم عن الحادثة التي مرّ بها الشباب الذين ماتوا هنا".

اعتدل سالم على مقعده وقال: "في الواقع لم يكن الأمر هنا، لقد حدثت هذه الحادثة المؤلمة عند جبل باب الدنيا، الذي يرتفع 2300 متر عن سطح البحر".

قالت زينب وهي تضع شالا من الصوف على كتفيها: "ولماذا سُمي بباب الدنيا؟".

- "لأن قمته عبارة عن بوابة تطل على مسافة تمتد على مد البصر من الجبال والمناظر الطبيعية، تتضمن خليج السويس والبحر الأحمر ومدينة الطور وشرم الشيخ، 11 فردا من الشباب والبنات اتفقوا مع منظم رحلات على الفيس بوك قام بإلقائهم إلى دليل عديم الخبرة، قاد الدليل المجموعة دون تنسيق مع الأمن أو تصريح أو النظر في حالة الطقس، قال لهم إنه قام بالرحلة عدة مرات في مثل هذا التوقيت من قبل، ركبوا الجمال وبدأوا في صعود الجبل ثم بدأوا في

السير على الأقدام حيث لا يمكن للجمال مواصلة الصعود واتفقوا معهم على موعد العودة، ظل ثلاثة من المتسلقين في الاستراحة مع الجمال منتظرين عودة الفوج من القمة، انخفضت درجات الحرارة فجأة وبدأ الثلج في السقوط وانعدمت الرؤية، أصيب المسافرون بالهلع خصوصا مع تصريح الدليل بأنه غير قادر على إيجاد طريق العودة، كان في إمكانه إيجاد أحد الكهوف للاحتماء بها لولا قلة خبرته ودرايته بالمنطقة".

- "كل هذا والجيش نايم في العسل، لماذا لم يرسلوا إليهم فرقة إنقاذ؟"، قالها خالد فلم يعلق أحد، وتابع سالم: "بعد يومين من صعود القمة طلب المسافرون الذين انتظروا في الاستراحة من الجمالين الإبلاغ عن فقدان رفاقهم ولكنهم خافوا من العقاب على أمل أن تعود المجموعة، قام أحد المسافرين بالنزول والإبلاغ بنفسه"، ثم نظر إلى خالد وأضاف: "تقدمت قوات من الجيش والشرطة فور الإبلاغ للبحث عن المفقودين وتم إيجادهم في ظهر اليوم الثالث من صعودهم، بمجرد تحديد موقعهم جاءت هليكوبتر عسكرية لتقل الضحايا الذين كان عددهم 4 بالإضافة للأربعة الباقين الذين كانت حالتهم سيئة".

مرت لحظة من الصمت بينهم لم يقطعها سوى صوت فرقعة النار في كتل الحطب قبل أن يتابع سالم: "هناك حادثة محزنة أخرى في مكان يسمى جبل البنات، حيث تمرد ثلاث من البنات في عام 1914 على تقاليد الزواج القبلية وأصروا على اختيار شركاء حياتهن بأنفسهن، واجه الأمر رفضا تاما من أهاليهن وهجوما واتهامات بالعار والخيانة، تسلقن البنات الثلاثة صخرة بارتفاع 250 متراً ثم ربطن شعورهن ببعضهن البعض وقفزن لينهين حياتهن وفي نفس الوقت ليوجهن رسالة إلى أقرانهن من البنات في تقرير مصائرهن".

* * *

استرخت ماريا على أحد الكراسي البلاستيكية في تلك الأثناء، وضعت كتابها على فخذها وغطت عينيها بالشال الصوفي محاولة النوم، حاولت الاستمتاع بهذه (الخروجة) كما تسميها أمها، بالطبع هي سعيدة لكونها بعيدا عن البيت، ليس المقصود بذلك الحيز الجغرافي للبيت، بل الحيز النفسي والسبب الرئيسي لقلقها، منذ أن جهزت الأسرة أمتعتها للرحلة وهي تتمسك بكل ثانية تمر لكي لا يطير الوقت من أمامها، انقبض قلبها وهي تفكر في السيناريو الذي سيحدث حين عودتهم، في قلقها وتخوفها مع كل متر تقطعه المركبة عائدة إلى القاهرة، ماذا سيكون رد فعل أمها حين تعرف نتيجة امتحانات نصف العام؟ كيف ستواجه نظرات أبيها اللائمة الذي سيكتفي بتركها مع ضميرها، كيف طار منها الوقت وهي تقرأ

الكتب والروايات حتى فوجئت باقتراب الامتحانات؟ تمتمت قائلة: "ليتني كنت مثل وسيم".

كانت تعود دائما بعد كل امتحان مخفية أي أثر للصدمة وهي تقول إنها أجابت جيدا، تسمع تشجيعهما وفرحتهما، تتجه إلى غرفتها وتقضي الوقت باكية على سريرها، تحاول استيعاب أي شيء لتدخل به الامتحان القادم فتسرح في الورطة التي وقعت فيها، أكثر ما ضايقها في الأمر هو الصدمة التي ستراها في أعينهما حين يعرفون نتائجها وذلك بعد أن اعتادوا منها أن تكون من الأوائل، وبذكر الأوائل، طبعا سيُسر كل من كان في منافستها بهذه الأخبار، سالت دمعة على وجهها وهي تفكر (لقد كان ابتعادها عن أي كتاب ابتعادًا عن عالم جميل ينتهي بإغلاقها للدفتين، تترك دروسها لتعود وتفتح دفتي عالمها الخاص مذكرة نفسها أن تعود للدروس لاحقا، في السابق كان الأهل يصادرون مثل تلك الكتب من أبنائهم خوفا على مستواهم الدراسي، لا داعي للذكر أنهم كانوا ينجحون في الحصول على ما يريدون قراءته ووضعه داخل الكتب الدراسية مدعين المذاكرة، لم يعد الأهل يرون أي تهديد بالخطر من الكتب بعد أن صار لديهم وحش آخر، لقد أصبح الأهل يصادرون أي جهاز يدخل على الإنترنت سواء كان لاب توب، تابلت، أو حتى هاتف خاص، حسنا فلنكن واقعيين، لم يكن في إمكانهم حرمان أبنائهم بشكل كامل فصاروا يحددون أوقات للدخول على الإنترنت، بالطبع صار معها مثل ما صار مع الجميع، حدد والداها استعمالها للإنترنت لمدة

ساعة بعد الغداء وساعة بعد العشاء، ولكنها لم تكن كباقي المراهقين من سنها، كانت ساعة ما بعد العشاء أكثر من كافية لتصفح الفيس بوك ومشاهدة الفيديوهات على اليوتيوب، لم يشعر أبواها بأي خطر وهم يشاهدونها تدخل يوميا حاملة معها كتابا غير دراسي، لقد وفرت من مصروفها لتشتري من المكتبة القريبة من بيتهم، وياله من سبب أدى إلى وصولها إلى هذا المستوى)، رفعت الشال عن عينيها ثم نهضت لتضع كتابها على الكرسي قبل أن تخرج متجهة إلى حمام الاستراحة.

* * *

مع بداية خيوط الشروق امتد رمح لامع في الأفق حاد الطرفين، أخذ الرمح الفضي يزيد سماكة ثم بدأ في التحول إلى قوس يحاول أن يخترق شعاعه ظلمة السماء، ظل القوس يزحف رويدا رويدا ليحيل ظلمة السماء إلى زرقة قاتمة، قلت ظلمة الأفق مع إصرار الضوء على غزو السماء، شاهد كل من اعتلى القمة منظر الشروق في صمت وسكون إلا من بعض الهمسات، كان أصحاب القمة يفترشون الحصر ومنهم من أشعل النيران في حفر صغيرة للتدفئة، بعد أن ظهرت الشمس التي قادت معركتها خلف موجات وموجات من ضوئها الذي اختلطت ألوانه بالأحمر والذهبي، لم يعد الشروق أجمل ما يمكن رؤيته من قمة الجبل، انحدرت تضاريس الجبل في وعورة من الصخور والرمال القاسية حتى السفح، أحاط بالقمة مساحات من الجبال ذات الألون والارتفاعات المتفاوتة حيث لمعت

صخورها جميعا تحت ضوء الشمس، أخرج الكاميرا وصور ما تشاء ولكنك ستشعر بأن ما تراه لن تستوعبه أي آلة تصوير في العالم، فقط انظر وتمعن في الجبال والوديان والكثبان الرملية، في السماء الزرقاء التي تحتوي كل تلك التضاريس بقبتها المقعرة.

عادت مجموعة سالم إلى الاستراحة لشرب الشاي والقهوة، أشارت مارثا إلى مبنيين حجريين بالقرب من الاستراحة قائلة: "ما هذا يا سيد سالم؟".

- "مسجد وكنيسة تم.....".
- "وماذا تفعل الكنيسة هنا؟ أليس موسى نبيا لليهود؟"، قاطعه خالد وقد وضع يديه على جانبيه.

تقدمت إليه مارثا وحين اقتربت منه قالت: "لأن موسى من أنبياء العهد القديم في الإنجيل، في حين لا أرى اسم نبيك ولو حتى في الفهرس".

انضمت زينب إلى سالم وفرانك ووسيم وعزيز لشرب الشاي ولم يعلق أحد على المشادة الجديدة التي نشأت بين خالد ومارثا.

بعد انتهاء زينب من شرب الشاي الساخن باللبن قامت واتجهت إلى خالد ومارثا الذين بديا كزوج من الديكة في رهان قتالي، جذبت خالد من ذراعه ليجلس ويشرب شيئا، سار معها خالد ملتفتا إلى الوراء ليتابع الشجار مع مارثا، جلس بجوار زينب ووجهه كالمنطاد المليء بالهواء الساخن.

قالت زينب: "تعالي يا سيدة مارثا، واجلسي مع زوجك".

- "لن أجلس أبدا مع شارب بول الإبل هذا"، ردت مارثا وقد عاد اللعاب ليتناثر من فمها.

فتح خالد فمه ليرد ولكن زينب وضعت يدها على فمه الذي استمر في الحركة من خلف يدها، رفع خالد ذراعيه معلنا أنه سيصمت، رفعت زينب يدها قائلة: "هل انتهينا؟".

لم يرد خالد ثم التفت إلى مارثا قائلًا: "اجلسي وتوقفي عن التظاهر بأنك دجاجة لا تجد مكانا لتبيض فيه".

استمر الشجار مجددا حتى تعبا وناما مع باقي المجموعة حيث جهز سالم مكانًا بمساعدة صاحب الاستراحة.

9

بدأت المجموعة في نزول الدرجات مع الظهيرة وقد تخلوا عن الثياب الثقيلة التي ارتدوها ليلا، لوهلة بدا النزول أسهل ولكن سالم قال محذرا: "لا تتعجلوا النزول، قد تنزلق قدمك لتصل إلى السفح متدحرجا".

أمسك وسيم بيد والده وهو ينزل السلالم بجانب قدميه.

كانت زاوية السلالم حادة حتى لو أنك رفعت رأسك للأمام لتصورت بأنك معلق في الهواء، مع مرور الوقت وصلوا أخيرا إلى الاستراحة حيث تركوا ماريا ونيكول. ساروا في تثاقل متجهين إلى الباب في حين صاح سالم: "يا ريس داوود؟".

- "ماريا.. لقد عدنا"، نادت مارثا ابنتها ولكن أيًّا من ماريا أو داوود لم يجب.

قال سالم: "ربما كانوا نياما".

شاهدوا نيكول وهي ترفع المفرش الذي يغطي الباب لتندفع إلى زوجها.

احتضنها فرانك قائلًا: "هاي.. كيف كانت ليلتك يا جميلة؟".

نظرت مارثا إلى نيكول وهي تتحدث بالفرنسية في سرعة وقد ارتسمت على وجهها علامات القلق، لم تفهم مارثا أيا من الـ (Eau وeaux و)aux التي انسابت من شفتي نيكول، التفتت إلى سالم

الذي وقف متجمدًا عند باب الاستراحة، هرعت إلى الاستراحة وهي تتمتم: "ماريا"، ثم صرخت: "ماريااا".

دارت بعينيها في الغرفة التي كان بها بعض المتسلقين الذين نظروا لها مندهشين ثم عادوا إلى أحاديثهم مع بعضهم البعض، تفقدت الموجودين بعينيها فلم تجد ابنتها.

أمسكت مارثا بسالم من ملابسه وأخذت تهزه: "أين ابنتي أيها الزنجي؟".

احتلت عينا سالم وفمه معظم مساحة وجهه وقد رفع كفيه متمتما بكلمات غير مفهومة، أمسك عزيز بكتفي زوجته التي انهارت باكية ثم نظر إلى سالم بعينين متسعتين قائلًا: "أين ماريا؟".

هز سالم رأسه ثم اتجه إلى نيكول ولم يلحظ وسيم وهو يحاول التعلق بيد خالد الذي أزاح يده عنه فاتجه ليتعلق بيد زينب باكيًا.

وضع سالم كفيه على رأسه ووقف مرتجفًا أمام نيكول ليسألها عما حدث.

فتحت نيكول فمها لتتحدث ولكنها فوجئت بجسم ينقض عليها دافعا إياها لتسقط أرضًا صارخة من الألم.

انقضت مارثا على جسد نيكول الممدد أرضا وأمسكت بشعرها صارخة: "ماذا فعلت بابنتي أيتها الشمطاء، تحدثي وإلا قتلتك حالًا"، ثم رفعت رأسها للسماء وأخذت تبكي منادية على ابنتها.

دفع فرانك مارثا عن زوجته التي فقدت وعيها، أمسك عزيز بزوجته وساعدها على الوقوف وقد احمر وجهها وامتلأ بالدموع،

صاح فرانك: "ستدفعون ثمن ذلك، أقسم بأنكم ستدفعون الثمن أيها الهمج".

جاءت زوجة داوود من الاستراحة مرتدية عباءة سوداء مزركشة ونقاب على وجهها، ناولت قارورة من المياه لسالم ليفتحها ويمسح على وجه نيكول حتى عادت إلى وعيها، بعد لحظات وقف سالم أمام عزيز الذي احتضن زوجته الباكية قائلًا: "لقد ارتكبتِ خطأ يا سيدة، ليس لها أي ذنب فيما حدث، في الواقع ليس لأحدٍ أي ذنب هنا، تقول إن ابنتك خرجت إلى الحمام ولم تعد من حينها وحين شعر الريس داوود بتأخرها خرج باحثًا عنها، أنا أعرف داوود جيدًا وأؤكد لك أنه لن يعود بدونها"، سقطت مارثا على ركبتيها ومالت برأسها للأمام مغطية وجهها بكفيها.

- "وإلى متى سننتظر عودة الريس داوود يا سيد سالم؟ إن لدينا مواعيد وأعمال في القاهرة و......".

صاح سالم مقاطعا خالد الذي وقف عاقدا ذراعيه أمام صدره قائلًا: "لن أتحرك من هنا قبل أن نجد الفتاة".

- "ومن سيعيدني إلى القاهرة إذن؟ لقد دفعت لك لكي....".

وضع سالم يده في جيبه وأخرج أوراقا نقدية ألقاها في اتجاه خالد قائلًا: "لم أتلق أي قرش بعد من هذه الرحلة، لم تدفع لي شيئا، هذا كل ما معي خذه واغرب عن وجهي".

أنزل خالد ذراعيه من أمام صدره وقال: "لا أريد مالك يا هذا، كل....".

- "لا تنزل ذراعيك أمامي إلا إذا كان في نيتك استخدامهما معي، وحينها لن يعودا إليك مجددا"، قال سالم رافعا إصبعه محذرا، ثم التفت إلى مارثا قائلًا: "سأذهب للبحث عنها".

قال عزيز: "أليس من المفترض أن نخبر الشرطة؟".

رد سالم: "إذا لم أجدها في خلال نصف ساعة سأبلغ الشرطة بنفسي".

جلس سالم على ركبتيه أمام وسيم وقال: "وسيم يا حبيبي، ستستمع ما أقوله لك وتنفذه، أنت ولد مطيع أليس كذلك؟".

أومأ وسيم برأسه فتابع سالم: "أريدك أن تظل هنا مع زوجة عمك داوود ولا تتحرك إلى أي مكان كي لا تتوه كصديقتك ماريا، سأذهب للبحث عنها لأجدها حتى تلعبان مجددا، حسنا؟".

- "نعم أنا ولد مطيع، سأبقى مع خالتي وفاء، حاضر يا بابا".

حلَّ الغروب دون أي أثر لماريا، لم تتوقف مارثا عن البكاء وهي تتخيل ما الذي من الممكن أن يكون قد حدث لابنتها، وضع عزيز ذراعه حول كتفها دون أن يجد كلمات لطمأنتها، أخذ يفكر فيما حدث لها، هل تم اختطافها؟ لقد قالت السيدة الفرنسية كل ما تعرفه ولا يبدو أن لها علاقة بالأمر كما تصورت زوجته، أمسكت مارثا بكتاب ماريا ومعطفها وضمتهما إلى صدرها، كان خالد جالسا في الركن العربي مادا ساقا ورافعا الأخرى وهو يتصفح جهاز التابلت.

وقفت وفاء زوجة داوود عند عزيز وقالت: "تريدين أي شيء مني يا سيدة؟".

لم ترد مارثا ولم تلحظ أو تسمع ما قالته، كان كل العالم لديها في تلك اللحظة متمثلا في ابنتها وبفقدانها فقدت هي الأخرى كل إحساسها وإدراكها لما يدور حولها، ظلت تخرج من حين لآخر فتقف خارج الاستراحة لتنادي ابنتها بأعلى صوت تملكه. ضمت مارثا المعطف إلى صدرها وقالت: "ماذا تفعلين في هذا البرد يا عزيزتي؟".

10

نامت مارثا أخيرا من التعب والبكاء، جلس عزيز بجوارها وهي نائمة تئن باسم ماريا من حين لآخر.

سمع عزيز جلبة مع منتصف الليل خارج الاستراحة، خرج فوجد داوود يحمل ماريا على ذراعيه مندفعا بها إلى الاستراحة، صاح عزيز وانطلق ليأخذ ابنته من ذراعي داوود قائلا: "هل هي حية؟ هل أصابها مكروه؟".

مدد جسدها على الأرض وأخذ يتفحصها بحثا عن إصابات ثم رفع عينيه إلى داوود الذي قال: "وجدتها ممددة في أحد الكهوف، إنها بخير، لم يصبها شيء، لا أدري كيف وصلت إلى ذلك المكان! إنه شديد الوعورة".

نهض عزيز واحتضن داوود قائلًا: "أنا مدين لك بحياتي، لا أدري ماذا كنا لنفعل دونك"، ثم رأى بجانب عينيه مارثا تقف كالتمثال عند باب الاستراحة قبل أن تنطلق كما لو أنها في سباق وهي تصرخ: "ماريااااا".

أمسكت برأس ابنتها الفاقدة الوعي وضمتها إلى صدرها وقد اتسعت عيناها، كانت ماريا شاحبة الوجه، متشققة الشفتين، باردة الأطراف، هرعت زينب بغطاء صوفي من الداخل قاموا بلف جسمها

به في حين كان خالد واقفا عند باب الاستراحة يراقب ساعته، جلس وسيم بجوار ماريا باكيا يحاول إيقاظها.

قالت مارثا لداوود: "أين سالم؟".

- "يبدو أنه لا يزال يبحث عنها، لا تقلقي عليه إنه يعرف المكان جيدا".

عاد سالم بعد ساعة من إيجاد ماريا وقد تمزقت ثيابه وكسا العرق والغبار وجهه وملابسه، تنهد في ارتياح حين رأى ماريا تأكل وتشرب الشاي ملتحفة بالغطاء الصوفي، ركض وسيم اتجاه والده فرحا وهو يشيد بنفسه على طاعته له.

** * *

قالت ماريا إنها كانت جالسة أمام النار قبل أن تنهض متجهة إلى الحمام، حين خرجت من الاستراحة سمعت أحدًا ينادي باسمها، ظنت في البداية أنه صوت أمها قبل أن تغير رأيها، كان الصوت آتيَا من الناحية الغربية للطريق المؤدي إلى القمة. لم تلحظ ماريا ابتعادها عن دائرة الضوء المشع منِ الاستراحة، لم تتذكر كيف تجاوزت وعورة الصخور والحفر سعيًا خلف مصدر الصوت الذي ظل ينادي باسمها، لم تتذكر المسافة أو الوقت الذي مضى قبل أن يشع ضوء قوي.

قالت ماريا: "شعرت بالخوف في البداية ورفعت ذراعي لأحمي عيني قبل أن أدرك أن الضوء لا يؤذي عيني رغم قوته، ثم....".

رشفت ماريا رشفة من الشاي قبل أن تتابع ناظرة إلى أمها ملوحة بكفها: "ثم رأيت القديسة".

اتسعت عينا مارثا قائلة: "أي قديسة؟؟ عم تتحدثين؟".

نظرت ماريا أمامها قائلة وهي تبتسم: "رأيت القديسة كاترين تخرج من الضوء مرتدية زي كزي العذراء".

رسمت مارثا الصليب على صدرها بينما تتابع ماريا: "كنت كالمنومة، لم أتحرك ولم تطرف لي عين، تقدمت مني القديسة كاترين مبتسمة وهبت معها نسائم لم أشعر بمثلها في حياتي، وقفت ومدت كفها أمامها فتقدمت وجثوت على ركبتي فوضعت كفها على رأسي قائلة: "ماريا، ألا تحبين البقاء هنا بجواري؟"، بعد ذلك لا أذكر أي شيء سوى الريس داوود وهو يحملني أمام الاستراحة".

بعد أن صمتت ماريا أشاح خالد بذراعه والتفت إلى زينب ولف أصابعه بجانب رأسه ضاحكا، وكزته زينب بكوعها قبل أن تنتبه إليه مارثا، وضعت مارثا كفيها على خدي ماريا قائلة: "حبيبتي إنها معجزة، لقد اختارتك القديسة كاترين....".

قاطعها عزيز: "لن أترك ابنتي لتعيش راهبة هنا، بعد أن تبلغ رشدها فلتقرر ما تشاء".

ثم جلس واحتضن ماريا التي لفت ذراعيها حوله، قال لها: "وحتى ذلك الوقت سأستمتع بكل لحظة تمر مع أكثر مخلوق أحبه في العالم، على كل لم تطلب القديسة ذلك بصراحة ولا أعلم تفسيرا لما حدث ولكني سعيد به على أي حال".

قال سالم: "سنبيت هنا الليلة ثم نواصل رحلتنا غدا"، ثم التفت إلى خالد قائلا: "إلا إذا كان لدى السيد خالد اعتراض على ذلك".

لم يرد خالد واكتفى بالنظر إليه بجانب عينيه، قال سالم: "العشاء والأغطية يا ريس داوود".

أعد الريس داوود لكل فرد منهم فراشا مريحا فناموا بعد أن تناولوا المقلوبة بلحم الماعز المطبوخة بالأعشاب الجبلية.

11

استيقظوا حوالي العاشرة صباحا، قام الريس داوود بوداعهم ثم أ مسك بيد سالم مصافحًا وقال ملوحا بسبابته: "بدي أسألك يا جبالي عن أمور الدنيا شن هنه

قال لي امش في الدنيا كويس والحرام ابعد عنه

لانشر عباتي وأصلي الفرض من قبل السنة

والأربعة ديود الناقة والسبعة بيبان الجنة".

احتضنه سالم وقال: "إلى القريب العاجل"، إلى القريب العاجل يا ولد العم".

صافحت ماريا الريس داوود ووعدته بالعودة يوما ما، رد داوود: "لا أشك في ذلك، خصوصا أن الدعوة جاءتك من القديسة بنفسها".

بدأت المجموعة في النزول حتى وصلوا إلى سفح الجبل حيث الدير، فوجئ الجميعِ بالشيخ رمضان يجلس حارسا للدير، كان الشيخ رمضان ملتحيا يرتدي نظارة وجلباباً أبيض، سلم عليه سالم ووسيم قبل أن يدخلوا إلى الدير المحاط بالجبال، وما إن صاروا بين الجدران الشامخة حتى سرى في أجسادهم قشعريرة خفتت لها الأنفاس، هدوء يصير فيه قرع الأحذية صوتًا جللًا، خشوع يُشعر القلب بالراحة والسكينة، ساروا بعيون شاردة يراقبون الجدران العتيقة، الساحات والممرات الطاهرة، شعور عام بالدهشة والانكسار لتواجدك في هذا المكان المقدس حيث تواجه آثامك

وغرورك، من أنت لتقف في حرم الشجرة المباركة التي ناجى فيها الله نبيه موسى الذي كان كل ما يأمل فيه هو قبس من النار التي لم تصب الشجرة بأي حرق، وبدلا من ذلك سمع الكلمات التي زلزلت كيانه وارتجفت لها أوصاله (إني أنا الله).

تذكر خالد يوم أن كان تلميذًا متدربًا في أحد المكاتب وقد طلب منه مديره الذهاب لمعاينة أحد المواقع ولكن بدلا من ذلك جلس مع زميله على القهوة لتدخين الشيشة، فوجئ المهندسان بصوت بجانبهما: "الحساب عندي يا أفندية".

التفتا ليجدا مدير المكتب في طريقه إلى الموقع حيث وجدهما يدخنان بدلا من العمل، حاول أن يفكر ما الشعور الذي راود موسى وقد جاءه التكليف من ربه مباشرة.

أخذ سالم يشرح لهم تاريخ شجرة العليقة الذي يمتد إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام، تلك الشجرة المخضرة طوال العام والتي اختصها الله لتنبت في تلك البقعة، حاول البعض استنباتها في عدة أماكن حول العالم ولكنها كانت تنبت أنواع أخرى من الأشجار.

قادهم سالم بعدها إلى بئر موسى حيث سقى لبنات النبي شعيب كما في القرآن أو الكاهن يثرون كما في الإنجيل، أطلوا من الغطاء الزجاجي المغطي لفتحة البئر إلى كمية من المياه لا تزال في قعر البئر.

قال سالم وهم يدخلون إلى الكنيسة الرئيسِية في الدير: "تم بناء الكنيسة عن طريق القديسة هيلين ومعها جزءا من صليب المسيح، توافد الرهبان بعدها على المكان حتى جاء الإمبراطور جستينيان في

القرن السادس الميلادي ليبني الدير ويسميه بدير العذراء، يمكنكم رؤية اثني عشر عمودا يمثل كل منهم شهرا من أشهر السنة، تم دفن القديسين الشهداء داخل الأعمدة بحيث يدفن كل شهيد في العمود الذي يمثل الشهر الذي توفي فيه".

تقدم الزوار وهم يشاهدون النجف والصلبان، الأيقونات الجدارية والتماثيل، توقف سالم ثم قال: "هذا الهيكل يحتوي على رُفات القديسة كاترين التي استشهدت في الإسكندرية سنة 350 ميلادي، ثم رأى الرهبان في المنام أن الملائكة قد نقلت جسدها إلى أعلى قمة جبل سانت كاترين، تسلق الرهبان الجبل وحملوا جسدها عائدين به إلى الدير فظهرت لهم العذراء لتأمرهم أن يُسمى الدير بدير سانت كاترين".

رسمت مارثا الصليب وهي تنكس رأسها للأسفل.

تابع الزوار النظر إلى باقي معالم الكنيسة حين همس خالد لزينب: "يقول لك إن الملائكة حملت جسمها إلى الجبل، وأن الصليب صليب المسيح، ماهي ملة هذا البني آدم بالضبط"، ثم ضحك فالتفتت له زينب قائلة: "يا أخي ألا تمل من الانتقاد والتعليقات السخيفة على كل شيء، لم يجبرك أحد على الدخول إلى هنا، وإذا كانوا يحبون تصديق هذا فما الذي يعنيك في الأمر؟!".

هز رأسه مجيبا: "لا شيء يعنيني ولكن أتعجب من قوله لهذه القصص التي تخالف ديانته"، دار بعينيه حوله قبل أن يتابع: "كما أنني أتعجب، لماذا سمحت تلك الحكومات الكافرة بتواجد

مقدساتنا المذكورة في القرآن كالشجرة والبئر داخل دير مليء بالكفر والصلبان؟".

ردت زينب: "أتساءل لماذا لم يقم حاكمك المسلم بتغيير ذلك بدلا من انشغاله بأهله وعشيرته؟"، ثم تركته والتحقت بباقي المجموعة قبل أن يرد.

لم ينتبه أحد إلى ماريا التي جثت على ركبتيها أمام القديسة كاترين وقد نكست رأسها وشبكت أصابعها أمام وجهها، أخذت تصلي طالبة منها التوجيه والرشاد، سالت دموعها على خديها وهي تقول: "لنمدح عروس المسيح الكلية المديح، كاترينا الإلهية، حافظة سيناء التي هي عوننا وسندنا، لأنها بقوة الروح قد أفحمت نبلاء المنافقين ببهاء، والآن إذا كللت كشهيدة....".

ثم فتحت عينيها المبللتين على اتساعهما إلى الهيكل وتابعت هامسة: "فهي تستمد للجميع الرحمة العظمى"، بعد لحظة من التأمل سمعت صوتًا يقول: "آميييين"،

التفتت لتجد وسيم يقف خلفها فضحك حين نظرت إليه وأحاط وجهه بذراعيه.

وقفت ماريا ومسحت دموعها فأزاح وسيم ذراعيه عن وجهه وقال: "ماريا لقد سمعتك تقولين الفاتحة بصورة خاطئة هههههه".

ضحكت ماريا ومع ضحكتها سالت المزيد من الدموع ثم قالت: "هيا لنلحق بالجميع، كما ترى فإن الماء ينزل من عيني، أمعك منديل؟"

- "لقد رأيت ماما مرة والماء ينزل من عينيها قبل أن تذهب للسماء، ماريا.. هل أنتِ ذاهبة إلى السماء؟"
- "اممم، لا أعرف، ولكن إذا ذهبت إلى السماء أريد منك أن تقرأ لي الفاتحة كل يوم وسأشير لك باي باي من السماء"، ردت ماريا فضحك وسيم وعاد ليغطي وجهه بذراعيه.

شاهد الزوار مسجد الحاكم بأمر الله الفاطمي قبل خروجهم من الدير ثم وقفوا عند بائع يرص أحجار نادرة، قاموا بشراء بعضا من الأحجار الغريبة وبالأخص قطعة من الحجر رُسم عليها شجرة ولكن يمكنك أن ترى نفس الشجرة إذا كسرت الحجر من أي زاوية،

انتهى برنامج الرحلة أخيرا وتجهزت المجموعة في الفندق استعدادًا للعودة، جلس كل في نفس مقاعده السابقة أثناء القدوم.

12

سار الميكروباص وقد أطل الركاب من النوافذ شاعرين بما يشعر به المرء حين تنتهي إجازته ويكون عليه العودة إلى حياته السابقة من عمل أو دراسة، راقبوا الصحاري والطبيعة على الطريق المؤدي إلى القاهرة وفي داخلهم غصة لترك هذا المكان الجميل الذي لم يتخيلوا أبدا أنه بهذه الروعة.

سار سالم على طريق الطور المحاط بالجبال التي تبدو كما لو أنها رُسمت بيد فنان في لوحة فاخرة، صاح وسيم فجأة: "بابا أريد الذهاب إلى البيت لأشاهد الكارتون، أريد أن أشاهد روبانزل"، نظر سالم في ساعته التي قاربت الخامسة مساء قبل أن يضحك قائلا: "وكيف علمت أن هذا موعد الكارتون أيها الشقي؟".

رد وسيم ضاحكا: "أريد مشاهدة روبانزل يا بابا، من فضلك".

نظرت له ماريا وهي تعي أن في انتظارها ما هو أكثر من مشاهدة فيلم كرتوني مفضل.

وصلوا إلى نهاية طريق الطور حيث محطة بنزين توقفوا عندها للاستراحة، سلك سالم بعدها الطريق المؤدي إلى القاهرة وقد بدأ النوم يداعب الركاب، تباطأت سرعة المركبة حين دخلت في منطقة من المنحنيات الخطرة، في نهاية المنحنيات رأى سالم على ضوء كشافاته مجموعة من العربات تقف على جانبي الطريق، أشعل ضوء الكشاف العالي ليرى مجموعة من الرجال الواقفين وسط

الطريق، ضغط على زر تشغيل كشافات الانتظار استعدادا للتوقف عند اللجنة المرورية، أفاق الركاب من غفوتهم وأخذوا يراقبون في فضول ما يحدث، شهقوا جميعا حين اقترب سالم منهم ليجدوا علما يرفرف على سيارة تويوتا هايلكس، علم أسود اللون في داخله بقعة بيضاء ليس عليك الاقتراب منها كثيرا لتتمكن من قراءة الكلمات المكتوبة في الداخل، بجوار العلم وقف رجل ملثم على مدفع جرينوف وقد صوبه إلى الميكروباص، تعالت صرخات النساء وصيحات الرجال على حد سواء وهم لا يصدقون عيونهم التي رسمت لهم ذلك المشهد الذي ألفوه على شاشات الأخبار، خفق قلب فرانك ونيكول ولم يفهما سببا لذلك الرعب المفاجئ فأمسكا بيد بعضهما البعض، لم يسمع أحد سالم وهو يقول: "ما هذا بالضبط؟".

وضعت ماريا يدها على قلبها خشية أن يخرج من صدرها من سرعة الدقات، أمسك وسيم بيدها وبدأ في الأنين والدوران برأسه يمنة ويسرة، فقط خالد بدأ في الصياح: "توقفوا.. توقفوا، لابد أنها أحد ألاعيب رامز جلال".

ثم صاح بأعلى صوته: "إنه مقلاااااب".

بدأ الأمل يدب في قلوبهم فخفتت الصرخات قليلا، صاحت مارثا: "سيد سالم.. اعتقدت أنك قلت إن الجنوب مؤمن تماما ولا وجود لتلك الجماعات".

رد سالم وقد وجد مهربا: "ربما كان مجرد مقلب كما يقول السيد خالد".

صمت قليلا ثم تابع وقد بدأ الفرنسيان يتجادلان في قلق وخوف: "لقد سلكت هذا الطريق العديد من المرات ولم أر أبدا شيئا كهذا"، ثم ارتفع صوته مخاطبا الفرنسيين: "لا تقلقوا، إنه مجرد مقلب تلفزيوني".

تنهدا بصوت مرتفع والتفتا إلى بعضهما وقد وضعت نيكول يدها على صدرها وأخذا "يبرطمان" على رأي خالد.

قال خالد وهو يمسك بيد زينب التي سالت الدموع على خديها: "تقدم تقدم، دعنا نمرح قليلا"، قالها محاولا أن يبدو صوته واثقًا مرحًا.

أخذ سالم يقترب رويدا رويدا فرفع الرجال أسلحتهم وصوبوها إلى الميكروباص في حين رفع أحدهم يده مشيرا لهم بالتوقف بطريقة تعني (توقف وإلا فلتجرب وترى ما الذي في إمكان تلك الأسلحة فعله).

وقف سالم أمام ثلاث عربات دفع رباعي، كان الرجال متشحين بالسواد، ثيابهم كثياب الباكستانيين، قدّر سالم أنهم عشرة رجال قاموا جميعا بإخفاء وجوههم وقد أمسكوا بمدافع آلية، اثنان منهم وضعا على كتفيهما مدفع آر بي جي ووجهاه إلى الباص.

قال خالد: "يا ابن اللذينة يا رامز، إنه فعلا فنان"، كادت مارثا أن تشاركه في مرحه وقد بدأت ابتسامة ترتسم بالفعل على شفتيها، أمسكت بيد عزيز الذي كان يصلي في همس، تقدم أحد الرجال الملثمين من سالم مشهرا بندقيته في وجهه، صاح بلهجة لم يميز سالم ما إذا كانت شامية أو ليبية: "أطفئ المحرك، انزلوا جميعا"، ثم قام

بشد أجزاء البندقية وأشار بها إلى اليسار ثم أعاد فوهتها إلى سالم صائحا: "هيا".

كان صوته غليظًا قويًا من خلف اللثام الذي يضعه على وجهه كما لو أنه يتحدث من خلف مضخم للصوت، نظر إلى سالم بعينين حادتين قاسيتين غزيرة الحاجبين، قال وسيم في أنين: "بابا.. أريد الذهاب إلى البيت، من فضلك".

نهض خالد فأمسكت زينب بيده قائلة: "انتظر، أين تذهب؟".

رد خالد: "انتظروا، دعوا لي هذه الطلعة".

فتح باب الميكروباص السحاب وخرج إلى الشارع حيث صوب إليه الرجال أسلحتهم بما فيهم أحد حاملي الآر بي جي، رفع خالد يديه مدعيا الخوف وغمز لزينب بعينه اليمنى، سار حول مقدمة الباص حيث يقف الرجل الذي يصوب سلاحه إلى سالم قبل أن يقول: "أرجوكم لا تقتلونا، سنفعل ما تطلبون"، ابتسم رغما عنه وهو يقول: "أنا خائف جدا كما ترى".

لم يرد الملثم واكتفى بمراقبته بعينيه الباردتين، تلفت خالد حوله قائلا: "بصراحة أنتم محترفون حقا، لقد كدت أصدق، أين الكاميرات يا تُرى؟ لو كنت أعلم لارتديت أفضل ثيابي"، وفي لمح البصر مد يده اليمنى لينزع لثام الرجل الواقف أمامه صائحا: "قل لرامز إن خدعته لم تنطل على خالد فاروق، ها ها ها ها"، ثم أخذ يصفق لنفسه متوقعا أن تضاء كشافات من مكان ما ليظهر معها رامز جلال مع فريق التصوير مهنئا خالد على شجاعته، راقب خالد الرجل وقد انسدل اللثام عن وجه أبيض محاط بلحية كثيفة، لم

تظهر أي أضواء ولم يأت رامز من غرفة العمليات السرية التي يدير منها الموقف، فغر الشاب فمه قبل أن تنطلق صرخة من بين أسنانه، لم ير خالد السلاح وقد ارتفع ليضربه الشاب بالدبشك على رأسه التي ارتدت إلى الخلف وقد انفجرت منها الدماء، سقطت نظارة خالد أرضا قبل أن ينطلق الصراخ من الميكروباص مجددا، حدق سالم في جسد خالد الذي تمدد أرضا وقد سالت الدماء على وجهه ولحيته القصيرة، صرخت مارثا وهي تمسك ظهر المقعد المواجه لها: "سيذبحونا، سيذبحونا يا عزيز، يارب يارب"، ارتجف جسد عزيز ولم يقدر أن يرفع عينيه عن خالد، فقدت نيكول وعيها بينما اختبأ فرانك أسفل الكنبة، رفع سالم ذراعيه قائلا: "توقف توقف، سنفعل ما تريد، أرجوك لا تؤذ أحدا".

أعاد الرجل اللثام على وجهه وصرخ قائلا: "اخرجوا حالا أيها الخنازير"، ثم رفع كفه ليضرب جسم الميكروباص عدة مرات.

في لحظات كان الجميع مقيدين من الخلف وعلى فم كل منهم شريط لاصق وعلى رؤوسهم كيس قماشي أسود، تعبوا من الصراخ والاستغاثة التي كتمتها الأشرطة اللاصقة، جلسوا يرتجفون على مقاعدهم قبل أن يسمعوا صوتًا غليظًا لأحد المسلحين يجلس في مقعد القيادة للميكروباص وهو يتحدث في جهاز لاسلكي، كان يسأل أحد الكشاف الذين وقفوا على ظهر أحد الجبال مراقبين الطريق بمنظار مقرب ما إذا كان هناك المزيد من السيارات فأجابه صوت كصوت الراديو بالنفي، انطلقت المركبة وسط سيارات الدفع الرباعي سالكين طريقا ترابيا وعرًا مليئًا بالمطبات والمقبات. ارتدى

السائقون مناظير للرؤية الليلية مطفئين أضواء كشافات السيارات التي سارت في سرعة مثيرة سحابة من الغبار حولها وفي ظهر كل عربة قوس من الغبار كذيل الديك، تساقط البعض مغمياً عليه ليفيق من حين لآخر قبل أن يعود إلى اللاوعي. شعر عزيز بالدوار وتقلصات قوية في معدته، لم يقاوم الخليط الحارق الذي اندفع عبر حلقه إلى فمه قبل أن يتوقف عند الشريط اللاصق، كانت معدته كالمضخة تدفع الطعام الممزوج بحمض الكلور والعصارات الهضمية إلى الخارج، ارتد القيء عن فمه المسدود لينزلق إلى رئتيه، أخذ عزيز يسعل صارخا وقد احمر وجهه داخل القناع الأسود واندفع بعض من القيء من أنفه، كان عزيز يغرق في قيئه فعليا، شعر بالنار تحرق صدره وحلقه وقد انسد أنفه تماما، رفع خصره في الهواء وارتد إلى مقعده في عنف، أخذ يلتف يمنة ويسرة قبل أن يضرب برأسه في النافذة المجاورة له وهو يشعر بأن صدره سينفجر ليغرق القيء العربة، صاح السائق في عزيز بالتوقف بينما صرخت النساء صرخات مكتومة من خلف الشريط اللاصق، أخذ خالد الذي أفاق من ضربته يلتفت يمينا ويسارا محاولا فهم ما حدث بينما فقد فرانك ونيكول وعيهما، واصل عزيز تشنجاته وأخذ يضرب برأسه في ظهر المقعد الذي أمامه مما أثار رعب زينب التي قوست ظهرها للأمام، تحدث السائق في اللاسلكي معلنا التوقف، فتح السائق الباب الجانبي للميكروباص ثم تقدم وأمسك بعزيز من ياقة قميصه وجذبه عبر جسد مارثا التي جلست بجانبه قبل أن يُلقيه على رمال الصحراء قائلا: "سأؤدبك أيها الكافر".

ركله السائق في أنفه بحذائه العسكري قبل أن ينزع الغطاء الأسود، كان وجه عزيز أزرق اللون وبدا على عينيه كما لو أنه يشعر بالنعاس، سالت الدماء من أنفه التي تلقت الركلة، نزع السائق الشريط اللاصق فاندفع القيء على ذراع الرجل وثيابه. أخذ عزيز يسعل وقد اتسعت عيناه محمرتان والقيء مستمر في الخروج من فمه، بدأ الهواء يعود إلى صدره والحياة إلى وجهه وهو يصيح متأوهًا.

صاح السائق: "أيها اللعين، لقد لوثتني بأمعاء الخنازير التي تملأ معدتك"، ثم أمسك شعر عزيز وأخذ يضرب رأسه في الأرض صارخًا: "لوثتني بالخنازير أيها اللاااعيين".

توقف للحظة ثم دفع برأس عزيز ونهض واقفا ثم قال: "رائحة البول الممزوج بالخمر تملأ ثيابك أيها النجس"، ثم ركله وسار عائدا إلى مقعد القيادة.

قام الرجال بفك الأشرطة اللاصقة عن أفواه الركاب الذين صرخوا متألمين مع كل سحبة للشريط عن الفم خصوصا خالد وفرانك اللذان صرخا وقد جذب الشريط بعضا من شعر لحاهم وشواربهم، هرع البعض إلى الخارج مفرغين أمعائهم على رمال الصحراء، كان الدم قد تجلط على وجه خالد ولحيته.

قال أحد الرجال ضاحكا: "سنقيدهم دون أشرطة لاصقة، إن معداتهم كالبالونة".

عادت المركبات لتقطع الطريق الوعر فصاح قائد الميكروباص: "إذا تقيأ أحدكم مجددا سأجعله يمسح القيء بلسانه".

زاد بكاء النساء فصاح مجددا: "وإذا سمعت أي صوت أعلى من صوت محرك السيارة فسأشق حنجرة صاحبه"، ثم لوح بخنجر عسكري بيده اليمنى ولكن أحدا لم يره من خلف الأغطية القماشية التي تبللت بالدموع وأخذت تنتفخ من حين لآخر مع زفير أنفاسهم الحارة، من بين البكاء والأنين أدرك سالم أمراً، إن هؤلاء الإرهابيين يحتاجون إليهم أحياء وإلا لقاموا بقتلهم أو ترك عزيز يموت على الأقل، أخذ يغيب عن الوعي وهو لا يدري ما إذا كان تركهم أحياء نعمة أم نقمة.

❁ ❁ ❁

13

مر الوقت والعربات تتأرجح فوق المطبات والمقبات للطريق الترابي قبل أن تتوقف القافلة وسط صيحات الانتصار والترحيب بعودة الجنود، الكثير من التكبير لأصوات ذكورية وأنثوية معا، كان المخطوفون لا يزالون في حالة صدمة، لا يصدر منهم سوى الأنين والبكاء المكتوم، فتح أحد الجنود باب الميكروباص ثم بدأ في نزع الأقنعة القماشية عن الرؤوس قبل أن يصيح بصوت شاب: "هيا أيها الكلاب، عليكم اللعنة اخرجوا".

نهض المخطوفون واحدا تلو الآخر ثم نزلوا من العربة وأيديهم لا تزال مكبلة خلف ظهورهم، فعل فرانك ونيكول المثل فسألهم الشاب: "تتحدثون العربية؟".

لم يفهم فرانك ما قاله فقال الشاب ماطا شفتيه بالحروف: "أ ر ا بي".

هز فرانك رأسه قبل أن يجيب سالم: "إنهما فرنسيان، أنا المترجم الخاص بهما".

بدأ الشاب في دفع المخطوفين بطرف بنقديته الآلية وصاح فيهم بالتقدم، تلفتوا حولهم ليجدوا ما يشبه المعسكر، تراصت بعض الأبنية الحجرية والتي تُشبه إلى حد كبير استراحة الريس داوود، تم

إيقاف ثلاث عربات دفع رباعي (اثنتان تويوتا هايلكس وواحدة لاند كروزر)، بالإضافة إلى دراجتين ناريتين وبغلين بجوار دبابة M1.

أضئ المكان بشعلات نارية انتشرت هنا وهناك، تقدمت ثلاث نساء يرتدين عباءات سوداء ونقاباً من المخطوفين وبدأن في جذب زينب ومارثا وماريا ونيكول اللاتي حاولن المقاومة فرفعت النساء ذوات العباءات أكفهن وأخذن يضربوهن على رؤوسهن وأكتافهن، رفع الشاب بندقيته وصوبها إلى الرجال قائلًا: "فليحاول أي منكم المقاومة لأنثر مخه على الرمال".

صاح خالد: "إلي أين تأخذون زوجتي؟"، لكمه أحد الرجال فسقط مغمياَ عليه على الفور.

صاحت المرأة: "تقدموا"، ثم رفعت من تحت عباءتها مسدساً بريتا 9 مللي، وصوبته باتجاههن، سار كل من الرجال والنساء في خطين متفرقين، سار وسيم متعلقا بيد والده وقد بدا عليه الحماس والإثارة لرؤية الأسلحة الحقيقية لاسيما الدبابة.

عدَّ سالم حوالي عشرين من الرجال وثلاثة نساء، ارتدى الرجال ثياباً متشابهة. البعض ارتدى زياً باكستانياَ أسود اللون أما الباقي فكانوا يرتدون سراويل سوداء فضفاضة كسروال علاء الدين أو شاه بندر التجار بالإضافة إلى قميص فضفاض. البعض كان سمينا والبعض متوسط الجسد، لكنهم كانوا طوال القامة جميعا ماعدا

طفل قدَّر سالم أنه في الثانية عشرة. انسدل شعرهم الكثيف من تحت عمائم سوداء ليحيط بلحى كثة مشعثة، ربط البعض حول وسطهم حزاما من الذخيرة بينما ارتدى البعض صديريًا عسكريًا حيث يتم تثبيت الذخائر والقنابل اليدوية، أما النساء فارتدين زيًا موحدًا من عباءة سوداء فضفاضة ونقاب، رفرفت الأعلام السوداء في أنحاء متفرقة من المعسكر.

❁ ❁ ❁

14

أخذ كل من الرجال والنساء في السير وسط هتافات الجنود بلهجات شامية وخليجية، ثم أغلقوا عليهم بابًا حديديًا داخل غرف من الحجارة.

على الضوء المتسرب من حواف الباب الحديدي رأوا ثلاثة أشباح تنهض عن الأرض.

- "قلت لكم إني أشم رائحة عمال جدد"، سمعوا صوتا منهكا لشاب يتحدث في الظلام.

رد عليه صوت آخر أكبر سنا: "الحمد لله يا عم، سيريحوننا بعض الشيء من هذا الشقاء".

قال خالد: "من أنتم؟".

رد صوت ثالث أكبر سنا من كل الصوتين السابقين: "اتفضلوا يا جماعة"، ثم ضحك قبل أن يتابع: "لا أدري كيف يمكن أن أدعوكم بالتفضل ولكن هذا كل ما يمكنني قوله"، ثم عاود الضحك.

قال خالد: "تبا لكم من مجانين"، ثم اتجه إلى أحد الجدران وقام بالجلوس أرضًا قبل أن يعود للنهوض وهو ينفض الغبار عن سرواله.

- "ما هذا الذي أسمعه؟! أهذه يدك يا سيد تنفض الغبار عن سروالك، عععععععععع، انظر يا وله يا سمير، أقصد اسمع، إن ذلك المخبول ينفض الغبار عن سرواله، إنه قلق بشأن

اتساخ ثيابه، هع هع هع هع"، ثم مد يده إلى الشاب سمير ليصفقها بكفه.

ضحك سمير مع زميله إبراهيم قبل أن يقول: "ربما يخشى من أن توبخه أمه".

- "أو تمنع عنه المصروف، عععععععع"، ثم بدأ إبراهيم في تقليد صوت نسائي متذمر: "كم مرة قلت لك ألا تتشاجر مع الأولاد أيها القذر، (ألاحق) عليك كل يوم كيس أومو (منين)؟".

عاد إبراهيم وسمير إلى الضحك قبل يركلهم خالد برمال الأرضية ثم يعود ليجلس في أحد الأركان.

- "من أنتم يا سادة؟"، قالها سالم فعمت لحظة من الصمت.
- "اسمي وصفي"، قالها الرجل الثالث كما لو أنه يبصقها، ثم تابع: "هذان إبراهيم وسمير، أعمل أستاذا في كلية السياسة والاقتصاد، سمير أحد تلاميذي، أما إبراهيم فسائق خاص بالكلية".

عاد الصمت فسار فرانك ليجلس عند الجدار، عرفهم سالم بأنفسهم، تابع الأستاذ وصفي: "لقد اختطفونا منذ شهرين".

شهق خالد ولم يقل شيئا، تابع وصفي: "كنا في رحلة عادية إلى سانت كاترين، مجرد رحلة كالتي يقوم بها الجميع، أمسكوا بنا قبل وصولنا إلى المدينة".

خمّن سالم أن الأمر تم في نفس مكان اختطافهم ولكنه ترك وصفي يتابع حديثه وهو يتناول الحصى ويرميه أمامه من حين لآخر: "لقد عشنا أسود أيام حياتنا في هذا المكان"، سالت دموعه على خده وهو يقول بصوت مرتجف: "لم أعش يوما كابوسا كالذي أعيشه الآن، أحيانا نفكر في الانتحار ولكن طرقهم في القتل جعلتنا نخاف الموت كما يخاف الصرصور حين تُغرقه في المرحاض".

وضع وصفي كفه على عينيه وأخذ يبكي في صياح مكتوم.

قال عزيز بصوت مبحوح: "ما هذه الرائحة؟".

رد إبراهيم بصوت من مؤخرته ثم قال: "مثل هذه الرائحة".

أمسك سمير ببطنه وصرخ ضاحكا فاشترك معه إبراهيم في الضحك.

قال سمير: "عليك أن تعتاد عليها يا مستر، إننا نقضي حاجتنا في ذلك الدلو ثم نقوم بجمع الدلاء من المعسكر ونفرغها يوميا في الخارج".

تذكر سالم فيلمًا إيطاليًا رآه يوما فقال محدثا وسيم بعد أن جلسا بالقرب من الباب: "وسيم.. استمع إليّ جيدا، هذا أمر مهم".

- "هممم، ماذا؟ أين نحن يا بابا؟".
- "صص صص، استمع إليّ ولا تتحدث، هل تذكر لعبة الحرب في هاتفك؟ نحن الآن نلعب هذه اللعبة، حسنا؟ سنأخذ دور الرهائن وننتظر وصول الجنود الشجعان لتحريرنا من الأشرار، هل تفهمني جيدا؟".

- " همم، جيدا، نعم، ولكن لماذا ضربوا السيد خالد؟".

همس سالم: "لأنه لم يستمع إلى أوامر الأشرار، حسنا؟ سنفعل مثل ما يقولون حتى نفوز باللعبة ويحررنا الجنود".

- "نعم سنفوز يا بابا، ولكن.. لا أريد أن أكون من الرهائن، أريد أن أكون من الجنود الأبطال، أهذا ممكن؟".

- "اسمع يا ولدي، الدور علينا الآن لنكون الرهائن ويجب علينا الفوز وإلا نعتك صديقك هيثم بالجبان، أتريد ذلك؟".

هز وسيم رأسه قائلا: "لا.. لا، ولكن كيف سيعرف؟ هل لعب اللعبة من قبل؟".

تظاهر سالم بِالجدية وقال بصوت صارم: "كيف تقول هذا يا وسيم؟ كن ذكيا، أليس هيثم هو من عرفك على لعبة الجنود؟ بالطبع لعب هنا مع والده وفازوا"، ثم همس في أذنه: "ولكنهم لا يريدون لك الفوز، لذلك لم يقل لك كيف حصل على تلك اللعبة الجديدة".

اتسعت عينا وسيم وقال: "إذن يجب أن نفوز مثلهما".

- "عليك نوووم، وحينها ستفوز بلعبة أفضل من لعبة هيثم، ستثير غيرته هو وكل أصدقائه، أريدك أن تنام الآن، حسنا؟".

نهض وسيم وضم والده الذي ضمه وقد سالت دمعة من عينه مسحها بظهر كفه التي أحاطت برقبة ابنه، تمدد وسيم على التراب ووضع رأسه على فخذ والده ثم نام من تعب يوم طويل مر به هو

ومجموعته حيث بدا لهم جميعا أن وجودهم على قمة جبل موسى هذا الصباح كان منذ شهور أو سنوات عدة.

تابع سالم حديثه مع أصحاب الغرفة بينما جلس خالد وفرانك وعزيز دون أن يشتركا في الحديث.

علم سالم أنهم تحت قبضة ما يُسمى تنظيم ولاية سيناء التابعة لتنظيم الدولة الإسلامية والتي كانت بدورها يوما تابعة لتنظيم القاعدة قبل أن تنقسم إلى تنظيم الدولة وجبهة النصرة، أخبره وصفي بسبب اختطافهم أحياء وهو يهرش في رأسه قائلا: "إنهم يختطفون المسافرين من الطرق السريعة لسببين، يستخدمون الرجال سخرة للقيام بأعمال في المعسكر، بناء وحفر وحمل وردم، فالجنود مشغولون بالتدريب على القتال استعدادا لعملية ما"، صمت للحظة قبل أن يتابع: "يستخدمون النساء بالطبع لمتعة الجنود وللقيام بأعمال الطبخ والزراعة، إن لديهم حقلًا زراعيًا بالفعل".

نهض خالد بعد ما سمعه من وصفي، وقف محدقا به للحظة قبل أن ينطلق إلى الباب، قفز إبراهيم وشل حركة خالد قبل أن يقوم بالطرق على الباب الحديدي البارد.

قال وصفي: "لا تكن مجنونًا، اهدأ وإلا قتلوك هذه المرة، إن جزاء من يمس الباب مجرد اللمس بعد إغلاقه هو الموت، لا تتحامق إذا أردت العيش أنت وزوجتك".

نظر خالد إلي ظل وصفي وقد تراخت عضلات جسمه فأفلته إبراهيم.

- "على الأقل لا يزال لديك زوجة"، قالها إبراهيم قبل أن يعاود الجلوس بجوار سمير.

تابع وصفي: "لقد انضمت زوجة إبراهيم إلى التنظيم بعد أن غسلوا عقلها، ثم تزوجت من أبو مسعود التكريتي وهي الآن تُدعى أم شيخة".

قال إبراهيم: "بالله لا تذكرني بتلك الفاجرة أم شخ...".

قال سمير: "نفسي يمر يوم دون أن تذكرني بذلك الاسم المقرف، على الأقل تزوجت من بعدك مقاتلًا عسكريًا، ربما عليك أن تفتخر بها".

- "ربما عليك أن تفتخر بأمك التي كافأتها بك بعد أن دخلت معي إلى حقل الذرة".

انفجر سمير وإبراهيم ضحكا وقد أخذ كلا منهما يلكم الآخر في كتفه ثم تابع إبراهيم: "لذلك تجد شعرك كشعري، وعيونك عسلية كعيني"، ثم عاد إلى الضحك فقال سمير: "عجبا، اعتقدت أن عينينا متشابهتان لأن لدينا نفس الأب".

صمت إبراهيم مستفهما قبل أن يتابع سمير: "لقد أخبرني أبي قبل أن يموت بأن لي أخًا بمواصفاتك جاء بعد أن اختلى بأمه في بئر تغيير زيت السيارات، أخويا حبيبيييييي، ععععععع"، قالها ضاحكا وهو يضم إبراهيم في شوق.

ضحك معه إبراهيم ولكنهما صمتا حين سأل سالم: "قلت إنكم كنتم في رحلة حين تم اختطافكم، أين باقي المجموعة؟"

لم يرد وصفي فقال سمير: "لدينا سارة وهدى في حبس النساء، أما باقي المجموعة فتم دفنهم أحياء".

- "ماذا؟"، قال سالم فتابع سمير: "حاولوا الهرب فأمسكوا بهم ودفنوهم أحياء".
- "تقصد دفناهم أحياء"، قال وصفي بصوت مبحوح، فلم يرد سمير.

تابع وصفي بعد لحظة: "لقد أجبرونا على حفر حفرة كبيرة وقاموا بإلقائهم بداخلها، ثم أجبرونا على إهالة الرمال عليهم بالكواريك".

دفن وصفي وجهه بين ذراعيه وعاود البكاء ولم يعقب أي من إبراهيم أو سمير على ما قال.

15

لم يكن سالم ملمًا بالكثير من المعلومات بشأن التنظيمات الإرهابية، شرح له وصفي الأيديولوجية الفكرية التي تنهجها تلك الجماعات المختلفة والتي تنبثق جميعها من مجموعة من الأفكار القتالية والآراء التكفيرية التي يعتقدون بها، إنهم ينصبون لأنفسهم قادة وحكاما ثم يعطون لأنفسهم كافة الصلاحيات للقتال والحكم على كل من يختلف عنهم، إن الأمر أشبه بأن تسكن في عمارة ثم تدعي بأنك تملك تلك العمارة، تحاول استمالة أحد جيرانك لمساندتك في ادعائك، تعطيان لنفسيكما كل الصلاحيات التي يملكها أي صاحب ملك للدفاع عن نفسه وعن أملاكه ثم تبدآن في قتل وطرد باقي السكان من تلك العمارة.

قال سالم: "ومن أين يأتي هؤلاء الناس؟".

رد وصفي: "إنهم يستخدمون النصوص الدينية والخطب الرنانة في استمالة عقول الشباب اليائسين والسذج....".

- "لا مؤاخذة يا عم إبراهيم"، قال سمير فعادا إلى الضحك قبل أن يرفع وصفي صوته متابعا: "إن الدين كالعلم، يمكنك أن تستعمله لإصلاح العالم"، صمت للحظة ثم تابع: "أو تدميره.. كما تعلم فإن تلك الجماعات منتشرة في عدة بلدان مجاورة، يتحركون وفقا لتوجيهات وأوامر من رؤسائهم والتي تأتي من خليفتهم المزعوم، الكل يسير وفق مخططات

وتوجيهات لمنظمات ومخابرات أجنبية. لقد صار الجميع على علم الآن بأن عملية الحادي عشر من سبتمبر لم تكن سوى عملية استخباراتية أمريكية بالاتفاق مع تنظيم القاعدة الذي تم تأسيسه أصلا بواسطة السي آي إيه، وفي النهاية ينتهي المسلسل القذر بصورة مريبة لـ "بن لادن" قتيلا قبل أن يدَّعوا أنهم ألقوا بجثته في البحر بهذه البساطة، فليصدق من يشاء وليكذب من يشاء مادام المخطط يسير كما يريدون، يقوم أفراد هذه التنظيمات بالدخول إلى البلاد عن طريق أنفاق شرق سيناء، من ليبيا والسودان، أو البحر الأحمر، يتم دعمهم من أمريكا وبعض دول أوروبا ودول إسلامية وعربية كقطر التي توفر أيضا البوق الإعلامي الذي يقوي من شوكة تلك الجماعات بالإضافة إلى لعب دور الوسيط لاستمالة السودان ودول أخرى إلى صفهم النجس، يمتلكون أسلحة ووسائل نقل ومعدات متطورة، لديهم مدافع آر بي جي وجرينوف، صواريخ سام، قذائف هاون، أسلحة كلاشينكوف و إم 16، مواد متفجرة كالسي فور والتي إن تي يستخدمونها في صناعة العبوات المتفجرة، عربات دفع رباعي ومناظير رؤية ليلية، بالإضافة إلى وسائل اتصالات متقدمة".

قال سالم: "وكيف تعرف كل ذلك؟".

- "لأنني مدرس سياسة واقتصاد، أقرأ الكتب ولا أطالع الفيس بوك، كما أنني أنظر جيدا حولي وأستمع إلى ما يقال من الجنود بقربي هنا وهناك".

قال سالم: "وهل تعلم أين نحن الآن؟".

صمت وصفي للحظة ثم قال: "بالطبع فكرت في هذا، سوف ترى أننا نقيم على أراضي غير جبلية، تتواجد الجبال جنوب المعسكر وغربه هذا يعني أننا لم نبتعد كثيرا عن سانت كاترين ربما 50 كم شمالًا، بحساب الزمن الذي أخذناه في الطريق بعد اختطافهم لنا حتى الوصول إلى المعسكر يمكنني القول إننا على بعد 100 كم شرق أبو رديس".

16

على عكس ما حدث مع سالم ورفاقه لم يبد أي من هدى أو سارة أي اكتراث مع دخول مارثا وماريا وزينب ونيكول، كانتا نائمتين بجوار بعضهما على فرش من الحصير ولفوا بطانية ميري حول أجسادهن، ظلوا واقفين للحظة بعد إغلاق الباب ثم سارت كل واحدة منهن وجلست ساندة ظهرها على الجدار، جلست ماريا باكية مرتجفة بجوار أمها التي أمسكت رأسها وأخذت تتأوه وتئن، وضعت نيكول كفيها تحت إبطيها ومالت برأسها على الجدار الحجري، أمسكت زينب ببطنها وتمددت أرضا على جانبها وهي تتمتم: "يارب انجدنا يارب".

نهضت كلا من هدى وسارة من فراشهن وجلسن يتحدثن بأصوات منخفضة، نهضت مارثا فجأة دافعة ابنتها وانطلقت إلى زينب التي كانت ممددة على جانبها وأخذت تركلها بقدمها ذات "الكوتشي" الرياضي، صاحت زينب باكية مع كل ضربة دون أن تلتفت أو تنهض من مكانها.

زاد بكاء ماريا بينما تصرخ أمها: "أنتم السبب، أنتم السبب، تبا لكم ولجماعتكم".

قامت هدى وسارة بدفع مارثا عن زينب، ظلت مارثا تركل في الهواء وهي تصيح: "إنها من الإخوان، هي وزوجها من الإخوان".

ارتفع صوت بالإنجليزية: "توقفوا.. توقفوا، لقد نلت كفايتي في هذه الحياة من صراخك أيتها السيدة".

- "ها قد ظهر صوتك أيتها الأفعى"، ردت مارثا بالإنجليزية، ثم تابعت وهي تشير إلى زينب: "تلك المرأة، هي وزوجها من الإخوان، إنهم ينتمون إلى الجماعات الإرهابية"، اعتدلت زينب وقالت بصوت مهزوز: "لست إخوانية ولا أنتمي لأي فصيل، كما أن زوجي يؤيدهم بالأفكار والرأي فقط ولكنه لم يؤذ أحدًا في حياته، أقسم بالله".

ردت نيكول: "لا أرى أمامي سوى امرأة باكية يرتبط مصيرها بنا"، ثم نهضت ولا تزال يديها تحت إبطيها ثم تابعت: "لا فرق بين أي منا في أعين أولئك الشياطين".

صاحت مارثا: "إنهم مسلمين، إنهم آيزيس أيتها المرأة، ألم تسمعي بالعمليات التي حدثت في بلادك على أيديهم؟ ما هي ملتك أساسا؟".

سارت نيكول حتى اقترب وجهيهما وهمست: "يهودية".

مطت مارثا شفتيها وقالت: "أيها المجرمون القتلة"، ثم تابعت: "أنتم من طالب بتعذيب المسيح وصلبه، إن دمه عليكم وعلى أبنائكم، انتهكتم مقدساتنا في القدس ولم يسلم من أذاكم الصغير أو الكبير، إن....".

رفعت نيكول كفها وقالت: "كلنا مجرمون يا عزيزتي"، سعلت ثم تابعت: "في كل دين من أدياننا متطرفون ومجرمون قاموا بالفظائع باسم الدين....".

- "ديننا دين المحبة، لم....".
- "لا تدّعي البراءة يا عزيزتي، أنتم أيضا حين تملكون القوة لا تدخرون جهدا في استخدامها ضد كل من خالفكم، بداية بقتل كل من خالف معتقداتكم من العلماء، كجاليليو وهيباتا، قامت الكنيسة في العصور الوسطى بقتل وحرق المئات من النساء لاتهامهن بالسحر والهرطقة وهذا مذكور في كتاب يسمى مطرقة الساحرات، قمتم بتنظيم الحملات الصليبية الغاشمة باسم الدين وارتكبتم الجرائم في حق سكان القدس وكل من وقف في طريقكم، قامت الملكة إيزابيلا بإنشاء محاكم التفتيش الإسبانية لقتل وتعذيب من تبقى من المسلمين في إسبانيا بأساليب لا تختلف كثيرا عن أساليب هؤلاء الشياطين، قام هتلر المسيحي بشن حرب مات فيها خمسون مليون إنسان منهم ستة ملايين من اليهود تم قتلهم حرقا أو في غرف الغاز أو تحت تجاربهم العلمية الشاذة، جورج بوش كان مسيحيًا وتسبب في دمار العراق وأفغانستان، ربما علينا أن نقول إن تلك الجماعات تم إنشاؤها ردا على إرهابكم أنتم، نعم أنا يهودية ولكنني لست صهيونية ولا أؤيد أيًا مما يحدث في فلسطين، ولكنني

لا أهرب من حقيقة أن الكثير من بني ديني قد أجرم في حق الكثيرين، بداية من الكهنة الذين أمروا بقتل عيسى ابن مريم. أعترف بأن قومي في فلسطين يقومون بقتل وتعذيب الأبرياء من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، كل ذلك يتم بأمر الدين تحقيقا لأوهام وأفكار تلمودية، ورغم اعتراضي على كل تلك الجرائم إلا أنني لا أتهرب من المسؤولية لانتمائي إلى نفس دينهم، وربما كان ما يحدث لي الآن جزءا من تحمل المسؤولية".

قالت زينب: "وها هي تتابع إجرامها وتضربني دون أن أفعل شيئا لـ...".

رفعت نيكول إصبعها تجاه زينب ثم أعادت يدها أسفل إبطها مجددا ثم قالت: "لا أريد سماع صوتك، أنا أعرف عن دينك أكثر مما تعتقدين، إن تاريخكم أيضا لا يخلو من البشاعة والدموية، أيضا باسم الدين، ولكن الأمر يختلف معكم يا عزيزتي، فلن يسعني الوقت لسرد جرائمكم كما فعلت مع صديقتك هذه"، قالتها مشيرة إلى مارثا ثم تابعت: "فحروبكم لم تقتصر على من خالفكم فقط في الدين بل شمل الأمر قتالكم لبعضكم البعض، حكام يغدرون بمنافسيهم، مذهب يريق دم مذهبًا آخر، لم يمر وقت على موت نبيكم حتى ارتد الناس فنكلتم بهم واستبحتم دمائهم، ليس هذا فحسب بل إن أصحابه ومقربيه قاموا بحمل السيوف على بعضهم البعض في سباق على الخلافة، التطرف والإجرام موجود في كل دين ولا أحد بريء هنا".

كانت ماريا جالسة تضع يديها بجانب رأسها فصاحت وهي تقف: "يكفي هذا".

وقفت تواجه الجميع وهي تميل صارخة في وجوههن: "لقد تعبت من كل هذه الكراهية والأحقاد".

وقفت النساء في الغرفة المظلمة دون رد فتابعت ماريا: "لماذا يظن كل منكم أنه أفضل من الآخر لمجرد أفكار يؤمن بها؟ لماذا تختلفون إلى درجة الغل والكراهية؟ فليؤمن كل بما يشاء ويترك لغيره حرية الإيمان بما يشاء"، رفعت إصبعها وهي تقول دامعة: "إنني لا أتحدث عن الدين فقط هنا"، أنزلت إصبعها ورفعت كفيها متابعة: "أتحدث عن الحرية في كل شيء، الحرية في اختيار الدين، الرأي السياسي، اختيار فريق الكرة المفضل، الأغاني التي أحب الاستماع إليها، الكتب التي تعجبني قراءتها، لماذا لا يهتم كل بشأنه الخاص ويترك للآخرين شأنهم دون تقليل أو انتقاص؟".

صمتت للحظة لتلتقط أنفاسها ثم سعلت وقالت: "إذا كان كل من في هذه الحياة يرى أنه صحيح في كل شيء، فمن إذن السبب في كل ما يحدث في العالم من دمار وخراب وألم؟".

أشارت إلى زينب قائلة: "أنتم تكرهوننا لاعتقادنا أن المسيح هو إلهنا"، ثم أشارت إلى نيكول: "وأنتم تكرهوننا لأنكم تنكرون المسيح أساسا"، ثم أشارت إلى أمها وقالت: "وأنتِ تكرهين كل من ينكر ألوهية المسيح".

رفعت كفيها مجددا وهي تهمس: "هل هذا سبب كافي للكراهية؟ إنكم كمن يختلفون ما إذا كان شخص ما موظف عادي

أم رئيس قسم، في كل الحالات هل يستحق الأمر الكراهية والقتال؟".

اتسعت عيناها في الظلام وعادت للصياح: "أتتقاتلون من أجل مجرد معتقدات؟؟".

صمتت للحظة لتبتلع ريقها ثم تابعت: "نعم مجرد معتقدات، فأساس أي دين هو العقيدة، والعقيدة كلمة مشتقة من الاعتقاد، أي أن دين كل منكم قائم على اعتقاد وظن".

أشارت إلى زينب قائلة: "هل رأيتِ المسيح وهو يصعد إلى السماء دون أن يُصلب؟".

نظرت زينب إلى الأرض دون رد فتابعت ماريا: "وأنا أيضا لم أر المسيح يتعرض للصلب، ولكنني أحب أن أؤمن بما (أعتقد) وهو أن المسيح هو إلهنا".

صمتت للحظة ثم تابعت: "كل منا يؤمن بأشياء لم يرها بعينيه، ليس هذا فحسب، هناك الكثير من الأمور تكون حقيقتها على خلاف ما نراه بأعيننا، لماذا لا يؤمن كل إذن بما يشاء ويترك لغيره الحرية في الإيمان بما يشاء دون كراهية أو تقليل؟".

مسحت دموعها ثم عادت للجلوس عند الجدار وهي تقول: "لقد فات الأوان على قول هذا الآن، فبدلا من أن يبحث الناس عن القواسم المشتركة وأسباب الحب فيما بينهم سيظل الإنسان يفتش ويبحث عن أسباب الكراهية والخلاف، وكما قالت السيدة نيكول فإنه يمكن لأتباع الدين الواحد التفرق والقتال فيما بينهم، ثم

يستمر الأمر ليشمل كل شيء في الحياة حتى يصل إلى طريقة شرب الشاي".

بعد لحظة من الصمت سارت مارثا لتجلس بجوار ماريا، ضمتها إلى صدرها وهمست في أذنها: "أنتِ على حق كما كنتِ دوما".

سالت دموع ماريا ولفت ذراعها حول أمها التي همست: "أرجوك يا إلهي أن تُخرجنا من هذا الجحيم".

❁ ❁ ❁

17

في صباح اليوم التالي فُتح الباب الحديدي لسجن الرجال ليدخل اثنان من الجنود هما أبو خديجة الليبي وأبو حمزة الدمشقي، كانا شابين في العشرينيات من العمر، قاما بإيقاظ النائمين بدبشك البنادق وهم يصيحون: "هيا استيقظوا، انهضوا أيها الجبناء".

نهض الرجال فزعين وهم يتطلعون إلى الشابين الذين ارتديا زيا باكستانيا أسود اللون، وقد انسابت شعورهم بجوار وجوههم البيضاء طويلة اللحى حليقة الشوارب. تطلعا بعيونهم الباردة القاسية إلى الرجال وهم ينهضون ليقفوا صفا بجوار الجدار قبل أن يسيروا خارجين إلى المعسكر، كان الوقت السادسة صباحا وكانوا يرتجفون مع نسائم الصباح الباردة، تطلع خالد وفرانك إلى النساء اللاتي وقفن صفا في ساحة المعسكر مرتدين عباءات سوداء ونقاب، وقف بجوار النساء الأسرى ثلاث نساء يحملن البنادق الآلية، سمع فرانك صوت نيكول وهي تناديه وقد مدت ذراعها التي كستها العباءة تجاهه، رد عليها ولكنه صمت وبكى حين رأى أم شيخة وهي تشد نيكول من نقابها وأخذت تضربها بكفها على رأسها مزمجرة بلهجة ريفية مصرية: "لا حديث دون إذن أيتها الفرنجية"، لم تفهم نيكول أيا مما قالته أم شيخة ولكنها رفعت كفيها في استسلام، أمسكت أم شيخة ببندقيتها التي تركتها تتدلى بالحامل على كتفها ثم ضربتها بقبضتها الأخرى على ظهرها.

همس سالم لفرانك: "اصمت وإلا تلقيت بعضا من الضربات أيضا".

نظر له فرانك مذعورًا بعينيه الزرقاوتين وتابع تقدمه مع باقي الصف، أوقف أبو خديجة الليبي الصف بجوار صف النساء، خرج قائد المعسكر أبو أيمن المصري ومساعده أبو عتبة الحجازي مرتدين زي باكستاني وقد لف كلا منهما حول كرشه حزاما للذخيرة، كانا في الخمسينيات من العمر وبدا من مظهر الجنود المتأهب أن لهم سطوة وهيبة، اتجها إلى مجلس عربي في مقابل الساحة عبارة عن فرش من الصوف والعديد من المساند كما تم تسقيفه بعروق خشبية ومجموعة من سعف النخيل، توقف القائدان أمام الصفوف ثم أخرج أبو عتبة الحجازي مسواكا من جيبه وأخذ يفرش أسنانه الأمامية قبل أن ينادي: "التمام يا أبا مسعود".

تقدم أبو مسعود التكريتي الذي كان أربعينيا ذا شعر أكرت طويل ولحية تخللها الشيب وبدا كما لو أنه ضابط صف المعسكر، وقف انتباها أمام القائدين وقال: "عشرون جنديا من الرجال، 3 مجاهدات من النساء، 14 أسيراً، 8 رجال وست نساء"، أومأ أبو عتبة قبل أن يدور أبو مسعود حول كعبه الأيمن ويضرب الأرض بقدمه اليسرى ليعود إلى الصفوف ثم صاح: "معسكر جلوس".

جلس كل من الرجال والنساء وجلس أبو مسعود في مقدمة الجنود، جلس أبو عتبة الحجازي في المجلس العربي الذي تم إحاطته بسور صخري قصير، ظل أبو أيمن المصري واقفا يتأمل الجميع قبل أن يقول خاطبا بصوت أخنف رقيق: "إن الحمدلله، نحمده

ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"، تمتم خالد بصوت مسموع: "عليه الصلاة والسلام"، التفت إليه أبو مسعود شذرا قبل أن يتابع الخطيب بصوته الغني بالمحن وقد رفع سبابته اليمنى: "أما بعد.. ومازال ربنا يمن على الصابرين المجاهدين بمدد من عنده تثبيتا لقلوبهم ليكونوا سيوفا في نحور الكافرين وأعوانهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

فها نحن اليوم نشهد على رضا ربنا علينا بنساء نتخذها جواري لجند الإسلام، وأيد عاملة من الرجال سخرها لنا صاغرين ذليلين،

فاثبتوا فإنكم على الحق المبين، ولن يغمض لنا جفن حتى نقيم دولة الإسلام في كل ربع من ربوع العالم، والله لنثأرن ولو بعد حين".

نهض أبو مسعود التكريتي وصاح رافعا قبضته إلى السماء: "دولة الإسلام"، فأجابه الجنود الجالسون: "باقية وتمتد"، أخذ أبو مسعود يكرر الهتاف والجنود يردون عليه حتى رفع أبو أيمن كفيه وقال: "قوموا إلى جهادكم أثابكم الله"، ثم جلس في المجلس العربي فقام أبو عتبة الحجازي قائلا: "لقد قمت بتوزيع الجواري حسب استحقاق وجهد كل جندي منكم"، صاح الجنود مهللين قبل أن يرفع أبو عتبة كفيه متابعا: "أبو حفصة البصري يأخذ الفرنجية"، حاول أبو حفصة الاعتراض ولكن أبو عتبة قال: "لقد تجاوزت الستين بالفعل يا أبا حفصة، هذه أنسب واحدة لك خصوصا أنك لم تتمكن من معاشرة الشابة التي وهبناها لك سابقًا قبل أن تحاول الهرب"، ضحك الجنود وأمسك أبو مالك النجدي طرف جراب خنجر جلدي وأخذ يلوح به يمنة ويسرة، راقب أبو حفصة الجراب الجلدي البني يهتز في قبضة أبي مالك الذي قال: "لقد فقد جرابك خنجره يا أبا حفصة"، ضحك أبو عكرمة التهامي وقال: "ربما عليه أن يستعمل جراب خنجرك يا أبا مالك ليضاجع الفرنجية"، ثم أمسك بالجراب الجلدي متابعا: "يبدو لي أشد قوة من قضيب أبي حفصة"، تابع الجنود الضحك قبل أن يضرب أبو حفصة الأرض بقدمه وسار مبتعدا عن الصفوف وهو يصيح: "وما أدراك بقضيب أبي حفصة، فلم أجربه معك منذ أن كنت طفلا"، عاود الجنود الضحك والعويل، تابع أبو عتبة مبتسمًا: "الصليبية يأخذها أبو مالك النجدي، والمرتدة

لأبي عكرمة التهامي"، صاح كلا من أبي عكرمة وأبي مالك في زهو وقد رفعا بنادقهما وأخذا يدفعانها لأعلى وأسفل، تابع أبو عتبة: "الصليبية الصغيرة لشبل المجاهدين مازن القامشلي".

نهض مازن الذي كان عمره كعمر ماريا تقريبا واحتج قائلا: "ولكن يا أمير لقد وعدتني بحرمة شابة، ما الذي سأفعله بتلك الطفلة؟".

أشار أبو عتبة إلى ماريا وقال: "لقد فحصتها أم ميسرة، إنها بالغة بالفعل".

سار مازن متجها إلى ماريا ثم رفع طرف عباءتها فأمسكت بأمها التي أحاطتها بذراعيها، أشار مازن إلى جسمها وقال: "انظر يا أمير إنها نحيلة كالبرص"، بدأ الرجال في الضحك قبل أن يتابع مازن: "كما أن ليس لديها مؤخرة، إن كل ما لديها مجرد ورقة مكتوب عليها مؤخرة"، صاح الرجال ضاحكين قبل أن يدفع مازن بطرف عباءتها أرضا، قطع الضحك صوت اعتراض أبو عمة السوداني: "عليك الله يا أبو عتبة، ماذا عني يا زول؟ كل مرة تقول لي دورك الجاي دورك الجاي".

رد أبو عتبة: "لو كنت جادا في جهادك لبعث لك الله كما بعث لإخوانك، لطالما كنت متخاذلا في الجهاد، كسولا في العمل، ميالا إلى الأكل والنوم أكثر من أي أمر آخر".

صاح أبو حمزة الدمشقي: "ألا تذكر يوم بعثناك بالبغل إلى محطة البنزين لجلب الوقود ثم نمت وتركت البغل يفر هاربا؟".

رد أبو عمة: "لم أكن أعلم أن عليّ ربطه".

قال أبو عتبة: "كم مرة تبولت في سروالك قبل أن تعلم أن عليك إخراج قضيبك أولا؟".

نهض أبو أيمن المصري فهرع إليه أبو عمة ليساعده على القيام ثم قال: "فقط الأمير يعلم جيدا أنني مخلص للدعوة، مطيع للأمير".

نادى أبو أيمن: "هيا تناولوا الطعام وأطعموا الأسرى ثم ابدأوا تدريبكم".

مال أبو عمة بظهره وقال: "أمرك يا أمير، أمرك يا أمير".

هناك مواقف يمر بها الإنسان تشل العقل عن التفكير، لا يجد لها رد فعل ولا يعرف القلب ما الذي عليه أن يشعر به بالضبط، هذا ما شعر به رفاق سالم بينما يتم توزيع نسائهم كجواري لهؤلاء الجنود.

18

جلس الجنود يتناولون الطعام من المعلبات، تناولت أم أوس الطعام مع زوجها أبي أيمن وأم ميسرة مع زوجها أبي عتبة وأم شيخة مع أبي مسعود، جلس الأسرى بعد ذلك يتناولون ما تبقى من طعام الجنود، قادت أم أوس بعض النساء ليعملن بالتنظيف وطبخ الخضروات، رافقت أم شيخة الباقي للعمل على فلاحة حقل صغير بجواره بغل وبعض الخراف والدجاج.

كان الجنود يستعملون البغال في حمل الجراكل البلاستيكية والسير لمسافة طويلة في الصحراء تستغرق يومين جيئة وذهابا إلى محطة البنزين في مفرق الطرق المؤدي إلى أبو رديس حيث استراح سالم ورفاقه قبل أن يتم الإيقاع بهم، يحملون معهم بعض الطعام وقارورة من الماء بالإضافة إلى خنجر وهاتف لاسلكي للإبلاغ بدخول المعسكر لكي لا يعتقد الحراس أنه دخيل، تناوب أبو عكرمة التهامي الذي كان بدويا سيناويا وأبو عمة السوداني الذهاب لتموين الوقود من المحطة متظاهرين أنهم من بدو سيناء ثم يفرغون الجراكل في براميل الوقود التي تم وضعها بجوار صف عربات الدفع الرباعي والدراجات النارية والدبابة بالإضافة إلى ميكروباص سالم وباص رحلة الأستاذ وصفي، بجوار العربات تراصت صناديق خشبية مليئة بالذخائر كقذائف الهاون والدانات والآر بي جي، القنابل اليدوية ورصاص البنادق والجرينوف، انطلق بعض الجنود ليصعدوا مواقع

مرتفعة حاملين معهم مناظير مقربة للحراسة، قام جنديان بفرش غطاء تمويه على جميع الأبنية والعربات، تم إعداد ساحة التدريب بالموانع الأسمنتية والحلقات النارية والأسلاك الشائكة، كان أشدهم حماسا الصبي مازن القامشلي الذي ركض متقافزا بين فتحات إطارات السيارات حاملا سلاحه إلى صدره، تقافز معه ذيل زيه الباكستاني كما لو أنها لية خروف، كلف أبو عتبة أبو حمزة الدمشقي بحراسة الرجال أثناء العمل، أمسك بعض الرجال بالمعاول والكواريك وأخذوا يحفرون في الأرض بينما قام إبراهيم بجمع التراب في مقاطف ورميه بعيدا، تابع الجنود تدريباتهم في تجاوز الموانع، التدرب على الرماية، الفنون القتالية الأسيوية واستراتيجيات الهجوم والاقتحام، كان أبو حفصة البصري جندياً سابقًا في الجيش العراقي وخبيراً في الأسلحة والذخيرة وهو المسؤول عن شرح كيفية التعامل مع الأسلحة المختلفة، جلس الأسرى الذين كسى العرق والغبار أجسادهم وثيابهم للاستراحة، نهض خالد الذي ارتدى "فانلة" بحمالات ممزقة ومتسخة، اقترب من أبي حمزة الدمشقي الذي نظر له متوعدا فقال خالد: "لحظة يا قائد، هناك أمر مهم أريد أن أحادث الأمير بشأنه، إنه جاد".

خفق قلب سالم وهمس إبراهيم: "ذلك الوغد سينقل لهم ما قلناه البارحة، تبا".

رد سالم بنفس الهمس: "إذا كان عليهم أن يقتلونا فليفعلوها وننتهي".

أقنع خالد أبا حمزة باصطحابه إلى أبي أيمن المصري فساقه إلى غرفة حجرية وقد أمسك بفانلته من الخلف ورفعها لأعلى، طأطأ خالد رأسه وهو يراقب الجنود وهم يتدربون على صنع العبوات الناسفة، استأذن أبو حمزة في الدخول فأذن له أبو عتبة. كانوا في غرفة عمليات المعسكر حيث تواجد جهاز لاب توب ويو إس بي مودم، جهاز إرسال واستقبال راديو، العديد من أجهزة الموتورولا اللاسلكية وهاتفين ثريا للاتصال عبر الأقمار الصناعية، صناديق خشبية تحتوي على شاشة تلفزيونية وقطع غيار، استخدموا مولدًا كهربائيا لإمداد هذه المعدات بالطاقة، كان أبو أيمن جالسا مع أبو عتبة يتحدثان بشفرة خاصة عبر اللاب توب مع أبي الفضل المغربي قائد التنظيم في مصر، أخبر أبو حمزة بطلب خالد فأشار له أبو أيمن بالدخول، بدأ في مسح أسنانه بالمسواك وهو يراقب خالد بجانب عينيه ثم قال: "قل ما عندك".

ابتسم خالد وقال: "إنه لشرف لي ولزوجتي أن نكون في حضرة أمير المجاهدين، إننا من جماعة الإخوان المسلمين ولطالما آمنا بمنهج تنظيم الدولة، دائما كنا نفرح أشد الفرح مع كل عملية يقوم بها المجاهدون ضد جيش الطاغوت و....".

رفع أبو أيمن كفه الممسكة بالسواك وأغمض عينيه قائلًا: "حسبك".

مال أبو عتبة على أذن أبي أيمن وقال: "ربما نستفيد منه في العمليات القتالية".

رد عليه أبو أيمن وهو يحرك كفيه كما لو أنه يُلقي محاضرة: "في القريب سينضم إلينا المزيد من المجاهدين القادمين من سوريا لإتمام العملية، أما هذا..."، قالها مشيرا إلى خالد ثم تابع: "فسيكون ذا نفع أكبر في تجهيز المعسكر لتخزين الأسلحة وإعداد أماكن إيواء للجنود"، ثم التفت إلى خالد وتابع تفريش أسنانه بالمسواك قبل أن يقول: "تقول إنك من الإخوان المسلمين".

مد خالد كفيه أمامه وقال: "أقسم لك يا أمير إنني من جماعة الإخوان، إني على استعداد أنا وزوجتي لمبايعة الخليفة على السمع والطاعة في المنشط والمكره".

نهض أبو أيمن حاملا كرشه أمامه ثم رفع إصبعه وبدأ في خطبة خنفاء جديدة: "إنكم والله لأشد جرما عندنا من جند الطاغوت، فأنتم قد تربيتم على المنهج الحق على يد علماء ملمين بمصادر وأسانيد صحيح الدين، كنتم بالأمس سندا وعونا لإخوانكم المجاهدين"، ثم رفع طبقة نبرته الخنفاء وتابع: "وما إن وصلتم إلى سدة الحكم حتى تقاعستم عن الجهاد ورضيتم بالقعود وغرتكم الحياة الدنيا، عجبنا لأمر رئيسكم وقد وضع يده في يد قادة الظلم ورموز الطاغوت، لم تعملوا على تطبيق أحكام الشريعة وتركتم أماكن اللهو والفجور مفتوحة على مصراعيها، رفعتم راية السلام مع

اليهود، أما والله إننا لا نجد لكم عذرا، وحكمنا عليكم حكمنا على المرتدين الكافرين".

تابعه خالد فاغر الفم بعينين لا تطرفان وحين انتهى أبو أيمن قال: "ولكن يا أمير...."، بصق عليه أبو أيمن وقال: "اخسأ فلن تعدو قدرك".

مد أبو حمزة الدمشقي يده ليمسك خالد من فانلته ويعود به إلى عمله، أمسك خالد بالفأس وسط نظرات رفاقه ثم بدأ في الحفر قبل أن يقول: "لا تقلقوا لم أقل شيئا بشأن البارحة".

قال إبراهيم وهو يحمل مقطفًا مليئًا بالتراب والحصى وقد غمر العرق والغبار وجهه الغليظ وشاربه الضخم: "افعل شيئا كهذا ولن يكونوا أكبر مخاوفك حينها"، لم يرد خالد وتابع الحفر بينما ذهب إبراهيم ليفرغ المقطف وقد لف ذيل جلبابه الرصاصي حول وسطه.

19

في الليل قام الجنود بحبس الرجال في الغرفة ثم أشعلوا النيران لإضاءة المعسكر. عمل آخرون على شوي أحد الخرفان احتفالا بغنائمهم، اجتمعت أم ميسرة بالنساء الجدد وأمرتهن بطاعة المجاهدين وهددتهم بذبح أزواجهن وحرقهن أحياء إذا تمردن، تناوب الجنود دخول إحدى الغرف، كل فرد مع جاريته، كان الباقي يضحكون ويتدافعون وهم يستمعون إلى صيحات النساء وبكائهن، استمتعوا بسماع صرخاتهن وقلدوا توسلاتهن، تنتظر أم شيخة خارج الغرفة حتى يخرج منها الجندي فتنطلق إلى الداخل لإخراج جاريته ودفعها إلى سجن النساء، كن يخرجن باكيات وقد تمزقت ثيابهن وعلى وجوههن آثار الضرب، خرجت مارثا والدماء تسيل من أنفها وفمها بعد أن تلقت الصفعات واللكمات من أبي مالك النجدي، سحبتها أم شيخة من شعرها فسارت معها إلى السجن وهي تميل لتمنع نفسها من السقوط أرضًا.

ساعدت أم ميسرة أم شيخة في حمل زينب من الغرفة بعد أن قام أبو عكرمة التهامي بضربها في أنحاء جسمها بعصا غليظة قبل أن تستسلم له، فقدت ماريا وعيها مع ضربات مازن لها بحزام ذخيرته فلم تشعر بأي مما صار لها.

جلس خالد تلك الليلة مطأطئ رأسه في السجن تتساقط دموعه على التراب من حين لآخر، جلس عزيز الذي نبتت لحيته ساندا رأسه

على الجدار باكيا يهمس باسم زوجته وابنته، أما فرانك فهرب من واقعه بالنوم في وسط الغرفة التي اندفع إليها تيارات باردة من بين الجدران الصخرية، لم يعلم فرانك أن زوجته لم تثر اهتمام أبي حفصة الذي قذف في وجهها حفنة من الرمال، ثم خرج وسط ضحكات الجنود وسخريتهم.

قال إبراهيم مخاطبا سمير: "ألم تلحظ أن أحدا لم يأمر الفرنسي بفعل أي شيء؟".

رد وصفي بضحكة قصيرة ثم تابع: "يالك من غبي ذي عقل ثخين، وما الذي ينتظرونه من عجوز في سن هذا الرجل؟".

قال سمير: "ماذا إذن؟".

- "لقد كانوا ليقتلونهم منذ اليوم الأول فهم عجائز ولن يفيدوا في شيء، لقد تركوهم أحياء على أمل أن يساوموا بهم حكوماتهم في نواحي مالية أو سياسية".

* * *

وقف أبو حفصة متكئًا على جنزير الدبابة يراقب الحفل الصاخب، بعد لحظات سار متجها إلى أبي أيمن المصري الذي كان يأكل العنب في المجلس العربي مع زوجته أم أوس وبرفقة مساعده أبو عتبة الحجازي وزوجته أم ميسرة، لمح أبو أيمن أبا حفصة فقال مبتسما: "خير يا أبا حفصة؟ لم تعجبك الفرنجية؟"، ثم وكز أبو عتبة بمرفقه فضحك وهو يقضم قطعة من لحم الخروف.

حاول أبو حفصة أن يرسم ملامح الشقاوة على وجهه وهو يقول غامزا: "بل أعجبتني كثيرا يا أمير، أريد أن أستأذنكم في إرسال أبي عمة لإحضار البنزين يا أمير، عليه أن يُثبت نفسه لكي يكافأه الله كما كافأ إخوانه".

قال أبو عتبة وهو يمسح فمه بساعده: "ومنذ متى تهتم لأمر أبي عمة؟".

- "آه، أنا....".

أشار له أبو أيمن قائلا: "اذهب اذهب، نبهه أن يربط البغل هذه المرة إذا أراد النوم".

انطلق أبو حفصة إلى أبي عمة الذي كان يشارك الجنود سعادتهم وطعامهم، ضربه أبو حفصة على كتفه فالتفت رافعا نظره عن العظمة التي أمسكها بكلتا يديه.

- "قم معي، لديك تكليف من الأمير".

اتسعت عينا أبي عمة وألقى بالعظمة من يده قائلا: "سمعًا وطاعة للأمير".

سار معه أبو حفصة مبتعدا عن الجنود، ثم أوقفه بجانب الدبابة ووضع يده على كتفه قائلا: "قل لي، ألا ترغب في الحصول على الكثير من عذارى الحور العين؟".

فغر أبو عمة فاه حيث التصق لحم الخروف بين أسنانه وقال: "وكيف لي هذا وأنا دائم الإخفاق في كل ما يطلبه مني الأمير؟".

أومأ أبو حفصة برأسه ونظر مباشرة في عينيه ثم قال: "إذا نفذت ما يأمرك به الأمير سيرزقك الله بالكثير من الجواري في الدنيا والكثير من الحور العين في الآخرة".

بدا على أبي عمة الحزن وهو يقول: "والله يا أخي مشوار البنزين هذا كله تعب، يوم كامل رايح يوم كامل راجع غير الحر والبرد، ولا يكون معي سوى القليل من الزاد والماء".

رفع أبو حفصة كفه وقال: "اطمئن.. لن يكون عليك فعل هذا".

صمت أبو عمة للحظة فتابع أبو حفصة: "في الحقيقة لقد شكوت قبح وعجز الفرنجية إلى الأمير، وكما تعلم يا أبو عمة فإني مجاهد مجد ومناضل".

- "طبعا.. طبعا، مين ما يعلم أبو حفصة؟ أشهد الله أنك أسد يا أبا حفصة..آآي".
- "وحين بت الأمير في أمري أمرني بأن أضعه في مؤخرتك يا أبا عمة، قل لي الآن ماذا تقول في أمر أميرك؟".

دُهش أبو عمة للحظة فنظر إلى أبي حفصة متشككًا، تحولت دهشته إلى تفكير، حتى قال أبو حفصة: "ماذا؟ لا ترغب في طاعة ولي الأمر؟".

- "وهل أمر أبو أيمن بهذا؟".

ابتسم أبو حفصة ووضع يده على ظهر أبي عمة ثم أداره ناحية مجلس أبي أيمن: "يا أبا أيمن، يا أمير"، نادى أبو حفصة فالتفت له أبو أيمن، تابع أبو حفصة: "هذا هو أبو عمة يريد أن....".

قاطعه أبو أيمن مناديا: "افعل ما يأمرك به أبو حفصة يا أبا عمة، كن مطيعًا ولا تُغضبه منك".

صمت أبو عمة وقد شبك أصابعه أمام صدره، جذبه أبو حفصة إلى خلف الدبابة فسار معه مستسلمًا وظل مستسلمًا حتى ينفذ أمر أمير الجماعة فيكافأه الله بالجواري والحور العين.

20

تتابعت الأيام في المعسكر والجنود يتدربون يوميا بينما يعمل الرجال على تجهيز مستودعات للأسلحة والذخيرة تحت الأرض بالإضافة إلى بناء غرف حجرية، تهطل الأمطار وتمتلئ الحفر بالطين والمياه فينزحونها بالدلاء، مرت ليال باردة تجمد الأعصاب دون أن يجدوا ما يدفئهم سوى بطانية ميري لكل فرد وشعلة من النار لا تظل غالبا حتى الصباح فينامون من الجوع والتعب، نمت لحاهم وشعورهم حتى صاروا أشبه إلى هيئة خاطفيهم، زاد البرد من ألم النقرس في يدي نيكول التي كانت تقضي الليل باكية تحاول كتم صرخات الألم.

انتهى الرجال ذات يوم من تثبيت الألواح الخشبية على جدران أحد الحفر فأمر أبو حمزة الدمشقي خالد بالذهاب إلى البراميل ليحضر الماء لرفاقه، كانوا يجمعون المياه من آبار وعيون جبلية ثم يخزنوها في براميل بجوار الحقل الزراعي، حمل خالد جركلًا بلاستيكيًا واتجه إلى البراميل، نظر إلى النساء وهن يعملن على فلاحة الحقل في حراسة أم شيخة، لم يعد قادرا على تمييز زوجته وسط تلك العباءات، ولم يكن مسموحًا للرجال بالحديث مع (الحريم)، أغلق خالد صنبور المياه المثبت في قاعدة البرميل المحمول على قواعد أسمنتية، حمل الجركل وسار عائدًا إلى رفاقه حين رأى سن المحراث الذي يسحبه البغل وقد اشتبك في إحدى العباءات،

صرخت المرأة ساقطة وبدأ البغل يسحبها على التراب وسط صيحات باقي النساء، انكشفت البيجامة الداخلية التي ترتديها تلك المرأة ولا يزال البغل يجر جسدها كما حدث مع محمود المليجي في فيلم الأرض، ترك خالد الجركل وركض باتجاه البغل ثم أمسكه من لجامه حتى توقف، التفت فوجد مارثا وقد انكشف وجهها وشعرها، رأى امرأة أخرى نحيلة الجسد جاءت لتجلس بجوار مارثا فخمن أنها ماريا وتأكد حين جلست وهي تنادي أمها بصوت باكٍ مبحوح، ترك البغل وجلس بجوارها على ركبتيه، سند ظهرها بيده وساعدها على الجلوس، نظرت إليه بعينين خاويتين من أي تعبير أو حياة، تجلد شعرها وصار خشنًا قذرًا، ارتجفت شفتان مزرقتان متشققتان، سالت دمعة دون أن تطرف عيناها على خدها الذي أصبح جافًا مجعدًا غابت عنه أي آثار للنضارة والحسن، همس خالد ممسكا بيدها: "مارثا".

انزلقت الدمعة على مجرى ملتهب داكن من كثرة البكاء.

هوت ضربة بدبشك بندقية على مؤخرة رأسه فصاح قبل أن يسقط جسده على جسد مارثا، سبه أبو عكرمة التهامي ثم أمسكه من ذراعيه وشده خارج الحقل.

قاموا بتقييد ذراعي خالد وعلقوه على مدفع الدبابة ثم رفعوا المدفع حتى صارت قدميه في الهواء، أصدر أبو أيمن أوامر صارمة بأن يظل طوال الليل على المدفع كما أمر بمعاقبة كل من يفكر في إطعامه أو سقايته أو حتى وضع رداء لتدفئته.

فتح أبو عكرمة وأبو حمزة باب السجن مع موعد الاستيقاظ الصباحي وقاموا بإلقاء خالد الذي فاح من سرواله رائحة البول، سارع السجناء باستلامه وتغطية جسده الذي أصبح كاللحم البرازيلي المجمد، كان يهذي بكلام غير مفهوم ثم سعل فاندفعت الدماء من فمه لتتناثر على شاربه ولحيته، أمرهم أبو حمزة بالتجمع في ساحة المعسكر واصفا إياهم بالخراف المخصية، ساروا بأجسادهم الهزيلة وعظامهم البارزة، توقف وسيم منذ فترة عن سؤال والده عن موعد انتهاء اللعبة أو المطالبة بالذهاب إلى البيت.

* * *

ذات يوم أثناء التدريب أشار أبو حمزة على أبي أيمن بضم وسيم إلى صفوف المجاهدين، فهو كما قال صغير السن، لين العقل، ويمكن استقطابه ليكون من أشبال المجاهدين.

أمره أبو أيمن بإحضاره، كان سالم وخالد ووسيم يعملون على بناء مخرات مائية في سقف مستودع الذخيرة لدفع مياه الأمطار بعيدا، نادى أبو حمزة على وسيم فأمسك به سالم قائلا: "ماذا تريد منه؟".

- "هذا أمر الأمير"، ثم برقت عيناه وصاح: "وسيم تعال حالا".

فتح سالم فمه ليعترض فأمسكه خالد من يده، التفت إليه سالم فهز خالد رأسه.

نظر سالم إلى ولده ثم قال: "وسيم.. اذهب مع عمو العسكري، وكن مطيعًا".

- "بابا هل سيأتي الجنود المخلصون؟".

رد سالم: "نعم يا وسيم، ولكن أولا يجب أن نبني لهم البيوت لكي يجدوا مكانا للنوم".

قال وسيم: "لماذا لا ينامون معنا في الغرفة؟ هناك مكان فارغ بجواري يا بابا".

صاح أبو حمزة: "هيا يا ولد".

قال سالم: "هيا يا وسيم، لا تدع عمو يغضب منك".

كان أبو أيمن وأبو عتبة يشربان الشاي في المجلس حين أقبل عليهما أبو حمزة وبجواره وسيم الذي اتسعت عليه ثيابه وصارت ممزقة متسخة.

قال أبو أيمن: "اجلس اجلس، اسمك وسيم؟".

"اسمي وسيم سالم عبد الصمد محجوب، وُلدت في الجيزة بمستشفى العجوزة، بابا وُلد في النوبة بمحافظة أسوان، أما ماما فوُلدت في أسوان أيضا وماتت في الجيزة يوم 23 أغسطس من عام 2013".

ابتسم أبو أيمن وقال أبو عتبة: "تحفظ القرآن؟".

رد وسيم وقد رفع إصبعين في وجه أبي عتبة: "أحفظ جزئين، جزئين من القرآن، وكل يوم أقرأ لأمي الفاتحة".

بدا على أبي أيمن الرضا وهو يفرش أسنانه الصفراء بالمسواك، أخذ يراقب وسيم وبادله وسيم النظرات مبتسمًا.

قال أبو حمزة: "إن لديه مشكلة ما، ولكنه سيفعل ما يُطلب منه وهذا هو المهم، وسيم؟".

التفت إليه وسيم فقال أبو حمزة: "قل أنا حمار"، رد وسيم فورا: "أنت حمار".

ضحك أبو أيمن وأبو عتبة الحجازي حتى أن أبو أيمن أطلق الغازات من شدة الضحك، احمر وجه أبي حمزة وقال: "لا، قل أنت لي أنك حمار".

رفع وسيم كفيه وأدارهما لأبي حمزة وهو يقول في صدق وبراءة: "إنك حمار"، رفع أبو حمزة كفه ليضرب وسيم فأوقفه أبو أيمن بإشارة من يده وقال: "اذهب به ليشارك إخوانه في التدريب، أريدك أن تُشرف بنفسك على تدريبه".

مط أبو حمزة الدمشقي شفتيه وقال: "أمرك يا أمير".

في البداية واجه وسيم صعوبة في تجاوز الموانع خصوصا مع صياح وشتائم أبي حمزة، عندما وصل التدريب إلى التعامل مع الأسلحة أظهر وسيم براعة وسرعة استجابة اندهش لها الجميع،

علمه أبو حفصة البصري كيف يُطلق النار من البنادق ويُغير خزنة الذخيرة، كيف يفكك السلاح ويجمعه، تعلم الإطلاق من مدفع الجرينزف والهاون، مع مرور الأيام صار وسيم قادرًا على تلقيم مدفع الدبابة وتوجيه البرج والإطلاق على الأهداف البعيدة، غير أن أبا حمزة استمر في معاملته بقسوة وشدة، فلم يترك لوسيم خطأ أو تقصيراً دون معاقبته وسبه.

21

لم يتمكن أبو حمزة من النوم في إحدى الليالي لإصابته بالبرد وانسداد أنفه تماما، استيقظ متعكر المزاج وأخذ يتابع وسيم وهو يتسلق حاجزًا من الموانع، بعد أن قفز إلى الناحية الأخرى انقطع حذاؤه الذي اهترأ قماشه المرن، جلس وسيم يحاول تثبيت نعل "الكوتشي" الذي انخلع تماما.

صاح أبو حمزة: "أنت، اخلع حذاءيك واركض حافيا".

أطاعه وسيم وبدأ في الجري على الأرض الباردة، تسلق الموانع الأسمنتية التي كانت كألواح من الجليد، حاول تسلق الجدار ولكنه شعر بالتنميل والألم في قدميه، نزل وسيم عن الجدار وأخذ يمسح باطن قدميه في سرواله، صاح أبو حمزة فيه ليتابع، ولكن وسيم ظل واقفًا وبدأ في البكاء، تقدم منه أبو حمزة ودفعه فسقط على ظهره.

- "تابع التدريب أيها الفتى"، لم يرد وسيم وتحول بكاؤه إلى صراخ حتى أن الجنود توقفوا وأخذوا يشاهدون ما يحدث.

سمع سالم صوت صراخ ولده بينما كان يضع الألواح الخشبية في إحدى الحفر، صعد السلم الخشبي وحين خرجت رأسه من حافة الحفرة رأى أبو حمزة يهوي على رأس وسيم بعصا غليظة صارخا: "يا لك من لعين".

تحولت أعصاب سالم إلى خيوط من المطاط فسقط عن السلم إلى أرض الحفرة الخشبية، كان أبو حفصة البصري يدرب مازن

القامشلي على استعمال الآر بي جي فتركاه وهرعا إلى وسيم الذي غطت الدماء رأسه ووجهه، رفع مازن رأس وسيم عن الأرض وخفق قلبه حين رأى عينيه مفتوحتين وقد تجمعت رغوة بيضاء في فمه، نهض ودفع أبا حمزة الذي تراجع في استسلام وقد قطب جبينه، لم يشعر بالندم على ضربه لوسيم ولكنه شعر بالندم لأنه فعل ذلك دون أمر من الأمير، صاح أبو حفصة وقد وضع خرقة من القماش على جرح وسيم: "لا يزال حيا ساعدني على حمله".

أمسك مازن بقدمي وسيم وحمله أبو حفصة من تحت إبطيه واتجهوا به إلى إحدى الغرف الحجرية التي هجرها الجنود لقربها من الحفرة التي دفنوا فيها رفاق وصفي بعد أن حاولوا الهرب.

صرخ أبو حمزة في باقي الجنود الذين وقفوا يتابعون ما يحدث: "على ما تنظرون؟ تابعوا التدريب".

نظروا إليه للحظة قبل أن يتابع كل منهم ما كان يفعله، في تلك الأثناء أفاق سالم من سقطته ثم خرج من الحفرة، حاول خالد منعه ولكنه دفع خالد وتسلق السلم كالمجنون، ركض باتجاه أبي حمزة ثم دفعه بيديه فطار قبل أن يزحف بظهره على الأرض، بالرغم من خوف سالم على ولده وغضبه على أذيته إلا أنه شعر بقبضة الخوف تعتصر قلبه وهو يشاهد أبا حمزة وقد تمدد وسط الحصى والرمال، وقف خالد على السلم الخشبي ورأسه عند حافة الحفرة يتابع ما يحدث، نهض أبو حمزة مكشرا عن أنيابه التي سال منها خيط ثقيل من اللعاب، جذب بندقيته التي طارت من يديه ثم شد أجزاءها وصوب الفوهة تجاه سالم.

رفع سالم ذراعيه أمام جسده حين صاح أبو أيمن: "توقف".

اختفت كل ملامح الشراسة عن وجه أبي حمزة لتحل ملامح البراءة والخضوع، وقف أبو أيمن أمامه واضعًا كفيه على جانبيه والهواء يهز لحيته الطويلة التي تشبه منفضة الغبار، أنزل أبو حمزة سلاحه وطأطأ رأسه لأسفل، بعد لحظة قال أبو أيمن المصري وهو يضع كفه على كتف أبي حمزة: "من يملك الزعامة هنا؟ قل لي يا أبا حمزة".

رفع أبو حمزة عينيه إلى أبي أيمن دون أن يرفع رأسه وأجاب وهو يشعر أن يد أبي أيمن تزن أطنانا على كتفه: "أنت يا أمير".

اهتزت لحية أبي أيمن وهو يتحدث قائلا: "رأيت أن أسألك لأنني بدأت أشعر بالحيرة، إنك تتصرف كما لو أن لك الأمر على هذا المعسكر، ضربت أحد جنودي ضربة مميتة وقررت إطلاق النار على أحد عمالي".

لم يرد أبو حمزة ووجه نظره إلى حذائه العسكري ليتأكد أن كل الأربطة في فتحاتها.

- "أبو مسعود"، نادى أبو أيمن، فأجابه أبو مسعود التكريتي: "نعم يا أمير".
- "صادر أسلحة أبي حمزة وذخائره وأرسله إلى المحطة لجلب الوقود، أعطه مسدسًا فقط".

رفع أبو حمزة عينيه عن الأرض بعد أن وصل في عد الحصى المحيط بقدميه إلى العدد سبعة، ولكنه خفض عينيه مجددا ليتابع العد قائلا: "كما تأمر يا أمير".

- " جيد"، قالها أبو أيمن قبل أن يلف جسده بسرعة لا تناسب وزنه ليهوي بقبضته على فك سالم الذي وجد نفسه مبعثراً على الأرض دون أن يدرك ما حدث له، أخذ يراقب أبا أيمن بعينين زائغتين وقد أخذت رأسه تهتز وفي أذنيه صوت طنين مرتفع، هبط خالد برأسه إلى داخل الحفرة بينما يصيح أبو أيمن: "إياك أن تمس أحدا من جنودي مجددا وإلا سلخت جلدك وربطتك على الجبل لتأكلك الغربان حياً".

22

تم تجهيز فراش لوسيم في الغرفة القريبة من المقبرة كما كلفوا ماريا بتنظيف وتضميد جراحه والعناية به يوميا حتى يفيق ويستعيد قوته.

وقف أبو أيمن يستمع إلى تقرير أبي حفصة البصري بشأن حالة وسيم، لم يكد أبو حفصة يُنهي كلامه حتى سمع صراخًا من وحش جريح، التفت فرأى غوريلا تنقض عليه واتضح له أنها أبو عمة السوداني، قفز أبو عمة على ظهر أبي حفصة وقبض على خديه بأظافره، رفع أبو عمة رأسه وقام بعضّ فروة رأس أبي حفصة التي انفكت عنها العمامة، أخذ أبو عمة يزوم ويزمجر في صراخ وبكاء معا، سقط أبو حفصة على ركبتيه وهو يعوي كالكلاب، مال معه أبو عمة وظل قابضًا على رأسه بأسنانه وأظافره، صرخ أبو حفصة باكيا وهو يلوح بذراعيه في الهواء.

- "ماذا تفعل يا أبا عمة، توقف حالا"، قالها أبو أيمن وهو يحاول جذبه عن أبي حفصة.

فك أبو أيمن عمامته ولفها حول رقبة أبي عمة ثم بدأ في جذبه، ظل أبو عمة متشبثا بأبي حفصة وهو يزيد من قوة عضاته، صرخ

مختنقا وأمسك برقبته، تلوثت أسنانه وأظافره بدماء أبي حفصة الذي سقط على وجهه، جذب أبو أيمن العمامة فسقط أبو عمة على ظهره وهو ينظر في شراسة إلى أبي حفصة، أمسك أبو أيمن حجرا وضربه على جانب رأسه فاستلقى على ظهره.

- "هل جُننتم جميعا؟ ما الذي يريده منك هذا الرجل؟"، قالها أبو أيمن لأبي حفصة الذي صرخ قائلا: "لم أفعل له شيئا يا أمير، لقد رأيت كيف انقضَّ عليّ كالحيوان".

نفض أبو حفصة الغبار عن ثيابه وهو يقف وقد امتلأ وجهه بالخرابيش كما لو أن قطًا سن أظافره على وجهه، وضع يده على جروح رأسه التي سالت منها الدماء على وجهه وهو ينظر إلى أبي عمة في مقت.

نهض أبو عمة ممسكا بجانب رأسه ولازالت عمامة أبو أيمن ملفوفة حول رقبته، سالت الدموع من عينيه وهو يصرخ كالمرأة المفجوعة: "كذااب، لقد خدعني يا أمير، هذا النجس قام بـ...".

اختنق صوته من البكاء فانطلق مجددا إلى أبي حفصة الذي رفع ذراعيه أمام وجهه، مد أبو أيمن قدمه أمام مسار أبي عمة فتعثر وزحف أرضا على بطنه حتى تشبعت لحيته ووجهه بالتراب.

مال أبو أيمن عليه وقال: "كيف خدعك، ماذا فعل لك؟ قل لي".

نهض أبو عمة مزمجرا ولم يرد، صرخ أبو حفصة البصري: "قل له، قل له كيف خدعتك، لماذا لا تفعل؟".

تبادلا النظرات للحظة قبل أن يضع أبو أيمن يده على كتف أبي عمة ويديره ناحيته قائلا: "الحق أقول لك، منذ أن جئت إلى معسكري وأنت تثير المشاكل ولا تجيد عمل أي شيء، لا تستطيع القتال، تتكاسل عن التدريب، لا تقبل العمل مع العمال، حتى الوقود لم تفلح في جلبه".

فتح أبو عمة فمه ولكن أبا أيمن أوقفه بإشارة من كفه وتابع: "يا أبا مسعود".

هرع أبو مسعود التكريتي إلى أبي أيمن وقال: "أمرك يا أمير".

- "صادر أسلحة أبي عمة واطرده خارج المعسكر، أعطه بعضا من الزاد والماء، واترك له خنجرا ليصطاد لنفسه شيئا".
- "أو ليقتل نفسه"، قالها أبو حفصة مانعا نفسه من الضحك فالتفت إليه أبو أيمن بنظرة أخرسته، عاد أبو مسعود بعد لحظات وناول أبا عمة بطانية ملفوفة ومعها بعضًا من الطعام وقارورة مياه، مد أبو عمة يديه حاملا البطانية فوضع أبو مسعود خنجرا فوق اللفة، رفع أبو عمة السوداني عينيه التي تسيل منهما الدموع إلى أبي أيمن وقال: "أعطني فرصة، فرصة أخيرة يا أمير، سأجلب لك الكثير من الوقود".

أشاح أبو أيمن بكفه واتجه إلى غرفة العمليات، لحق به أبو مسعود التكريتي ومن بعده أبو حفصة الذي رمق أبا عمة وهو يبتعد عن المعسكر حاملا بطانيته بين ذراعيه، هز رأسه وبدأ يفكر في طريقة ليختلي بجارية أبي حمزة الدمشقي الذي سيغيب لمدة يومين في جلب الوقود.

سار أبو عمة متثاقلا مطأطئ الرأس ولا زالت عمة أبو أيمن حول رقبته. كان يصيح باكيا من حين لآخر حتى اختفى بين الكثبان الرملية وقد ذاب جسده وسط السراب قبل أن يتابع الجنود تدريباتهم مجددا.

23

بعد أسبوع من إصابة وسيم استيقظ الجنود في الصباح ليجدوا أبا عكرمة ممددا على ظهره، وقد استقرت صخرة ضخمة فوق رأسه وكتفيه، تجلطت الدماء مكونة دائرة أرجوانية حول الصخرة فبدت كبتلات حمراء لزهرة يشكل جسد أبي عكرمة عودها. رفع ثلاثة من الرجال الصخرة عن أبي عكرمة بشق الأنفس، كان رأسه خليطًا من العظام والمخ والجلد المشعر والدماء والأسنان، وقف أبو أيمن يحاول معرفة كيفية وقوع الصخرة عليه بهذا الشكل وسط همسات الجنود، مال أبو أيمن وأخذ يتفحص محيط الجسد فلم يجد آثار أقدام غير آثار أقدام الجنود، تمتم الجنود الذين تعلقت أسلحتهم على أكتافهم قائلين: "أشباح، أشباح".

اتسعت عيونهم بينما يشير أبو خديجة الليبي إلى مقبرة الأسرى محدثًا أبو مسعود التكريتي.

صاح أبو خديجة: "هذه المقبرة ملعونة، حذرتكم من قتل المشعوذة العجوز".

عاد الهمس بين الجنود وهم يسترجعون اللعنات التي صبتها عليهم أم توفيق الدادة والتراب ينهال فوق رؤوسهم، قالت إن لديها خداماً من الجن وسينتقمون لها منهم واحدا تلو الآخر.

- "ولماذا لا يكون أبا حمزة الدمشقي؟"، قال أبو عتبة الحجازي، ثم تابع: "إنه غائب منذ أن بعثناه لجلب الوقود، وربما كان أبا عمة".

رد أبو خديجة: "وكيف تفسر هذا؟"، قالها مشيرا إلى الصخرة ثم تابع: "كيف أنزلوا الصخرة على أبي عكرمة؟ في حين لا يقدر على حملها إلا ثلاثة رجال بمشقة!".

قال أبو عتبة: "لا أدري، لابد من تفسير للأمر، ولكن لا تُحدثني عن الأشباح أيها الجبان".

- "هراء"، قالها أبو مالك النجدي ثم تابع: "لا وجود لشيء يُدعى أشباح".

مرت لحظة من الصمت قبل أن يتابع أبو مالك: "سأثبت لكم أن الأمر لا يتعلق بمن قتلناهم، أنا سأقضي الليلة حيث مات.. أقصد استشهد أبو عكرمة وسأكتشف بنفسي من الذي يعبث معنا".

24

كان العمل في المخازن قد انتهى فقاموا بنقل صناديق الأسلحة والذخيرة التي كانت بجوار الدبابة وأنزلوها بالحبال إلى المستودعات، كما شارف الانتهاء من بناء الغرف الجديدة لاستقبال الجنود الجدد الذين سيصلون إلى المعسكر للاشتراك في العملية القادمة.

وقف خالد وسالم يعملان على تسقيف إحدى الغرف حين قال خالد: "تُرى ماذا سيفعلون بنا بعد أن ننتهي مما يريدون؟".

رد سالم وهو يدق الأخشاب بالمسامير: "لا أدري.. أريد أن أبقى على قيد الحياة أنا وولدي آملا أن يتم إنقاذنا بطريقة ما".

أطلق خالد ضحكة قصيرة وقال: "وهل لازلت تأمل في أن يتم إيجادنا وإنقاذنا؟".

لم يرد سالم ولكنه قال بعد لحظة: "لن أتوقف عن الأمل ما دامت أنفاسي تتردد في صدري".

وقف خالد ليشرب من جركل الماء، غسل وجهه ولحيته الطويلة ثم وضع يده مظللا على عينيه وقال: "أتدري يا صديقي.. إنني أختلف معك ولكنني على حق هذه المرة".

نظر له سالم فتابع خالد: "أعتقد أننا بحاجة إلى ما هو أكثر من الأمل".

تمتم سالم: " كيف؟".

انحنى خالد ليرص الألواح على السقف وهو يقول: "إننا نحتاج إلى معجزة".

التفت خالد وسالم إلى صوت صياح عزيز الذي أمسكه أبو مسعود التكريتي من ياقة قميصه ودفعه أمامه إلى مجلس أبي أيمن.

دفع أبو مسعود عزيز ليجثو على ركبتيه أمام أبي أيمن الذي قال لأبي مسعود: "ما به؟".

قال أبو مسعود مشيرا إلى عزيز: "رأيته يا أمير يرسم علامة الصليب على صدره أثناء العمل".

قال أبو أيمن من بين أسنانه الممسكة بالمسواك: "صحيح؟".

كان عزيز يلهث ناظرا إلى الأرض فرفع رأسه ناظرا إلى أبي أيمن وقد ازرقت إحدى عينيه من ضربة أبي مسعود، فكر في الإنكار ولكنه بكى وهو يهز رأسه ثم نظر مجددا إلى الأرض، نهض أبو أيمن و سار حتى وقف بجوار عزيز ثم ربت على كتفه، تابع المسير ثم وقف مجددا، تفحص المعسكر بنظره قبل أن يقول وظهره لعزيز وأبي مسعود التكريتي: "هذا المعسكر"، قالها أبو أيمن ناشرا كفيه أمامه، ثم صمت للحظة، ثم التفت إلى عزيز متابعا: "هذا المعسكر الذي تم تأسيسه بالعرق والتضحية، بالحق والعقيدة الصحيحة"، نظر إلى أبي مسعود ثم قال: "لم يحدث أبدا وأن دنس أحد هذا المعسكر الطاهر بعلامات الكفر".

عاد بنظره إلى عزيز ثم تابع: "حتى جئت أنت أيها الصليبي".

ثم تقدم واضعا مسواكه في جيبه ليمسك بشعر عزيز رافعا رأسه لأعلى وهو يصيح: "ألم يكفكم أن دنستم أرض مصر بكنائسكم وصلبانكم؟".

دفع برأس عزيز ثم التفت إلى أبي مسعود قائلا: "ما دام يحب الصليب، فلتضعه على الصليب"

بالرغم من جدية أبي أيمن في حديثه إلا أن ابتسامة ارتسمت على شفتي أبي مسعود وهو يفكر في هذا العقاب الرائع.

وقف خالد وسالم وباقي الرفاق يراقبون الجنود وهم يدقون عمودين خشبيين ليشكلا صليبا ثم وضعا عليه جسد عزيز بجوار الدبابة.

سار أبو مسعود حاملا مطرقة وبعض المسامير رافعا ذراعيه وسط صيحات الجنود.

ناداه أبو أيمن: "لم أطلب منك دق أطرافه بالمسامير، لازلنا نحتاجه في العمل".

نظر له أبو مسعود في خيبة أمل قبل أن يُلقي بالمطرقة والمسامير أرضا، قام جنديان بربط أطراف عزيز على الصليب ثم ربطوا الحبل في طرف الصليب العلوي وعلقوه على مدفع الدبابة، ارتفع المدفع رافعا معه جسد عزيز الذي مال برأسه للأسفل حتى ارتفع الصليب تماما في الهواء، أخذ الصليب يدور بجسد عزيز وسط ضحكات الجنود الذين أخذوا يدفعون الذراعين فيدور الصليب يمنة ويسرة.

صاح أبو أيمن وقد مال برأسه لليمين متفحصا المشهد من مجلسه: "أبو مسعود؟".

نظر له أبو مسعود فرفع أبو أيمن يده في الهواء رافعا أصابعه ثم دار بيده لتكون أصابعه لأسفل وهو يميل برأسه ناحية اليمين، ضحك أبو مسعود ثم أشار لسائق الدبابة بإنزال الصليب، نزل المدفع حتى استلقى عزيز على الأرض والصليب معلق على ظهره. قام أبو مسعود بفك الحبل من طرف الصليب العلوي ثم ربطه بالطرف السفلي، وقف وأشار للسائق برفع المدفع، ذُهل الجنود ثم ضحكوا وهم يشاهدون جسد عزيز وقد تعلق بالصليب من قدميه، انثنت ركبة عزيز قليلا وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه، هلل الجنود وهم يحيون أبا أيمن على فكرته المدهشة، بعد لحظات سار كل منهم ليواصل تدريبه فقال أبو أيمن: "سيكون تدريبكم هنا اليوم، يا أبا مسعود".

توقف الجنود وهرع أبو مسعود إلى أبي أيمن الذي همس بكلمات في أذنه فاتسعت عيناه مبتسما ثم هز رأسه وركض إلى أحد الصناديق، أشار إلى اثنين من الجنود ليحملوا صندوقا من قوارير السبيرتو الفارغة التي يستعملونها في إضاءة المعسكر، أخذ أبو مسعود قارورتين وذهب بهما إلى عزيز ثم قال: "أمسك جيدا ولا تتحرك، نريدك سالما".

رفع عزيز رأسه مغمضا عيناه من الشمس وفكر في أن يقول له (اذهب إلى جهنم) ولكنه نظر إلى امرأتين ترتديان العباءات والنقاب وقد وقفن ينظرن إليه من الحقل. سالت دمعة من عينه وخفق قلبه لرؤية زوجته وابنته ثم أمسك بالقارورتين الفارغتين، ضحك الجنود وهم يقدمون أحدهم للبدء في التصويب على القوارير.

وقف الجندي مصوبا بندقيته إلى عزيز قبل أن يقول: "لا ترتجف وإلا أصبت ذراعيك".

قال عزيز بصوت مبحوح: "هاه؟".

ثم سمع صوت طلقة البندقية الآلية وأزيز الرصاصة قبل أن تتحطم القارورة في يده اليسرى، لم تمض لحظة حتى انفجرت القارورة في يده اليمنى أيضا، حاول عزيز التخلص من عنقي القارورتين ولكن يديه انقبضتا عليهما بشدة، قام جندي باستبدال القارورتين وأبو مسعود يحذره: "انتبه لكي لا تجرح يدك".

ظل الجنود يتدربون على الرماية مستخدمين صليب عزيز المقلوب هدفا حتى انتهت جميع القوارير، عادوا بعدها إلى تدريبات الموانع مسرورين بتلك التسلية الجديدة.

وقف خالد وسالم متسمرين قبل أن يلتفت خالد إليه قائلا: "ألم أقل لك إننا نحتاجٍ إلى معجزة؟".

ظل سالم ناظراً إلى عزيز دون أن يقول شيئا، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأى فيها عزيز على قيد الحياة.

*** * *

جاء جنديان إلى أبي أيمن بعد صلاة العشاء يخبرونه بموت عزيز، اتسعت عينا أحدهما وهو يقول: "لقد وجدناه ميتًا، ولا ندري لمَ مات".

رد الآخر: "نعم، شيء غريب"، ثم نظر إلى زميله رافعا كفيه وقال: "لم نفعل له أي شيء".

أشاح لهما أبو أيمن وقال: "حسنا.. حسنا، اتركوه وادفنوه في المقبرة صباح الغد".

ارتجف الرجلان لدى سماعهم بالمقبرة، جال بذهنهما مشهد أبي عكرمة صباح اليوم وقد تحولت رأسه إلى عجينة، لاحظ أبو أيمن ما أصابهما فقال: "ما الأمر؟".

اهتز صوت أحدهما وهو يقول: "المعسكر بالكامل يتحدث عن أشباح المقبرة الذين قتلوا أبا عكرمة صباح اليوم".

ربت أبو أيمن على كتفه وقال: "حسنا يا حبيبي، إذا لم تقوما بدفنه صباح الغد فسأدفنكما فيٍ تلك المقبرة بنفسي".

نهضا واقفين وقالا: "سمعًا وطاعة يا أمير"، ثم انطلقا بركب تصطدم في بعضها.

بصق أبو أيمن على الأرض وهو يقول: "أشباح".

أخرج من جيبه السواك لينظف أسنانه وهو يفكر في كيفية مقتل أبي عكرمة.

25

بعد أن انتصف الليل جلس أبو مالك النجدي أمام غرفة وسيم يراقب المقبرة، رأى ماريا تقترب من الغرفة ومعها كوبًا من عصير الليمون، بكت وهي تمر بجوار أبيها الذي تعلق جسده على مدفع الدبابة دون أثر للحياة، قال أبو مالك عندما وصلت إلى الباب: "هيه يا فتاة.. سأكون في انتظارك حتى تصبحين امرأة شابة"، نظرت له بعينين ذابلتين من خلف نقابها فضحك كاشفا عن أسنان صفراء متسوسة.

دخلت ماريا إلى الغرفة وجلست بجوار وسيم على ركبتيها، وضعت كفها أسفل رأسه ورفعتها، فتح وسيم عينيه باسما فشهقت ماريا قبل أن تضع كفها على فمها وقد اتسعت عيناها وهي تراقب وسيم يبتسم لها حتى ظهرت أسنانه، خفق قلب ماريا في سعادة لرؤية ابتسامته، دب أثر خافت للحياة والأمل في عروقها، التفتت تنظر إلى أبي مالك فوجدته قد أعطى ظهره لهما، قالت مبتسمة للمرة الأولى منذ وقت بدا لها أعواما: "وسيم.. أنت بخير؟".

هز رأسه بنعم، وطلب منها إسقائه العصير، رشف رشفة قبل أن يهمس قرب أذنها: "لا تخبري أحدا أنني أفقت؟"، ثم تابع شرب العصير حتى انتهى، نظرت إليه ماريا وقالت: "لماذا؟".

عاد للهمس ضاحكًا وأخذت أنفاسه تتردد في أذنها: "ماما جاءت.. جاءت من السماء"، ثم ضحك ضحكة قصيرة.

التفتت إليه ماريا وقالت: "ما الذي تقوله؟ وسيم.. ماذا تعني؟".

لم يجب سوى بمزيد من الضحكات فقالت: "عليّ الذهاب الآن، سأحاول إحضار بعض الطعام المرة القادمة".

خرجت من الغرفة والكأس الفارغة في يدها، سالت دموعها وهي تشعر أن هناك شيئًا في صدرها يسمى قلب.

* * *

جلس أبو مالك يغالب النعاس مستندا على سلاحه، نهض وأخذ يسير ممسكا بمصحف في يده وبدأ يقرأ القرآن، بعد لحظات أعاد المصحف إلى جيبه وجلس مجددا ناظرا إلى النجوم، أخذ يدندن قائلًا: "وين أيامنا وين؟

وين قضيناها؟

راحت في لمحة عين.

يا ما أحلى ذكراها!".

عاد للمسير بجوار المقبرة وهو يراقِب الحراس الذين اتخذ كل لنفسه موقعا وقد أمسك هاتفًا لاسلكيًا ووضع على عينيه منظار رؤية ليلية، بدأ يفكر في طريقة يستولي بها على جارية الفتى مازن الصليبية، حين شعر بحركة بجوار المقبرة. التفت في تحفز إلى مصدر الصوت ثم رفع سلاحه، اقترب قليلا من المقبرة وصوب كشافه إلى مصدر الصوت، ارتجفت شفتاه وهو يراقب على ضوء الكشاف جسدا متحللا أطل برأسه وكتفيه من التراب، مالت رأس الجسد للخلف بينما يصعد جذعه خارجا من التراب، لم تخرج الجثة حافرة

قبرها كما في الأفلام، انتفض الجذع لأعلى شيئا فشيئا وذراعاه مرتخيتان بجوار جسده.

كان الجسد يتوقف للحظة ثم ينتفض مبعثرا التراب من حوله فتهتز رأسه المائلة للخلف يمنة ويسرة، اهتز الكشاف في يد أبي مالك وهو يتراجع مبسملًا، سقط على ظهره وهو يراقب الجسد وقد خرج إلى حد ركبتيه، كانت جثة لرجل يرتدي ملابس ملطخة بالتراب، نظر أبو مالك إلى وجه الجثة المنتفخ جاحظ العينين، حاول الصراخ ولكنه شعر بيد تطبق على فمه وتكبل جميع مفاصله، لم ير أحدا يشل حركته فأخذ يزوم: "اممم امممم".

ظل الجسد منتصبا بقميص قذر نتن الرائحة قبل أن يبدأ في الاندفاع إلى الأمام على ركبتيه، اندفع ولا زالت قدماه منثنيتين للخلف والذراعان مرتخيتين بجانبه، توقف فجأة حتى أوشك على الانكباب على وجهه فمالت رأسه للأمام وتقوس ظهره، اعتدل ظهره مرة أخرى وعادت الرأس تميل للوراء، أخذ أبو مالك يهز كتفيه يمنة ويسرة محاولا التحرر من القبضة التي سيطرت على جسده، استمر الجسم في الزحف على ركبتيه منتصب الظهر كما لو أنه عروسة ماريونت تتحرك بالخيوط، توقف الجسد أمام أبي مالك الذي دارت عيناه في محجريهما، سقط الرجل على بطنه موجها وجهه إلى وجه أبي مالك.

26

في الصباح اجتمع الجنود في نفس المكان الذي قُتل فيه أبو عكرمة التهامي ولكن هذه المرة كانت جثة أبي مالك النجدي، تمددت بجواره جثة متحللة خلفت أثرا ممتدا من المقبرة، كان أبو مالك مفتوح العينين وقد لفت رأسه نصف دورة إلى الخلف حتى صار وجهه يقابل ظهره، تهشمت عظام ساعديه وبرزت أطرافها مخترقة الجلد، أما رجليه فتفرقتا جانبيا حتى انفلق حوضه إلى نصفين وتمزقت بطنه، بدا كما لو أن أحدا قد نشره إلى نصفين من مؤخرته حتى ضلوعه، تعلق العمود الفقري بأحد جانبي حوضه وقد غطت الدماء الأرض الترابية فتجمع عليها الذباب، كانت ثياب أبي مالك ممزقة كما لو أن من فعل به ذلك أراد للجميع رؤية المظهر التشريحي للإصابات.

أيقن جميع من بالمعسكر أن للأشباح يدا بما لا يدع مجالا للشك، تحولت الهمسات والهمهمات إلى جدل ونقاش، صاح أبو أيمن فجأة وسط الجنود وقد اتسعت عيناه وكور قبضتيه الكبيرتين: "أيا كان من فعل هذا فلن يثنينا عن مرادنا، مر الكثير من الوقت، بذلنا العرق والتضحيات، سقط منا الشهداء حتى نتمكن من إنشاء هذا المعسكر بعيدا عن أعين الجيش، لدينا عملية قريبة، المزيد من الجنود في طريقهم إلينا بالفعل، هل هذه الخلق المرتعبة الخائفة هي من ستقف بجواري في الجهاد؟".

لم يرد أحد فتابع أبو أيمن: "هل هذه المناظر هي التي عاهدت الله على النصر أو الشهادة؟".

أجاب جنديان: "لا يا أمير".

قال أبو أيمن: "أريد أن أسمع، لن أمنع أحدا من الخروج عنا، الصحراء مفتوحة أمامكم، من يرد الذهاب فليذهب، لكنني لن أقف أبدا أقاتل جنبا إلى جنب مع مجموعة من الجبناء، هل أنتم على استعداد للشهادة؟".

رفع الجميع أسلحتهم وهتفوا: "النصر أو الشهادة".

تابع أبو أيمن: "لقد سقط منا جنديان مخلصان، وحتى نعرف سبب موتهما سنسير على دربهما ودرب كل شهدائنا، قل لي أرواح، قل لي أشباح، قل لي الجن الازرق، أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين".

هتف الجنود: "الله أكبر.. الله أكبر".

استمر الجنود في الهتاف فتطلع إليهم أبو أيمن لاهثا ثم قال: "أبو مسعود".

- "أمرك يا أمير".
- "جهز الشاشة وأشعل مولِّد الكهرباء، لدينا إصدارات معنوية من القيادة الرئيسية لتنظيم الولاية".

فغر الجنود أفواههم واتسعت عيون البعض بينما تمتم البعض: "إصدار مرئي.. إصدار مرئي".

بعد لحظات تجمع الجنود أمام شاشة تلفزيونية تعرض أفلامًا لعمليات التنظيم في سيناء، كانوا متحمسين كما لو أنهم مشجعون يشاهدون مباراة ريال مدريد وبرشلونة. دوى صوت المعلق على الفيلم بنبرة خنفاء غنية بالمحن، كبر الجنود وهم يشاهدون انفجارات الكتيبة 101 بالعريش والكتيبة 103 صاعقة، صاحوا مهللين على هجمات كرم القواديس ومركز شرطة الشيخ زويد، ردّدوا الأناشيد الجهادية خلف الفيلم الذي أخذ يعرض انفجارات المدرعات بفعل العبوات الناسفة، إطلاق النار على الكمائن، قنص جنود الجيش أثناء حراساتهم للمواقع العسكرية، إعدام من وقع في أيديهم من أسرى الجيش والشرطة. عادت الروح إلى الجنود وظلوا يهتفون ويكبرون حتى بعد نهاية الفيلم ولم يعد من المهم بالنسبة إليهم كيفية وفاة رفيقيهم.

27

تم دفن أبا مالك بجوار أبي عكرمة خارج المعسكر، بعد دفن عزيز في مقبرة الأشباح، أصدر أبو أيمن قرارا بعدم الاقتراب منها أو من غرفة وسيم المجاورة لها.

مر صباح اليوم التالي دون وقوع المزيد من الضحايا فابتسم وتنهد في ارتياح وإن خالجت قلبه الغرابة، فرغم ذكاء أبي أيمن وتوقد ذهنه إلا أن عدم موت المزيد من الجنود بعد أمره بالابتعاد عن المقبرة، يؤكد أن هناك لعنة ما كما قال أبو خديجة الليبي.

قرر أن يتعامل مع هذا الأمر على حذر حتى تتم العملية على خير، أثار ريبته أيضا وجود وسيم في الغرفة دون أن يتعرض لأذى لا هو ولا الفتاة الصليبية التي تعتني به كل يوم، إذا فكر بمنطق أبو خديجة فسيقول إن هذا طبيعي نظرا لعدم تسبب وسيم أو ماريا في قتل المشعوذة ورفاقها، ماذا كان اسمها؟ همس قائلًا وهو يتذكر حديث أبو خديجة يوم مقتل أبي عكرمة: "أم توفيق".

* * *

مر أسبوع على مصرع أبي مالك دون وقوع ضحايا جدد، ربط الجنود حبلا على شكل دائرة واسعة القطر حول المقبرة، كانت ماريا الوحيدة التي تعبر من أسفل الحبل إلى وسيم في أمان، قضيا أوقات سعيدة بعيدا عن أعين الجنود يتحدثان ويلعبان السيجا، أعلن أبو أيمن رفع درجة الاستعداد لاستقبال الجنود الجدد، وصلوا ليلا بعد

أن أنبأوا الحراس باقترابهم عن طريق اللاسلكي، دخلوا المعسكر راكبين عربة نقل مساجين تابعة لوزارة الداخلية وقد تم تحديد المعسكر عن طريق الجي بي إس وإجراء الاتصالات عن طريق الثريا، كانوا ثلاثين مقاتلا تسللوا إلى سيناء من مناطق متفرقة من سوريا، لم تختلف خلقهم أو طبائعهم عن جنود المعسكر، قام الأسرى الرجال بتحميل صناديق الأسلحة والذخيرة التي جاءوا بها وتخزينها في المستودعات، قامت النساء بتجهيز الغرف الجديدة لإيواء الجنود، بعد أيام من التدريب والاستعداد القتالي جاءت إشارة إلى أبي أيمن عبر الإنترنت من أمير الجماعة في مصر الشيخ أبو الفضل المغربي، كانت الأوامر بالاستعداد لتنفيذ أولى عمليات معسكر سعد بن أبي وقاص كما سماه الشيخ أبو الفضل، كانت العملية تستهدف دير سانت كاترين وطلب الشيخ ترقب إرسال تفاصيل العملية عبر أحد برامج التواصل في الإنترنت العميق، خرج أبو أيمن المصري وأبو عتبة الحجازي من غرفة العمليات إلى الجنود الذين كانوا مشغولين بتدريباتهم، نادى أبو أيمن أبا مسعود التكريتي وطلب منه جمع الجنود، لم تمر لحظات حتى تراصت صفوف المقاتلين في ساحة المعسكر أمام أبي أيمن وأبي عتبة.

بدأ أبو أيمن خطبة بصوت حنون أخنف: "إن الحمد لله الذي منَّ علينا بنعمه وسلطنا على أعداء الإسلام"، صمت للحظة ثم رفع نبرته قائلا: "والله ليعلمن أن خلف هذا الدين رجال أشداء، باعوا الدنيا بالآخرة، حريصين على الموت حرصهم على الحياة، يحبون الشهادة كما يحبون هم متاع الدنيا الزائل، أبشروا.. أبشروا بفتح من

الله ونصر قريب، لقد جاء إلينا الأمر بالاستعداد لضرب أحد معاقل الكفر، جاء الأمر إلينا من أمير التنظيم المصري بضرب الأعداء حيث لا يتوقعون، ظنوا أنهم في مأمن منا في هذه البقاع، والله لن نترك لهم موطنًا ولا ركنًا من أركان هذا البلد إلا وجئناهم فاتحين لا نخاف في الله لومة لائم، لطالما استفحل الكفر وبغى حتى صار يقيم معابده على مقدسات الإسلام، فها هم في القدس وقد استولوا على مقدساتنا وأغاروا على مساجدنا، وها هم هنا وقد أقاموا ديرا صليبيَا حيث خاطب موسى ربه"، تابع الحديث صارخا: "حيث تقف الشجرة التي أضاءت نارا لتكون هدى لسيدنا موسى، بل وتجرأت براثن هذا الدير المزعوم حتى طالت البئر التي سقى منها لبنات شعيب، كل هذا والحكام كالأصنام لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا ولا غيرة على مقدسات الإسلام".

ثار الجنود وقد اتسعت أعينهم، رفعوا أسلحتهم وصاحوا بصوت مجلجل: "الله أكبر.. الله أكبر".

استمر الهتاف والتهليل حتى أمرهم أبو أيمن بمتابعة التدريب ولكن في غمرة الحماس طالب الجنود من أبي أيمن الإذن بالانطلاق فورا ودك الدير، عاد الهدوء إلى أبي أيمن وقال: "صبرا يا جند الإسلام فإن نصركم قادم، لقد بايعنا على السمع والطاعة ولن نخطو خطوة إلا بإذن ولاة أمرنا".

28

عاد الجنود إلى التدريب وفي المساء جلست أناستازيا جونزاليس في شقتها بوسط البلد تحدث أبو الفضل المغربي قائد التنظيم في مصر عن طريق هاتف الثريا. شددت على أن تتم العملية في الرابع عشر من شهر جمادى الأول، بعد المكالمة قام مساعدها اليانكي بإرسال ملف مضغوط يشرح تفاصيل العملية على مجموعة من الخرائط التوضيحية، بعد انتهاء الاتصال نهضت أناستازيا إلى الحمام، وقفت أمام المرآة رافعة كفيها بجوار رأسها ثم تمتمت: " A te, de l'essere

Material e spirit

"Il verso ardito

* * *

اجتمع الجنود أمام جهاز بروجيكتور نشر أضواءه على لوح أبيض تم تعليقه على حامل خاص.

أمسك أبو أيمن بعصا بلاستيكية ووقف أمام اللوح، صمت الجنود حين عُرضت صورة لخارطة عامة لشبه جزيرة سيناء، أشار أبو أيمن على علامة إكس جنوب سيناء قائلا: "هذا موقع معسكرنا، معسكر سعد بن أبي وقاص على بعد 100 كيلو متر شرق أبو رديس"، ضغط أبو عتبة على زر تغيير الشرائح فظهرت شريحة أخرى مكبرة أكثر، فتابع أبو أيمن: "سنسير شرقا حتى نصل إلى طريق

نويبع سانت كاترين"، ثم أشار إلى خط أصفر اللون، "سنسلك هذا الطريق حتى يتفرع إلى طريق الطور سانت كاترين وممر وادي السبايا"، أشار أبو أيمن إلى شريحة جديدة ظهر عليها الطريق الأصفر وقد تفرع إلى طريق أصفر آخر يتجه غربا وممر ضيق بين الجبال ينحدر جنوبا وقال: "سنكمل في ممر وادي السبايا ثم ننقسم إلى مجموعتين عند الجبل الشمالي للدير"، أشار إلى شريحة جديدة وقد انقسم الممر أمام الجبل إلى ممر شرقي وغربي، "مجموعة تستقل عربة دفع رباعي محملة بقذائف الهاون والآر بي جي وستسمى بسرية خالد بن الوليد، سيسلكون الجانب الشرقي من الجبل حتى يصلون إلى الدير من الناحية الشرقية"، ظهرت شريحة أخرى وفيها مشهد مكبر للدير وتم وضع علامات إكس على الجبل الشمالي للدير، "سيقومون بعدها بتسلق الجبل ونصب مدافع الهاون على العلامات إكس ثم يعطون الإشارة عن طريق اللاسلكي إلى المجموعة الثانية، مجموعة عمرو بن العاص التي ستسلك الممر الغربي للجبل بواسطة عربة نقل المساجين التي سيتم تحميلها ببراميل وقود متصلة بقنبلة موقوتة، سيرافق العربة المفخخة سيارتان هايلكس حاملة لمدافع الجرينوف لتأمينها، ستدور مجموعة عمرو بن العاص حول الجبل بمحاذاة مقام النبي هارون، تتقدم العربتان الهايلكس في البداية ويشتبكوا مع قوات تأمين الدير عند البوابات الخارجية في حين تتابع العربة المفخخة حتى تنفجر عند الدير، "أشار بالعصا إلى طريق يمتد حتى يصل إلى الدير، "بعد الانفجار تبدأ مجموعة خالد بن الوليد في إطلاق قذائف

الهاون والآر بي جي على كل مباني الدير وينتظرون زملاءهم من سرية عمرو بن العاص حتى يقتحموا البوابات الخارجية ويتوقفوا عند الجبل للإخلاء، تنطلق العربتان الهايلكس عائدتان إلى المعسكر بعد التعامل مع كل النقاط الأمنية والتخلص من كل الذيول التي تلاحقهم".

عمت لحظة من الصمت في أرجاء المكان فتابع أبو أيمن: "بالطبع كلكم تنتظرون الإعلان عن السعيد الذي تم اختياره لقيادة العربة المفخخة"، ظل الجنود صامتين وإن كانوا قد أطلوا بأعناقهم كما لو أنهم تلاميذ يرجو كل منهم أن يختاره المعلم لحل المسألة على السبورة، "بإذن الله وقع الاختيار على أبي خديجة الليبي"، نهض الجنود فهللوا وكبروا وأخذوا يحتضنون أبا خديجة الذي سالت دموعه على خديه وهو يبتسم حتى ظهرت أسنانه.

29

بعد أن خرج أبو عمة السوداني من المعسكر ظل يسير على غير هدى، تقوده قدماه على رمال الصحراء حتى شعر بالتعب، لم يكن يعي أن الشمس قد غربت فحل لفة البطانية عن ظهره وجلس عليها مادا قدميه اللتين تورمتا من المشي، لم تشكل قلة الضوء حائلا لمعرفة أن قدميه قد ساقتاه إلى نفس الطريق الذي سلكه من قبل إلى محطة الوقود، شرب من قارورة المياه التي أمده أبو مسعود التكريتي بها ثم فتح كيسًا أسود فوجد رغيفين من خبز الفراشيح وبصلتين وقطعة من الجبن، دفع بالكيس وتمدد على ظهره قائلا: "أهذا هو كل ما تجود به على أبي عمة؟".

للحظة انصرف ذهنه عن الطعام وأخذ يفكر في ذلك الاسم الحركي المضحك الذي ينادونه به، حاول تذكر المناسبة التي حصل فيها عليه، تذكر اليوم الذي وجد فيه المعسكر بعد أن كان تائهًا في الصحراء، كان يعمل على رعي غنم أحد البدو حيث سكن في عشة صغيرة بها جركل ماء وكيسًا من الدقيق يُعد منه العصيدة كل يوم. تذكر ذلك اليوم الذي هاجمت فيه مجموعة من الذئاب على القطيع فخرج عليهم وأخذ يطلق النار من بندقيته حتى فرت الذئاب، قام بعد القطيع فوجد أن ثلاثة من الخراف قد فقدوا، كان

من المنطقي أن يسارع بركوب الحمار واصطحاب الكلب بحثا عن الخراف الثلاثة ولكنه شعر بالإرهاق من تخليص القطيع من الذئاب ففضل الراحة والنوم على أن يصحو باكرا للبحث عن الخراف المفقودة.

قال يومها: "يعني هو في خروف بيطير؟"، ضحك حينها على تشبيهه السمج ثم دخل العشة ملتحفا بالغطاء الميري، بعد بزوغ شمس اليوم التالي جهز حملته الصغيرة وبدأ البحث، وبعد ساعة قفز عن حماره صائحا وقد وضع كفيه على عمامته: "يا سواد ليلك يا مكين".

ركض تجاه الخراف الثلاثة التي استلقت وسط بركة من الدماء المتجلطة وقد تمزقت أجسادها ونُهشت لحومها، أخذ يلطم صارخا: "أويلييي.. أويلييي".

لقد ظن الليلة السابقة أن الذئاب قد فرت هاربة وأن الخراف لم تبتعد كثيرا عن القطيع، ظن أن في إمكانه الانتظار حتى الصباح.

شد عمامته وألقاها أرضا وصاح: "والله الشيخ سليم ليعلقك على الخابور يا مكين".

بعد التفكير آثر الفرار على ظهر حماره حاملا كيس الدقيق وجركل المياه، ظل تائها في الصحاري حتى ألقى حراس المعسكر القبض عليه، لم يستغرق الأمر أكثر من جلسة مع أبي أيمن حتى صار

أبو عمة فردًا من المقاتلين، أشار عليه أحد الجنود بتسميته هذا الاسم ضاحكا فضحك باقي الجنود عند سماعه بما فيهم أبو أيمن، أخذ يتذكر من أسماه بهذا الاسم حتى نطق فجأة: "أبو حمزة الدمشقي".

لم ينطق يوم ضحكوا على اسمه وفي عقله فكرة واحدة (اضحكوا كما تشاؤون وغدا سترون مني العجب العجاااب).

* * *

نام أبو عمة ولكنه استيقظ في منتصف الليل على صوت غناء جهير، فتح عينيه وهمس وقد خفق قلبه: "جن".

التف متمددا على بطنه ثم رفع رأسه قليلا، سمع صوتًا يقترب من خلف كثيب رملي فأخذ يزحف على بطنه حتى اعتلى الكثيب، رفع رأسه قليلا فرأى على ضوء القمر جسدًا يمتطي بغلة أو حمارا، رفع الراكب عقيرته بالغناء عندها مزج أبو عمة الصوت الذي يسمعه الآن مع صوت سمعه من قبل في المعسكر (نسميه أبو عمة السوداني، هع هع هع هع هع)، ثم اختفى صوته وسط ضحكات الجنود وصياحهم. وجد أبو عمه أن الصوتين متطابقان، ليس أبو عمة خبيرا صوتيا ولكنه على الأقل يمكنه تمييز الأصوات، عندما كان أبو عمة يدعى مكين ذات يوم كان في إمكانه المسير بمائة خروف يستطيع تمييز صوت كل واحد منهم، استلقى على ظهره مفكرا. (كلكم كلاب)

(كلكم تنتهزون الفرص للسخرية مني والتقليل من شأني)
(فقط الأمير هو من يحبني)
(فقط الأمير حرص على تجنيدي وإعطائي سلاحا)
توقف للحظة ثم تابع أفكاره.
(لقد خذلنا الأمير، لقد صبر عليّ الأمير وأعطاني فرصًا عديدة ولم نستغلها أبدا في إرضائه).

عاد بالنظر إلى أبي حمزة الذي كان لا يزال يصفق بكفيه مغنيا إحدى أغاني الدبكة السورية، قام أبو عمة بنزع ثيابه تماما ثم نزل متسللا حول الكثيب، انتظر مرور أبي حمزة بجواره، سار البغل وقد رفع أبو حمزة يمناه وأخذ يفرقع أصابعه، أخذ أبو عمة يتسلل رويدا رويدا ثم يتوقف حين يعتقد أن أبا حمزة سيلتفت ناحيته، تابع التسلل حتى أوشك هو والبغل على الالتقاء عند نقطة مشتركة دون أن يلمح أبو حمزة شيئا غريبا، فصلت عشرة أمتار أبا عمة عن البغل حين بدأ في الركض والصياح، قفز على أبي حمزة الذي صرخ كالنساء قبل أن يهوي عن البغل على ظهره وقد اعتلاه أبو عمة، سارع أبو عمة بإخراج خنجر أبي حمزة من غمده ليطعنه ولكنه وجد جسده هامدا دون مقاومة، أمسك أبا حمزة من ياقة قميصه وأخذ يهزه فاهتز جسده ككيس ملئ بالماء، نظر إلى وجهه فوجده

متسع العينين فاغر الفم. وضع أذنه على قلبه فلم تجبه النبضات من الداخل.

نهض وأخذ يركل أبا حمزة صائحا: "أمال عاملي راجل ع الفاضي يا ابن المومس"، رفع ساقه وأخذ يضربه على صدره متابعا: "وداير تقول أبو عمة وأبو لباس وأنت بتخاف زي المرة".

استولى أبو عمه على متاع أبي حمزة وسلاحه بالإضافة إلى جهاز اللاسلكي، لم يفوت أيضا أن يأخذ شريحة لحم من فخذ أبي حمزة ليشويها على النار، جلس يقضم من اللحم المشوي ثم بصق تجاه أبي حمزة قائلا: "لحمتك خايسة يا وسخ".

نهض إلى جثة أبي حمزة وهويمسح فمه بكم ثوبه، ركله على أضلاعه بحذائه العسكري وصاح: "وكمان أنا إثيوبي مش سوداني".

أجابه أبو حمزة بصوت من مؤخرته.

30

انتهى الرجال يوم الثالث عشر من جمادى الأول من بناء مصافي الأمطار فوق المستودعات والغرف الحجرية وفي المساء تم اقتيادهم إلى سجنهم.

قال وصفي: "انظروا إلى القمر المكتمل لآخر مرة".

رفعوا رؤوسهم ناظرين إلى القمر الذي اعتلى السماء بلون وردي مائل إلى الحمرة. قال إبراهيم: "ما به وقد تلون بهذا الشكل؟!".

قال خالد: "لم أر القمر بهذا الشكل أبدا في حياتي".

نظر سالم إلى القمر في غير اكتراث، لقد طالت غيبوبة وسيم، إنه يخشى أن يفقد الجنود الأمل فيه ثم يقررون التخلص منه، سار مع باقي رفاقه وهو يقول لوصفي: "ماذا تعني بآخر مرة؟".

التفت إليه وصفي قائلا: "ألم تسمع هتاف الجنود؟ لقد تم تحديد موعد العملية إن هي إلا أيام حتى يتخلصون منا".

اتسعت عينا إبراهيم وقال بعد أن أغلق عليهم باب السجن: "ولماذا يتخلصون منا ألسنا نعمل لديهم؟".

قال خالد: "كنت تعمل لديهم وقد أتممت ما أرادوه بالفعل، سيِبقون على الفرنسي للمساومة به، نحن الآن مجرد عمالة زائدة تستهلك مياههم وطعامهم".

صاح إبراهيم: "وهل تسمى ذلك طعاما؟".

* * *

في تلك الليلة دخلت ماريا إلى غرفة وسيم ومعها قطعًا من الخبز وكوبًا من العصير. لقد سمعت النساء يتحدثن عن احتمالية التخلص من الرجال قبل بدء العملية القادمة. وجدت وسيم نائمًا، انتظرت للحظة عله يستيقظ بمفرده، كانت لتتركه نائما في الأحوال العادية ولكنها آثرت أن يعلم بشأن والده وباقي رفاقه، حاولت إيقاظه ففتح عينين شاردتين وأخذ يهمس بكلمات غير مترابطة، وضعت كفها على رأسه فلم تجد أثرا للحرارة أو الحمى، دارت عيناه وابتسم ابتسامة ضعيفة حين رأى ماريا، عاود إغماض عينيه مجددا فحاولت ماريا إيقاظه، فتح وسيم عينيه ورفع يده جاذبا ماريا من ثيابها فمالت حتى وضع فمه عند أذنها ثم أخذ يتحدث، اتسعت عينا ماريا مع حديثه، ضمت شفتيها ثم وضعت يدها على فمها حتى عاد وسيم مستلقيا على فراشه. تبادلا النظر للحظة ثم قالت: "سأحاول".

رد عليها: "لا تحاولي، افعلي"، ثم أدار ظهره إليها وعاد إلى نومه.

❁ ❁ ❁

31

ظل أبو عمة في موقعه ينام صباحا ويصحو ليلا فيقطع لنفسه شريحة من لحم أبي حمزة الذي بدأ يتعفن ثم يشويها على النار قائلا: "النار تطهر كل شيء".

ظل هكذا لأيام حتى انتهى من التهام أبي حمزة فلم يتبق منه سوى هيكل عظمي وأحشاء وحينها راودته فكرة، لقد التهم أبي حمزة بالفعل، لماذا لا يجرب القيام بمهمته أيضا؟ نهض ضاحكا وقال: "وحينها ربما يرضى عني الأمير مجددا".

سار مصفقا بكفيه وهو يغني أغنية الدبكة التي رددها أبو حمزة منذ أيام قبل أن يتوقف قلبه من الفزع، أمسك بالبغل وحمل عليه البطانية وقارورتي مياه أبي حمزة بالإضافة إلى جركلي الوقود الفارغين، كانت ليلة الثالث عشر من جمادى الأول وتعجب أبو عمة من مظهر القمر الذي مال إلى اللون الأحمر، ضحك قائلا: "دمك يا أبا حمزة، حتى القمر يرثي موتك".

* * *

في الصباح وصل إلى الطريق المعبد المؤدي إلى محطة الوقود، كان يقف على قمة تل مرتفع فقام بفرش البطانية استعدادا للنوم، رأى على ضوء الصباح الأزرق شاحنة إمداد المحطة بالوقود قادمة من أبو رديس، كان صوتها قويا رنانا مع هدوء الصباح وقلة الحركة،

التف لينام على جانبه الأيمن ولكنه فتح عينيه مجددا ثم نهض جالسا، فكر أبو عمة (ربما كان في إمكانه إرضاء الأمير بجركلي بنزين من المحطة ولكن....)، "من المؤكد إرضاؤه حينما تأتيه شاحنة كاملة من الوقود"، قالها ضاحكا وقد اتسعت عيناه وكور قبضتيه.

أنزل أبو عمة الحمولة عن البغل ثم انطلق به نازلا عن التل المرتفع إلى الطريق المؤدي إلى المحطة، كان يطل من حين لآخر ولكن الشاحنة لا تزال بعيدة عن العيان، حين وصل إلى الطريق قفز عن البغل ثم سحبه إلى منتصف الطريق آملا ألا يراه سائق الشاحنة، أمسك بالبغل من لجامه ثم طعنه في رقبته بالخنجر الذي أعطاه إياه أبو مسعود التكريتي، نهق البغل وارتفع بقائمتيه الأماميتين والدماء تنفجر لتغرق الأسفلت، نظر أبو عمة إلى الطريق فرأى كابينة الشاحنة وقد بدأت في الظهور فعليا، جذب البغل من لجامه وأخذ يطعنه في رقبته حتى خار وسقط أرضا، أعاد الخنجر إلى غمده ومدد البغل على جانبه ثم بدأ في الجري مبتعدا عن الطريق، قفز مختبئا خلف مجموعة من الصخور قبل أن يطل برأسه ليجد الكابينة وقد ظهرت تماما على الطريق، عاود الاختباء وخفق قلبه مع اقتراب صوت الشاحنة، سمع هدير المحرك وقد بدأ صوته يقل تدريجيا حتى توقفت الشاحنة التي اندفع منها صوت فرامل الهواء، فتح الأسطى جمال التباع باب الشاحنة ونزل إلى

الطريق، مد السائق رأسه من النافذة ونادى: "ماذا هناك يا أسطى؟".

صاح الأسطى جمال مناديا: "واحد ابن كلب خبط هذا الحمار وتركه، انزل يا أسطى جودة وساعدني على رفع هذا الجحش عن الطريق".

سمع أبو عمة صوت الباب الآخر يُفتح ويُغلق ثم نزل الأسطى جودة إلى الأسفلت. أخرج أبو عمة مسدس البريتا الذي استولى عليه من متاع أبي حمزة وانطلق خلف الشاحنة، انتظر حتى أزال السائق والتباع البغل عن الطريق ثم أطلق النار على رأسيهما فسقطا أرضا والدماء تندفع منهما لتغرق الرمال والبغل، صاح أبو عمة: "الله عليك يا مكين، تصويبة ولا أروع يا ولدي".

حمل أبو عمة جثة الرجلين وأخفاهما خلف الصخور التي كان مختبأ خلفها منذ لحظات، تسلق سلم الشاحنة وأغلق باب الكابينة خلفه، أطفأ الفلاشة التي وضع عليها الأسطى جمال أغانٍ لأم كلثوم، بدأ في قيادة الشاحنة عائدا إلى المعسكر ولكن النوم غلبه فركنها في وسط الصحراء لينال قسطا من النوم.

32

لم يكن هناك أي برنامج للتدريب يوم العملية، قضى الجنود وقتهم في الاحتفال والتجهيز، قاموا بصيانة الأسلحة وتزييتها وتنظيفها، أمروا الرجال بإخراج صناديق قذائف الهاون والآر بي جي من مستودعات الذخيرة، قام جنديان بتركيب شرائط الرصاص في مدافع الجرينوف كما وضعوا صناديق احتياطية في صندوق العربة الخلفي، قام أبو مسعود التكريتي بأمر من أبي أيمن بتشغيل الأناشيد الجهادية في سماعات كبيرة تم توصيلها بالمولد الكهربائي.

تم تكليف النساء بخدمة الجنود فقاموا بإعداد الطعام والشراب من شاي وقهوة وعصائر، خفق قلب ماريا وهي تفكر في تنفيذ ما طلبه منها وسيم، كانت تعرف أن عليها تنفيذ ما أراده برغم عدم إدراكها لسببه، اتجهت إلى أم ميسرة واستأذنتها في الذهاب لسقاية الجندي وسيم فنهرتها قائلة إنه سيتم إعدامه مع باقي الرجال مساء اليوم قبل العملية، تبلدت ملامح ماريا فقالت أم شيخة: "ولماذا قبل العملية بالتحديد؟"

ردت أم أوس: "هكذا كانت تعليمات الشيخ أبو الفضل المغربي، يجب قتل الرجال مع بزوغ القمر الأحمر ثم الانطلاق مباشرة لتنفيذ العملية".

هتفت أم شيخة: "الله أكبر ولله الحمد".

التفتت أم ميسرة إلى ماريا قائلة: "اذهبي اذهبي، فليكن آخر ما يذوقه قبل موته".

قالت أم أوس: "خسارة والله، لولا الأخ أبو حمزة لصار هذا الولد من المجاهدين المخلصين".

أخذت ماريا كأسا من العصير واتجهت إلى غرفة وسيم الذي كان يهذي وأخذت عيناه تدوران يمنة ويسرة تحت جفنيه المغلقين، تركت ماريا الكوب أرضا وأخذت تهزه منادية باسمه ولكنه لم يجب، مالت ووضعت قبلة على جبينه قائلة: "الوداع يا صديقي"، ثم نهضت باكية، وقفت للحظة عند باب الغرفة تمسح دموعها متمنية أن يقتلوها مع باقي الرجال، خرجت من الباب ثم سارت متجاوزة الحبل المحيط بالمقبرة وقد قررت إتمام ما طلبه وسيم منها وإن كان ذلك يعني نهاية حياتها.

قامت بتشمير السروال الذي ترتديه تحت العباءة ثم بدأت في المشي متهادية أمام جندي وقف يغسل السيارات المجاورة للدبابة، سارت حافية القدمين وقد رفعت طرف عباءتها لتظهر ساقها البيضاء التي لمحها الجندي فور ظهورها من خلف العباءة.

- "هيه يا فتاة؟".

التفتت ماريا إلى الجندي الذي ابتسم كاشفا عن أسنان بنية، كان من الجنود الجدد وكان واحدا من بين مجموعة منهم حاولوا التحرش بنساء المعسكر لولا بطش أبي أيمن بهم لأنهن كما قال أبو أيمن (جواري إخوانكم).

ابتسمت ماريا وقد لمعت عيناها اللتان ثبتتهما عليه في تحدٍ، ترك الجندي خرقة التنظيف من يده وتقدم منها قائلا: "ما اسمكِ يا فتاة؟".

قالت ماريا بصوت مبحوح: "ماريا"، سعلت لتنقية حلقها ثم قالت: "اسمي ماريا، أنا فتاة صليبية كما تقولون يا سيد، ولكنني أطيع المجاهدين في كل ما يطلبون".

- "لا.. لا تقولي عني سيد، اسمي أبو أنس، أنا مصري مثلك من مرسى مطروح".

زادت ابتسامة ماريا وأمالت رأسها قائلة: "حقا؟ ربما أفضل رفقة الإخوة المصريين".

ضحك أبو أنس قائلا: "لماذا لا تأتين معي بعيدا عن أعين الجنود لنكمل حديثنا الجميل هذا؟".

- "هممم، حسنا، ولكن انتظر انتظر، إلى أين ستأخذني؟".

رفع كفيه قائلًا: "لم أتعرف بعد على المعسكر جيدا، ربما نبتعد قليلا بقرب الجبل؟".

هزت ماريا رأسها قائلة بابتسامة عذبة: "الجبل ملئ بالحراس يا أبو أسد".

- "أنس، أبو أنس يا حبيبتي".

رفعت ماريا رأسها وقالت: "آه، حسنا لن أنسى هذا، يا.. يا أبو أنس".

ابتسم أبو أنس ووقف يتفحصها بعينيه.

أمسكت ماريا بيده وقالت مميلة رأسها ناحية الدبابة دون أن ترفع عينيها عن عينيه: "ربما أفضل أن ندخل إلى الدبابة، لن يرانا أحد هناك، كما إنني....".

اقتربت بجسدها من جسده ثم تابعت: "كما إنني أرغب بشدة في رؤية الدبابة من الداخل".

تسلق أبو أنس جنزير الدبابة ثم مد يده لماريا، أمسكت بكفه وارتكزت بقدمها اليمنى على الجنزير وتركت أبو أنس يرفعها لأعلى، وقفت بجواره على الجنزير فأمسكها من وسطها ورفعها على قمة البرج، صعد بعدها إلى البرج ثم فتح بوابة الدبابة، أمسكت ماريا فتحة البوابة بيديها وتركت جسدها يتدلى في الداخل حتى لامست أقدامها الأرضية، دخل أبو أنس خلفها ثم أغلق البوابة ضاغطا على ذراع التأمين الداخلي، نظرت ماريا حولها لترى الكثير من الأزرار والأذرع والعدادات، قال أبو أنس: "تبدين مندهشة يا فتاة، هل أعجبتك الدبابة؟".

- "امممم.. أعتقد ذلك".

أشار أبو أنس إلى فتحة المدفع قائلًا: "هنا يتم تلقيم الدانات".

ثم أشار إلى مؤخرة الدبابة متابعا: "من هنا، هنا خزينة القذائف".

قالت ماريا: "يبدو المكان أوسع مما يبدو عليه من الخارج".

لم يرد أبو أنس وابتسم لماريا وهو يمرر يده على رأسها ليرفع نقابها وغطاء رأسها فانساب شعرها منسدلا على كتفيها.

نظرت له ماريا وقالت: "لِمَ لا تعطني فرصة لأنزع ثيابي، إني صغيرة السن كما ترى ومازال الخجل يراودني أحيانا".

رفع أبو أنس حاجبه وقال: "وهل يساورك الخجل مع الفتى مازن؟".

- "مازن؟ هههه، إنه لا يزال طفلا"، ثم نظرت إليه في تحد متابعة: "لطالما أردت تجربة رجل ناضج".

رفع أبو أنس رأسه ضاحكا ثم قال: "أتفق معك يا فتاة، عليكِ ألا تضيعي وقتك مع الأطفال واتجهي فورا إلى رجل يعلم جيدا كَيف يكشف أسرارك"، ثم نهض إلى مؤخرة الدبابة وأعطاها ظهره ثم قال: "سأعد إلى عشرة وألتفت إلى الوراء سواء كنتِ جاهزة أو لا".

بدأ أبو أنس في العد فقامت ماريا بخلع عباءَتها وألقتها أرضا، وصل أبو أنس إلى العدد ستة حين وقفت ماريا رافعة رأسها لأعلى مغمضة العينين، ملأت صدرها بالهواء ثم انقضت على أبي أنس.

قفزت متعلقة على ظهره وغرست أسنانها في رقبته.

كان وسيم قد أخبرها بأن تستل خنجر الجندي في تلك اللحظة ثم تصيبه في مقتل ولكنها فضلت أن تطبق بأنيابها على عنقه، صرخ أبو أنس قائلا: "ماذا يا ملعونة؟".

ضغطت ماريا بكل قوتها وبدأت تذوق طعم الدماء على شفتيها، صرخ أبو أنس باكيا وأخذ يدور في أنحاء الدبابة وقد مد ذراعيه للخلف محاولا الوصول إليها، في كل مرة تصل أصابعه إليها كانت تفتح فمها وتعيد عض رقبته وقد زادتها الدماء شراسة وعنفا حتى

أنها أخذت تزوم وتزمجر، بدأ يضرب جسدها في جدران الدبابة وهو يسب ويلعن فيها، تقلصت عضلات ذراعيها وساقيها حتى شعر أبو أنس أن جسمه قد التفّت عليه أناكوندا عملاقة، أغمض عينيه وأخذ يصرخ والدماء تسيل من رقبته. استمرت ماريا في فتح فمها لتقضم مجددا في جلده الذي تهتك واهترأ فغاصت أنيابها وقواطعها في لحمه وعروقه، شعر بآلام كالكهرباء تسري في جسده مع احتكاك أسنانها مع أليافه العصبية، هوى على ركبتيه ثم نهض مجددا والدماء تسيل من أوردته وشرايينه لتغرق ثيابه، استند على مدفع الدبابة للحظة ثم اندفع بكل قوته بظهره إلى خزنة القذائف، ارتطم ظهر ماريا بالأجسام الإسطوانية للدانات فسقطت دانتان على الأرضية، قوست ظهرها متألمة، رفعت رأسها لأعلى وقد غمر الدم وجهها وفمها، فتحت فمها لتكشر عن أنيابها التي صبغت باللون الأحمر، سالت خيوط ثقيلة من اللعاب على كتف أبي أنس الذي مد ذراعيه ليصل إليها ولكن أسنانها وصلت إلى رقبته أولا مزمجرة: "ععاااممم".

أمسكت جلد رقبته بأسنانها وأخذت تسحب رأسها للخلف فتمدد الجلد كالمطاط فأمسك أبو أنس برأسه وأخذ يدور يمنة ويسرة مولولا ولكنه توقف مع زيادة الألم، استمرت ماريا في سحب الجلد بأسنانها وأخذت تدور برأسها يمينا ويسارا، هوى أبو أنس على ركبتيه وكفيه وماريا نائمة على ظهره، تركت جلد رقبته وغاصت بأنيابها في لحمه وعروقه وبدأت تسحب منها قطعا بأسنانها وهي تعوي من أعماقها، سقط أبو أنس على بطنه وأخذت أطرافه ترتجف

وقد انفجرت نافورة من الدم من رقبته، ظلت ماريا فوقه تنزع قطع اللحم منه حتى همدت حركته تماما، نهضت عنه والدماء تغطي وجهها وعينيها بالإضافة إلى طقم الملابس الذي ترتديه.

بصقت قطعة من لحمه على ظهره ثم ركلته بقدمها قائلة: "تبا لك أيها النجس".

اتجهت بعد ذلك إلى مؤخرة الدبابة وحملت دانة على عضديها ممسكة إياها بكفيها ثم أدخلتها إلى فتحة المدفع، أغلقت بوابة المدفع وجذبت ذراع التأمين كما علمها وسيم.

جلست على الأرضية ممسكة برأسها مفكرة (وسيم.. لقد أتممت ما طلبته، إذا كان عليك فعل شيء فعليك أن تفعله....).

تمددت على أرضية الدبابة قبل أن تكمل فكرتها دون أن تدري هل لفظاعة ما ينتظرها إذا أكتشف أمرها أم لأن وعيها غاب عنها بقوة وإصرار.

33

بعد مغيب شمس الرابع عشر من جمادى الأول ومع اعتلاء القمر الدموي كبد السماء، قام الجنود بإخراج الرجال الذين أنهكهم العمل وخارت قواهم بعد أن أمر أبو أيمن بعدم إطعامهم طيلة اليوم، راقب فرانك الذي كان جالسا عند الجدار الجنود وهم يأخذون رفاقه إلى الموت، كان يهذي وهو يهلوس ليجادل بالفرنسية أشخاصا لا يراهم غيره، قيد أبو مسعود التكريتي يدي كل فرد منهم من الخلف ثم أجلسهم على ركبهم، جلس كل من إبراهيم ووصفي وخالد وسمير وسالم يلهثون، لم يقو أي منهم على رفع جفنيه ولكن ذلك لم يمنعهم من الهمس بالصلوات والتشهد، تم إيداع فرانك في السجن لمقايضته بالمال أو الضغط السياسي، صدرت أوامر أبي أيمن بقتلهم رميا بالرصاص بعد خطبة خنفاء وعاطفية، استعدت كلا من جماعتي خالد بن الوليد وعمرو بن العاص على التحرك فور الانتهاء من إعدام السجناء، تقدمت النساء إلى الساحة ليشهدوا على الإعدام فيكون ذلك رادعا لهم عن أي محاولة للعصيان أو التمرد، قادت النساء إلى الساحة أم أوس وأم ميسرة في حين اصطحبت أم شيخة جنديين للبحث عن ماريا التي اختفت تماما من المعسكر، لم يبلغ الحراس تسللها إلى الخارج فأخذوا يقلبون المعسكر بحثا عنها، وقفت زينب تبكي زوجها خالد الذي مالت رأسه للأمام لاهثا لا يقدر على التقاط أنفاسه، جاء جنديان

يحملان جسد وسيم الذي غاب عن الوعي تماما ثم ألقياه بجوار والده الذي جلس على ركبتيه رافعا رأسه إلى السماء باكيا دون أن ينظر إلى ولده الملقى بجواره، وقف ستة من الجنود ببنادقهم الآلية خلف الأسرى، أعطى أبو أيمن الإشارة فدوت الطلقة الأولى ليندفع جسد وصفي على بطنه وقد انفتح في مؤخرة رأسه ثقب في حجم الكوب اندفعت منه الدماء على الأرض، أعطى أبو أيمن الإشارة الثانية فجذب الجندي الثاني أجزاء بندقيته استعدادا لرمي سمير، ثم دوت الطلقة الثانية ليسقط سمير أرضا وقد سمعه إبراهيم يشهق قائلا: "هاااا"، قبل أن تنفجر الدماء من رأسه، أخذ خالد يلهث بصوت مرتفع ثم تحول لهاثه إلى صراخ ورأسه تدور على كتفيه، رفع قدمه اليمنى واستند عليها واقفا فأدار الجنود الستة بنادقهم في اتجاهه، تقدم منه أبو مسعود ولطمه فسقط أرضا على وجهه، قال له أبو مسعود وهو يركله في أضلاعه: "أيها الوغد ألم نتفق بأن تتعاونوا لننتهِ من هذا بسرعة؟ ألم يكفكم أننا اخترنا لكم موتا رحيما فاكتفينا برميكم بالرصاص؟ لماذا لا تسمعون الكلام؟".

أخذ خالد يصيح هازا رأسه يمنة ويسرة، أمسكه أبو مسعود التكريتي من ياقة قميصه وسحبه إلى صف الرجال، تخلص منه خالد وأخذ يجري في ساحة المعسكر.

صاح أبو أيمن: "ليس لدينا وقت يا أبا مسعود".

وقف أبو مسعود في منتصف الساحة قائلا: "إلى أين تركض؟ أين تظن نفسك ذاهبا؟".

رفع خالد رأسه إلى السماء باكيَا.

كانت ماريا في الدبابة تراقب كل هذا باكية عن طريق البيروسكوب.

صاح خالد مجددا: "اقتلوني أيها الجبناء، أطلقوا عليّ النار، لن أجلس في هذا الصف اللعين، أطلقوا علي النار".

وقف أبو مسعود متسع العينين رافعا كفه مشيرا إلى خالد بالعودة إلى الصف ولكنه أخذ يتراجع ويتراجع حتى ارتطم ظهره بجنزير الدبابة، همست ماريا بصوت مختنق قائلة: "وسيم.. ماذا تريدني أن أفعل؟".

34

وقفت ماريا تراقب أبو مسعود التكريتي الذي أخرج مسدسه البريتا وجذب الأجزاء لإطلاق النار قائلا: "حسنا كما تشاء"، ثم وجه مسدسه إلى خالد.

رفع أبو مسعود عينيه عن خالد حين سمع صوت صرير معدني، نظر إلى برج الدبابة وقد بدأ في الدوران فدقت التروس وصفرت السيور، استمر صرير البرج وهو يدور محتكا بجسم الدبابة حتى توقف، ارتفع صوت هدير المدفع وقد مال قليلا إلى الأسفل موجها فوهته إلى أبي مسعود التكريتي الذي همس وقد اتسعت عيناه: "ما.. ماذا.. كيف.. الأش....".

انطلقت الدانة التي لقمتها ماريا فارتد جسم الدبابة إلى الخلف مع دوي انفجار هائل. اصطدمت الدانة بجسد أبي مسعود التكريتي فتناثر إلى أشلاء ولم يتبق منه سوى ساقين داخل حذائين عسكريين طويلي الرقبة، لم يلبث الأيسر منهما لحظة حتى مال ساقطا على جانبه، تابعت الدانة اندفاعها حتى انفجرت في عربة نقل المساجين المحملة بالبنزين والتي كانت في طريقها إلى دير سانت كاترين تحت قيادة سرية عمرو بن العاص.

* * *

بعد أن قضى وسيم أسبوعا فاقدًا للوعي جاءته والدته في منامه في اليوم السابع، ظلا يضحكان سعداء بلقائهما، انقلب وجه الأم

فجأة إلى الجدية والغضب، قطبت جبينها وضمت شفتيها فقال وسيم: "ماما.. ماذا بكِ؟".

نظر فرأى مجموعة من الأشخاص الملوثين بالتراب وقد تحللت معظم أجسادهم، شهق وهو ينظر إلى عزيز الذي وقف حزيناً شاحباً مع الآخرين.

اقتربوا حتى وقفوا خلف والدته، تحدث أحدهم ليقول من فم ملئ بالتراب: "انظر ماذا فعلوا بنا".

ظلت الأم ترمقه في غضب ثم صاحت بصوت مجلجل رنان: "وسيم.. اقتلهم.. اقتلهم جميعا".

ظل وسيم يئن ويبكي في منامه حينها وقد بدأت الأرض تهتز في موجات من حوله، أخذت حبات الرمال والحصى تتقافز حتى صرخت أمه مجددا: "اقتلهم جميعا".

استيقظ صارخا من غيبوبته فاندفعت الحصى والحجارة حتى اصطدمت بجدران غرفته، ظلت الحجارة مثبتة على الجدران بينما يلهث وسيم ملتقطا أنفاسه قبل أن تسقط أرضا، جلس يرتجف في ركن الغرفة وقد أحاط ركبتيه بذراعيه، بدأ يشعر بأيد تمتد من رأسه، تمتد تحديدا من المنطقة التي أصابه فيها أبو حمزة الدمشقي. انطلقت الأيدي ملتقطة الأحجار لتدور بها في سماء الغرفة ووسيم فاغر الفم متسع العينين يشاهد في دهشة، سمع صوت خطوات تعبر أمام الغرفة فزحف مقتربا من الباب ليرى أبا عكرمة حاملًا سلاحه متجها إلى إحدى نقاط الحراسة، سمع دوي صوت أمه الغاضب في أذنيه (اقتلهم جميعا).

اندفعت الأيدي من عقل وسيم لتمسك بقدمي أبي عكرمة الذي أطلق سبة وجسده يهوي أرضا، حاول النهوض ولكن وسيم أحكم وثاق قدميه ثم ثبت ذراعيه إلى جوار جسمه، أخذ أبو عكرمة يتلوى أرضا وقد اتسعت عيناه، حاول الصراخ ولكن وسيم دفع بيد لتكتم أنفاسه، ظل أبو عكرمة يتلوى ويتقلب أرضا بينما انطلقت مجموعة أخرى من الأيدي لتحمل صخرة ضخمة لتحلق فوق رأس أبي عكرمة، تناثرت حبات الرمال على وجهه ولحيته قبل أن يترك وسيم الصخرة لتهوي على رأسه.

في اليوم التالي سمع وسيم الجنود وقد تحدثوا عن الأشباح ولكي يؤكد لهم الأمر انتظر حتى انتصف الليل بينما يقوم أبو مالك النجدي بحراسة المنطقة، انطلقت مجموعة من الأيدي الخفية من عقل وسيم لتغوص في رمال المقبرة، أمسكت الأيدي بكتفي إحدى الجثث وبدأت في سحبها خارج المقبرة قبل أن تُلقي بها بجوار جثة أبي مالك الذي فلقه وسيم كما كان يفعل في الدمى البلاستيكية، بعد أن توقف الجنود عن الاقتراب من المقبرة لم يتمكن وسيم من تحريك أي شيء بعيد بعقله.

كان قد طلب من ماريا استدراج أحد الجنود إلى الدبابة وقتله، ثم تلقيم المدفع استعدادا للهروب وذلك بعد أن سمع الجنود يتحدثون عن إعدام المخطوفين الرجال، عاد بعدها وسيم إلى الغيبوبة متأثرا بإصابته ولم يفق ثانية إلا لحظة الإعدام وقد صرخت أمه مجددا (اقتلهم جميعا).

* * *

انفجرت العربة المفخخة بفعل طلقة الدبابة فانطلقت ألسنة اللهب والنيران إلى السماء وتناثرت أشلاء أربعة من الجنود كانوا واقفين بالقرب منها، ركض كل من في المعسكر يتخذون ساترا دون أن يعلموا ما يواجههم، سقط الرجال والنساء المخطوفين على وجوههم من ضغط الانفجار، نهض وسيم وقام بفك قيد والده الذي لم يصدق حين رأى يديه حرتين، ظل ينظر إلى وسيم مندهشًا ثم قال: "كيف فعلت هذا؟".

صاح إبراهيم: "هل تصور فيلمًا؟ هيا قم بتخليصنا".

اندفع ثلاثة من الجنود حاملين دلاء فارغة وبدأوا بملء الرمال ورميها على العربة المحترقة، نظر وسيم إلى السلك الشائك الذي يُستخدم في ميدان الموانع فطار السلك متجها إلى الجنود الثلاثة ليلفهم من رقابهم ويدفع بهم إلى النيران فانطلقوا يصرخون وقد أمسكت النار بأجسادهم، كان الجنود في حالة ذعر فأخذوا يركضون هنا وهناك مصوبين أسلحتهم إلى السماء دون أن يروا عدوانا مرئيا، دارت أسلحة الجرينوف حول حواملها متجهة إلى ساحة المعسكر، أخذت الطلقات تنطلق مخترقة الأجساد بحيث تأخذ كل طلقة رأسا أو يدًا أو ساقا أو تقسم الجسم إلى نصفين، التفت المدافع يمنة ويسرة تصيب أهدافها وشرائط الطلقات تسير في جسم المدافع لتخرج فارغة. من الناحية الأخرى، بعد أن حرر سالم باقي رفاقه وقف أمامهم وصاح من أعماقه: "هيا فلننقض عليهم".

صاح كل من إبراهيم وخالد ومارثا وزينب وهدى وسارة بصوت كالزئير ثم اندفع كل منهم يمسك بجندي فيطعنه بسكين أو

يضرب رأسه بحجر، أمسك إبراهيم بحجر ضخم وجلس على بطن أحد الجنود وأخذ يهوي على رأسه حتى صارت أقرب إلى رأس أبي عكرمة التهامي بعد أن سقطت فوقه الصخرة الضخمة، وقفت مارثا تصر على أسنانها ثم أمسكت بعباءتها وأطاحت بها في الهواء ثم اندفعت إلى ساحة المعركة، وجدت ساطورا ملقياَ على الأرض فمالت لتلتقطه، أمسكت بالساطور ورفعته إلى الوراء، رسمت قوسا بالساطور وهي تضرب ساقي جندي كان يحاول الهرب من المعسكر، سقط الجندي على بطنه وأخذ يزحف بذراعيه راسما خلفه خطين من الدماء، أمسكت مارثا بلحيته ثم جذبته لينقلب على ظهره، أدخلت يدها اليسرى في سروال علاء الدين الذي يرتديه ثم أخرجت يدها ممسكة بخصيتيه وفصلتهما بالساطور عن جسده، صرخ الرجل ومال برأسه للأمام لينظر إلى خصيتيه في يد مارثا التي ألقتهما في وجهه ثم دفعت بالساطور في جمجمته وقد لمعت عيناها وكشرت عن أنيابها، انطلق دوي طلقة بالقرب من مارثا لتسقط بجوارها جثة لصبي، كان مازن القامشلي ممسكا بخنجر ينوي إصابة مارثا حين أطلقت عليه زينب النار في ظهره، صاحت زينب التي ألقت بعباءتها أرضا: "حاسبي يا مارثا".

ابتسمت مارثا وهي تنظر إلى زينب ثم زادت ابتسامتها في وجهها الذي تلطخ بدماء مازن، تحولت الابتسامة إلى ضحكة مجلجلة وهي تقول مزمجرة: "أحاسب على إيه؟ ولكن ليس معي مال، أنا آسفة".

ثم أمسكت بساطورها وأخذت تطعن مازن وهي تعوي: "أنا آسفة.. أنا آسفة أيها اللعين".

صوبت زينب مسدسها إلى أم أوس وأم ميسرة وأم شيخة اللاتي ركضن ليحتمين في إحدى الغرف، قفزت مارثا وضربت المسدس بالساطور ليقع من يد زينب أرضا ثم صاحت وقد لمعت النيران في عينيها وتجلد شعرها على خديها: "العاهرات لي".

سارت مارثا بساطورها خلف أم أوس وأم ميسرة وأم شيخة اللاتي دخلن سجن النساء، دخلت مارثا خلفهن ثم أغلقت الباب من ورائها.

انقض خالد على أحد الجنود ليركل بندقيته الآلية، طارت البندقية في الهواء فركله خالد مجددا، أمسك الجندي بساق خالد ودفعه فسقط على ظهره، استل الجندي خنجره وسار باتجاه خالد الذي نهض ليرمي بحفنة من الرمال في وجهه، مال الجندي برأسه وأغمض عينيه متألما، قفز خالد ليضرب الخنجر من يد الجندي ثم دفعه أرضا، وضع الجندي يديه على عينيه محاولا مسح الرمال فجلس خالد على بطنه قائلا: "دعني أساعدك".

أمسك رأس الجندي بيديه ثم وضع إبهاميه على عينيه وبدأ في الضغط، صرخ الرجل وهو يسب ويلعن في خالد الذي ركز بركبتيه على الأرض ليمنعه من التملص، أمسك بمعصمي خالد الذي بدأ إبهاماه يغوصان في محجريه، تدفقت الدماء والسائل الزجاجي من عيني الرجل الذي لم يعد يقاوم وهو يصرخ ويولول، استمر خالد في الضغط بإبهاميه حتى توقفا في النهاية العظمية لكرتي العينين، نهض

خالد وهو يتلفت ليتأكد أن إبراهيم لا يره ثم مسح يديه في ثيابه، انطلق بعدها باحثا عن ضحية جديدة، انطلق كلا من هدى وسارة بخنجرين ليطعنا كل من يقابلهن في الساحة، توقف سالم عن عد ضحاياه وهو يسير بحجرين ملطخين بالدم والمخ من الجنود الذين هشم جماجمهم، لم يشترك وسيم في القتال بل وقف على أحد المدافع الجرينوف مطلقا النار على الجنود الذين اتخذوا ساترًا خلف الموانع الأسمنتية خوفا من رفاقه الذين لا يزالون متعطشين للدماء في الساحة.

صاح سالم في الجميع ليركضوا ويحتموا بجسم الدبابة، قفز سالم وإبراهيم وخالد فوق سيارات الدفع الرباعي ليطلقوا النار على باقي الجنود الذين احتموا خلف الموانع، قام خالد بتغيير أشرطة الذخيرة من الصناديق الاحتياطية بعد أن ينتهي كل مدفع من الرصاص، احتمى باقي رفاق وسيم خلف الدبابة حتى انتهت الطلقات من المدافع فقفزوا جميعا منضمين إلى رفاقهم، كان قد تبقى ثلاثة جنود استمروا في إطلاق النار على الأسرى، صاح إبراهيم: "ماذا نفعل الآن؟".

قال خالد: "نطلق عليهم من الدبابة".

صاح سالم: "إنه جدار عريض جدا لن تؤثر فيه الطلقة".

جلس وسيم أرضا مسندا ظهره إلى الجنزير وأغلق عينيه محاولا تجاهل أصوات الطلقات التي انهالت على جسم الدبابة ككرات من البرد تسقط على سقف بيت من الصاج، سمع الجميع صوت طقطقة مسامير وصواميل واهتز صاج إحدى سيارات الهايلكس

وهي ترتفع مائلة في الهواء، فغر الجميع أفواههم وأخذ وسيم يرتجف وتهتز رأسه والعربة ترتفع متجهة إلى الجنود الثلاثة الذين استمروا في رفع أطراف بنادقهم الآلية عن الجدار وإطلاق الرصاص على المخطوفين، توقفت السيارة فوق رؤوسهم للحظة وهم لا يزالون يطلقون النيران قبل أن تهوي فوقهم ثم تقفز مرتدة إلى أعلى بفعل مساعداتها وعفشتها الجبارة والتي تضمنها لك شركة تويوتا إذا تابعت صياناتك الدورية في التوكيل، هوت السيارة مجددا على إطاراتها لتسحق الجنود الثلاثة تحتها، انطلق جنديان من إحدى الغرف إلى الهايلكس التي استقرت فوق الجنود الثلاثة.

صاح خالد: "إنهما أبو أيمن وأبو عتبة، اقتلوهما قبل أن يهربا".

ولكن مدافع الجرينوف كانت خالية من الذخائر فانطلق أبوعتبة يقود العربة وبجواره أبو أيمن، لمح الجميع أبو خديجة الليبي يركض من خلف أحد الموانع باتجاه السيارة ثم يقفز على صندوقها الخلفي ويفر معهم هاربا.

صاح سالم: "الدبابة.. وسيم.. الدبابة.. لاتدعهم يفلتوا من هنا".

كانت ماريا تطل برأسها من فتحة الدبابة فعادت إلى الداخل ولقمت المدفع مرة أخرى، حاول وسيم النهوض ليدخل إلى الدبابة ولكنه شعر بإعياء شديد بعد إلقائه بالسيارة على الجنود الثلاثة، وقف ساندا يده على الجنزير ثم وجه البرج إلى السيارة المبتعدة، أطلق الدانة ولكنها انفجرت بعيدا عن السيارة التي انطلقت مثيرة للرمال في كل اتجاه، قذفت إليه ماريا بجهاز الرؤية الليلية ثم

لقمت المدفع مجددا، وجه المدفع إلى الهايلكس والجميع يصيحون: "اقتلهم يا وسيم، لا تدعهم يهربوا".

ولكن وسيم أخفق في إصابتهم مجددا، بعد لحظة رأى على جهاز الرؤية الليلية شاحنة كتب على جانبها مصر للبترول وهي تقترب من المعسكر، نظر أبو أيمن إلى الشاحنة التي انطلقت إلى المعسكر عبر منظار الرؤية الليلية ثم صاح: "ما هذا؟"، سمع على جهاز اللاسلكي صوتا ينادي: "أبو أيمن، يا أبا أيمن، أنا داخل عليك المعسكر الآن ومعي مش جركلين بنزين، أنا آتِ ومعي تريلة بنزين كاملة لكي ترضى عني"، صاح أبو عمة السوداني باكيا في جهاز اللاسلكي الذي أخذه من أبي حمزة الدمشقي بعد قتله.

صاح أبو أيمن في اللاسلكي: "توقف.. توقف أيها الغبي إنهم يطلقون علينا النار".

- "والله لن أتوقف حتى ترضى عني يا أبا أيمن"، قالها في هيستيريا وهو يهز يده الممسكة باللاسلكي.

أخذ أبو عتبة اللاسلكي من يد أبي أيمن وصاح: "حسنا.. حسنا يا أبا عمة، لقد عفونا عنك، لقد رضينا عنك".

رد أبو عمة صائحا: "والله لا أقف حتى أدخل المعسكر ويرى أبو أيمن فأسمعه بنفسي وقد رضي عني".

أخذا يأمرانه ويصيحان فيه بالتوقف والشاحنة تقترب مسرعة من السيارة.

كانت ماريا قد لقمت المدفع مجددا وبدأ وسيم في توجيهه وسط صياح رفاقه، لكنه توقف عن توجيه مدفعه إلى العربة التي كانت صغيرة صعبة التحديد وسط سحابة الغبار التي أحاطت بها، حول وسيم توجيه مدفعه إلى الشاحنة الضخمة التي أخذت تقترب من الهايلكس، انتظر اللحظة المناسبة وهو يتبع الشاحنة بمدفعه ثم انطلقت القذيفة التي رآها أبو عمة من الزجاج الأمامي تطير في الهواء مندفعة إلى خزان الوقود، كان آخر ما سمعه أبو عمة صوت أبي أيمن وهو يسب بالدين في اللاسلكي قبل أن يدوي انفجار حوّل الليل إلى نهار.

۞ ۞ ۞

35

في الصباح كان المعسكر يعج بقوات الجيش وحلقت في السماء طائرتا أباتشي وطائرة إسعاف لنقل المخطوفين.

كانوا جالسين في ساحة المعسكر يحيط بهم جنود من الجيش والمخابرات، كانت ماريا نائمة على حجر أمها ودماء أبي أنس لا تزال تلوث وجهها وملابسها، جلس الباقي ملتحفين بالبطانيات، أحاط خالد جسم زوجته ببطانيته، استلقت نيكول أرضا واضعة رأسها على فخذ فرانك بعد أن قضوا الليلة مختبئين في إحدى الغرف الحجرية.

عم الصمت أرجاء المكان إلا من ملاحظات أفراد الجيش هنا وهناك، فتحت ماريا عينيها ناظرة إلى السماء حين دوى صوت وسيم فجأة: "ماريا.. وااا.. واا"، ثم انطلق راكضا وهو يصيح: "وردة.. وردة".

رفعت ماريا رأسها عن أمها ونظرت حيث يركض وسيم، وقف عند وردة أرجوانية وسط أكوام الحرائق والخراب، أخذ يشير إليها صائحا في سعادة وانتصار: "ماريا.. وردة وردة".

سالت الدموع من عيني ماريا وابتسمت قبل أن تنهض راكضة إلى حيث وقف وسيم، أخذ يدور حول الوردة وقد فرد ذراعيه وهو يصيح: "وردة.. وردة".

مدت ماريا ذراعيها وبدأت في الدوران مع وسيم حول الوردة وهما يتقافزان في مرح وسعادة، نظر المخطوفون إلى الوردة التي ظل الطفلان يدوران محلقين حولها بجناحيهما الصغيرين، انفجرت الدموع من عيني مارثا فقامت زينب واحتضنتها باكية على كتفها، نظر سالم إلى ولده الذي بدا سعيدا رغم كل ما حدث، ابتسم ثم استلقى على ظهره أرضا، مد ذراعيه بجواره ونظر إلى السماء الصافية، عم بجسده شعور بالخدر والاسترخاء، شعور بالراحة والخلاص، تذكر ذلك اليوم حين ذهب إلى البحر لأول مرة لم يكن قد جرب السباحة في البحار من قبل ولكنه ظل يسبح إلى عمق البحر، لم ينتبه أنه قد ابتعد كثيرا عن الشاطئ، توقف فجأة ونظر خلفه ليرى الشاطئ والناس يمشون عليه كالنمل، أصيب بالهلع ودار ليعود من حيث جاء، ظل يسبح حتى شعر بالتعب والإنهاك وهو لا يزال بعيدا عن الشاطئ، تمدد على ظهره ليستريح على سطح الماء، استرخت عضلاته والمياه ترفع جسمه وتنزل به مع كل موجة، شعر بالطمأنينة والراحة، بالوحدة والسكون، لم يعد يثير قلقه كم هو بعيد عن الشاطئ أو كم يبلغ عمق المياه أسفل منه، فرد حينها

ذراعيه بجواره ونظر إلى السماء الزرقاء الصافية حيث تحلق طيور النورس، أغلق عينيه وهو يشعر بالتفرد، يشعر بالآنية، لم يعد في ذهنه أي شعور بالماضي أو المستقبل، فقط اللحظة، هذه اللحظة بالذات، ظلت مارثا وزينب تبكيان حتى أقلتهم المروحية من هذا المكان إلى الأبد.

❁ ❁ ❁

36

أغلقت أناستازيا جونزاليس مكالمتها مع أبي الفضل المغربي صباح يوم الخامس عشر من جمادى الأول، أخبرها بفشل مهمة تدمير الدير التي جهزوا لها لمدة عام كامل، خفق قلبها غضبا وهي تعتصر السماعة مع حديث أبي الفضل، لقد كانت فرصة عظيمة بالنسبة لها أن تحدث هذه المذبحة في ذلك التوقيت الذي انتظروه طويلًا ليكون طقسًا شيطانيًا مكتملًا، رمت بالهاتف ليتدحرج على سيراميك الصالة ثم وضعت يدها على رأسها مخفية عينيها، علم مساعدها اليانكي أن الأمور لم تسر على ما يرام ففضل الصمت، رفعت أناستازيا خصلات شعرها عن عينيها ثم وقفت، تمتم اليانكي: "ولكن كيف؟".

وضعت أناستازيا يديها على وسطها وهي تسير لتقف أمام النافذة المطلة على ميدان طلعت حرب، وقفت لبرهة تتأمل الشارع ثم أخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة، نفثت الدخان على زجاج النافذة، ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها رافعة السيجارة أمام وجهها.

قالت: "لا أحد يعلم".

صمتت للحظة ثم تابعت: "كيف تمكنوا من قتل معسكر بالكامل؟"، قالتها صارخة وهي تلتفت إلى اليانكي قاذفة سيجارتها على السيراميك.

اتسعت عينا اليانكي فتابعت أناستازيا: "كيف يتمكن مجموعة من المدنيين من الفتك بكتيبة كاملة من المسلحين المحترفين؟".

أمسك اليانكي رأسه ونظر إلى الأرض، رفع عينيه الدامعتين إلى أناستازيا وقال: "هل يعني هذا أن الملك غير راضٍ عنا؟".

ارتجفت شفتا أناستازيا وهي تحدق في اليانكي، كان أكثر ما يثير جنونها هو عدم علمها بسبب فشل العملية بعد الوقت والمجهود الذي بذلته بالتعاون مع العديد من المنظمات وأجهزة المخابرات لتتم الطقوس الدموية في هذا الوقت بالتحديد.

صاحت في اليانكي: "اغرب عن وجهي".

- "ماذا؟".
- "قلت لك اغرب عن وجهي".

نهض اليانكي عن كرسيه ثم أخذ علبة سجائره وخرج من الشقة، بعد أن أغلق الباب خلفه اتجهت أناستازيا إلى غرفة نومها، أخرجت من الدولاب حقيبة سامسونايت ومشت بها تحملها بكلتا يديها بشكل أفقي، اتجهت بالحقيبة إلى الحمام ثم وضعتها أرضا، خلعت ثيابها وألقت بها على كرسي الأنتريه، فتحت باب الحمام ثم جلست أمامه ووجهها تجاه الصالة، أخرجت من حقيبتها تمثالا قبيحا لرأس كبش ووضعته أمامها في تقدير بالغ، مدت يدها في جيب الحقيبة الداخلي وأخذت محقنا من بين مجموعة من المحاقن البلاستيكية المغلفة، فكت الغلاف ثم أدخلت السن في ذراعها الذي امتلأ بنقاط داكنة كمدمني المخدرات، سحبت بعضا من دماء أحد الأوردة ثم

رفعت المحقن أمامها، ضغطت المكبس قليلا فخرجت كمية من الدماء على إصبعها الذي وضعته أمام السن، بدأت في رسم نجمة خماسية على جبهتها ثم رسمت واحدة أخرى على الأرض وهي تتمتم بتعاويذ شيطانية بصوتها المبحوح، وضعت المحقن جانبا ثم أخرجت خمس شموع من الحقيبة وأشعلتها بولاعتها، وضعت كل شمعة على طرف من أطراف النجمة ثم شبكت أصابعها وبدأت في استدعاء ملكها، شمت بعد لحظات رائحة شياط من الحمام ثم سمعت صوت فرقعة كفرقعة الكهرباء، لم تلتفت لتنظر خلفها بل تابعت صلواتها مغمضة العينان مميلة رأسها أرضا، نهضت جاثية على ركبتيها ولا زالت رأسها مائلة لأسفل فغطى شعرها الأسود وجهها بالكامل.

واصلت أناستازيا الصلاة حتى سمعت (لقد سالت الدماء في موعدها وهذا ما يهم).

فكت أناستازيا تشابك أصابعها التي ارتجفت للحظة بعد أن دوى الصوت الحاد الرفيع من خلفها من الحمام، لم تدر وجهها ناحية الصوت وتركت ذراعيها يتدليان بجانبها وهي لا تزال جاثية على ركبتيها.

(أنت خادمة عظيمة).

وضعت يديها على قلبها وهي تتنفس الصعداء ثم قالت: "مهمة اليوم، هل ستخبرني عن مهمة اليوم؟".

- (منذ أن صرت خادمة لنا وأنت تأخذين الكثير، لقد أخذت شيئا ويجب أن تعطي شيئا، وحينها لن تصيري مجرد خادمة، بل أميرة من أميراتنا).

سالت دموعها وهي تقول: "نعم.. نعم.. أي شيء".

- (نريد طفلا منك).

ردت فورا: "وطفلا سنعطيك".

ابتلعت ريقها ثم تابعت: "سأجعله خادما وعبدا لك".

- (نحن فقط من يختار خدمنا، نريد طفلا منك، لتقدميه قربانا لنا).

شهقت وخفق قلبها بعد أن سمعت مطلب سيدها.

بعد ساعة كانت أناستازيا أمام المرآة في غرفة النوم تهيئ نفسها للخروج، لفت سبحتها حول معصمها الأيمن ثم أخذت مفاتيح سيارتها المرسيدس لتبدأ البحث عن شريك بالمواصفات التي حددها سيدها، نزلت مسرعة على السلالم وهي تنوي القيام بمهمتها الأخيرة، مهمة اليوم الخامس عشر من جمادى الأول.

❁ ❁ ❁

37

تم حجز المخطوفين في مستشفى سانت كاترين حتى تم الاطمئنان عليهم ثم عادوا في باص إلى القاهرة، جلست ماريا تتابع الطريق الذي شهدته منذ وقت لم يبد بطويل حين أتت إلى سانت كاترين، لم تعد تنظر إلى الطريق بنفس العينين التي رأته بهما أثناء قدومها المرة الأولى، نامت مع مغيب الشمس ثم استيقظت مع دخول الباص إلى القاهرة، كان الباص واقفا في نقطة تفتيش مرورية، استرعى انتباهها رجل يقوم بتحميل فزبة داخل حقيبة خلفية لعربة مرسيدس وقد بدا عليه التوتر والقلق، التفت ناظرا إليها بعينين مليئتين بالإثم والخوف قبل أن يُغلق الصندوق ويدخل إلى السيارة. عادت ماريا إلى النوم وهي تفكر، تُرى هل بإمكانها الشعور بالقلق تجاه أي شي؟ أو الخوف من أي شيء؟

38

بعد عشر سنوات دخل وسيم إلى دير سانت كاترين مجددا، وقف يتطلع إلى ماريا التي وقفت تُشعل الشموع أمام هيكل القديسة كاترين، صاح ضاحكا: "لقد أتيت".

التفتت ماريا التي كانت ترتدي زي الراهبات ثم ابتسمت إلى وسيم قبل أن تسيل الدموع من عينيها وتتحول ابتسامتها إلى ضحكة سعيدة.

قالت: "وسيم.. انظر إليك لقد صرت رجلا".

- "وأنتِ وأنتِ.. صرتِ جميله بجد بجد".

*****

تجول وسيم مع ماريا في الدير الذي قضوا به جزءاً من طفولتهما قبل أن يتم قتلها على يد الإرهاب، كانا يسيران في أحد الممرات حين أشارت ماريا إلى رجل بدوي يتجه ناحية الكنيسة ثم قالت: "ها قد أتى".

نظر إليها وسيم مستفهما ثم قال: "من؟".

ابتسمت ماريا بكل ملامحها ثم قالت: "لماذا لا تنظر بنفسك؟".

اقتربا من الرجل الأسمر الذي كان واقفا أمام باب الكنيسة فشهق وسيم ثم ركض وهو يصيح: "عمي داوود".

ترك الريس داوود علبة معدنية كان يحملها ثم سار ليستقبل وسيم الذي لف ذراعيه حوله وهو يضحك.

أمسك عم داوود رأس وسيم بيديه وقال مبتسما: "أخيرا جئت يا ولد".

نظر وسيم من خلف دموعه إلى وجه الريس داوود الذي امتلأ بالتجاعيد، أمسك بيده التي صارت عظاما مكسوة بالجلد ثم قبّلها قائلا: "أنا أحبك.. كثيرا كثيرا".

احتضنه الريس داوود مجددا، نظر وسيم ليجد ماريا تقف بجوارهما مبتسمة ثم قالت: "منذ أن قررت البقاء في الدير والريس داوود يأتيني كل صباح باللبن الطازج".

رد الريس داوود بصوت واهن عجوز: "واليوم بالذات جئت بالأكواب ليشرب معنا وسيم".

لف وسيم ذراعيه حول عينيه كما كان يفعل في صغره ثم جلس معهما ليشرب كوبا من اللبن لم يزل طعمه من فمه طوال حياته.

حين جاء وقت الوداع سالت دموع وسيم أمام ماريا ووعدها بالعودة مجددا فوعدته بانتظاره دائما، التفت ليخرج من الكنيسة حين نادته ماريا: "وسيم".

التفت وسيم فقالت مبتسمة: "لدي شيء يخصك".

ثم ألقت في الهواء بمكعب روبيك وقد بهتت ألوانه، وقف المكعب في الهواء معلقا فيما بينهما فتابعت ماريا: "لقد لخبطت لك الألوان أيضا".

بدأت ألواح وشرائح المكعب في الدوران في الهواء حتى توحدت ألوان كل جانب.

قالت ماريا: "لا زلت بارعا في الروبيك، أنت نجم الروبيك".

تقدم المكعب من وسيم طافيا في الهواء حتى أمسكه بيده ثم اتجه إلى ماريا قائلا: "لا.. أنا نجم الحرب، هذا الروبيك هدية مني إليك".

ابتسمت ماريا وهمست: "وقد قبلت هديتك".

* * *

خرج وسيم من الكنيسة، مر بجوار شجرة العليقة ليجد صبيًا في العاشرة من عمره. ذكره ذلك الصبي بنفسه حين جاء مع والده إلى الدير مع ماريا وأسرتها، لقد كان في نفس عمر ذلك الصبي، سمع وسيم أم الصبي تناديه وقد أحاط الأب ذراعه حول كتفيها: "تعال يا خضر لنرى البئر، ألا تريد ذلك؟".

ضحك الرجل قائلا: "نعم تعال لنرى البئر فأمك تحب الآبار، لقد قضت معظم عمرها داخل أحد الآبار بالفعل".

ضحكت الأم ووكزت زوجها بكوعها قبل أن ينضم إليهما الصبي ذو العشرة أعوام.

أحمد المحلاوي

Febreuary

2018

اليوم الأول

بعل

(בעלה YHWH، هداد، أيل، بعليم،Baal)

إهداء إلى

أسامة الشحات

فريق العمل وبرج الحوت/ شيماء

ولاء ياسر

"وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ* أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ* اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ* فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ".

(**الصافات** 123-132)

(وَلَمَّا جْتَمَعَ لشَّعْبُ عَلَى جَبَلِ لْكَرْمَل، قَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: (يَلْزَمُ أَنْ تُقَرِّرُوا، إِذَا كَانَ يَهْوَه هُوَ لإِلٰهَ لْحَقِيقِيَّ فَ عْبُدُوهُ، وَإِذَا كَانَ بَعْل هُوَ لإِلٰهَ لْحَقِيقِيَّ فَ عْبُدُوهُ). ثُمَّ قَالَ لِأَنْبِيَاءِ لْبَعْل لـ ٤٥٠: (حَضِّرُوا ذَبِيحَةً وَصَلُّوا إِلَى إِلٰهِكُمْ، وَأَنَا سَأُحَضِّرُ ذَبِيحَةً وَأُصَلِّي إِلَى يَهْوَه، وَ لإِلٰهُ لَّذِي يُرْسِلُ نَارًا يَكُونُ هُوَ لإِلٰهَ لْحَقِيقِيَّ).

سفر الملوك الأول 18

1

اجتمع المهندس شوقي جابر صباح أحد أيام نوفمبر مع موظفي شركة الحاسبات الآلية والطابعات وذلك بعد ترقيته إلى منصب مدير مبيعات الشركة، أعطى المدير التنفيذي الكلمة للمهندس شوقي ليلقي كلمته على الموظفين، نهض وفك زر بذلته الرسمية وعدل نظارته والجميع يصفق له، مطت بسنت فتحي شفتيها مبتسمة وصفقت رافعة حاجبيها وهي جالسة بجوار زميلتها أسماء مصطفى، بدأ شوقي في الحديث: "طبعا كلنا يعرف الطفرة الحديثة في عالم الهواتف المحمولة، خصوصا بعد صدور أنظمة الأندرويد".

رفع كفيه وهو يدور بعينيه يمينا ويسارا: "لم يعد الإقبال كما كان على أجهزة اللاب توب والكمبيوتر كما في السابق، ولهذا سعت شركة آبل ماكنتوش إلى تطوير هواتف محمولة وتابلت بنظام تشغيل خاص بالإضافة إلى أجهزة اللاب توب والكمبيوتر".

سند بأطراف أصابعه على الطاولة الزان ثم تابع وهو يهز رأسه الأصلع: "ولهذا يجب علينا زيادة مبيعاتنا باستهداف الفئات التي تتناسب مع سياسة الشركة في الإنتاج، كما تعلمون لا يزال نظام التشغيل ويندوز يتفوق على أنظمة الأندرويد في العديد من الأمور، أولها قلة الثغرات الأمنية ووجود برامج حماية قوية، هناك فئات لا يمكنها الاستغناء عن لوحة المفاتيح لتصميم مشاريعها

وكتابة مخططاتها، يجب التنسيق مع مبرمجي الألعاب التي لا يمكنها العمل إلا على نظام الويندوز أيضا".

لوح بسبابته اليمنى وقال: "وهذه فرصة أخرى لنا، فالعديد من الألعاب تعمل بشكل مختصرعلى الهواتف والتابلت لأمور تتعلق بمساحة الذاكرة ورغبة المبرمجين في شراء باقي اللعبة من متاجر الإلكترونيات، أما في الكمبيوتر العادي يمكنك شراء لعبة متكاملة دون أن تواجهك مشاكل في شغل مساحة من القرص الصلب، أيضا ستستمتع بشاشة كبيرة مقارنة بالأجهزة المحمولة".

تابع شوقي حديثه حين وكزت بسنت أسماء بمرفقها وهمست: "أتذكر يوم جاء هذا الوغد في البداية ليعمل في الكول سنتر".

التفتت إليها أسماء ورفعت أحد حاجبيها قائلة: "ارتفعت المبيعات المسجلة باسمه بشكل صاروخي، فهو كما تعلمين...."، غمزت بعينها، ثم تابعت: "لديه القدرة على الإقناع".

وضعت بسنت يدها على فمها مبتسمة ثم قالت: "الجميع يقولون إنه كان على علاقة بتلك العاهرة سهير، لم ير أحد شيئا ولكن يمكن معرفة مثل هذه الأمور، لقد طلب المدير التنفيذي إرساله إلى هنا ليكون تحت عينيه".

- "ألم أقل لك إن لديه القدرة على الإقناع؟".

اقتربت بسنت من أذنها وقالت: "إنه لا يقنع بشيء، كل ما يفعله هو إفساح المجال لإناث النحل لامتصاص رحيقه، حتى لا تلاحقه إحداهن بالاتهامات أو بطلب أي أمر آخر".

وكزتها بكوعها مجددا ثم تابعت: "إلا إذا كان الأمر يتعلق بامتصاص المزيد من الرحيق".

نفثت أسماء من بين شفتيها المطبقتين ثم وضعت كفها على فمها فالتفت إليهما شوقي ناظرا من فوق النظارة ثم تابع حديثه.

* * *

جلس شوقي مع صديقه حسام فهمي يتناولان النسكافيه بالحليب في كافيتريا الشركة، قال حسام وهو يشعل سيجارة: "لم يتفاجأ أحد بهذه الترقية كما ترى، الجميع يعلم أنك تعمل لهذه الشركة كما لو أنها لحسابك الخاص".

شرب شوقي رشفة من النسكافيه وقال: "لا تعتمد على الوسائط والمعارف، لقد انتهى هذا الزمن، الجميع يقعون في النهاية مهما كانت درجة اتصالاتهم".

- "وماذا تقترح إذن؟".

خلع شوقي نظارته وبدأ في تنظيفها بمنديل وهو يتابع: "عليك أن تجعل الآخرين في حاجة إليك، يجب أن تنجح في عملك ويكون لك رصيد من الإنجازات لكي يبقوا عليك".

- "ولماذا يكرهك المهندس مبروك إذن؟".

قرب شوقي رأسه من حسام حتى اعتقد حسام أنه سيصطدم بصلعته ثم قال: "لأنني صوت الضمير بالنسبة إليه، إنه يحابي الكثيرين من الموظفين ليجامل رؤساءه، دعك طبعا من بسنت

وأسماء فهو يشعر بالنشوة لمجرد أن يردوا عليه صباح الخير فحسب".

لوح بكفه ذي الدبلة الفضة ثم تابع: "إنه يعلم جيدا أن لا أحدًا يقف في ظهري، هو نفسه رفض وجودي في الشركة من البداية، لقد أحضرني بعد انتشار الإشاعات مكرها، ثم....".

عاد بظهره إلى المقعد وعدل بذلته فضحك حسام قائلا: "ثم بدأ المال في التدفق على الشركة فقرر الإبقاء عليك رغم رغبة الكثيرين من الموصى عليهم في شغل وظيفتك".

ثم أشار بسبابته إليه قائلا: "بل وقام بترقيتك، يا لك من لعين يا رجل".

- "الحمد لله فأنا لا أجلس وأنتظر الزبون، إنني أذهب إليه في مكانه وأقنعه بحاجته إلى ما أملك ولا أتركه حتى يشتري، ولكن لا تنس، فالبيع ليس الشيء الوحيد الذي يجعلك مهما".

لوح بكفه أمام وجهه وتابع: "عليك أن تكون بلا أخطاء، لا تغفل أبدا عن مراقبة الآخرين وتأمين نفسك فهم سيطعنونك بمجرد أن تدير لهم ظهرك".

ثم أشار بسبابته إلى حسام الذي أنهى تبغ سيجارته حتى الفلتر وقال: "وتذكر دائما، في العمل الإداري لا يضر المرء سوى أمر من اثنين".

رفع سبابته ووسطاه ثم أمسك بإصبعه السبابة قائلا: "أن تطول يدك"، ثم أمسك بوسطاه وتابع: "أو أن يطول قضيبك".

كان حسام قد رفع كوب النسكافيه ورشف رشفة فنفثها في الهواء ضاحكا على تعقيب شوقي الذي رفع كفيه قائلا: "ستُفسد قميصي، ستفتح عليّ بابا من اللوم في البيت".

توقف حسام عن الضحك وقال: "كيف هي سعاد؟".

مسح شوقي كفيه في منديل ورقي وقال: "بخير".

- "وطارق؟".

أطلق زفرة وقال: "اسأل أمه".

فتح حسام فمه ولكنه صمت حين جاءت بسنت وأسماء، صاحت أسماء: "مبروووك، المشروب اليوم على حسابك يا مدير".

ابتسم شوقي ثم قال وهو يلقي بالمنديل الملوث في طفاية السجائر: "وهل كنتِ تنتظرين الترقية لتشربي على حسابي؟ تعلمين أن في إمكانك الشرب على حسابي"، صمت للحظة ثم أضاف: "في أي وقت".

جلست أسماء وقد تلاشت ابتسامتها وهي تنظر إلى عيني شوقي المثبتتين عليها.

قال حسام: "وبهذه المناسبة سأحجز لكم جميعا على حسابي لمشاهدة مسرح مصر".

ضحكت بسنت وقالت: "لقد شاهدنا آخر مسرحية بالفعل".

قالت أسماء: "ربما نرغب في مشاهدة فيلم في السينما، ما رأيك يا شوقي؟".

رد شوقي وهو يمسح جانب صلعته بيده: "لا مانع لدي، ربما نقوم بذلك على حساب حسام".

نظرت الفتاتان إلى حسام الذي رفع كفيه وقال: "في أي وقت".

بعد ذهاب الفتاتين مال حسام على صديقه وقال: "ألا تلاحظ أن أسماء مهتمة بك منذ فترة؟".

رفع شوقي أحد حاجبيه وقال: "تذكر ما قلته لك، هذا إذا كنت حريصا على عدم فقدان أي من أعضائك، اترك لها هي الشعور بأنها تقودك إلى حيث تريد أنت، ولكن بعيدا عن العمل، لقد تعلمت هذا قبل أن آتي إلى هنا حيث شاهدني أحد الموظفين أخرج من حمام السيدات بعد ثواني من خروج سهير".

رفع حسام حاجبيه وقال: "إذن كان الأمر صحيحا".

عقد شوقي ذراعيه أمام صدره وقال: "صحيح، ولكن دون إثبات شيء، لقد راقبتني تلك السحلية وردة، وكما تعلم لا يلاحظ اللعب سوى اللعوب، فأرادت الانتقام مني لأسباب شخصية".

ثم غمز بعينه فضحك حسام وقال: "أسباب شخصية تتعلق بعدم إعجابك بنوع المعطر الذي تضعه تلك الحيزبونة".

رد شوقي: "كما ترى، كان الرادار مثبتا بالفعل على سهير ولكنني لم أستطع مقابلتها من وراء زوجها لأسباب جلية".

أشعل حسام سيجارة جديدة وقال: "سأتصل بكم الليلة بعد أن أحجز تذاكر السينما في المساء".

ضحك شوقي ورجع بظهره إلى مقعده وقال: "تتصل بمن؟ ربما لم تنتبه أن أسماء كانت تدعوني لمرافقتها إلى السينما".

ثم مال مجددا وتابع: "ليس عليها أن ترفع لافتة لتشير إلى هذا".

اتسعت عينا حسام وقال: "أيها الوغد"، ثم ضحك وضرب كفه بكف شوقي وتابع شرب سيجارته.

2

عاد شوقي إلى منزله في الشروق في الثالثة صباحا بعد أن قضى الليلة مع أسماء في السينما، بعدها تناولا العشاء في مطعم إيطالي فخم على ضوء الشموع، لم تكن المرة الأولى التي يأتي فيها متأخرا. اعتادت سعاد أن يدخل متسللا كالقطط ليستحم، يتناول طعامه الذي تتركه في الفرن، ثم يدخل تحت الغطاء بجوارها، وضع النظارة على الكومود وتذكر كيف انصب اهتمام أسماء عليه وربما بسنت أيضا بالرغم من خطوبتها، في البداية لم يكن بالنسبة لهما سوى الأقرع وقد سمع هذا التعليق بأذنيه في الكافيتريا دون أن يعلما بتواجده بالقرب منهما، التفتا إليه عفويا وشهقتا ضاحكتين في حين أخذ هو يمضغ ساندويتش هوت دوج أمسكه بيمناه وقد ثبت عينيه عليهما بمعنى (لقد سمعت)، بالطبع لم يكن ليصبح أي شيء أكثر من مجرد أقرع لولا تقدمه وتحقيقه للترقية، لم يكن من الصعب عليه أن يفهم أن أسماء تجر قدميه إلى الزواج بروية ونعومة، وذلك تحت عدة بنود ومسميات كالصداقة والزمالة وبمناسبة الترقية وبمناسبة عيد الميلاد أو حتى شم النسيم، زفر شوقي ضاحكا بجوار سعاد وهو ينظر إلى السقف وهو يتخيل أسماء تسحبه من قضيبه وهو منساق خلفها كالأبله ثم تتوقف وتقطعه بالكتر الذي تستعمله في بري قلم الكحل، تقف رافعة أحد

حاجبيها وهي تلوح بالقضيب الذي سالت دماؤه على قبضتها وتقول: "لو كنت تحبني تزوجني، حينها يمكنك استرداده".

همس شوقي: "أيتها العاهرة".

نعم بالنسبة له ليس هناك من فرق بينها وبين العاهرة، فالعاهرة تفتح رجليها مقابل المال على هيئة الكاش، أما هذه فتفتح رجليها مقابل المال على هيئة كريدت كارد للتسوق في المولات ومنزل فاخر وسيارة بي إم دابليو، دعك طبعا من النفوذ والعلاقات والتقدم المضطرد في العمل، ليس هناك فرق غير أن هذه عاهرة تصر على أن تمارس الدعارة بعقد زواج رسمي، متزوج؟ وما المشكلة؟ ليس من المعقول ألا تكون بسنت قد أخبرتها يوما أن كل الرجال كالأخطبوط وأن شيئا لا يسد أعينهم سوى تراب قبورهم، عاد للهمس: "بالطبع يمكنك استنتاج ذلك بعد أن جربتِ كل الرجال".

نام شوقي على جانبه الأيمن وأغمض عينيه وهو يتخيل كيف سيترك لأسماء الفرصة لتظن أنها تسيطر عليه وتقوده إلى حيث تريد في حين يأخذ هو منها كل ما يريد.

* * *

جلس شوقي على سفرة الطعام في الصباح استعدادا لتناول الإفطار الذي تعده سعاد، كان ولده طارق يتصفح التابلت فالتفت إليه شوقي قائلا: "كم مرة عليّ أن أنبه على عدم استعمال التابلت على طاولة الطعام؟".

رد عليه طارق دون أن يرفع عينيه عن التعليق الذي يكتبه على الإنستجرام: "وأنت أيضا تقرأ الجريدة"، ضم شوقي الجريدة وألقاها أرضا ثم صاح: "ها قد تركت الزفت".

التفت طارق إلى أمه التى كانت تقلي البيض نائحا: "يا ماما".

لم ترد في البداية، وضعت البيض في الأطباق والتفتت إليهما بعينيها المنتفختين الحمراوتين: "طارق.. اذهب إلى غرفتك".

- "ولكن يا ماما....".

تشنجت أطرافها وقبضت بشدة على المغرفة الإستانلس، هزت رأسها صارخة: "اذهب إلى غرفتك".

كاد طارق ذو الاثنى عشر ربيعا أن يفعلها على نفسه وهو ينهض عن مقعده ويسير إلى غرفته بقدمين مرتعشتين.

راقبته حتى ابتعد ثم رفعت المغرفة في وجه شوقي: "أين كنت أمس؟".

رفع شوقي كفيه ووضعهما فوق بعضهما على السفرة ثم مال برأسه وقال في هدوء: "كنت في العمل".

- "عمل حتى الثالثة صباحا؟".

رفع خالد كفه الأيمن من أسفل كفه الأيسر ووضعه في الأعلى ثم قال: "كنت مع أصدقائي".

اتسعت عيناها وضمت شفتيها وقالت: "كنت مع عاهرة، لقد سمعتك، هل تظنني ميتة؟".

نهض شوقي عن الطاولة وقال: "لقد شبعت، سأذهب إلى العمل".

صرخت وهي ترفع ذراعها الممسكة بالمغرفة: "لا تعطني ظهرك وأنا أحدثك".

استدار إليها شوقي ورفع إصبعه تجاهها صائحا: "إياكِ أن ترفعي صوتك عليّ مجددا".

أنزل يده ثم عقد ذراعيه أمام صدره وقال في هدوء: "أين كنتَ طيلة زواجنا؟ يوم في النادي، يوم في فرح، يوم عند أهلك، يوم في عيد ميلاد".

ألقت بالمغرفة من يدها ومدت يديها للأمام ثم همست وقد سالت دموعها: "وهل قصرت معك في شيء يوما؟".

وضع شوقي يديه على وسطه وقال: "بالضبط هذه هي حياتي معك، مجرد واجبات تقومين بها حتى لا تتركي لي فرصة أن أتهمك"، ثم أشار بيده اتجاهها متابعا: "بالـ...تقصير، كل ما تقومين به مجرد برمجة على روبوت آلي ينفذ مجموعة من الأوامر دون حياة، دعك مني، أين أنتِ من تربية الولد؟ انظري كيف صار حاله، يطيل شعره ويتحدث كالبنات ويرافق الصبية الأكبر منه عمرا، ويعلم الله ماذا أيضا".

وضعت يدها على رأسها وأخذت تبكي ثم قالت: "وأين كنت أنت من تربية الولد؟ أين كنت مني بعد أن قضيت أعواما في الخليج؟ وبعد أن جئت صرت ترافق الفتيات هنا وهناك وتبحث عن المومسات على الإنترنت"، رفعت عينيها المحمرتين إليه ثم

قالت: "متى حدثتني بطريقة لطيفة آخر مرة؟ هل تذكر حتى أنك فعلت يوما؟".

استدار شوقي وخرج ذاهبا إلى الشركة وهو يفكر (كيف علمت بشأن الحريم اللاتي يحادثهن على الماسنجر مقابل كارت بخمسين جنيه، تُرى هل استطاعت معرفة رمز إغلاق الهاتف)؟

3

وقفت أناستازيا جونزاليس أمام السير الكهربائي تنتظر مرور حقيبتها في مطار القاهرة، ثم خرجت من البوابة حيث كان في انتظارها كل من الهففي واليانكي، كانا يرتديان تي شيرتات سوداء وسراويل جينز سوداء، انطلقا نحو أناستازيا واحتضناها ضاحكين، لفت أناستازيا ذراعيها حول عنق كل منهم وقبلته على خده، قال الهففي: "لا أصدق أنك أتيتِ أخيرا يا سيدتي".

اتسعت عينا اليانكي وقال: "نعم نعم، لم أنم من البارحة أنا أيضا، كيف كانت رحلتك؟".

وكزه الهففي وقال: "أيها الغبي لا تزعجها بأسئلتك السخيفة؟ ما رأيك أن نذهب إلى مكان لتناول الطعام".

دفعه اليانكي وقال: "من تدعوه بالغبي أيها المعتوه؟".

- "أناديك أنت يا وجه الخنزير".
- "تبا لأمك يا وجه القرد".
- "تبا لـ...".
- "توقفا"، صاحت أناستازيا بصوت حاد مبحوح، التفت إليها الهففي واليانكي فأخرجت سيجارة ووضعتها على فمها، أخذ الاثنان يبحثان في جيوبهما عن ولاعة.
- "أين الولاعة؟ أين ولاعتي؟".

- "اللعنة.. تركت ولاعتي في السيارة، يا لي من غبي".

أخرجت أناستازيا ولاعتها وأشعلت السيجارة بيدها التي التفت مسبحة حول معصمها ثم نفثت الدخان في وجهيهما وقالت: "خذاني إلى السيارة".

سار الهففي واليانكي يقودان أناستازيا إلى المرسيدس بنز الواقفة في البارك، كانا يرتديان حزامين من الجلد الملئ بالقطع المعدنية وأساور ذات مخاريط من النيكل، أحاطت شعورهم الطويلة بلحاهم وآذانهم ذات الأقراط الفضية، كان الدكتور أيمن عبد الله في مقعد قيادة المرسيدس بانتظارهم مرتديا قميص وسروال جبردين اشترتهما له أمه من السعودية، فتح الهففي باب المقعد الأمامي في حين وضع اليانكي حقيبتها في الصندوق الخلفي، انطلقت المرسيدس في شوارع مدينة نصر متجهة إلى الشقة المفروشة في وسط البلد، أخرج الهففي محفظة وناولها لأناستازيا قائلا: "لديك رخصة قيادة، رخصة تسيير مركبة، وعقود ملكية وكارنيهات مختلفة".

قال اليانكي: "نعم نعم، أنا من قام بتجهيز كل هذه الأوراق عند المزورين".

ضربه الهففي على فخذه وقال: "ومن قام بإيجادهم لك أيها اللقيط؟".

- "نعم، ولكن....".

- "كيف حالك يا أيمن؟"، قالت أناستازيا بصوتها الرفيع.

التفت إليها أيمن وقال: "أيمن بخير يا سيدة، بخير".

ابتسم الهففي واليانكي وقالا من المقعد الخلفي: "لقد قمنا معه بالواجب يا سيدة".

قالت أناستازيا: "أريدك أن تذهب يوم الثلاثاء إلى السفارة البريطانية لتحضر صناديق المعدات، هل لازلت تعرف الثلاثاء؟".

رفع أيمن رأسه مرتديا نظارته ذات الإطار البلاستيكي وقال: "آه آه.. الثلاثاء الثلاثاء.. سبت، حد، اثنين، ثلاثاء"، ثم نظر إلى أناستازيا فردت: "جيد".

قال أيمن: "أيمن يعرف، أيمن جيد".

في الطريق إلى وسط البلد راجعت أناستازيا تفاصيل المهام التي أوكلت لها أثناء اجتماعها مع منظمة

Scottish rite ببريطانيا، كانت أناستازيا عميلة مخابرات أسبانية، ولدت لأبوين يهوديين قبل أن تصبح عضوة في عدة جمعيات ومنظمات ككنيسة الشيطان الكبرى Church of satan، كنيسة الشيطان الصغرى Satanic chapel، الشيطانية الدولية Satanic international، معبد الشيطان Satanic temple، كما أن لها صلات واجتماعات مع أعضاء المحافل الماسونية في فرنسا وإنجلترا وأمريكا.

وقفت السيارة أمام العمارة حيث الشقة المفروشة، حمل الهففي حقيبة أناستازيا التي خرجت قائلة: "أريدكم أن تأكلوا وتناموا جميعا، لدينا الكثير من العمل لإنجازه والوقت يداهمنا، لم يتبق سوى ثلاثة أشهر على الثلاثة أيام الحمر".

وقفت فتاة في السابعة من العمر ترتدي عباءة سوداء أمام الشباب متوسلة لكي يعطوها جنيها فدفعها اليانكي وقال: "اذهبي والعبي بعيدا".

صاحت الفتاة وقد ضمت عينيها متباكية: "والنبي والنبي يا عمو، أعطني جنيهًا".

ركل اليانكي في الهواء قائلا: "تبا لنبيك، قلت لك اذهبي".

ارتفع صوت أناستازيا المبحوح قائلا: "تعالي يا فتاة".

أخرجت من جيبها خمسة جنيهات وأعطتها للفتاة التي قالت: "ربنا يخليكي يا أستاذة".

بدأت تركض مبتعدة ثم التفتت إلى اليانكي وأخرجت لسانها قائلة: "هتروح النار يا جاموسة".

أخذ الهففي يضحك ناظرا إليه حتى أن أيمن عبد الله نظر إليهما وبدأ يضحك ضحكة بلهاء، نظر اليانكي إلى أيمن قائلا: "علام تضحك يا أبو كرش؟".

قالت أناستازيا: "في المرة القادمة لا تجذبوا الانتباه دون داع، يكفي فتاة مفعوصة كهذه لتدمير كل ما نفعل إذا سمعت شيئا غير معتاد".

قال الهففي: "دعك من أن أشكالنا غريبة فعليا".

ردت أناستازيا: "نعم.. امرأة خواجة يرافقها اثنان من المعاتيه وثالث يعمل كالرجل الآلي".

قال أيمن عبد الله: "لست معتوها، أنا جيد".

ضحك الهففي واليانكي وقال اليانكي: "هذا يعني ثلاثة من المعاتيه أحدهما رجل آلي".

قال أيمن متحديا: "ثلاثة، أيمن يعرف ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة، ثلاثة".

زفرت أناستازيا قائلة: "هل يمكننا الصعود الآن؟".

* * *

بعد الغروب اجتمع الأربعة في صالة الشقة وبدأوا في شرب البيرة، أمسكت أناستازيا بعلبة البيرة في يد وسيجارتها في اليد الأخرى وهي تقول: "لقد تم اختياركم وفقا لمواصفات ومعايير دقيقة، تحدثنا من قبل في موقع المعبد وهذه المرة الأولى التي نلتقي فيها".

- "أيمن يحب السيدة، أيمن جيد".

سحبت نفسا من سيجارتها بينما جلس الباقون يتابعون في صمت: "لم أكن أتحدث عنك، المهم.. لدينا مهمتان، الأولى يوم الثالث عشر من شهر جمادى الأول القادم، والثانية يوم الرابع عشر، لدي مهمة يوم الخامس عشر ولكن هذه بالذات سيتم تكليفي بها من سيدي "بعل" إذا نجحت في اليومين الأولين".

اتسعت عيونهم وابتسمت كل ملامحهم قائلين: "هل تتواصلين مع الأسياد مباشرة؟".

رشفت أناستازيا من البيرة وقالت: "ليس هذا بالأمر السهل، لسنا في لعبة هنا".

قال الهففي: "أرأيت أيها الغبي؟ لو لم تفر هاربا كالأرانب تلك الليلة في قصر البارون لكنا الآن من المختارين".

التفت إليه اليانكي وقال: "أنت من أفسد الأمر يا ابن الرخيصة حين قرأت التعاويذ بشكل خاطئ".

ثم نهض عن مقعده وقال لأناستازيا وقد اتسعت عيناه: "لقد اهتز المكان بالكامل وأخذنا علقة حطموا فيها عظامنا، كنا نحاول استحضار ميمون".

قالت أناستازيا: "من الجيد أن الأمر قد اقتصر على هذا فحسب، كنتم تلعبون وتجربون قدراتكم ولكن هذه فرصتكم لإثبات جديتكم".

وضعت عقب السيجارة في المطفأة وتناولت واحدة جديدة، نهض الهففي هذه المرة بولاعة معدنية لإشعالها.

نفثت أناستازيا دخان السيجارة وقالت: "الأديان مجرد أكاذيب، إن الإنسان يستخدم عقله لاختراع كل الآلهة؛ لأنه لا يستطيع أو يقبل بأن يتحكم في غروره ورغباته، ولكنه يقبل أن تكون هناك قوة عليا فيتحكم في غروره لإرضائها، الآلهة مجرد انعكاس من البشر، يوجدونها بعقولهم ويعطونها صفات من المثالية والقدرة التي يحلمون بها ثم يعبدونها ويرجون منها الهداية إلى تطلعاتهم الشخصية، لذا فبدلا من الركوع وعبادة مجرد كيانات متأصلة من وجداننا يجب أن نضع أنفسنا في مركز الكون وأن يرى كل منا أن ذاته هي القيمة العليا. أنت إله نفسكDo as thou shalt".

قال اليانكي: "بمعنى؟".

رشفت أناستازيا من البيرة وقالت: "افعل ما تريد".

- "نعم، أنا أسأل عن معنى الجملة".

ضربه الهففي على كتفه وقال: "يا لك من ابن لآلاف الآباء وبرغم ذلك لا تعرف أيا منهم، إنها ترجمة الجملة، افعل ما تريد".

تابعت أناستازيا: "لوسيفر هو من يسعى لتحريرنا من إله السماء الذي يسعى لفرض سيطرته واستعباد البشر، بل والعقاب بالنار على مخالفة الأوامر، إننا نبني مملكة الشيطان منذ قديم الأزل وقبل بدء أي من الأديان على وجه الأرض، بالطبع لا يمكننا القضاء نهائيا على عبادة إله السماء، ولكننا تمكنا من أن نجعل الناس يعبدون الشياطين معتقدين أنهم يعبدون آلهتهم، عبد المصريون آمون، باست، سيخمت، سيت، ثوث ورع، البابليون عبدوا عشتار وداجون، سحرة الفودو في جزر الهاييتي عبدوا دامبالا، كالي وشيفا في الهند، جعلنا العرب يعبدون اللات والعزى وهبل ومناة، جميع البلدان والشعوب يعبدون آلهة بأسماء شيطانية في الأساس، لوسيفر أمر اليهود الماسوتيريين بعد نفيهم إلى بابل بإضافة اسم يهوه الذي يعني الشيطان "بعل" الذي أخدمه إلى التوراة ثم أسسوا التلمود والكبالا لعبادة لوسيفر".

اتسعت عيونهم ثم قال الهففي: "أوليس إله السماء هو نفسه يهوه المشتق من التيتراجراماتون (YHWH)؟

أطلقت ضحكة قصيرة قبل أن تقول: "هذا ما جعلناهم يصدقونه، ابحث عن موقع لأحد المعاجم العبرية على الإنترنت واستعلم عن الرقم المرجعي 1180 ستجد التالي".

سحبت نفسا من سيجارتها ونفخته وهي تنظر إلى السقف ثم تابعت: "ستجد أن الرقم المرجعي 1180 يشير إلى الملك "بعل" وهو رقم مشتق من الرقم 1167 والذي يعني بعلي أو سيدي وهو اسم رمزي ليهوه"

لم يرد أحد من الجالسين بعد أن ألجمتهم الدهشة فتابعت: "أضفنا التثليث إلى المسيحية كما أضفناها من قبل في عقيدة المصريين على شكل إيزيس وأوزوريس وحورس وعلى شكل براهما وفيشنو وشيفا في الهندوسية".

- "وماذا عن الإسلام؟"، نظر الجميع إلى أيمن عبد الله الذي قالها بصوته الأجش الخشن.

لم يرد أحد في البداية ثم اندفع الهواء من صدري الهففي واليانكي وهما يرفعان رأسيهما لأعلى ضاحكين.

قال اليانكي واللعاب يتطاير من فمه: "يقول لك حمادة قفز من مكة إلى القدس ثم صعد إلى السماء ليقابل الله ثم عاد في نفس الليلة حتى أن (كباية) الشاي كانت لا تزال ساخنة".

ضربه الهففي بظهر كفه على كتفه وقال: "فراشه هو الذي كان لا يزال دافئا، لم يكن هناك شاي حينها أيها المتخلف".

ضحك اليانكي وقال: "آه صحيح".

قال الهففي: "لا ويقولك أيضا ذات يوم نظر إلى القمر فانفلق إلى نصفين ثم عاد والتحم مجددا".

- "عععععععاا هـ هـ هـ هـ"، ضحك اليانكي ممسكا بطنه ثم قال: "لا ولديهم أخبار بأن نيل أرمسترونج وجد ذلك الشق حين صعد إلى القمر".

نظر الهففي إلى أناستازيا وقال: "المفاجأة أن قصة وصول أمريكا إلى القمر نفسها مفبركة، أليس كذلك يا سيدة؟"

نفثت أناستازيا دخان السيجارة وقالت: "محمد نفسه كان يأتيه الوحي من ملوك الشياطين معتقدا أنهم ملائكة، لوسيفر هو من كتب القرآن ليعبدوه معتقدين أنهم يعبدون إله السماء".

نظر اليانكي والهففي مبتسمين إلى أيمن عبد الله الذي مدد ذراعيه على جانبي الكرسي ونظر إلى الأرض دون رد.

قال الهففي: "هيه أيمن، كم مرة كنت تقول سبحان الله وبحمده في اليوم؟".

انفجر الهففي واليانكي ضاحكين فقال اليانكي: "في صغري كنت أقول لا حول ولا قوة إلا بالله ألف مرة لكي يزرع لي الله نخلة في الجنة، هع هع هع هع هع".

رد عليه الهففي: "وأنا كنت أقرأ سورة (البأرة) كل ثلاثة أيام لكي يحميني الله من الحسد".

ظل الجالسون صامتين للحظة، التفت الهففي واليانكي إلى بعضهما ثم قال اليانكي: "لقد كنا في جهل تام حتى عرفناك يا مولاتي خادمة الملك "بعل"".

قال الهففي: "إن لوسيفر قوي جدا ومسيطر أكثر مما كنت أعتقد".

ضحكت أناستازيا بصوت مجلجل حاد ثم قالت: "لن تتخيل أبدا كم هو مسيطر على كل شيء في هذا العالم يا بني".

نهضت عن كرسيها وأنزلت التي شيرت ليغطي ظهرها ثم رفعت يمناها لأعلى ومدت يسراها لأسفل وقالت: "As above so below، في الأسفل كما في الأعلى".

نظروا إليها وحين رأت عدم الفهم في عيونهم عادت للجلوس على مقعدها وقالت: "هذا قول لوسيفر لإله السماء، كما لديك مملكة في السماء لدي مملكتي على الأرض".

صمتت للحظة ثم تابعت: "وحين يحين الوقت سنغزو السماء وستتساقط رماحنا مضرجة بالدماء".

نظرت إليهم وقد اتسعت عيناها قائلة: "سننتصر على أدوناي".

وضعت رجلًا على رجل وقالت: "أين تقارير المستهدفين لليوم الأول؟".

نهض الهففي وذهب إلى مكتبة التلفزيون ثم عاد بعدها بملفات بلاستيكية.

تصفحت أناستازيا الملفات التي ثبت على كل منها صورة واسمًا رباعيًا لصاحب الملف.

قالت: "شوقي جابر، إيهاب عبد الحكيم، طارق شوقي، عم سيد الترزي، وااانهى وأيمن؟".

وضعت ملف أيمن عبد الله على الطاولة وهي تقول: "ها قد انتهينا من واحد".

تابعت قائلة: "وماذا عن عملية اليوم الثاني؟ سانت كاترين؟".

قال الهففي: "وصلتنا التفاصيل بالفعل من المخابرات الأمريكية وجنود المعسكر جاهزين، سنتواصل مع أبي الفضل المغربي قائد التنظيم المصري لنعطيه التفاصيل والموعد".

- "جيد جيد".

قال اليانكي: "وماذا عن اليوم الثالث؟ آه نسيت، ستكون مهمة خاصة بك".

4

تمدد شوقي بجوار زوجته سعاد على السرير ليلا وكان يتصفح الفيس بوك وتويتر، جاءه طلب صداقة على الفيس باسم (منيرة الزعفراني)، كانت الصورة الرئيسية للصفحة لفتاة حسناء مستديرة الوجه قمحية اللون واسعة العينين العسليتين، شعرها بني اللون كذيل الحصان، جلست خلف مكتب لتنظر إلى الكاميرا في شرود.

فتح شوقي الصفحة فوجد أنها أُنشئت منذ عامين، رأى العديد من الصور لمنيرة في مناسبات عدة، صور في مكتب، في البيت، في المطعم، إحدى الصور كانت لغرفة معيشة لم يظهر فيها سوى رجليها اللتين وضعتهما فوق بعضهما وظهرت أيضا يدها ممسكة بمبسم شيشة طويلة، على طاولة الأنتريه أمامها وضعت هاتفها المحمول بجوار صينية شاي.

فتح شوقي الماسنجر وأرسل بعد أن قبل طلب الصداقة: "Hi".

لم يكن يتوقع أن تجيبه الفتاة من المرة الأولى كما هو المعتاد، أرسل رسالة أخرى:"Hello".

استدار ليعطي ظهره لسعاد حين وجد رسالة من منيرة: "أهلين".

رد شوقي عليها: "ممكن أتشرف بمعرفتك؟".

منيرة: "اتفضل".

شوقي: "طيب، أنا اسمي شوقي وأعمل مديرًا بشركة كمبيوتر، حابب أتعرف عليكِ".

منيرة: "ألف مرحبا اتشرفت فيك، من وين؟".
شوقي: "مصر".
منيرة: "ونعم".
ثم أضافت إيموشن لوجه مبتسم على عينيه قلبين صغيرين.
شوقي: "ونعم فيكِ يا بنت الأجاود، اسمك إيه بقى؟".
منيرة: "منيرة".
شوقي: "جميل، أنتِ منين وعايشة فين؟ بتشتغلي إيه؟".
بدأ شوقي يشعر بالسعادة لاستجابة الفتاة، لسوف يتسلى عليها كثيرا، لا يبدو أنها مصرية ولن تطلب بالطبع أن يرسل لها "كارت" بخمسين، إن هؤلاء القوم لا ينظرون إلى هذه التفاهات.
منيرة: "من السعودية، بالضبط الرحاب، محاسبة تجارية".
شوقي: "واو، أنتِ سعودية؟ والنعم.
منيرة: "مرحبا".
شوقي: "أهلا".
منيرة: "كيفك؟".
شوقي: "تمام يا جميل، أنتِ كيفك؟".
منيرة: "تمام الحمد لله".
شوقي: "سمعت أن الماسنجر ممنوع في السعودية؟".
منيرة: "شغال، وأنتم؟".
شوقي: "لأ شغال كويس، أنتِ إيش أخبارك؟".
منيرة: "اممم، بصراحة أنا معجبة فيك والله".
ابتسم شوقي وكتب: "شعور متبادل، أنا كمان معجب فيكِ".

منيرة: "بتحب نرتبط؟".
شوقي: "أكيد".
منيرة: "طيب حبيبي، أنت وينك دا الحين؟".
شوقي: "أنا في القاهرة، أنا اتفرجت على صورك ف الفيس، أنتِ جامدة وسيكسي، كتير ستايليش".
منيرة: "امممممم، طيب حبيبي، أنت وينك الحين؟".
شوقي: "ف البيت".
منيرة: "بتحب نشوف بعض؟".
خفق قلب شوقي وبدأ يشعر ببروز في سرواله ثم كتب: "نشغل الكام ممكن".
نظر إلى سعاد التي انتظمت أنفاسها في سبات عميق، نهض عن السرير وبحث عن سماعات الهاند فري فلم يجدها، أمسك بسماعة هيد فون، لف سلك السماعة حول الوصلة البلاستيكية بين السماعتين واتجه إلى الحمام، أضاء اللمبة وأغلق الباب من خلفه، جلس على مقعد الحمام المغلق ومال ظهره متطلعا إلى شاشة الهاتف، وضع السماعات على أذنيه وأمسك الهاتف بيده فصار أشبه بمنقب عن المعادن، قام بإجراء اتصال فيديو بالماسنجر فلم ترد عليه منيرة، جاءه اتصال فيديو قصير من منيرة انتهى قبل أن يرد عليه، جاءه اتصالان جديدان لم يتمكن شوقي من الرد عليهما، احمر وجهه ونزع السماعات عن أذنه وألقاها على حائط الحمام متمتما: "تبا".

تذكر أنه قد كلف سعاد بتسديد فاتورة الواي فاي ولكن يبدو أنها قد نسيت أو تناست، بالإضافة إلى أن رصيده لم يكن يكفي لإجراء مكالمة فيديو.

كتب شوقي: "دقيقة واحدة".

منيرة: "شو صاير؟ طيب".

شوقي: "هشحن الخط بس".

منيرة: "كم من الوقت حياتي؟".

شوقي: "الحين".

منيرة: "عندك سكايب؟".

شوقي: "ممكن تبعتي صورة ليكِ لحد ما أشحن الكارت؟
آلو؟
حبيبتي فينك؟
حبيبتي، أنتِ فين؟ نفسي أشوفك".

لم ترد عليه منيرة فخرج من الحمام ليرتدي ملابس للخروج في ثوانٍ، أخذ هاتفه ثم خرج نازلا سلم العمارة درجتين درجتين، اتجه بخطوات متسارعة إلى مكتبة مجاورة لشراء كارت شحن بمائة جنيه، وقف في المكتبة ينتظر البائعة حتى تنتهي من لف هدية لأحد الزبائن، راقبها نافد الصبر وهي تتسامر مع الزبون بينما تلف الشريط حول الهدية في تأنٍ ثم تقص الأطراف الزائدة على أقل من مهلها، التفت ناحية الباب وزفر واضعا يده على وسطه، بدأ يشعر بالقلق من أن تضيع الفريسة من يده، نظر إلى الماسنجر ليجد حساب منيرة نشطا، جاءته الرسالة التالية.

منيرة: "آلو
حبيبي
وينك؟".
شوقي: "هعمل تليفون وأجيلك على طول متمشيش".
منيرة: "طيب".

- "نعم يا أستاذ"، رفع نظره عن شاشة الهاتف ليجد البائعة وقد انتهت من لف الهدية.

قال لها: "أريد كارت اتصالات بمائة جنيه".

هزت رأسها مبتسمة وقالت: "لا والله، لدي من فئة العشر جنيهات فقط".

رد شوقي في نفاد صبر: "حسنا، حسنا، أعطني عشرة كروت من أبو عشرة".

أخذ شوقي الكروت وصعد مسرعا إلى بيته، دخل إلى الحمام وشحن الكروت واحدا تلو الآخر ثم أرسل لها.

شوقي: "على فكرة أنتِ جميلة موت".
منيرة: "خلصت؟".
شوقي: "آه".
منيرة: "نشوف بعض الحين؟".
شوقي: "أيوه".

ثم فتح ملف الصور وأرسل لها صورة لقضيبه من مجموعة صور كان يرسلها في اتصالاته الحميمة.

منيرة: "حبيبي
أنت
بتجنن".
شوقي: "وأنتِ سيكسي مووت".
منيرة: "امممم".
شوقي: "ممكن تبعتيلي صورة؟".
منيرة: "حياتي أنا وحدي بغرفتي ياريت تكون جنبي".
شوقي: "أنا نفسي أكون جنبك وأضمك لصدري".
منيرة: "حبيبي أنا ولعة فيك، بتحب ندلع بعض وننبسط؟".
شوقي: "آه كتير".
منيرة: "طيب حبيبي، الحين نشلح سوا".
وفتح النور
؟؟؟؟؟؟؟؟
شوقي: "آه ، ممكن نبعت لبعض صور ونشغل الكام بعدين؟".
منيرة: "لأ حبيبي".
شوقي: "ليه؟".
منيرة: "أنا مولعة، بدي ياك تطفي ناري".
شوقي: "طيب رني من عندك".
منيرة: "طيب ثواني تخرج أمي".

اتصلت منيرة ففتح شوقي مكالمة الفيديو، رأى وجهه ذا السماعات الكبيرة يظهر في مربع جانبي بجوار منيرة التي كانت نائمة على سريرها في غرفة خافتة الإضاءة مرتدية سروال داخلي

فقط، نهض شوقي عن مقعد الحمام وأنزل سرواله ثم وجه كاميرا الهاتف إلى قضيبه، رفع الهاتف لينظر في الشاشة مجددا.

كتب شوقي: "اقتربي لأراكِ بوضوح حبيبتي".

انقطع الاتصال فكتب شوقي: "عندي فكرة، نصور فيديو ونرسله لبعضنا".

منيرة: "عندك سكايب؟".

شوقي: "لأ عندي واتساب".

منيرة: "كام رقمك؟".

شوقي :"0110200.........".

منيرة: "طيب حبيبي، اتصل خلينا نكمل".

كان الاتصال ينقطع فيعاود شوقي الاتصال ليجدها تتمايل على السرير فيقوم بتوجيه الكاميرا أسفل التي شيرت الرصاصي الذي يرتديه، كاد أن يطلب منها أن تقترب من كاميرتها ليرى تفاصيل جسدها بوضوح أكثر حين انقطع الاتصال وقالت: "حبيبي.. انتظر ثواني، أمي دخلت".

انتظر شوقي منيرة حتى تعود وحين طال انتظاره ارتدى سرواله وخرج عائدا إلى غرفة النوم والسماعات لا تزال على أذنيه، كان واقفا بجوار السرير حين جاءته وصلة يوتيوب على الماسنجر مع رسالة تقول: "اسمع معاك رجل هكر من المغرب، أنا هلأ سجلتك أنت وعم تمارس العادة السرية كالكلب وكمان بتلمس نفسك بإيديك وبتفرجني، هلأ ضفت كل عيلتك وكل صحابك في الشغل

وسويت إلك صفحة بالفيس ونزلت الفيديو تبعك في يوتيوب، هلأ شرفك وشرف عيلتك بين إيديك".

مرت الكلمات أمام عيني شوقي الذي لم يستوعب سوى أنه قد تعرض لمصيبة.

صاح قائلا: "يا بنت الكاااالب".

وضع يده على فمه وهو يراقب سعاد التي تثاءبت واستدارت لتنام على ظهرها مغمضة العينين مفتوحة الفم.

نظر إلى الشاشة فوجد منيرة وقد أرسلت له رسالة بأسماء صفحات مجموعة من أصدقائه على الفيس، زوجته وبعض أقاربه، زملاء في العمل، أصدقاءه، انقبض قلب شوقي وتقلصت أمعاؤه فجلس على السرير.

منيرة: ها دول بعض أصدقائك وعيلتك، شو قرارك الحين نتفاهم ولا؟

شغل شوقي وصلة اليوتيوب التي أرسلها له الطرف الآخر فشاهد فيديو على اليوتيوب عنوانه (فضيحة شوقي جابر وهو يمارس العادة السرية)، كان فيديو ذا شاشتين شاشة صغيرة لامرأة عارية ممددة على سرير وشاشة أخرى لوجهه ينظر في شاشة الهاتف والسماعات الهيدفون في أذنيه، يتحول المشهد من وجهه إلى قضيبه الذي كان يمسكه بيده ليستعرض فحولته.

شوقي: "نتفاهم أكيد".

منيرة: "اسمع.. لا تحاول تلعب معي لقسم برب الكعبة لخلي سمعتك تزف الأرض، عندي شرط واحد وأمسح المقطع".

شوقي: "أيوه ايه؟".

منيرة: "راح تحول لي 10000 دولار وكل واحد يروح فطريق دون مشاكل وحكومة وفضايح".

شوقي: "أوك حاضر".

منيرة: "الحين إذا بدك نخلص، أنا ما خسران شي، أنت الخسران".

في تلك الأثناء ضرب اليانكي كف الهففي الذي كان جالسا أمام شاشة الكمبيوتر في الشقة وأناستازيا واقفة خلفهما، صاح اليانكي ضاحكا: "لقد وقع في الفخ كالذبابة".

استخدم الهففي برنامج كاميرا وهمية لتشغيل مقطع فيديو لفتاة عارية فيعتقد ضحيته أنه يشاهد اتصال فيديو حي، حصل أيضا على قائمة أصدقاء شوقي عن طريق منشوراته التي تفاعلوا معها بالإعجاب والتعليق.

قال الهففي: "لا نزال في البداية، شاهد واستمتع".

5

قام الطبيبان محيي وعادل بإمضاء الانصراف في مستشفى القصر العيني ثم خرجا حاملين حقيبتيهما التي يضعان فيها جهاز ترمومتر، سماعة طبية، بروشورات دعائية لبعض الأدوية بالإضافة إلى بعض الكتب الطبيةِ وشاحن محمول، اتجها إلى صديقهما أيمن عبد الله الذي كان جالسًا على قهوة بشارع القصر العيني.

اتصل عادل بأيمن قائلا: "سنُحضر طعاما للإفطار، هل تريد شيئا؟ لأنك لو قلت لا ثم طلبت مشاركتنا فلن تنال شيئا، إني أعني ما أقول".

رد أيمن : "مممم، أحضر لي اثنين فول واثنين طعمية من غير طحينة".

بعد أن أنهى عادل الاتصال قال محيي: "لازلت أصر أنه وغد".

قال عادل: "لماذا؟ الرجل جالس في حاله، ماذا فعل لك؟".

رد محيي وهو يعلق الحقيبة على كتفه: "تصرفاته سمجة وتعليقاته محبطة وسخيفة، إنه لا يفوت مرة نجلس فيها سويا دون أن يعلق على مروة بسبب طول قامتها".

ضحك عادل فتابع محيي: "يدعوها بالزرافة، القصير أبو كرش يدعو خطيبتي بالزرافة".

قال عادل: "يحب دائما إلقاء العيوب على الناس وكله عيوب".

قال محيي: "لديه كلمة شهيرة يقولها حين تواجهه بعيبه".

قالا بصوت واحد: "رمتني بدائها وانسلت".

قال عادل: "نعم، الوغد يقولها للجميع".

قال محيي: "الغريب أنه يعترف بثقل دمه وبجاحته، كم مرة أتشاجر معه بسبب تعليقاته الهزلية على مروة ثم يعود ويكرر ما يقول، أشعر أن له عقل طفل في العاشرة".

قال عادل وهما يتوقفان أمام مطعم شعبي لشراء الشطائر: "انظر إلى ثيابه التي يرتديها، إننا نعرفه منذ ما يقرب من العامين ولم يشتر لنفسه قميصًا أو سروالًا، بل يرتدي القميص حتى يتقرح على جسده والسراويل حتى يتمزق حوضها منتظرا الثياب التي تشتريها له أمه من السعودية".

- "يا رجل، إن الجنيه يخرج من جيبه كما يُقتلع الضرس من الفم".

سارا ومعهما الساندويتشات حتى وصلا إلى أيمن عبد الله الذي كان جالسا على كرسي خشبي وبجواره كوب شاي شرب نصفه وهاتف سامسونج وباوربانك، أمسك بتابلت لينيفو ونظر إلى الشاشة غائبا عما حوله.

صاح عادل وهم يجلسون على المقاعد المجاورة لأيمن: "أعبد الله، كيف حالك؟".

رد دون أن يرفع عينيه عن شاشة التابلت: "الحمدلله، هل جلبتم الطعام؟".

وضع محيي كيس الطعام على الطاولة وقال: "لماذا اخترت هذه القهوة بالذات؟ لا تُعجبني الشيشة هنا".

نظر له أيمن وقال: "أقوم بتحميل بريزون بريك الموسم الخامس".

قال عادل وهو يقضم من شطيرة الطعمية: "هل لديهم واي فاي هنا؟ هذا جيد".

قال أيمن: "أنا آتي إلى هنا كل يوم لتحميل الأفلام، ليس لدي خط هاتف في البيت وكل ما لدي مجرد باقة بسعة 7 جيجا شهريا".

قال عادل: "أريدك أن تحضر الهارد لآخذ مسلسل سابرتاكس".

رد أيمن: "ربما لن أستطيع الحضور غدا، سأشاهد حفل توزيع جوائز الجولدن جلوب".

ابتسم محيي وشرب بعضا من الماء ثم قال: "ألا تفعل شيئا سوى مشاهدة الأفلام؟".

قال أيمن: "وماذا تريدني أن أفعل؟ لقد ذهبنا إلى كل مكان يمكن زيارته في القاهرة، ذهبت إلى شارع المعز أربع مرات والمتحف المصري مرتين، إني أذهب إلى الشقة ليلا بعد العمل أشاهد فيلما، آكل علبة تونة ثم أمارس العادة السرية وأنام".

ضحك عادل وقال: "ألا تنوي الزواج أبدا؟".

قال أيمن وهو يتناول شطيرة طعمية: "لم أجد من تناسبني بعد، ما هذا ألم أقل لكم لا أريد طحينة مع الطعمية؟ ماذا سآكل الآن؟".

قال محيي: "لقد سمعت عادل يقول له دون طحينة، كله أو اتركه".

قال أيمن: "المهم.. لقد قابلت العديد من البنات ولم أجد أي واحدة تناسبني، أريد طبيبة من القاهرة وأن تقبل بالعيش معي في الشقة على حالها وأن تكون قليلة الطلبات".

قال عادل: "ومن سيقبل بالعيش في تلك الشقة على حالها، إننا نقضي معك الوقت هناك على مضض".

ركل أيمن قطة مشمشي كانت واقفة عند قدميه تتوسل الطعام، قفزت القطة وفرت مبتعدة.

قال محيي: "أعطها شطيرة الطعمية".

قال أيمن: "ستلتصق بي ويجتمع كل القطط حولنا، إنني أشمئز من القطط والكلاب".

قال عادل: "إننا في عالم حر يا ولدي، يمكنك التصرف في شطيرتك كيفما تشاء حتى لو رغبت في إلقائها في سلة المهملات".

قال أيمن وهو يوصل التابلت بالباور بانك: "أتعلم؟ لدي فكرة مشروع جيد؟".

قال محيي وهو ينفث دخان الشيشة: "قل يا أبوالأفكار".

رد أيمن وهو يلوح بكفيه: "مشروع جلود طبيعية، اسمعوا، يمكننا أخذ كل تلك القطط والكلاب من الشوارع وسلخ جلودها وبيعها".

اتسعت عيناه وضحك ضحكة شريرة ثم تابع: "ويمكننا البدء بقطك يا محيي".

لم يرد محيي فتابع أيمن: "ألا ترى كل تلك القطط والكلاب تعيش وتموت بلا فائدة سوى نقل الأمراض وبعثرة أكياس النفايات؟ يمكننا الاستفادة منها في شيء مهم".

قال عادل: "أيمن.. أنت تمزح، أليس كذلك؟".

التفت إليه أيمن وقال: "من قال إنني أمزح؟ دعك من القطط، انظر إلى أولئك الصبية المتشردين وأبناء الشوارع والشحاذين".

قالها وهو يشير إلى صبي يعرض أكياس المناديل على زبائن القهوة.

قال محيي: "وماذا عنهم أيضا؟".

قال أيمن في جدية: "إنهم عالة على المجتمع ومرض ينتشر بلا توقف، ينبغي جمعهم ودفنهم أحياء بدلا من التكاثر وتكوين العشوائيات التي تعد أوكارا للدعارة والإجرام وبيع المخدرات".

قال عادل: "ولكن هل تعتقد أن هذا حل؟".

قال محيي: "قرأت ذات مرة أن محمد علي قام بجمع الصبية المتشردين من الشوارع وعمل على تعليمهم الحرف والتحدث باللغة الفرنسية ثم استعان بهم في الجيش".

وضع أيمن كفا على كف وأمال رقبته قائلا: "ومن سيقم بهذا في الوضع الحالي؟ أنت في بلد لا يهتم أصلا بتعليم المنتظمين فعليا في المدارس والمعاهد وحتى الجامعات فضلا عن تعليم المشردين، كل ما تقوم به الآن هو تطوير العشوائيات وإنشاء مساكن لائقة، يا فرحتي ثم ماذا؟ كل ما في الأمر أنهم سينقلون نشاطهم وإجرامهم من العشش إلى البيوت المسلحة، بل وسيقومون بإفساد ما حولهم

من الأحياء، لو كان الأمر بيدي لقمت بإحراقهم كهذا الفتى الرقيع ذا الثياب السوداء الذي يراقبنا منذ أن جلست على القهوة ربما كان شاذًا أو مدمنًا".

قالها ورفع كفه الأيسر لبائع المناديل الذي ظل واقفا يهز كيس المناديل ويتمتم وكأنه يدعو للحصول على بعض المال، قال أيمن في لهجة صارمة: "الله يسهلك".

قال عادل محاولًا تغيير الموضوع: "قل لي صحيح بما أنك قارئ في التاريخ، أيهما أفضل، الدولة العثمانية أم المماليك؟"، ثم وكز محيي من أسفل الطاولة.

قال أيمن: "في الواقع إنني أنتمي لسلالة المماليك وأرى أن حكمهم كان صارمًا وحازمًا، فما عجزوا عن تحقيقه بالسياسة حققوه بالسيف، حتى قام محمد علي بذبحهم في القلعة".

قال محيي: "تبدو مستمتعا بالذبح والأحداث الدموية التاريخية".

قال أيمن رافعا حاجبيه فلمعت عيناه البنيتان: "هناك كتاب قرأته عن أبشع أساليب الإعدام".

سعل محيي مخرجا الدخان من فمه وأنفه قائلا: "لا شكرا، لا أريد معرفة شيء عنه".

قال أيمن: "لماذا يا رجل؟ لقد قرأت كل طريقة وتخيلت نفسي أقوم بها على شخص ما".

قال محيي: "الفكرة هي أنت تستمتع بذلك كونك ساديا ولكن حاول أن تضع نفسك مكان من تعذبه، هل سيعجبك الأمر؟".

قال أيمن: "ولكنني....".

قال محيي: "كل شيء وارد، ولا يوجد من هو مؤمن بشكل تام، تخيل أن عليك ثأرا لا تعلم عنه شيئا حتى قرر أصحابه الاقتصاص منك، ربما سيحبون تنفيذ أحد وسائل الإعدام من كتابك، وربما يفعلون ذلك بعد تعذيبك بوسيلة من كتاب على رف مكتبتك يُدعى أبشع وسائل التعذيب".

- "ليس لدي هذا الكتاب، أين يباع؟".

ضحك عادل وقال: "لا يوجد كتاب بهذا الاسم أيها المجنون".

نظر أيمن إلى ساعته وقال: "علي الذهاب الآن، أريد النوم لأعمل فترة المساء".

نهضوا عن الكراسي فاتجه أيمن إلى صاحب القهوة للحساب ثم عاد إليهم قائلا: "أنت حسابك خمس عشرة جنيها وأنت عشرين جنيها".

أعطاه كلا منهم الحساب، وضع الهاتف والباور بانك في حقيبته ثم سار متجها إلى مترو السيدة زينب في حين استقل محيي وعادل الباص.

قال محيي: "ذلك الوغد يسمسر لنفسه".

قال عادل مبتسما: "أعلم، يكون حسابك سبعة جنيهات فيأخذ منك عشرة ويضع الباقي في جيبه، لاحظ أنه لم يدفع ثمن الساندويتشات التي طلبها".

قال محيي: "اسمع لقد كنت معه ذات يوم نبحث عن جراب لهاتف هاني، قال البائع إن الجراب بعشرين جنيها فاتصل به أمامي وقال إن الجراب ثمنه خمسة وثلاثين جنيها، لاحظ أن الموقف حدث أمامي ولم يهتم لذلك".

قال عادل: "أعلم أن له عادات ومعتقدات غريبة وشاذة ولكننا أصدقاء منذ الجامعة ويصعب عليّ أن نفترق الآن".

قال محيي: "كما تقول أنت، نحن أصدقاء منذ أيام الجامعة فلماذا لا يحرص على صداقتنا؟ أتذكر حين قام بالتسجيل لنا حين كنا في الكافيه نتحدث عن رأينا في ترشح الدكتور محسن أبو المجد لمقعد النقيب، لقد أرسل له تسجيلا لما قلناه على أمل أن ينفعه يوما ما".

- "وتخيل كيف اكتشفنا أمر ذلك التسجيل، من الدكتور محسن ذاته، لقد قال لي إن أخباركم تصلني أولا بأول، ثم كشف أيمن أمامي بعد فوزه في الانتخابات!".

* * *

وصل أيمن إلى شقته في الدرب الأحمر وحين أخرج مفاتيحه وجد قطا رماديا يسير على سور السلم، ركل برجله اليمنى في الهواء وقال: "هششش"، قفز القط وصعد إلى الدور العلوي.

دخل أيمن إلى الشقة الإيجار وألقى حقيبته على الكنبة، ثم جلس ليستريح، نهض إلى الثلاجة وفتح زجاجة مشبرة من الماء البارد ثم شرب منها، خلع قميصه وألقاه على كرسي السفرة، ثم هم بخلع

فانلته الحمالات التي تكشف شعر صدره الكثيف، توقف عن خلع الفانلة ثم اتجه إلى الثلاجة مجددا، أخرج علبة تونة بها بقايا من عشاء البارحة، فتح باب الشقة ووضع العلبة على الأرض ثم بدأ يبسبس للقط الرمادي، دفع العلبة المعدنية بعيدا عن الباب ثم بدأ يبسبس مجددا بصوت أعلى، عاد القط مسرعا من الطابق العلوي ووقف مطلا برأسه من خلف الدرابزين، كان ينظر إلى أيمن بعينين واسعتين لامعتين، تقدم إلى السلم وهو يهز ذيله وقد وجه أذنيه للأمام، جلس وهو يراقب أيمن الذي بسبس له مجددا ثم وارب الباب قليلا، هم القط بالنهوض ولكنه تذكر الركلة التي وجهها أيمن إليه فعاد للجلوس، تشمم القط الهواء ثم اقترب شيئا فشيئا مثبتا نظره على العلبة المفتوحة، جلس على إحدى الدرجات ناظرا إلى العلبة تارة وإلى أيمن تارة أخرى، لم يكن يثق به ولكن أيمن علم أنه سيقترب ليأكل لا محالة، ظل القط ينظر إلى العلبة التي فاحت رائحتها في الهواء ثم نهض أخيرا، سار حتى توقف بقربها ورمق أيمن عبد الله ثم مد فمه إلى العلبة وبدأ يأكل في نهم وهو يهز ذيله في الهواء ثم بدأ يبر في استمتاع، فتح أيمن الباب ببطء فنظر له القط، ابتسم أيمن وظل واقفا دون حراك، عاد القط للأكل فهوت فوقه كرتونة فارغة لتحبسه داخلها، أخذ القط يدور ويتخبط داخل جدران الكرتونة، ضغط عليها جيدا من الأعلى وهو يلتفت لينظر إن كان يراه أحد.

سحب الكرتونة ودخل بها إلى البيت ثم أغلق الباب بقدمه، مد يده أسفل الكرتونة ليغلقها فخمش القط أصابعه وهو يزوم، صاح أيمن ووضع إصبعه في فمه غاضبا ثم قال: "سوف ترى أيها اللعين".

سحف بالكرتونة أرضا حتى دخل بها إلى المطبخ، أغلق باب المطبخ خلفه وفتح باب فرن الغاز الطبيعي.

دفع الكرتونة بقدمه فانطلق القط يركض في أنحاء المطبخ، خفق قلب أيمن والقط يقفز فوق الأدراج ودواليب الصحون، أخذ يقفز ويدور في المطبخ وهو يموء بحثا عن مخرج، أمسك أيمن بمكنسة خشبية وبدأ يدور بها خلف القط حتى دخل القط محتميا في الفرن، أغلق باب الفرن بركبته وصاح: "أمسكت بك".

وقف أيمن منحنيا وهو يستند بيده على الفرن لاهثا، أخذ القط يخربش في الباب محاولا الخروج ثم بدأ يدور في الفرن وهو يموء في خوف، نظر له أيمن عبر الزجاج الحراري ثم فتح الغاز وضغط على زر الشعلة، طقطق صوت الشعلة حتى اشتعلت نيران الفرن.

ابتسم أيمن ثم جلس متربعا يشاهد القط من زجاج باب الفرن وقد جن جنونه بعد اشتعال النيران، كان يموء صارخا ثم بدأ في العواء داخل الغرفة المتوهجة، راقب أيمن القط وقد تموجت صورته خلف صهد النار كأنها صورة مفلترة على الأنستجرام، تصاعدت رائحة الشعر المحترق فخفق قلب أيمن واندفع الأدرينالين في عروقه، اتسعت عيناه وهو يراقب القط الذي ركض متخبطا بين جدران الفرن والدخان يتصاعد من فروه، وقف القط جالسا على قائمتيه

الخلفيتين، ناصبا قائمتيه الأماميتين، مميلا رأسه لأسفل، حاول أن يموء ولكن مواءه تحول إلى أنين.

التفت القط ناظرا إلى أيمن الذي شهق حين رأى عينيه وقد ذابتا في خليط من البياض والإخضرار، رأى النيران مشتعلة في وجهه وشواربه في تلك اللحظة القصيرة أيضا، قفز القط مجددا ليدور في الفرن ورأسه تهتز يمنة ويسرة، سقط أخيرا على جانبه واشتعلت النار في جسمه الذي أخذ يرتجف حتى همدت حركته تماما، ظل أيمن جالسا للحظة ينظر منبهرا إلى الفرن، نهض وأغلق صمام الغاز ثم قام بتشغيل شفاط الروائح، كانت الكرتونة التي اختطف بها القط مستلقية على جانبها وفي الداخل علبة التونة التي لم يلتهم منها القط سوى القليل، أمسك بعلبة التونة وأخذ ملعقة من رخامة المطبخ ثم بدأ في تناول ما تبقى منها وهو يراقب جثة القط المتفحمة، ألقى العلبة الفارغة في سلة المهملات ثم اتجه إلى الحمام ليمارس العادة السرية.

❁ ❁ ❁

6

نزع شوقي السماعات عن أذنيه وخرج إلى الصالة، كتب على الماسنجر: "طيب كيف أحولك؟ مش عارف".

منيرة: "راح تروح وكالة تحويل سريع وستيرن يونيون".

نظر شوقي إلى ساعته، كانت التاسعة مساء، كتب: "طيب حاضر..

ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟

لا أدري إن كانوا يعملون الآن".

منيرة: "لأ روح للوكالة..

ضل الحين قبل ما حدا يشوف المقطع وأضيع حياتك".

شوقي: "والله هبعتلك بس اصبر للصباح".

منيرة: "اسمع يا أستاذ، روح حوّل الحين قبل ما أبيع المقطع..

ولا تخلي فلوسك عندك بتهمني فضيحتك".

شوقي: "طيب حاضر، أحول على إيه؟

إيه رقمك ولا بياناتك؟".

منيرة: "الاسم والبلد بس".

شوقي: "اسمك إيه طيب؟".

منيرة: "أنا الحين عملت الفيديو برايفت راح أديك ساعة،

لما توصل الوكالة خبرني عشان أبعتلك البيانات،
شو بتسوي؟".
شوقي: "بلبس ورايح".
منيرة: "أنت خرجت من البيت ولا لسة؟".
بعد لحظات كتب شوقي: "آه والله خرجت".
منيرة: "صور لي الطريق، بدي شوف".
شوقي: "أصورلك إيه، والله خرجت، لما أوصل الوكالة هكلمك، اسمع لو فصل مني التليفون متقلقش هكلمك تاني".

خرج شوقي نازلا السلالم درجتين درجتين ممسكا بالهاتف وقد اسود وجهه، اتجه أولا إلى محل موبايلات ليشتري شاحن سيارة وكارت بخمسين جنيها، ركب سيارته اللانسر وانطلق إلى وكالة ويسترن يونيون المجاورة لفندق فور سيزونز، كان قد رآها يوما ولم يكن يعلم أين تتواجد أي فروع أخرى ولم يكن عقله رائقا للبحث أو السؤال.

قام بتوصيل الشاحن في فتحة الولاعة وترك الهاتف على المقعد المجاور، تردد صوت راديو نجوم إف إم على أغنية لو كان بإيدي أختارك لحسام حبيب، سار وهو يئن ويبكي في طريقه إلى جاردن سيتي، إن أسوأ أنواع الابتزاز هو أن يبتزك أحد في شرفك، شعر أنه في كابوس ثقيل، من حين لآخر يفتح صفحته على الفيس ليرى إن

كان أحد قد شاهد الفيديو، أخذ يفكر في حل لمشكلته ولكن أي حل وقد سجل له فيديو واضح بالفعل؟ لن يتمكن من إدّعاء فبركة الفيديو، سيقوم أعداؤه بفحصه وتأكيد صحته. ضرب على مقود السيارة وصاح باكيا: "تبا لي".

كان آخر ما يفكر فيه حينها هو المبلغ الكبير الذي سيدفعه، ولكن من يضمن أنه لن يتوقف عن ابتزازه مجددا ليدفع المزيد من المال؟ كيف سيدفع ما يقارب المائتي ألف جنيه هكذا ببساطة؟ ثم كيف سيسحبها الآن وكل البنوك مغلقة؟ فكر أن يمر أولا أمام مكتب الوكالة وإذا وجدهم يعملون سيتجه إلى الشركة ويسحب المبلغ من خزينة المبيعات وفي الصباح يذهب إلى البنك ليحضر المال ويعيده للخزينة، وصل شوقي إلى بوابة المكتب التي تعلق فوقها لافتة صفراء ذات كتابة سوداء، نزل ناظرا إلى البوابة المغلقة بسلسلة وقفل، كان هناك حارس عقار يلعب الطاولة مع رفيقه في المبنى المجاور، اتجه إليهما شوقي وحياهما، سأل عن مواعيد الوكالة، فأخبره أحدهما أنهم يقفلون الأبواب في الخامسة مساء، شكرهما وعاد إلى السيارة، فتح الاتصال بالإنترنت على هاتفه وكتب إلى منيرة: "آلووو

قافل

قلت لك هيكون قافل".

منيرة: "صور لي

بشوف

صور

آلوو".

رفع شوقي كاميرا الفيديو وقام بتصوير البوابة المغلقة ثم رفع الصورة إلى منيرة، كتب صاحب حساب منيرة: "شو راح تسوي الحين؟".

شوقي: "بكرة الصباح أحوّل".

منيرة: "بدك تعمل نفسك شاطر؟"

شوقي: "يا عم ولا شاطر ولا شيء، انتظر للصباح وراح أحوّلك".

لم يرد الطرف الآخر، استمع إلى أغنية "كل ما أغني" لحسام حبيب وشيرين على الراديو وهو يسير بسيارته حتى توقف في إشارة ميدان التحرير، كاد أن يصطدم بالسيارة المجاورة بعد أن خرج من الإشارة، نظر له القائد من نافذة الفيات التي فرت من التفافه المفاجئ إلى اليمين ثم صاح بأعلى صوته: "يا حمار".

لم تتبدل أي من ملامح شوقي وهو يتابع سيره.

(هذه الأغنية جيدة بالفعل).

اتصل بسعاد، أخذ هاتفها يرن دون أن ترد، في النهاية ردت بصوت ناعس: "أيوه يا شوقي، أين أنت؟".

كان صوته حانيا لطيفا وهو يقول: "كنت أشتري شيئا من الخارج، أتريدين أن أحضر لكِ شيئا؟".

صمتت للحظة ثم قالت: "لا.. لا أظن".

- "هل عاد طارق من الدرس؟".

تثاءبت وقالت: "نعم، تناول العشاء ونام".

- "سعاد"، صمت للحظة وسالت دموعه ثم قال: "أنا آسف".

ثم أغلق الاتصال، بعد دقائق وصلته رسالة نصية من سعاد تقول: (أنا من تأسف على كل شيء خاطئ يحدث بيننا، عُد سالما).

قضى شوقي الليلة في أحضان سعاد، وعلى عكس ما تصور نام حتى الصباح.

7

استيقظ أيمن عبد الله على صوت جرس وطرقات فظة على باب شقته، تناوب الطرق مع صوت الجرس وتخللها صياح: "يا دكتور.. يا دكتور".

ارتدى أيمن نظارته ونظر إلى ساعة الهاتف فوجدها الواحدة صباحا، أراد أن ينام على أمل أن يمل الطارق ويذهب، ولكن الطارق ازداد إصرارا وصياحا أمام الباب، كان نائمًا بالفانلة الحمالات والبوكسر على وسادة متقرحة تحول بياضها إلى سواد ملئ بالقشرة، ارتدى السكراب الطبي وذهب ليفتح الباب، صمت الطارق مع صوت فتح الباب، ظهر لأيمن وجه شاب مذعور محمر العينين، أشعث الشعر، ما إن فتح الباب حتى أمسك الشاب بمعصم أيمن وصاح باكيا: "أمي.. أمي يا دكتور، إنها تموت".

خلع أيمن النظارة وفرك عينيه والشاب يقول: "لدي سيارة في الأسفل وبيتنا قريب، سآخذك إلى المنزل وأعيدك إلى هنا".

أعاد أيمن النظارة إلى عينيه وقال: "مائتي جنيه".

رمق الشاب أيمن مفتوح الفم للحظة ثم قال: "ماذا؟".

- "مائتي جنيه".
- "حسنا، حسنا، هيا بنا".

دخل أيمن إلى الشقة قائلا: "ثواني لأحضر حقيبة المعدات".

عاد أيمن وفي يده حقيبة كتف سوداء ونزل مع الشاب الذي تقدمه حتى وصلا إلى سيارة بيجو سبعة ركاب. كان هناك راكب آخر يجلس على الكنبة الخلفية للسائق.

فتح الشاب الباب الأمامي المجاور للسائق وقال: "اركب، اركب يا دكتور".

ما إن جلس أيمن حتى قال الجالس في الخلف: "نحن شاكران لك يا دكتور، لقد دلنا عليك أولاد الحلا، جعله الله في موازين حسناتك".

- "أهلا وسهلا".

ركب الشاب الذي طرق الباب على مقعد القيادة وسار بالسيارة، أخذ السائق يسير في الحواري والشوارع التي تراصت على جنباتها صفوف لعمارات شعبية ذات بلكونات نُشر عليها الغسيل المغطى بالمشمع، بعد لحظات صاح الراكب في الخلف: "أيها الغبي، لقد دخلت في الطريق الخاطئ".

أدار السائق مقود السيارة ليدخل في إحدى الطرق الجانبية: "أين الطريق؟ لقد تهت".

تمتم أيمن مبتسما: "هممم، هذا ما ينقصنا".

أخذ الراكب يصيح في السائق: "خش يمين، خش شمال، امشي طوالي".

بعد لحظات مد الراكب يده بعلبة عصير قائلا: "غيّر ريقك يا دكتور، نأسف على إيقاظك من النوم".

شكره أيمن ولم يرغب في شرب العصير، رد عليه الراكب: "كما تشاء"، ثم امتدت يده بإسبراي رشه أمام وجه أيمن الذي أخذ يسعل حتى غاب عن الوعي.

* * *

أفاق أيمن شاعراَ بالصداع، كان قد فقد اللحظات الأخيرة من ذاكرته فاعتقد أنه لا يزال على سرير غرفة نومه، بدأ إحساسه يصور له الأرضية الصلبة التي ينام عليها، البرودة المحيطة به، عادت إليه الذاكرة شيئا فشيئا وهو ينهض عن الأرض الباردة، نظر متفحصا الغرفة الفارغة ذات البلاط البارد، كان لا يزال يرتدي السكراب وفي قدميه الشبشب البلاستيكي، صاح أيمن: "من؟.. مييين؟ مييين؟".

أخذ يصرخ وهو يطرق على الجدران بكفيه، دار في أرجاء الغرفة صارخا حتى تعثر وسقط أرضا، اعتدل جالسا ليرى ما تعثر فيه فوجد صفيحة جبنة مفتوحة، دفعها بقدمه ونهض يتحسس الجدار وهو يئن ويبكي حتى لمس جسما معدنيا هو باب الغرفة، رفع ذراعيه عن آخرهما وطرق الباب بكل قوته وهو يبكي ويصرخ من حلقه: "مييين؟ مييين هنا؟ أخرجوووني، أخرجوني يا أولاد الكلب".

استيقظ في عقله الجزء الخاص بالشتائم، زاد حماسه وهو يطرق الباب ناعتا خاطفيه بمصطلحات لم يتخيل أي من مرضاه أو حتى يجول بفكرهم مجرد فكرة أن طبيبهم على دراية بها وهو يقيس لهم درجات الحرارة والضغط في الاستقبال، أضيئت الغرفة فجأة بضوء خافت، التفت فوجد شاشة كبيرة معلقة على الجدار، وقف يراقب الشاشة التي عرضت القائمة الرئيسية، توقع أيمن أن يظهر له

وجه لرجل دمية كما في فيلم المنشار ليخبره أنه سيلعب معه لعبة وأن عليه أن يختار ما إذا كان سيحيا أم يموت، رأى سهما يتنقل بين القوائم المختلفة ثم اختارالسهم قائمة بعينها، انفتحت القائمة عن مجموعة متراصة من العنواين، تلون كل عنوان بلون أزرق، أخذ السهم يتنقل من عنوان لآخر حتى اختار واحدا، تحولت الشاشة إلى السواد واختفت كل العناوين ثم ظهر في الأسفل خط عرضي بجواره علامة (تشغيل، إيقاف) المميزة لبرامج تشغيل الصوتيات، دوى في الغرفة فجأة صوتا لموسيقى انقبض قلب أيمن مع بداية تشغيلها، وقف مستمعا إلى الموسيقى الكئيبة المريبة، رافق الموسيقى صوت صدى صرير أبواب يمكنك القول إنها أبواب مستشفى مهجورة منذ عقود، لك أن تتخيل أيضا أنها مستشفى أمراض نفسية أو تتخيل من الذي يقوم بفتح هذه الأبواب بهذه الطريقة، أنت الجمهور وأنت المستمع فتخيل ما شئت وعش مع هذه الأجواء المظلمة، أغمض عينيك وأرخ جسمك ودع دقات قلبك تتناغم مع إيقاع الموسيقى، دع عقلك يتخيل أنك داخل تلك المستشفى، المصنع، المدرسة، أيا كان المسمى، تجول في المكان على أنغام تلك الموسيقى وافتح الأبواب واحدا تلو الآخر، اكتشف بنفسك تفاصيل الغرف. احذر من أن تتعثر في الأجسام الغريبة المبعثرة هنا وهناك، لا تلق بالا لتلك الكيانات التي تعتقد أنها تتبعك وتراقبك، استمع إلى أصوات الصرخات المرافقة للموسيقى، صرخات لنساء وأطفال يتردد صداها كما لو أنها تخرج من بئر سحيقة، صرخات لرجال يعذبون بشكل بشع، جلس أيمن للحظة في حالة خدر ثم هز رأسه ونهض

فجأة، اتجه إلى الشاشة ومد يده إليها وأخذ يتقافز محاولا الوصول إليها وهو يصيح :"أوقفوا هذا، أوقفوا هذا يا أبناء الزنا".

انطلق بحثا عن الصفيحة الفارغة، مال بظهره مادا ذراعيه لأسفل بحثا عنها حتى تحسسها ووجدها، أمسكها وسار بها ثم وضعها على الأرض أسفل الشاشة، وقف عليها ومد يده محاولا الوصول إلى الشاشة ولكنه لمسها فقط بأطراف أصابعه، رفع رجله اليسرى في الهواء ورفع جسمه على مشط رجله اليمنى، بدأت أصابعه تمسك بإطار الشاشة وهو يزمجر من بين أسنانه متذكرا صوت زملائه في الإعدادي وهم ينادونه بشوال الدقيق لقصره وبدانته حتى أنهم كانوا ينادونه في مباريات كرة القدم (باصي يا شوال، شووت يا شوال).

اهتزت الصفيحة تحت قدمي أيمن واختل توازنه ليسقط على جانبه صارخا، سقطت النظارة عن رأسه وشعر بألم رهيب في كتفه امتد كالكهرباء حتى أطراف أصابعه، تابعت الموسيقى دويها من شاشة التلفاز المعلقة على الجدار.

❁ ❁ ❁

8

استيقظ شوقي في صباح اليوم التالي على صوت جرس اتصال على الماسنجر، ظل الجرس يتكرر حتى نهض ونظر في الشاشة ليجد الاتصال من (منيرة الزعفراني) مع صورتها على البروفايل الناظرة في شرود إلى الكاميرا.

أرسل له اليانكي: "آلوو

وينك؟

آلووو

يعني ما بدك ترد".

شوقي: "أنا مريض منذ أمس".

تحسس شوقي رأسه التي كلبتها مخالب الصداع ثم كتب: "لا أقدر على الذهاب اليوم".

منيرة: "بدك تلعب معي؟".

شوقي: "لا ألعب معك ولا تلعب معي

أقول لك تعبان

مش قادر أنزل".

منيرة: "خلاص، نخليها فضيحة أحسن".

شوقي: "والله بص،

هتخليها فضيحة

أنا كمان مش هسكت

وأنا عارف كويس هعمل إيه".
منيرة: "سوي يلي بدك ياه، أنا بعمل هدا شيئًا قانونيًا".
شوقي: "يعني الابتزاز صار شيئًا قانونيًا
يعني نذهب للسفارة ونسألهم نشوف قانوني ولا لأ؟
أو شرطة مكافحة الابتزاز".
منيرة: "إيه روح".
شوقي: "اسمع أنا بتعب ف الفلوس وبشتغل عشر ساعات يوميا، مش راح أرمي فلوسي بالأرض".
منيرة: "أنا بعمل بجمعية مكافحة الفساد".
شوقي: "قديمة".
منيرة: "طيب والحين ورب الكعبة راح أنشر المقطع وحيات أمي بدك تعمل حالك شاطر لادمرك،
خلي فلوسك عندك بتهمني فضيحتك، سلام".
شوقي: "أنا مش معايا فلوس،
الفلوس اللي كنت هرسلها أمس كنت هستلفها من واحد وهو الآن مسافر".
منيرة: "ما في أي مشكل، روح السفارة شكي على راحتك
راح نشوف مين الخسران"، ثم أرسل علامة الإعجاب الزرقاء.
شوقي: "طب أجيبلك فلوس منين؟".

منيرة: "اسمع من الأخير تروح تحول لي الحين أو خليني أنشر المقطع،
ما راح أخسر شيء بس أنا ما بدي تنفضح وتخسر كرامتك، والقرار قرارك".

شوقي: "وأنا ما بدي أبلغ عليك وأوديك السجن".

منيرة: "اسمع روح اشتكي الحين وخليني أعمل شغلي ونشوف مين الخسران".

شوقي: "والله القرار قرارك أنت".

منيرة: "طيب، سلام، لحضة بفرجيك".

شوقي: "اسمع".

منيرة: "؟".

شوقي: "لو معايا فلوس كنت ريحت نفسي من الأول".

منيرة: "بدك تحول ولا لأ؟".

شوقي: "أنا جيتلك إمبارح وكنت هحول".

منيرة: "بدك تحول ولا لأ؟".

شوقي: "بي الحين اللي كنت هاخد منه الفلوس مش موجود".

منيرة: "بدك تحول ولا لأ؟".

لم يرد شوقي فجاءته رسالة.

منيرة: "اسمع، خلي فلوسك عندك

ولو بدك تحول الحين الـ10000 صارو 15000 وما تحول إذن بتفضل الفلوس على كرامتك".

شوقي: "لأ خلاص خليهم عشرة

هحولك عشرة".

منيرة: "15000".

شوقي: "أنا هلبس ونازل الحين، إما أروح ويسترن يونيون أو أروح السفارة، أنت اختار".

منيرة: "اطلع السفارة

روح اشتكي

يا ابن المومس".

شوقي: "فكر لحد ما أوصل المكتب".

منيرة: "والله ما بقبل منك فلس

أقسم برب الكعبة راح جيب آخرتك".

ارتدى شوقي ملابسه وخرج بينما كانت سعاد في المطبخ، قالت سعاد: "هل ستتأخر؟".

تمتم قائلا: "لا أدري"، وأغلق باب البيت من خلفه.

سار بسيارته إلى البنك ليسحب المبلغ، توقف أمام البنك وفتح الإنترنت ليكتب على الماسنجر: "قل لي ماذا قررت؟

سأحول لك عشرة آلاف دولار".

منيرة: "ارجع بيتك

راح أنشر المقطع".

شوقي: "قرر بسرعة، أروح الوكالة ولا أروح السفارة".

منيرة: "ههههه بدك تخوفني ولا شو أنت بتضحك على نفسك؟

روح لأمك وبلغ عني

في كتير منك يسووا هيك بس طلعت أشهّر منهم ولما نشرت المقطع رجعوا عندي يترجوني".

ضرب شوقي جبهته بيده ولم يرد في حين ترددت أغنية حسام حبيب مجددًا على الراديو.

كتب شوقي: "أنا هكلم الناس وأقول إن الفيديو متركب وهيصدقوني".

منيرة: "كل بياناتك عندي وكل شيء عندي".

شوقي: "وإيه يعني؟".

منيرة: "قبلك كان أشطر بس هزمته

ههههه".

شوقي: "وأنت كمان كل بياناتك عندي".

منيرة: "بيانات يلي عندك صاحبها متوفي"، ثم أرسل إيموشن لوجه ضاحك يخرج لسانه، "سلام أخي،

مبروك الفضيحة".

شوقي: "وأنت مبروك عليك السجن

أنا مش هسكت".

منيرة: "طيب راح نشوف مين شاطر".

ثم أرسل لشوقي صور سكرين شوت من مقطع الفيديو مبينا وجهه في صور وعضوه في صور أخرى.

وضع شوقي يديه على عينيه التي سالت منهما الدموع ثم كتب: "أنا تعبت خلاص

تعبت

كل يوم منزلني ألف في الشوارع زي الكلب ولا عارف أروح شغلي ولا عارف أقعد في بيتي".

منيرة: "الحين كل أصدقائك راح يشوفوا مقطعك وهينزل في كل المواقع الإباحية وراح يصير تريند على اليوتيوب وعليه رقمك وعنوانك واسمك، لحضة..".

9

ظل أيمن في زنزانته أياما تجرع فيها قرصة الجوع ومرارة العطش، كان التلفاز يعمل ليضيء الغرفة بمجرد أن يُغلق عينيه لينام، يحاول أن يسد أذنيه عن أنواع الموسيقى التي تدوي من السماعات، موسيقى ميتال وروك تثير جنونه حين يستيقظ فزعا من نومه الذي تتوق إليه عيناه المتورمتان، كانوا يراقبونه من كاميرا مجهزة للرؤية الليلية مثبتة فوق التلفاز وقابلة للدوران، لم يتركوا له فرصة للنوم سوى لنصف ساعة ليلا، وكما حدث في تجربة بافلوف مع الكلب، كان أيمن ينهض من نوم الدقائق الثلاثين حين تدوي السماعات بالموسيقى باحثا عن الطعام الذي لم يكن سوى لقيمات من الخبز اليابس ونصف كوب من الماء، يمد يده في جنون إلى الخبز ليبتلعه ثم يجرع الماء، يمسح الكوب بلسانه ليدرك ما التصق في معدنه من قطرات، يرقد على ظهره ممسكا بالكوب الفارغ، عيناه نصف مغلقتين، رأسه تتمايل مع الموسيقى، كانت معدته تصدر أصوات الرغبة إلى الطعام في البداية، تحولت تلك الأصوات إلى تقلصات شديدة لم يملك حينها سوى أن يمسك ببطنه ويتلوى متألما، لم يدر ما جدوى وضع تلك الصفيحة الفارغة إذا لم يكن عليه قضاء حاجته، داهمته نوبة التقلصات ذات ليلة فتكور كالجنين يئن ويصرخ من شدة الألم الذي يعتصر أحشاءه، لم تمض التقلصات ولم تقل شدتها كما يحدث عادة، سال العرق على جبينه وبدأ يلهث

وهو يضرب رأسه أرضا، نهض ممسكا ببطنه وأخذ يدور في الغرفة، أخذ يدور ويدور كما كان القط يدور في الفرن لا يدري أين يهرب من لهيب النار وصهد الحرارة، شعر كما لو أنه على وشك التقيؤ ففتح فمه ليخرج أيا ما يكون في معدته ولكن لم يكن هذا الألم سوى شكل آخر من هجمات تعتصر بطنه، اصطدم أيمن أثناء دورانه بأحد الجدران كما فعل القط يومها حين اصطدم بصفيح الفرن الساخن، أكمل دورانه حتى بدأ الألم يقل تدريجيا، استمر في الدوران متمايلا يرقص على أنغام الجيتار الكهربائي والدرامز، خلع سروال السكراب القذر وقميصه، أكمل تقافزه ورقصه بالفانلة الحمالات والبوكسر ورأسه تتمايل للأمام والخلف، طالت لحيته وشاربه، بدأ حجم كرشه وترهلاته تقل شيئا فشيئا، كان عقله يناضل ليبقي على ذاكرته كما تتمسك المشابك بالغسيل المبتل، دخل عليه اليانكي والهففي اللذان اختطفاه ذات ليلة ليوقظاه بالركلات والعصي ثم خرجا من الغرفة وأغلقا الباب على الجسد الذي تمدد مرتعشا وقد تحطم زجاج نظارته، في إحدى الليالي استلقى نائما على ظهره ممددا ذراعيه بجواره، وضع الهففي واليانكي منديلا بين أصابع قدمه اليمنى وأشعلاه بالولاعة ثم سارعا للخروج من الغرفة، سارت النار في المنديل حتى أدركت أصابعه، هز قدمه في البداية وهو غارق في النوم ثم نهض صارخا ممسكا بقدمه التي تطايرت منها ذرات متفحمة من المنديل الذي بقى بعض منه محمرا بين أصابعه، فتح أصابعه بيده وأخذ يهز رجله ثم أمسك بقدمه وأغمض عينيه صارخا، غير أنه استيقظ ذات ليلة ليجد دجاجة

محمرة على ورق قصدير ورغيفين من الخبز الشامي بالإضافة إلى قارورة مياه دساني كبيرة، نهض ماشيا على أربع غير مصدق، أمسك بالدجاجة بكلتا يديه وانقض عليها بأسنانه ليمضغ الجلد واللحم والعظام على حد سواء، دس برغيف في فمه ثم سعل حين حشر في حلقه، قضم الرغيف لقمة لقمة وهو يبتلعها دون مضغ، فتح قارورة الماء ورفعها على فمه ولم تنزل ذراعه بالقارورة حتى فرغت من صب الماء في حلقه، أمسك بالقصديرة وأخذ يلعق ما التصق بها من الدجاجة ثم أخذ يلتهمها كما التهم الخبز، تمدد على ظهره فتجشأ وقد تقلصت معدته هذه المرة تقلصات خفيفة نتيجة لدخول الطعام المفاجئ بهذه الكمية، سمح الخاطفون لأيمن بإكمال نومه حتى الصباح، لم يستيقظ هذه المرة على صوت الموسيقى أو الضرب أو الحرق، بل بسبب تلك الذبابة السمجة التي أخذت تمشي على وجهه وأنفه وعينيه فيهشها بيده وهو لا يزال ناعسا مفتوح الفم، وقفت الذبابة عند فتحة أنفه فثارت نهاياته العصبية، اندفعت يده كرد فعل سمبثاوي ليضرب أنفه ويحكه، فتح عينيه وحدق في سقف الغرفة للحظة، هرش في رقبته ثم نهض جالسا، أمسك بالقارورة الفارغة وأمالها على فمه فتساقطت قطرات قليلة متبقية، مرر لسانه على شفتيه الجافتين ثم أضيئت الشاشة، لم تكن هناك موسيقى، فقط خلفية بيضاء توسطتها كلمة واحدة باللون الأخضر (اعترف).

نهض واقفا وسار إلى الشاشة، صاح قائلا: "بماذا؟ أعترف بماذا أيها المخابيل؟".

كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها منذ فترة لا يذكر مداها، كل ما يذكره أنه لم يعد يصرخ ويصيح طالبا النجدة، انطلق إلى الباب وأخذ يطرق صارخا: "أعترف بماذا؟".

ظلت الشاشة متوقفة على تلك الكلمة أياما، فصارت كل ما يراه بعينيه ويسمعه يتردد في عقله

(اعترف)

لم تعمل الموسيقى إلا لإيقاظه من نومه فيفتح عينيه ليجد الكلمة على الشاشة.

(اعترف)

بمج رد أن يُغلق عينيه لينام تدوي الموسيقى الصاخبة، ثم تتحول إلى خلفية بيضاء بمجرد أن يفتح عينيه.

وكالعادة تتوسط الشاشة كلمة

(اعترف).

نهض ذات يوم وقد مالت رأسه لأسفل، مشى على أربع ليرفع جسدا ظهرت من تحته العظام، رفع رأسه إلى التلفاز وقال بصوت مبحوح خافت: "حسنا".

اعترف أيمن بكل عمل مشين وتصرف سيىء قام به في حياته منذ أن تكوّن وعيه وحتى لحظة دخوله السجن، ذكر أنانيته وسرقته لمصروف إخوته، افتعال المشاكل وإلصاقها بهم، قص نذالته وخيانته لكل صديق عرفه في حياته، أذيته للحيوانات الضعيفة واستمتاعه بتعذيبها، القط الذي حرقه حيا في الفرن، الجرو الذي قطع ذيله بسكين بعد أن قال بسم الله والله أكبر، العصفور الصغير الذي داسه

بحذائه بعد أن سقط عن عشه محاولا الطيران، السلحفاة البحرية التي كان يضعها على السيراميك ويدفعها لتنطلق ضاربة رأسها بالجدار حتى ماتت، الفأر الأبيض الذي ابتاعه ليضعه في مرطبان ملأه بالبول ثم جلس يشاهده يموت غرقا، الأموال التي استنزفها من أبيه لشراء الحشيش بدلا من الكتب والمراجع حين كان طالبا، الحادثة التي شاهدها يوما على الطريق بين سائق دراجة نارية وميكروباص، مات سائق الدراجة وقد التوت رقبته أما مرافقه فتمدد متألما من عظمة الفخذ التي انقسمت إلى نصفين حتى أن فخذه تقوست للأعلى، غير أن أيمن وقف يصور كل هذا بهاتفه بدلا من تقديم المساعدة أو الاتصال بالإسعاف، خطيبته التي تركها متهما إياها بسرقة المال من محفظته التي تركها على الطاولة في سيلانترو ليذهب إلى الحمام، كان يجب التخلص من تلك الخطوبة التي تستنزف ماله على الشيكولاتة، التنزه، الهدايا والمكالمات الهاتفية، المرضى الفقراء الذين يصف لهم أدوية غالية الثمن إذا لم يتمكنوا من دفع ثمن كشفه الخاص، المعاملة الوقحة التي يعامل بها المرضى في القصر العيني، صمت وظل يتابع الشاشة التي بقيت على حالها للحظة ثم اختفت الكلمة، ظهرت لتومض بشكل متسارع، أخذت تظهر وتختفي واستمر الأمر مع زيادة في تسارع الظهور والاختفاء، (اعترف) (اعترف) (اعترف)، لم يعد قادرا على تحديد ما إذا كانت الكلمة ظاهرة أم مختفية، أصابته نوبة من التشنجات تمدد على إثرها لترتجف أطرافه وتصاعد من فمه رغوة بيضاء، بعد أن مرت النوبة ظل ممددا على ظهره ثم نهض ليرى الكلمة لا تزال

تومض على الشاشة التي صارت خلفيتها حمراء اللون، رفع ذراعه وقال: "حسنا.. حسنا".

توقفت الشاشة عن الوميض فجلس ساندا ظهره على الجدار ثم قال: "قتلت جدتي".

ظلت الشاشة ثابتة فابتلع ريقه ثم قال: "تلك العجوز البخيلة لم تكن لتعطينا قرشا من ميراثنا في حياتها"، تحولت نبرة الضعف في صوته إلى عصبية وهو يقول مكورا قبضتاه: "خمس سنوات، خمس سنوات وهي تنام وتبول على سريري وتشغل غرفتي، خمس سنوات وأنا أنام على الأريكة بسببها، خمس سنوات وأنا لا أقدر على الحديث في الهاتف خلوة أو استعمال الإنترنت بشكل خاص كما يفعل أي إنسان عادي، خمس سنوات وهي تنام وتأكل ويشتري لها أبي الأدوية دون أن تدفع قرشا من مالها، نعم قتلتها، كنت أضع الكلور في قارورة الماء حتى ماتت بالفشل الكلوي وتليف الكبد".

صمت للحظة ثم قال: "كنت أشعر بالخلاص وهي تتقيأ الدماء على وسادتي وعلامات الألم على وجهها المجعد القبيح".

نهض ووجه حديثه إلى الكاميرا قائلا: "كانت لتموت على أي حال، كل ما قمت به هو استعجال الأمر لصالح الجميع، تخلصنا من إعالتها وسماجتها والسعي على علاجها، حصلنا على ميراث كبير كانت تكنزه رغم علمها بحاجتنا إلى المال".

بعد أن اعترف أيمن أخذت الشاشة تعرض كلمات مرافقة لموسيقى الروك المستمرة.

(قاتل)

(كاذب)
(أناني)
(مجنون)

ظلت جدته تأتيه في أحلامه حين يسمحون له بالنوم، ذات مرة يراها ممسكة بقارورة كلوروكس بيدها المغضنة النحيلة، تقف بثوبها الواسع على جسدها الرفيع، حانية ظهرها، تنظر إلى أيمن بعينين متسعتين متألمتين، ترفع قارورة الكلور إلى فمها وتبتلع المحلول ابتلاعا، لا يتوقف الكلور عن الاندفاع إلى حلقها وهي تحاول الأنين والصراخ لولا الدماء التي سالت خيوطا من فمها، تفتح فمها الخالي من الأسنان لتندفع الدماء كالشلال على أيمن لتغرق وجهه وجسده، رآها مرة أخرى تضرب على باب قبرها حتى انخلع الباب، خرجت بقدمها أولا ممسكة جدران الباب بيديها، نفضت عن نفسها الغبار قبل أن تسير مرتدية ثوبها الزيتي وتحيط رأسها بالشال الرصاصي، سارت منحنية الظهر لتخرج من المقابر ثم التفتت إلى أيمن دون أن تقف، قال لها: "أين تذهبين يا جدة؟".

قالت بصوتها المبحوح الرفيع: "سأنتظرك في البيت، عليّ اللحاق بوالدك قبل أن تأخذوا مالي".

رأى في حلم آخر نفسه نائما مريضا على سريره وقد عُلق له محلول، دخلت جدته حاملة صينية الطعام مبتسمة، وضعت الصينية على طرف السرير ثم قالت: "كيف حالك الآن يا جدة؟".

غير أن ما سمعه من جدته لم يكن صوتها بل كان صوته هو.

رد هو بصوتها قائلا: "نحمد الله يا ولدي".

ضحكت كاشفة فكيها الخاليين من الأسنان وزادت التجاعيد في وجهها وحول عينيها، زالت الابتسامة فجأة وهي ترفع عينيها إلى المحلول المعلق.

قالت: "أووه، لقد أوشك المحلول على الانتهاء، عليّ تغييره حتى تنهضي لنا بالسلامة".

مدت يدها أسفل السرير لتخرج قارورة كلوروكس، دارت حول السرير متجهة إلى المحلول، أخرجت الأنبوب المغروس في المحلول وأدخلته في قارورة الكلور.

قالت له: "لا تقلقي يا جدة، سأظل ممسكا لك بالمحلول حتى ينتهي".

غمزت له بعينها ثم ابتسمت مجددا والكلور يسري في دماء أيمن الذي استيقظ صارخا، ظل يصرخ ويستغيث ويدعو على نفسه بالهلاك، استمرت الأحلام بشكل يومي، يرى نفسه وهو يطلب من أخيه إعطائه الساعة التي اشتراها له والده في عيد ميلاده فيخلعها له أخوه مكرها، يجبره على ذلك حبه له. يقترض منه مصروفه قرضا لا رد فيه ليشتري ألبوم محمد فؤاد الجديد، يأخذ جهاز اللاب توب منه بعد أن أتلف جهازه، يراه يتعرض للضرب في المدرسة فيمر متظاهرا بعدم الملاحظة، سلسلة من الأفعال هو بطلها مع كل من مر به في حياته، يرى نفسه يدور في الفرن بينما يراقبه القط الرمادي من الخارج. يرى يسرا ابنة جارهم في الدور العلوي تحدث أباها: "لماذا لم يعد سمير يطلب الطعام مجددا يا بابا؟".

يداعب والدها شعرها المضفر ويقول: "ربما جاء في وقت نومك أو وجودك في المدرسة"، مطت يسرا شفتيها وهي تمسح رأس دميتها وسالت دمعة من عينها ثم قالت: "أخاف يا بابا أن يكون قد حدث له مكروه".

- "لا تقلقي يا عزيزتي، سيأتي إلى الباب ليموء مناديا عليك، وربما يكون قد وجد زوجة له".

هز أيمن رأسه صائحا وهو يرى يسرا تقول في حلمه: "من فضلك يا بابا اشتري له كيس لانشون لأضعه له حين يعود".

* * *

في يقظة أيمن كانت الشاشة تعرض كلمات بالاتهام مصحوبة بموسيقى شرقية حزينة، كان يقضي وقته في الصراخ والعويل باكيا، تأتيه كلمة قاتل على الشاشة فيصيح دامعا: "نعم.. أنا قاتل، اقتلوني أرجوكم".

(عديم القيمة)

(الحشرة ذات قيمة أكثر منك)

(مخبول)

(مكانك هو مستشفى المجانين)

(فاشل)

(لا تستحق أن تكتب روشتة دواء)

(نتن)

(انظر إلى ثيابك النتنة الملوثة بفضلاتك)

(شم رائحتك القذرة)
(منظرك أقرب إلى المتسولين)
(أترى؟ لقد تخلى الجميع عنك، لست مهما لأحد)

كان أيمن يقول: "نعم.. نعم، أنا كل هذا، أستحق ما يحدث لي وأكثر".

استمر الأمر لأيام عاش فيها أيمن مرارة آثامه وانكسار كبريائه وغروره، بل صار يتمنى الموت فلا يحصل عليه.

10

ظل شوقي في السيارة ناظرا إلى الماسنجر.

كتب إلى منيرة: "انتظر.. حسنا حسنا، سأدفع لكن لا تنشر المقطع".

منيرة: "أها.. قلت لك لا تلعب معي".

شوقي: "أنا خلاص تعبت، هدفعلك وكل واحد يروح لحاله".

منيرة: "تمام أوك.. كلام رجال".

دخل شوقي البنك وسحب المبلغ من مدخراته ومدخرات زوجته، قاد السيارة إلى مكتب ويسترن يونيون بجوار الفور سيزونز ثم فتح الماسنجر فوجد رسالة من منيرة: "وينك؟".

شوقي: "أنا أمام المكتب ومعي الفلوس".

منيرة: "اسمع، أريد 15000 دولار صافي من غير أتعاب التحويل".

أغمض شوقي عينيه وزفر ثم كتب: "حسنا حسنا، لكن أريدك أن تحذف المقطع نهائيا".

منيرة: "كلام رجال".

شوقي: "أعطني بياناتك، الاسم والبلد".

لم ترد منيرة فكتب شوقي بعد لحظات: "الاسم؟".

رد المتحدث من حساب منيرة قائلا: "تعرف؟ أنت رجال أمين وصادق

سأعمل معاك معروف ما عملته مع أحد قبل".

شوقي: "إزاي؟".

منيرة: "ممكن نخليك تعملنا شغل من غير ما تدفع ولا قرش".

شوقي: "مش فاهم!".

منيرة: "يعني خلي فلوسك معك، وهنكلفك بمهمة لو نفذتها ما راح تدفع شيء".

شوقي: "ماشي ماشي، أعمل إيه؟".

منيرة: "بكرة الساعة التاسعة صباحا انتظر في العنوان التالي".

كتب صاحب حساب منيرة عنوانا في رمسيس وطلب منه أن يذهب وحيدا محذرا إياه من التعامل مع الشرطة وإلا وجد مقطعه على كل مواقع التواصل الاجتماعي.

في صباح اليوم التالي أعاد شوقي المال إلى البنك واستقل تاكسي إلى العنوان المطلوب، ظل واقفا مرتديا الثياب المتفق عليها، توقفت عربة بيجو سبعة ركاب يقودها أيمن عبد الله ويجلس في المقعد الخلفي الهففي واليانكي.

قال اليانكي: "اركب يا مفضوح اركب".

جلس شوقي على المقعد الأمامي وقال: "ما هو المطلوب مني بالضبط؟".

قال الهففي: "ستعرف كل شيء في وقته يا باشمهندس، الآن استنشق جيدا".

ثم قام ببخ الإسبراي المخدر أمام وجهه، مالت رأس شوقي على النافذة المجاورة وتصاعدت أنفاسه غائبا عن الوعي.

توقفت البيجو أمام شقة وسط البلد فنزل الهففي واليانكي ثم فتحا الباب الأمامي ليحملا شوقي من ذراعيه.

صاح الهففي: "اركن السيارة في الجراج يا أيمن واصعد"، ثم التفت إلى شوقي صائحا: "كم مرة قلت لك لا تُفرط في الشراب أيها السكير!".

تمايلت رأس شوقي وأخذت عيناه تطرفان والشابان يحملانه إلى الشقة، بعد أن أفاق شوقي وجد نفسه على كرسي أنتريه، جلس في مقابلة الهففي واليانكي وأناستازيا التي وضعت ساقا على ساق مدخنة سيجارة.

مسح شوقي جبهته وضيق عينيه قائلا: "أين أنا؟ ماذا تريدون مني؟".

قالت أناستازيا: "لدينا مهمة لك يا سيد شوقي".

نفثت من سيجارتها وتابعت: "شوقي جابر، مهنس كمبيوتر ونظم معلومات، مدير مبيعات في شركة كمبيوتر، متزوج وأب لصبي".

نظرت إلى الهففي الذي قال: "طارق، اسمه طارق وتدعوه أمه توتا".

قال اليانكي: "ولد عسول جدا".

نظر إليه شوقي فقالت أناستازيا: "ما لا يعلمه الجميع أنك خبير في الاختراق".

حوّل شوقي نظره من اليانكي إليها ففتحت فمها قائلة: "أهاااا، هذا حقيقي إذن، اسمع يا سيد، لدينا لك بعض المهام لتنجزها،

مواقع لتخترقها، حسابات اجتماعية، أجهزة شخصية، أنت تفهم ما الذي أتحدث عنه بالطبع".
تنحنح شوقي ثم قال: "حسنا، يبدو أنني لا أعلم عم تتحدثين، سأرسل المبلغ المطلوب إلى منيرة الزعفراني وننتهي من هذا".
ضحك الهففي واليانكي ضاربين كفهما ببعض وقال الهففي: "أيها الغبي، نحن منيرة الزعفراني".
قالت أناستازيا: "كما يبدو لي أنك لست في وضع يسمح لك باتخاذ الخيارات، الباب مفتوح، يمكنك الذهاب في أي وقت، لن يمنعك أحد"، ثم نظرت إلى الشابين: "أليس كذلك يا شباب؟".
هزا رأسيهما قائلين: "لا أبدا يا سيدة، يمكنه الذهاب".
قال الهففي: "يانكي.. هل ستمنعه؟".
رد اليانكي: "أمنعه؟ لا لا أبدًا، يمكنه الذهاب في أي وقت يريد".
قالت أناستازيا: "ولكن حينها... أو أوه".
ضحك الشابان مجددا فاحمر وجه شوقي وسال العرق على جبينه.
قال اليانكي: "ستحب أسماء كثيرا رؤية ذلك المقطع، هع هع هع هع".
التفت إليه شوقي مفتوح الفم فقالت أناستازيا: "ماذا كنت تعتقد؟ أتظن أننا اخترناك جزافا؟".
شبك شوقي أصابعه ومال ظهره للأمام ثم همس: "حسنا".
مدت أناستازيا جونزاليس أذنها تجاهه هامسة: "ماذا؟ لا أسمع؟ أتسمعون شيئا يا شباب؟".

- "لا يا سيدة".
- "لا أسمع سوى دبيب النمل في المطبخ يا سيدة".

رفع شوقي رأسه قائلا بعد أن تنحنح ليريق حلقه مجددا: "حسنا، سأفعل ما تريدون"، ثم تابع: "من أنتم في الأساس؟".

11

كان خاطفو أيمن يقودونه إلى الموت، كان الموت بالنسبة له مخرجا لما يعيشه من عذاب، وسيلة ليهرب بها من إحساسه بالذنب والقهر، بعدها يمدون له يد المساعدة والأمل، يعطونه الطعام والشراب ويسمحون له بالنوم، يحدثونه بطريقة لينة متعاطفة بدلا من لهجة الاتهام والتغليظ والكلمات المقتضبة. يتركونه يسير فارا إلى الموت مجددا بعدها يُظهرون له الأمل في الحياة، يُذكرونه بآثامه ويعيروه بحقارته ثم يقنعونه بأن في إمكانهم إرشاده إلى طريقة للخلاص من ذنوبه، كانوا بالنسبة له مخلصين منقذين، كيف لا وهم ينتزعونه من الموت والألم؟ من عذاب الذنب والإحساس بالدونية؟

ظهرت القائمة الرئيسية على الشاشة في غرفة أيمن، أخذ المتحكم بالشاشة يتنقل بين القوائم حتى فتح قائمة الفيديو، اشتغل أحد الفيديوهات على الشاشة بعنوان(فيديو رقم 1)، ظل الفيديو رقم واحد معروضا طوال اليوم، كانوا يسمحون له بالنوم وحين يستيقظ يجلس ليراقب الفيديو الذي ما إن ينتهي حتى يبدأ مجددا.

بعد مرور أربعين يوما شاهد فيها أيمن أربعين مقطع فيديو، صار عقله كتربة خصبة معدة لتقبل أي نوع من الزرع، أثناء عرض المقاطع كان الهففي واليانكي يتحدثان إليه عبر السماعات بنبرة وقوة تثير النعاس، تخدر العقل والجسد، كان أيمن تائها غارقا، تعلق دون مقاومة بصوتهما واعتنق ما يقودانه إليه، وجد في صوتهما

المحبة والعطف، الهدى والخلاص، تردد صدى أحاديثهم في غرف عقله الفارغة حتى بعد توقفهم عن الكلام عبر السماعات.

(تحرر من أفكارك)

(تحرر من معتقداتك)

(تحرر من آثامك وغرور ذاتك)

(افعل ما تشاء)

(افعل ما تشاء)

(افعل ما تشاء).

في النهاية جاء يوم اختبار ولائه، أخرجوه من الغرفة، غسلوا جسده وألبسوه ثيابا جديدة، عرضوا عليه الطعام فلم يأكل سوى الكفاف، جلس أيمن في الكرسي الخلفي للبيجو وهم يسيرون به في الشوارع، تلفت حوله بعينين شاردتين فضوليتين.

توقف الهففي بالسيارة عند ميدان التحرير ثم قال: "انزل يا أيمن وانتظرنا في هذه القهوة؟".

نظر أيمن إلى حيث أشارالهففي وقال: "حسنا حسنا، لن أغادر القهوة".

قال اليانكي: "إياك أن تغادر القهوة، سنعود إليك".

فتح أيمن الباب وسار كالروبوت، جلس على أحد الكراسي الخشبية وطلب كوبا من الشاي.

قال الهففي: "السم الآن يجري في عروقه، سيكون هذا اختبارا لإنجازنا، سنعود فإن وجدناه حقناه بالترياق".

قال اليانكي: "وإن هرب....."، صمت للحظة ثم تابع: "فسيهرب إلى الموت، افتح لي علبة بيرة".

- "لماذا لا تفتح لنفسك؟ هل شللت؟".
- "نعم أصابني الشلل بعد رؤيتي لجمال أمك، حلقي جاف، افتح لي علبة".

فتح له الهففي علبة بيرة وناوله إياها من صندوق الحفظ ثم قال: "متى أصبحت قليل الأدب هكذا؟".

- "بعد أن عاشرت أمك، عععععععععع"، ثم رشف اليانكي من البيرة وهو يراقب أيمن يرشف من كوب الشاي أبو فتلة.

* * *

بعد نصف ساعة عاد الشابان ونظرا فإذا بأيمن يجلس وبجواره الكوب الفارغ إلا من كيس الشاي المبتل، ضحك اليانكي وتذكر حين كان طفلا يرمي بأكياس الشاي المستعملة لتلتصق بسقف المطبخ فيتدلى منها علامة شاي ليبتون الصفراء، نزل اليانكي وجلس على الكرسي المجاور لأيمن بعد أن ضربه على كتفه قائلا: "منور يا عم أيمن".

ذهب الهففي بالسيارة ليركنها في جراج التحرير، ثم خرج ليشرب العناب البارد مع الهففي وأيمن عبد الله.

12

من مذكرات طارق شوقي

ديسمبر 2012

مذكرتي العزيزة،

في البداية لم أكن أدري ما الذي عليّ كتابته في مذكراتي، لم تكن فكرتي على أي حال، منذ يومين طلبت منا ميس ناهد التفكير في كتابة مذكراتنا، نشتري واحدة من أي مكتبة ونبدأ في كتابة ما يخطر على بالنا، أي شيء، أحداث يومية، قصص أو أشعار، خواطر، رسومات، أي شيء وها نحن هنا. اسمي طارق شوقي جابر وأنا في العاشرة من العمر، أدرس في الصف الخامس الابتدائي، أظن أنني سأبدأ في كتابة أحداث من الأعوام الماضية، تقول ميس ناهد إنه ذات يوم ستكون تلك المذكرات ذكرى رائعة عندما نكبر، حسنا، لنرى إن كان ذلك صحيحا، لا أُخفيك سرا أنني شديد الإعجاب بميس ناهد فهي لطيفة لينة الكلام، دائما تحب مساعدة الآخرين، بالإضافة طبعا إلى هيئتها المثيرة، إنني أحب حصتها وأحب طريقة كلامها التي تشعرني بالحنان بعكس أمي دائمة الصراخ والتذمر، أتمنى لو كانت ميس ناهد هي أمي.

هاااه ما علينا، منذ أن تشكل وعيي وأنا شديد التعلق بأبي فأمي كما قلت قاسية القلب متعكرة المزاج.

كان أبي يأخذني دوما للصلاة في المسجد، ويصحبني معه أثناء التسوق، لم يتأخر يوما في شراء الأشياء التي تعجبني، إنني أحب أبي جدا ولم أكن قادرا على المذاكرة في البيت وهو في الخارج، كان يخرج يوميا إلى العمل فتجلس أمي معي على السفرة لتذاكر لي دروسي، لم أكن أفهم أي شيء من شرحها العصبي، وحين كنت أخطئ في حل سؤال كانت تضربني وتوبخني وتنعتني بشتائم سيئة، كنت أقف كل يوم عند النافذة أترقب وصول أبي إلى شارع منزلنا، أتمدد على السرير لأستريح ثم أعود للتطلع مجددا.

ظل الأمر كذلك حتى سافر إلى الكويت ليعمل في شركة هناك، أتذكر أنني بكيت لأيام راجيا أن يأخذني معه فكان يحدثني بلطف قائلا إنهم لا يسمحون بوجود الأطفال هناك، رددت من بين دموعي بأنني لم أعد صغيرا، ثم في إمكانك أن تأخذني معك في الحقيبة وسأظل صامتا، ضمني أبي إلى صدره وبكى معي، كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أبي باكيا، والمرة الأخيرة التي يضمني فيها بهذا الحب.

عشت أياما كئيبة مع أمي بعد ذلك، كانت تشتمني وتهينني لأتفه الأسباب فأمر من أمام عينيها المتسعتين الغاضبتين دون رد، ثم أذهب خلف باب غرفتي لأسبها وألعنها، لكم يثير صياحها أعصابي ويفسد يومي، إنني أكرهها، تمددت يوما أسفل سريرها وانتظرت حتى يدق جرس الباب، فكرت حينها أن أخرج من تحت السرير إذا دق الجرس، أتسلل خلفها وعندما تفتح الباب أسقط

ثوبها عن جسمها ثم أشير إليها وأضحك وأنظر إلى من بالباب ليشاركني الضحك، تبا لها.

حسنا ربما أتذكر لاحقا أمورا حدثت في الماضي وحينها سأعلمك بكل شيء، أما الآن فعلى الدراسة.

* * *

ديسمبر 2012

مذكرتي العزيزة،

تصر أمي على أن أنام في غرفتها، منذ أن وُلدت وأبي يعترض على نومي معهما في الغرفة، فكانت تضمني وتقول: لا.. إني أخاف عليه، ولكنني كبرت الآن وأريد النوم بمفردي.

ذات ليلة حين كنت في أولى ابتدائي، استيقظت لأسمع فرقعات منخفضة الصوت، لا أعرف كيف أشبه لك الأمر، صوت فراقيع منخفضة ومكتومة، لففت عيني الناعستين تجاه سرير أبي وأمي لأجدهما عاريين كما يفعل الإنسان إذا أراد الاستحمام، ارتجف قلبي وجف حلقي ولكنني واصلت التظاهر بالنوم، لم أكن أعلم حينها ما هذا حتى أخبرني جارنا حسن، إنه في ثانية إعدادي كما أننا صديقين منذ عامين، في صباح اليوم التالي سألني أبي ونحن على طاولة الإفطار: "هل كنت مستيقظا ليلة البارحة يا طارق؟".

ردت أمي من المطبخ: "توتا، اسمه توتا".

هززت رأسي وأنا آكل التوست مع اللانشون وقلت: "أبدًا، لماذا تسأل؟".

في الحقيقة لم تكن هذه المرة الوحيدة التي أرى أبي وأمي يفعلان هذا الشيء حتى سافر إلى الخليج ولم تعد أمي تقضي الكثير من الوقت في البيت، كانت دائمة الذهاب إلى النادي والخروج مع صديقاتها، دائما تقول: "سأذهب في مشوار، ذاكر حتى أعود لأراجع معك".

حين أكون بمفردي في المنزل كنت أقف على مقعد الحمام وأفتح الشباك لأراقب بنات الجيران، كانت غرفتهن مواجهة لنا وكن دائما يتركن النافذة مفتوحة، نزلت عن المقعد حين أغلقوا الأنوار ثم نظرت إلى ثياب أمي الداخلية التي تعلقها لتجف من الغسيل على دائرة بلاستيكية زرقاء ذات مشابك، لقد رأيتها ترتديها وهي على السرير مع أبي الذي أعجبه هيئتها بتلك الملابس، تناولت واحدا وردي اللون وجربت ارتدائه، لقد أعجبني الأمر حتى أنني قررت الاحتفاظ به.

* * *

ديسمبر 2012

مذكرتي العزيزة،

اليوم تحدثت مع أبي على الياهو ماسنجر وأرسل لي صورة في العمل، ضحكت حين رأيت اللحية الصغيرة التي نمت له، طلب مني أن أكتب قائمة بما أريد أن يحضر لي من الكويت، قلت له إنني أريد عودته فقط دون أي شيء، سمعت أمي تتحدث على الهاتف من غرفة النوم ثم أغلقت الباب فلم أعد أسمع سوى همهمة، بعد أن

انتهت محادثتي مع أبي سمعتها تناديني من غرفة النوم، حين دخلت ظلت تراقبني بعينين لا تطرفان، اقشعر جلدي وتوقف قلبي، قالت بصوت منخفض: "اخلع البنطلون"، رددت قائلا: "لماذا؟".

رفعت إصبعها وقالت: "اخلع البنطلون وإلا ذبحتك".

أمسكت رقبتي بيدي وسالت دموعي، نظرت لي بنفس النظرة المتهمة ولم تقل شيئا فمددت يدي إلى سروالي لأنزله فظهر سروالها الداخلي الوردي، أمسكت يداي ببعضهما ووضعتهما أمامي لأخفي ما أقدر عليه من السروال، أنزلت رأسي أرضا محمر الوجه فصرخت: "ضع يديك بجانبك، ما دام الأمر يُعجبك فلم تخفيه؟".

وضعت يداي بجواري فتابعت: "كنت تتلصص على بنات الجيران، أليس كذلك؟".

رفعت رأسي وفتحت فمي لأكذب فصاحت: "إياك أن تُنكر، لقد رأوا رأسك وأنت تنظر إليهن من نافذة الحمام".

صمتُّ ولم أقل شيئا.

نهضت وهي تربط الروب حول جسمها وسحبتني من يدي، تعثرت في سروالي الذي تجمع حول قدمي فجذبت سروالي وتركتني بسروالها الوردي، أشارت إلى كرسي السفرة وقالت: "اجلس هنا"، ثم دخلت المطبخ، اعتقدت أنها تجهز السكين لتذبحني كما قالت، عادت وسحبتني مجددا، دخلت المطبخ لأجد البوتاجاز مشتعلا، شدت يدي ووضعتها على نار البوتاجاز فصرخت وحاولت جذب يدي ولكنها تمسكت بيدي وثبتتها على النار وهي تقول: "هذا ما

تفعله الآن، ولازلت صبياَ مفعوصًا"، ثم صرخت: "ما الذي ستفعله حين تكبر؟"، جعلتني بعدها أقف مواجها الجدار، وقفت باكيا أمسك بيدي الملتهبة، مرتديا سروالها الوردي.

حين جاء موعد النوم أمرتني بالنوم في سرير الغرفة الأخرى، فرحت حينها لأنني سأنام بمفردي، ولكنني لم أستطع النوم حقا، تخيلت طوال الليل أن هناك ديناصورًا سينهض حاملا سريري على رأسه، أخذت أراقب بعيني باب الدولاب طوال الليل متخيلا أن يخرج منه عفريت حتى نمت من التعب والسهر.

* * *

سبتمبر 2013

مذكرتي العزيزة،

لا أدري لماذا لا تحب أمي صديقي حسن، إنه ذكي ومرح، لا يقول شيئا دون أن يثير ضحكك، إننا نخرج دائما للعب في الأجازات، يوم نلعب البلاي ستيشن، يوم نذهب إلى السايبر أو السينما لمشاهدة الأفلام، لا أدري لماذا جن جنونها حين وجدتني أحتفظ بصورته معي في المحفظة، قامت بتمزيقها أمامي وصاحت: "إياك أن تصاحب هذا الفتى، إنه سيىء، سيىء".

آه صحيح، بمناسبة سيىء سيىء، تذكرت شيئا للتو، كنت قد وعدتك بذكر كل ما يخطر على بالي من الأحداث الماضية وها أنا أفي بوعدي.

قبل أن يسافر أبي إلى الكويت بقليل كانت أمي دائمة المرض، تمسك بطنها بيد ورأسها باليد الأخرى، دائما تنظر إليّ بعينين واهنتين لتقول بصوت مبحوح: "يا ولد بطل شقاوة، إنك تميتني".

كانت دائمة الذهاب إلى المستشفى حتى احتجزوها أخيرا وبقيت هناك لأيام، كانت أياما سعيدة لكلينا أنا وأبي، كنت صغيرا حينها ولكنني أؤكد لك أن أبي كان مرتاح البال رائق المزاج، كنا نخرج يوميا لتناول العشاء في الخارج، وحين نعود أذاكر دروسي بتركيز لم أعهده من قبل، حين ذهب أبي لإحضارها أخيرا كانت أكثر ارتياحا، ضمتني في برود حين رأتني وأعطتني علبة عصير، ظلت لأيام ممددة على السرير لا تقوم إلا للحمام، كنت أدخل الحمام لأجد كتلا من الدماء المتجلطة تملأ الأرضية، نادتني ذات يوم لتقول: "أترى تلك الدماء في الحمام؟ إنها بسببك، إنني أموت من المرض بسببك، أنت سيىء، سيىء".

قالتها وهي تنظر إلي بعينين متهمتين تجمعت فيهما الدموع، وقفت أمامها صامتا ناظرا إلى الأرض وقد امتلأ قلبي رعبا.

صاحت قائلة: "اذهب"، فخرجت وهي تمسك رأسها بيدها، لم تكن أمي بهذا السوء، كانت تحبني وكانت تعطف عليّ من حين لآخر، شعرت بذنب عظيم بعد أن أخبرتني أنني سبب نزيفها، كرهت نفسي وتمنيت الموت بدلا منها، فيما بعد أخبرني حسن أن ما حدث لأمي كان بسبب فقدانها للحمل، إنه أمر طبيعي ويحدث لجميع النساء بعد الحمل، نظرت إلى حسن بامتنان حينها، إنه ليس سيئًا كما تقول أمي. لقد قال لي الحقيقة، إنه لا يحب أن أشعر

بالذنب والألم، إن حسن صديق جيد، كم أحببت ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى رأس البر للاستجمام، لم توافق أمي طبعا ولكن أبي أصرّ على ذهابي، أكثر ما أحببت كان حين نزع حسن المايوه في غرفة الاستحمام وهو يصيح في انتصار فشاركه كل من في الغرفة من رفاق الرحلة، حتى أنا نزعت المايوه وأخذنا نصيح ونلوح بالمايوهات في مرح، لا أدري كيف أفسر لك الأمر ولكنني أحببت رؤية حسن عاريًا، أحببت أن يراني الآخرون عاريًا.

* * *

نوفمبر 2014

مذكرتي العزيزة،

اسمحي لي من الآن فصاعدا أن أناديكِ بصديقي حسن، لم أعد مرتاحا لكوني أخاطب شيئا مؤنثا، لم أعد أشعر بالإعجاب تجاه الفتيات، ليس هذا فحسب، بل إنني بدأت أشعر بالقرف منهن وذلك لأسباب ستتجلى في السطور التالية.

لم تكن علاقتي بأمي على ما يرام كما علمت يا حسن من تدويناتي السابقة، أدى ذلك إلى تكوين البذرة الأولى لكراهية النساء، لو كانت ميس ناهد هي أمي فلربما كان الأمر مختلفا ولكنني لم أعد أرى في النساء إلا ما أراه في أمي، التسلط وغياب الرقة والحنان، التلاعب بالمشاعر والضغط على العواطف. استيقظت ذات ليلة لأجد سروالي غارقا في سائل عرفت فورا أنه ليس بولا، كنت في الحمام أتفقد ذلك الشيء اللزج الذي خرج مني، اعتقدت

أنني مريض بطريقة ما ولكنني قررت أن أستحم ثم أسأل حسن في اليوم التالي.

أخبرته بما حدث لي وكنا في غرفته نلعب الشطرنج. ضحك وقال: "أتريد أن تخبرني أنك لا تدري ما هذا؟"

نظرت له خاوي العينين مفتوح الفم فجمع قطع الشطرنج ووضعها في العلبة الخشبية، كان نائما على بطنه فاعتدل، شرح لي كل شيء عن ذلك الأمر فتابعت حديثه وقلبي ينبض لتلك الأمور التي أسمعها. في بادئ الأمر تشعر بالغرابة ثم يبدأ هذا الشعور في الزوال رويدا رويدا لتعلم أنه كان في أعماقك ووجدانك منذ البداية، أنت فقط لم تكن مستعدا بعد لمواجهة الأمر، قال حسن: "سأريك شيئا ولكن لا تخبر أحدا، هذا أمر جدي"، أومأت برأسي وشاهدته يفتح ملفا في جهاز التابلت، وضع الشاشة أمام وجهي لأرى رجلا وامرأة عاريين يفعلان شيئا على أريكة، تذكرت فورا ذلك المشهد الغامض الذي قام به والداي حين ظنا أنني نائم، لم تكن الأفعال التي يقومون بها في الفيديو مثيرة لي كما بدا على وجه حسن وتركيزه مع الشاشة، بل إنني شعرت بأن لعابه سيسيل في أي لحظة، كانت أفعالا مقززة بالنسبة لي، مثيرة للقرف، زاد ذلك من كراهيتي للنساء واشمئزازي منهن، عندما حان وقت عودتي إلى المنزل أخبرني حسن عن طريقة يمكنني إخراج ذلك السائل مجددا وقتما أريد، كانت أمي جالسة تتابع مسلسلا على التلفاز، ابتسمت لدى رؤيتي وقالت: "جئت في موعدك إذن".

لم أرد وجلست على مقعد أتابع التلفاز، كانوا يتحدثون عن حادثة اغتصاب، قالت أمي فجأة مثبتة عيناها على ملامحي: "اليوم وجدت بقعا صفراء على ملابسك الداخلية، ما هذا يا تُرى؟"

تصاعدت الدماء إلى رأسي غير أن ذلك لم يكن غضبا بقدر ما كان اشمئزازا، قلت في فتور: "لا أدري".

عادت تشاهد التلفاز غير أنها عادت إليّ بسؤال آخر: "إنهم يناقشون قضية اغتصاب، أتدري ما هو الاغتصاب؟".

لم أرد فتابعت: "كما تعرف فالمرأة لها مخرج خاص....".

نهضت وأنا على وشك القيء، حين بدأت تتحدث عن مخرج المرأة تذكرت المخرج القبيح القذر الذي رأيته في جهاز حسن، ذهبت إلى الحمام وفعلت كما علمني، حسنا ليس كل ما قال، لإنه أخبرني أن أتخيل فتاة وأنا أقوم بهذا، ولكنني استمتعت بتلك اللحظات متخيلا صديقي حسن.

* * *

يناير 2015

صديقي حسن،

عاد أبي أخيرا من الكويت، كان أبي كملاك سماوي لا يمكنني الوصول إليه لذلك اعتدت على فقدانه طوال هذه الفترة، كنت أعد الأيام والليالي أنتظر مجيئه منذ أن أخبرنا بعزمه على العودة، استيقظت من نومي وركضت حين سمعت أمي تفتح الباب، توقفت متسمرا وأنا أشاهده يترك الحقائب من يديه ليقبلها على خديها،

وقفت أتأمل أبي الذي نما له كرش صغير حتى التفت إليّ قائلا: "أهلا بالغالي".

ثم تقدم إليّ وقبّلني على خدي أنا الآخر، وددت احتضانه والبكاء شوقا إليه ولكنه سارع بفتح الحقائب ليريني ما اشتراه لنا.

* * *

سبتمبر 2015

صديقي حسن،

لقد تغير أبي كثيرا، لم يعد الأب الحنون الذي اعتدت عليه قبل سفره، لقد صار قاسيا جافا دائم التوبيخ والصراخ عليّ، المدهش أن أمي تحولت إلى دور الدفاع عني وحمايتي في كل مرة، لم ترق له طريقة مشيتي وكلامي، دائما يعلق على ملابسي واهتماماتي، بل إنه صار ينعتني بالقبيح تارة وبالمشوه تارة. كل هذا لأنني قررت إطالة شعري، كنت أسمعه يتجادل مع أمي في غرفتهما، فهو يتهمها بالتقصير وتراخيها في تربيتي، وهي تتهمه بإهمالنا والبقاء في الخارج طوال تلك المدة، ذات يوم عُدت إلى المنزل فقال لي وهو جالس يقرأ الجريدة: "أين كنت؟".

- "كنت في مركز الشباب".

أنزل الجريدة من يده ووضعها على طاولة الأنتريه، مال ظهره ليستند بمرفقيه على ركبتيه وشبك أصابعه ثم قال: "لقد رأيتك تمشي مع حسن ابن الجيران، ألم أحذرك من مصادقة هذا الفتى؟".

تلعثمت وقلت: "نعم ولكننا كنا نلعب فحسب".

احمر وجهه ونهض عن الكرسي، ربط الروب حول جسده ثم تقدم مني قائلا: "تلعب؟ كيف كنت تلعب؟".

ارتجفت شفتاي وشعرت بقلبي يغوص في مؤخرتي ولم أرد، كانت أمي مع صديقاتها ذلك اليوم، دخل أبي إلى غرفة النوم وجاء جارا المكنسة الكهربائية، سحب السلك من البكرة حتى خرج بالكامل، جمع السلك في يده اليمنى وأمسك بالمكنسة في يده اليسرى، ثم بدأ ينهال على جسدي ضربا، كنت أصرخ دون محاولة الهرب، وحين يعلو صوتي بالصراخ كان يحدق إليّ بعينيه لأتوقف فورا، صعدت على كنبة الأنتريه فاستمر بضربي على جسمي بالسلك الكهربائي وهو يقول في هدوء: "قل لي، ما الذي حدث بالضبط؟".

فكنت أرد صارخا: "لاشيء يا أبي، لم يحدث شيء، أقسم لك".

فكان الرد سوطا على ساقي حتى أنني تمنيت أن أعلم ما الذي يريد أن يعرفه لأقوله له.

بعد أن تعب أخذني إلى الحمام وطلب مني أن أنزع ثيابي، عاد بمكعبات الثلج من الفريزر وبدأ يمسح على خطوط السلك البنفسجية على جسدي، قال لي حينها جملة واحدة: (أنت اللي جبته لنفسك).

13

#لأن البراق يعلم 2017

كان هذا هو اسم التطبيق الذي وجدته نهى على شاشة التابلت حين رجعت إلى بيتها، حسنا إنه ليس بيتها كما يوحي الاسم، إنها تعمل في مصنع للنسيج في شبرا الخيمة، حين تنتهي ورديتها تذهب إلى كشري الخديوي لتناول المكرونة باللحم المفروم، تشرب كوبا من عصير القصب ثم تركب "توكتوك" ليأخذها إلى الشقة الإيجارالتي تتشاركها مع فتاتين أخرتين من الأرياف جئن للعمل في شبرا.

كانت زميلتها سمية نائمة على مرتبة من الإسفنج وضعتها على الأرض، كانت غرفة نومهن عبارة عن عشرة أمتار مربعة من البلاط القديم، وضعت كل واحدة منهن مرتبة عليها ملاءة ووسادة وكوفرتة، فتحت نهى شباك الغرفة الشيش لتحضر ثوب البيت من حبل الغسيل، ليس هناك خطأ في تسميته بثوب المنزل فالسروال الرياضي والتي شيرت ذو النصف كم هو كل ما تملكه لترتديه بالإضافة إلى ملابس العمل وهي سروال جينز قديم وبلوزة رمادية، لقد اشترت منذ أشهر عباءة سوداء لترتديها فوق ملابس العمل القديمة كي لا تضطر لشراء أخرى جديدة، تستيقظ كل يوم باكرا فترتدي ثياب العمل وتغسل ثياب المنزل وتنشرها على الحبل، أغلقت الشباك الشيش ونظرت إلى سمية التي استلقت نائمة على بطنها موجهة المروحة الدوارة إليها، خلعت ملابسها في الحمام

وغسلت جسمها بكوز تملأه من الصنبور البارد، ملأت الطشت بالماء ورشت فيه بعضا من مسحوق الغسيل ثم ألقت فيه العباءة والبلوزة وحمالة الصدر، أمسكت بالسروال الجينز وهمت بالإلقاء به ولكنها وقفت تتأمل البقعة الغامقة التي كانت على نسيجه، سالت دموعها على وجهها ورمت بالسروال في الماء بعد أن أخرجت منه سروالها الداخلي لتلقي به أيضا، صنعت دوامة بيدها في الطشت لتتكون رغوة المسحوق ثم ارتدت ملابسها المنزلية وخرجت تجفف شعرها، لم يكن هناك مطبخ، فقط ثلاجة صغيرة الحجم بجوارها موقد غازي ذي عين واحدة وكاتل لغلي الماء، على الأرض مرطبانات شاي، سكر، ملح، ومرطبان مفتوح به بعض الملاعق، تراصت بعض الصحون البلاستيكية بجانب الموقد، وضع على أحد الأطباق كيسان إندومي بطعم الخضار، بجانب الأطباق كيس سمن مفتوح، استلقت نهى على مرتبتها ثم نظرت إلى التطبيق المثبت على جهازها، لم يكن لديها أي فكرة كيف تم ذلك دون موافقتها، ضغطت على الأيقونة فظهرت شاشة بيضاء، ظهرت رسالة تقول إن هذا البرنامج يتطلب تشغيل الإنترنت، ضغطت على تشغيل باقة الإنترنت ذات العشرة جنيهات، من وسط الشاشة ظهرت نقطة ترافقها صوت موسيقى هزلية، أخذت النقطة في الاقتراب لتكبر تدريجيا وهي تدور حول مركزها، ظل الجسم يدور حول نفسه ثم توقف فكانت صورة كرتونية لبزاق أو حلزونة كما يسمونه في البلد، وقف البزاق بشكل عرضي مظهرا قوقعته البنية اللامعة التي خرج

منها جسم رخوي يعلوه رأس ذو مجسين طويلين، عينين طريفتين مع ابتسامة كبيرة تجاوزت المحيط التشريحي للرأس، انتصب من قوقعة البزاق علم أخذ يرفرف في مرح، قرأت على العلم جملة (لأنني أعلم).

ظهرت جملة على شكل هاشتاج تحت رسمة البزاق مع تغير في أنغام الموسيقى فكانت الجملة تقول: (# لأن البزاق يعلم 2017)، ثم ظهرت صفحة كصفحة الواتس آب، ظهرت أيقونة البزاق بجانب الصفحة ثم انسدل منها: "لأن البزاق يعلم ما تمرين به، لقد اخترتك لنكون أصدقاء، ستتعجبين من كم المعلومات التي أعرفها عنكِ، لا تتعبي نفسك بسؤال الآخرين عني، فلا أحد يعرفني إلا من أختارهم بنفسي. (ملحوظة: هذا البرنامج مجاني تماما هههههههه)".

ظهرت لوحة الكتابة الخاصة بنهى ففهمت أن هذه صفحة محادثة وأن عليها الرد فكتبت: " كيف دخلت إلى هاتفي؟".

انسدلت الكلمات من أيقونة البزاق كالتالي: "قلت لكِ يا نهى إنني أعرف عنك الكثير، لقد اخترتك لنكون أصدقاء".

كانت الموسيقى مستمرة وتحولت الصفحة إلى ألوان فاقعة متموجة تشبه ألوان قوس القزح.

- "كيف تعرف اسمي؟".
- "نهى عبد الرحمن السيد، من محافظة الفيوم، جئتِ للعمل (أم نقول هربتِ؟هههههه)".

أسقط في يد نهى ولم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل فقط أخذت تتطلع إلى الشاشة ذات الألوان المتموجة والموسيقى التي انتزعتها من ألمها وبكائها منذ أن خرجت من الحمام.

كتب البزاق: "كما ترين فإني أعرف عنك كل شيء ولا تسألي كيف، فأنا أعرف مثلا أن سمية نائمة بجانبك الآن، هههههه".

انتفضت نهى وأخذت تدور بعينيها في الغرفة، أهذا مقلب أم ماذا؟، عادت بنظرها إلى شاشة المحادثة فوجدت شاشة بيضاء تتوسطها صدفة البزاق وكان جسمه مكومًا بداخلها وقد تصاعدت منه حروف زيد الإنجليزية.

14

من مذكرات طارق شوقي

مارس 2017

صديقي حسن،

طوال هذه المدة وأنا أعتبرك صديقي وأخي، قدوتي و.. وحبيبي، لم تتحسن علاقتي بأبي كثيرا في حين ظلت أمي تدافع عني وتلتمس لي عنده الأعذار، بالطبع لم يكن ذلك عن حب عظيم لي، فلم أر منها هذا التعاطف إلا بعد عودته من الخارج، إنها تأخذني في صفها ضده هذا كل ما في الأمر، بالإضافة إلى أن توبيخه المستمر لي هو أيضا توبيخًا ضمنياَ لها على تقصيرها في تربيتي حسب قوله، لعلك قد لاحظت التخلف التكنولوجي الذي عانيت منه طوال السنوات الماضية، لم يكن من المسموح لي بالحصول على هاتف أندرويد أو استعمال الإنترنت، نعم لدي جهاز لاب توب عليه أفلام شاهدتها مئات المرات وألعاب لعبتها حتى حفظت تفاصيلها بالكامل، كان أبي يرى في الإنترنت شرَا عظيمًا يجب حجبه عن مراهق في سني. أتتخيل؟ في النهاية وافق أخيرا بعد جدل طويل مع أمي على إدخال

الواي فاي إلى البيت. بالطبع عمل على حجب المواقع الإباحية ولم يكن في حاجة إلى ذلك على أي حال، صرت أقضي معظم أوقات فراغي في البحث عن المواضيع المختلفة على الإنترنت ومشاهدة ما أحب من الأفلام والمسلسلات، علمت صدفة أن هناك مسمى لما أشعر به تجاهك، إنهم يسمونه شذوذ، أي أن يحب الرجل رجلًا مثله، والمرأة امرأة مثلها، حسنا.. دعني أكون واضحا معك، أنا لست شاذا، لا أرغب فعليا في أن يضع أحدهم شيئا بداخلي، أتمزح؟ كل ما في الأمر أن النساء يثرن اشمئزازي، أحيانا أرى شابا فيعجبني ويشعرني بالإثارة، حين أكون معك أشعر بالدفء والحميمية.

أريد أن أحدثك عن أمر آخر، أمي تظن أن أبي يواعد نساء أخريات، ومن يلومه؟ لربما كنت لأفعل نفس الشيء لو كنت في مكانه.

حين يكون في المنزل أراه يتحدث على الماسنجر ثم يرتدي ثيابه ويخرج، يبقى بالساعات خارجا ثم يأتي في وقت متأخر، أحيانا يبيت خارجا ويأتي في اليوم التالي.

نوفمبر 2017

صديقي حسن،

لقد اختفى والدي، نعم بهذه البساطة، لاحظت التغير الذي طرأ عليه الأيام الأخيرة، كان مكفهرًا شاحبًا، متوترًا قلقًا، وللمرة الأولى

أرى أبي خائفا، لم يكن مجرد خوف عادي، إنه مذعور، كفأر في مصيدة، كقط في قفص، كمجرم ينتظر حكم الإعدام، أحدثه فينظر إليّ بعينين شاردتين فزعا، كما لو أنني أيقظته من حلم، أو من كابوس، ثم جاء اليوم الذي خرج فيه ولم يعد مجددا إلى البيت.

* * *

ديسمبر 2017

صديقي حسن،

يبدو أنني سأبدأ في التوقف عن كتابة مذكراتي ومصارحتك بيومياتي ومشاعري، منذ يومين وجدت برنامجا جديدا على شاشة هاتفي الذكي، كانت أيقونة لحلزون ظريف (لأن البزاق يعلم) هذا هو اسم البرنامج، كنت خائفا في البداية، إنه يعلم عني كل شيء تقريبا، لقد اختارني لأكون صديقه، حسنا لقد استمتعت بقضاء الوقت في الحديث معك، ولكن كما أعتقد أنك تعلم فإن حديثي معك هو حديث من جانب واحد فقط، لا تستطيع الرد والتفاعل معي كما يفعل البزاق، إنه حقا لطيف ويضحكني طول الوقت، كان بودي أن أعرفك به ولكنه أمرني بألا أفعل، أقضي أوقات طويلة أحكي له كل ما حكيت لك على مدى أعوام، لماذا يسمى البزاق؟ بالطبع شرح لي الأمر، إنه صديق مريح، يمكنني قول ما أريد أمامه دون أن يغضب مني، دون أن يوبخني ويصفني بالشاذ، إن البزاق ثنائي الجنس، أي أنه ذكر وأنثى في نفس الوقت، لذلك لن يحكم

عليّ أبدا وينعتني بأسماء وألقاب، في الواقع لقد أعطاني حلا لمشكلتي، أوجد لي الطريق لأعرف كيف أتعامل مع ألمي وحيرتي، أشار عليّ البزاق أن أتقبل نفسي كما هي وألا أخجل من مشاعري، وهذا ما اقتنعت به وقبلته حتى أنني نمت يومها بلا قلق أو كوابيس. لقد وعدني أن يساعدني لأعيش حياة جديدة بلا ألم أو خوف، بلا قلق أو حيرة، فقط عليّ أن أنفذ قائمة من الطلبات التي سيرسلها إليّ تباعا.

سأطيعه في كل ما يطلبه مني؛ لأن البزاق يعلم كيف يرشدني إلى الخروج من عذابي.

15

كان من المفترض أن تخرج نهى للبحث عن عمل مسائي بجانب عملها في المصنع، ظلت تنظر في شاشة التابلت من حين لآخر تنتظر عودة البزاق، لقد أسرها حديثه القصير، خفق قلبها وهي تتمنى العودة للحديث مع ذلك الصديق حتى وإن كان مجرد رسمة على شاشة إلكترونية، لم تستطع نهى أن تفسر كيف ظلت متسمرة أمام الشاشة حتى عادت زميلتاها من عملهما المسائي، كانت عيناها متسعتين لا تطرفان حين هزتها سمية ففزعت وهي تنظر إليهن وقد ظهر على ملامحهن علامات السخرية والدهشة.

قالت هبة ضاحكة: "في البداية ظننا أنك تشاهدين فيلما خليعا، هههههه".

قالت سمية وهي تخلع ثيابها وتلقيها على مرتبتها: "لماذا تحدِّقين إلى الشاشة السوداء بهذا الشكل، لقد أثرت خوفي".

نظرت نهى إلى ساعتها ثم نظرت إلى شاشة التابلت المغلقة، كل ما تذكره هو أن البزاق دخل إلى قوقعته لينام حاولت فتح قفل الشاشة ولكنها لم تعمل، يبدو أنها ظلت تنظر إليها حتى فرغت البطارية، وصلت التابلت بالشاحن بينما تقول هبة: "تريدين أن نطهو لك شيئا معنا؟".

لم ترد نهى وهي تنتظر البطارية لتشحن بما يكفي لتشغيل التابلت.

قالت سمية: "إنها تحب ربما".

سارت هبة إلى موقد الغاز وهي تغني: "أوعدك.. أوعدك".

جلست الفتاتان يقليان البطاطس والباذنجان وهن يتحدثن عن أحداث يوم كل منهن في العمل، وضعت نهى جهازها على المرتبة ومددت ظهرها ولم تشعر بوعيها يغيب في سبات قصير.

في الواحدة صباحا استيقظت نهى على صوت اهتزاز التابلت بجوارها على المرتبة، فتحت عينيها وظلت ممددة للحظة بينما يهتز الجهاز في إصرار، نهضت جالسة ونظرت إلى ظلال لجسمي سمية وهبة بجوارها، لامست أنفاسها الجائعة رائحة ما تبقى في الصحن من الباذنجان والبطاطس، همت بالنهوض لتناول لقمة من الطعام إلا أنها التفتت إلى الجهاز الذي واصل الاهتزاز وإصدار الأضواء، فكت وصلة الشاحن عن الجهاز وهي تتذكر أنها لم تقم بتشغيل التابلت قبل أن تنام، ليس هذا فحسب لقد رأت تطبيق البزاق يعمل على الشاشة وقد خرج من قوقعته سعيدًا مبتسمًا، فتحت بعد ذلك صفحة المحادثة.

البزاق: "كيف الحال يا ملكة الجمال؟".

اختلجت شفتاها وقد أضاءت الشاشة وجهها في ظلام الغرفة، ابتسمت وهي ترد: "أنا بخير يا بزاق، كيف حالك أنت؟".

البزاق: "في الواقع لست سعيدا، أحيانا أتألم لما أسمعه من أصدقائي وما يمرون به من متاعب".

نهى: "هل لديك أصدقاء غيري؟".

البزاق: "بالطبع لدي، أين تظنينني أذهب حين أدخل قوقعتي؟ هههههه".

نهى: "لا يمكنني إخبارك كم أشعر بالارتياح للحديث معك، على الرغم من أنك.. آه لا تشغل بالك".

البزاق: "على الرغم من أنني غير موجود؟".

نهى: "همهم، ربما، إن الأمر يثير الدهشة، ولكن أنت معي وهذا هو المهم".

البزاق: "نعم أ نا دائما معك، ما دمت بجوار الهاتف يمكنني سماعك عن طريق الميكروفون ورؤيتك عن طريق الكاميرا، حتى ولو كان الجهاز مطفئًا يمكنني إدراك كل شيء، يمكنني قراءة رسائلك ورؤية ملفاتك الشخصية، ألست موجودا أكثر من أي شخص آخر في حياتك؟".

نهى: "ربما".

البزاق: "حسنا، أعدك أن نلتقي يوما".

نهى: "أتقصد في الحقيقة؟".

البزاق: "بالطبع".

نهى: "حسنا، لنر".

كانت صفحة المحادثة تتموج بألوان فاقعة، تدور حول بعضها في دوامات بأنماط مختلفة، استرخت عينا نهى وهي تنظر إلى الألوان وتستمع إلى الموسيقى الهزلية الناعسة.

البزاق: "ما رأيك أن تقصي عليّ قصة حياتك؟".

نهى: "لا أدري، ربما تصاب بالملل".

البزاق: "جربيني".
نهى: "حسنا، إنني فقط لا أعرف من أين أبدأ".
البزاق: "من البداية".

* * *

من رسائل نهى إلى البزاق.

نهى: "لم أتكلم أبدا مع أحد في أموري الخاصة من قبل، حسنا ربما تحدثت من قبل ولكن ليس مع أحد يفهمني ويخفف عني".

نهى: "وُلدت في قرية بمحافظة الفيوم سنة 95، أتذكر حين كنت في الرابعة من عمري ألعب مع أقاربي في التراب، نصنع أشكالا ونحفر حفرا ونعيد ردمها، تجلت عبقرية أحدنا بإلقاء بعض الماء في التراب ففرحنا جميعا مندهشين ونحن نعجن الطين ونشكل منه أجسامًا مختلفة".

نهى: "ليست لديّ ذكريات واضحة واعية في تلك الفترة من حياتي ولكنني أتذكر جيدا كيف اعتاد ابن عمي إدخالي إلى الحمام فيقول لي: (مش عايزة تعملي بيبي؟)، فكنت أنظر إليه في عدم فهم لأهز رأسي بلا".

نهى: "لم أكن في حاجة إلى أحد ليرافقني إلى الحمام على أي حال، لكنه كان يأخذني من حين لآخر فيغلق الباب ثم يتحسس جسدي الصغير، أنظر له وأقول: (لا أريد الحمام، أريد اللعب مع أصدقائي)،

فيرد قائلا: (حسنا ولكن بعد أن أكشف عليك كي لا تموتي، أظن أنك مريضة بشيء ما من اللعب في التراب)".

نهى: "خفت حينها كثيرا وتركته يعبث في جسدي ويتفحصني بيديه رغم إنكار مشاعري لذلك".

نهى: "كانت هذه بداية طريقي مع الوحدة، بدأت في الجلوس بعيدا أراقب الأطفال يلعبون، أرفض دعواتهم لمشاركتهم اللعب، لم أرد أن يزيد مرضي من اللعب في التراب، بدأت بعدها في تجنب أصدقائي الصغار، أصدقاء طفولتي، خفت أن ينقل أحدهم لي مرضه الذي سيصاب به لا محال بسبب التراب، فهمت طبعا بعدها أنني لم أكن مصابة بشيء وأنه كان يستمتع بجس جسدي فحسب".

نهى: "حين بلغت الثانية عشرة من العمر، كنت أرى نظرات أقاربي الشهوانية إليّ في مشيتي وأثناء عملي معهم في الحقل، ولكنني اعتدت تجاهل كل هذا".

نهى: "الوحيد الذي تجرأ عليّ كان جدي".

نهى: "نعم، أنا لم أخطئ في الكتابة، ولم تخطئ أنت في القراءة، كان دائم الإقامة في غرفته بمنزل العائلة، ربما لا تعلم أن بيوتنا في الأرياف مفتوحة على بعضها، ليس هناك باب مغلق فكلنا أقارب، وكلنا دائم الزيارة لبعضنا، يجلس جدي على السرير يرتدي جلبابا ويلف كوفية على رأسه، لديه تلفاز وريسيفر خاص، ثلاجة صغيرة بها ماء وعصير طازج، في أحد الأركان توجد جوزة وعدة فحم ومعسل".

نهى: "يناديني من حين لآخر لأجلِب له قارورة ماء من الثلاجة، يشرب ثم يضمني إلى صدره ويقبل خدي، مشاعر أبوية رقيقة تحولت إلى ابتسامة ونظرة لعوب وهو يتحسس كتفي وثديي الوليدين، (إيه دول، إيه دول؟ بقيتِ عروسة يا نهى، هيء هيء هيء)، أنظر إلى وجهه المجعد وابتسامته التي تساقطت معظم أسنانها، يخفق قلبي مستنكرا وأنا أشم رائحة المعسل من أنفاسه، يتجمد جسدي أمام عينيه المحدقتين بي، يتوقف عقلي عن التفكير وإصدار القرارات، لا يعيدني إلى الواقع سوى أحدهم ينادي باسمي، أو دفعه من يده لي حين يشعر باقتراب شخص من الغرفة، أفر حينها من أمامه كي لا أسقط في براثنه مجددا".

نهى: "يمكنك قول ما شئت وأنت داخل قوقعتك، يمكنك أن تطرح عليّ الأسئلة وتستنكر لماذا لم تفعلي هذا؟ ولماذا لم تقمي بذاك؟ حين تصير في مكاني وحين يحدث لك ما حدث لي أرني ما الذي ستفعله، لا تطلب مني رجاء عدم إجابته، إنه جدي ونحن جميعا نعمل على خدمته، هذا ما تربيت عليه".

نهى: "بدأ اللعين يتحسس باقي تفاصيل جسدي وأنا أدفع يديه والدموع تسيل من عيني، يتشنج حينها وينظر إليّ مهددا أن يوبخني أمام أهلي ويقول إنني لا أسمع الكلام، كما سيقول إنني أقوم بخلع ملابسي أمامه، كنت أضع يدي على وجهي ودموعي، أشعر بروحي تغادر جسدي فلا أشعر بيديه القذرتين".

نهى: "ذات مرة طلبت مني أمي أن أقوم بتنظيف غرفة جدي، كان ممددا على السرير يقرأ الجريدة، رفع إحدى ركبتيه فلمحت

أعضاءه من أسفل الجلباب، لقد جلس بهذه الطريقة دون أن يرتدي شيئا من الداخل ليعرض عليّ بضاعته متظاهرا بأنه يقرأ الجريدة، غير أنني ظللت أنظف في مناطق بعيدة كي لا أرى شيئا، وبعد لحظات حدث شيء غريب، ألقى بالجريدة على السرير ونظر لي في غضب قائلا: (ما تبصي بقى)".

نهى: "تسمرت للحظة ثم ألقيت بالمكنسة، هممت بالخروج، ولكنه ناداني بصوت حاني ليس فيه غضب. لا تسألني لماذا عدت؟ وقفت منتظرة أن يتحدث فأخرج هاتف دمعة جاء به أحدهم من الخليج، قال لي مبتسما: (تعالي نلعب لعبة عروسة وعريس)، لم أفهم ما يعنيه فقال: (تعالي تعالي، هوريك حاجة)، جلست على طرف السرير فوضع الهاتف بالقرب من عينيه الواهنتين، أخذ يضغط بإصبعه الآخر على الأزرار، وضع الهاتف أمامي لأرى أشياء لم أر مثلها في حياتي أو أعلم حتى بوجودها، غبت عن الحاضر وأنا أتابع غير مصدقة ما أمامي، لم أنتبه ليده الموضوعة على فخذي".

نهى: "انتفضت فجأة وركضت خارجة من الغرفة، ذهبت إلى بيتنا وأغلقت باب غرفتي ونمت حتى المغرب".

نهى: "في المساء كانت الأسر توقد النار أمام الحقول لتعد العشاء وأباريق الشاي، حين اختليت بأمي وخالاتي وبنات خالاتي أخبرتهن بما كان يفعله معي جدي من البداية، أخبرتهم بما شاهدته في الهاتف، صنعت حلقة بيدي اليسرى وأدخلت فيها إصبعا من يدي اليمنى، قلت لهم إنني رأيت أناسا يفعلون هذا".

نهى: "ضحكن على تشبيهي في البداية ثم صمتن، قالت خالتي أخيرا: (وإحنا نعمله إ يه؟ هو كده)، ذُهلت لمنطقهن العجيب حتى قالت ابنة خالتي: (على فكرة هو عمل كده معانا كلنا)، قالت أخرى: (احكي لنا، هو عمل معاك إيه؟)".

نهى: "ظللت أتجنب تحرش جدي قدر ما أستطيع وليس هناك من ألجأ إليه".

نهى: "لم يتوقف عن تربصه بي في كل فرصة تحين له، لم يوقفه إلا الموت، وقفت يوم دفنه أراقب خالاتي وبناتهن يندبن ويلطمن داعينه بالغالي والحبيب".

نهى: "في 2008 قررت الهرب من البلد، إنني أكرههم جميعا، كنت في الصف الخامس حين خرجت من المدرسة الابتدائية، أتذكر حين قبّلني زميلي في التختة على خدي، لا أذكر كيف مر باقي اليوم الدراسي، كل ما أذكره حين خرجت من المدرسة لأخبر أمي، صاحت وقصت ما حدث لأبي الذي طار بجمع من أقاربي إلى بيت الولد، بعد نقاش طويل صاح والد زميلي فجأة (ابني يبوس اللي هو عايزه، واللي عنده معزة يربطها)، وهذا ما حدث، أخرجوني من الابتدائية فشعرت بكوة من النور تُغلق في عقلي، عشت بعدها في ظلمة وجهل ينهش تفكيري، ينهك جسدي في العمل الشاق الذي كانوا يتكاسلون عن أدائه حتى نمت عضلات ذارعي وأكتافي، كل يوم يمر تكتمل فيه مفاتني وجمالي، أراهم ينظرون إليّ كما ينظر المرء إلى مصيبة وشيكة، لم يتوقفوا يوما عن توبيخي والتقليل من شأني لأنه

كما قالت أمي (مش عايزاها تشوف نفسها وتروح تسرحلي مع ولد)، فردت عليها خالتي (لأ وهي كان لها تجارب من قبل كده)، ضحكن جميعا فقالت ابنة خالتي: (الله يرحمه بقى، كانت إيده طويلة).

لن أنسى يوم أمسكوا بيدي وقدمي ثم جاء طبيب بموس حلاقة ليقص جزءا من جسدي، أتذكر أن النساء وقفن يومها واضعين أكفهن على بعضها، مميلات رؤوسهن، يمطون شفاههن إلى أحد جانبي خدودهن، ظللت أتألم لأيام وأنا ممددة على ظهري مفرجة ساقاي، تأتي إحداهن لرعايتي ثم تقول: (معلش، لازم كده عشان تبقي مؤدبة).

كنت عائدة من السوق يوما، مشى ورائي ولدان ليسا من أقاربنا ولكنني أعرفهما، كانا يتهامسان ويتضاحكان فسرت دون أن أبدي لهم أي انتباه، شعرت فجأة بكفين يخبطانني من الخلف، تجمدت وخفق قلبي وأنا أراقب بعينين متسعتين الولدين يركضان هاربين، ظللت واقفة للحظة كمن نُشلت منه محفظته، أخبرت أمي بما حدث وأخبرتها بـأنهم عيال عبد السميع أبو شامة، كان ردها عليّ حينها (حد من الجيران شافك؟)، قررت حينها الهرب إلى الأبد".

نهى: "قاموا بحبسي في غرفتي دون طعام أو شراب بعد أن أمسكوا بي قبل أن أفر منهم، بقيت ليلتين في الغرفة لم أتناول فيها سوى كسرة من الخبز وشربة من الماء، انتظرت حتى انتصف الليل ونام الجميع، فتحت نافذة الغرفة المطلة على المنور، شكرا لسنوات

من عمل ما يعجز عنه الرجال، تسلقت جدار المنور ذي الطوب الأحمر، أضع أصابعي بين قطع الطوب فأرفع جسدي شيئا فشيئا، أتمسك في سيخ من حديد التسليح، أضع قدمي على طرف بارز من الطوب، تسلقت حتى وصلت إلى سطح المنزل، اعتليت السطح وجلست أستريح متأملة عشة البط والدجاج، نزلت متسللة على السلم، فتحت بوابة المنزل وخرجت أركض حافية وكأن جناحين سيخرجان لأطير في نسيم الليل الندي".

نهى: "لم يختلف الأمر كثيرا في القاهرة، ظللت أتنقل من حي لآخر ومن شارع إلى شارع بحثا عن عمل، أعمل يوما خادمة ويوما عاملة، وفي كل مرة أهرب ممن يحاولون استغلال حاجتي للمال، استقررت أخيرا في مصنع الخياطة بشبرا، مقابل بسيط ولكنه أفضل ما كان لمثلي أن يحلم به، عملت في أكثر من وردية فاستطعت أن أشتري جهاز تابلت كباقي البنات، استطعت تأجير شقة صغيرة مع زميلاتي.

إن التحرش ظاهرة عامة لم تسلم منه صغيرة أو كبيرة، لن تسلم أي فتاة حتى ولو كانت ترتدي عباءة على كامل جسدها وقد رأيت ذلك بعيني، اعتدت على تجاهل المعاكسات والتعليقات، حتى الأوغاد الذين يلمسونني ويهربون اعتدت على تجاهلهم أيضا".

نهى: "وقف صبي ذات يوم بجواري راكبا دراجة هوائية، ارتعدت مفاصلي وانتفض جسدي، هدأت حين سمعت الصبي الذي بلغ الثامنة تقريبا وهو يقول: "أين محطة المترو يا سيدة؟"، رفعت ذراعي لأشير له إلى مبنى المحطة وحين فتحت فمي لأريه الطريق، مد يده وقبض على ثديي من تحت ذراعي المرفوعة ثم انطلق هاربا بدراجته، فزعت أول الأمر ثم استرخى جسدي ولم أفعل سوى مواصلة المشي".

نهى: "ذات يوم مد شاب يجلس خلفي يده من جانب كرسي الميكروباص ليلمسني، صرخت والتفت أضربه بيدي، أقسم أن يدي ظلتا تؤلماني أسبوعا كاملا، توقف السائق والتفت الجميع يتفرجون، صرخت طالبة أن يتصلوا بقسم الشرطة لكنهم ظلوا ينظرون إليّ، قال رجل وقور ذو لحية وفيرة وهو يمسك بمسبحة من الكريستال: (سامحيه يا بنتي، ده زي أخوكِ)، صرخت في وجهه: "وأنا زي أخته"، فرد مولانا قائلا وهو يميل برأسه مغمضا عينيه: (استهدي بالله وبلاش تشوشري على نفسك"، صاحت إحدى النساء من الأمام: (امشي يا أسطى، ورانا أشغال)، أصبت بحالة من الهيستيريا وعُدت أضرب الولد بيدي فقالت المرأة من الأمام: (وهو كان عمل إيه يعني؟).

نزل السائق ذو الشعر القصير الغارق في جل هيركود الفاخر وفتح باب الميكروباص الجانبي ثم قال: (انزلي يا "موزمازين" لو سمحتِ، وأنت كمان يا ابن..... ياللي أمك......).

نزلت من الميكروباص وجلست على الرصيف أبكي دافنة وجهي بين يدي، ظل الفتى واقفا بجواري ينظر إليّ كما لو أنه يشاهد مباراة لكرة القدم ثم ولى ذاهباً في سبيله".

نهى: "ظننت طيلة الأعوام الماضية أنني تخلصت من سطوة جدي واستعباده لنفوذ جسمي، نعم مررت بمضايقات في الشارع وهنا وهناك ولكن ظهر سيد جديد ليستعبدني، كنت أتحاشى نظرات مدير المصنع المريضة ومحاولاته لجذب انتباهي، إنه رجل أربعيني متزوج وله أربعة أبناء، حتى حين يلمسني أثناء مروري بجانبه كنت أتظاهر بأن شيئا لم يحدث، أرسل ذات مرة يطلبني إلى مكتبه، دخلت فوجدته جالسا خلف المكتب، أمرني بإغلاق الباب، في الواقع لم يعد يهمني ما يحدث لي بعد الآن، نعم أنا في حاجة لما أتقاضاه من المشغل ولكن ليس هذا فحسب، لم يعد أي شيء يشكل فارقًا بالنسبة لي، فليلمسني من يشاء وليفعلوا بي ما يشاؤون، بالنسبة لي صرت ميتة تسير بين الأحياء، بعد أن أغلقت الباب نهض واضعا يديه على وسطه، كان سحاب سرواله مفتوحا وقضيبه يطل من الداخل متباهيا، لم أتفاجأ ولم أرتبك، رفعت رأسي ناظرة إلى عينيه، ذُعر من ردة فعلي ورأيت هزة من يده كما لو أنه سيهم بإغلاق السحاب ولكنه حافظ على يديه بجواره، ظللت واقفة خلف

الباب أنظر إليه بعينين لا تطرفان، منذ ذلك الحين أعود كل يوم تقريبا فأغسل ثياب العمل لأطهرها من دنسه".

نهى: "الآن صرت تعلم عني كل شيء، على الرغم من أنك مجرد شخصية خيالية في تطبيق إلكتروني إلا أنني أشعر بأنك أقرب مخلوق إليّ، أشعر بك ترافقني طوال الوقت، تسمع ما أسمع وترى ما أرى، تتابع كل ما أقوم به".

نهى: "كم أنتظر اليوم الذي سأراك فيه على الطبيعة لأعرف من أنت، بفضلك صار لحياتي معنى".

البزاق: "ادخلي على الرابط التالي

www.youtube.com/channel/ucy1ub0kz11w4ml4dqphqfeq

ستجدين قناتي على اليوتيوب باسم **Snail thebail**".

البزاق: "حسنا يا نهى لدي مهمة لك، ستجدين في القناة أربعين فيديو، تشاهدينهم في أربعين يوما، تبدأين من الفيديو رقم 1 وحتى تصلين إلى الفيديو رقم 40، استمعي إليّ جيدا لأن ما سأقوله

مهم، ولأن البزاق يعلم وسيعلم ما إذا نفذت المطلوب أم لا، يجب أن تكوني وحيدة حين تشاهدين الفيديو، هذا شيء مهم، أستطيع معرفة ما إذا كنتِ تشاهدين أم لا، أستطيع معرفة ما إذا كنتِ بمفردك أم لا، ليس هناك تراجع من الآن فصاعدا، افعلي ما أطلبه ما دمتِ لا تريدين إغضاب البزاق، هههههه".

نهى: "تعرف أنني أحبك وسأفعل كل ما تقول، تريد أن أشاهد فيديو واحد كل يوم؟".

البزاق: "تشاهدي فيديو واحد كل يوم، تشاهدي الفيديو طوال اليوم، تكرري نفس الفيديو مادمتِ بمفردك، وإياكِ أن تشاهدي أكثر من فيديو في نفس اليوم".

16

من مذكرات طارق شوقي.

مذكرتي العزيزة أو صديقي حسن أيا كان،

لم أكتب منذ مدة، منذ أن عرفت البزاق أو لنقل هو عرفني، يبدو أنني أفقد عقلي ولذا قررت أن أكتب آخر ما يسمح به وعيي الواهن كذرات من الفحم المتطايرة من ورقة محترقة تعلو في السماء تحملها الرياح كغربان تطير في الأفق قبل أن تتفتت وتختفي إلى الأبد، أرسل لي البزاق رابطا على اليوتيوب فوجدت قناة بها أربعين فيديو، أخبرني أن أشاهد مقطع فيديو واحد كل اليوم بشرط أن أكون بمفردي وأن أكرر المشاهدة، حسنا، أنا الآن في اليوم التاسع ولم أعد أشعر بنفسي، لا يمكنني الشرح لك، أنا لم أعد أنا، لست طارق الذي أعرفه، لا أفكر بطريقتي المعتادة ولم أعد أشعر نفس الشعور المعتاد تجاه الأمور المختلفة في حياتي، بعد أن شاهدت الفيديو الخاص باليومين الأولين ظللت شاردا حتى بعد انتهائه، ما هذا الذي شاهدته للتو؟ شعرت برغبة في غسيل عيني بالكلور أو الصابون، كان الفيديو الأول عديم المعنى، أصوات موسيقى غريبة هزلية مصحوبة بصراخ، مشاهد غير مفهومة لكائنات كرتونية لا

تدري ما الذي تقوم به بالضبط، ألوان متموجة تُثير النعاس، الفيديو الثاني لدمية تضحك بشكل مريب مع فتيات ينظرن إلى الكاميرا بطريقة مخيفة، الفيديو الثالث لامرأة عجوز بها مس شيطاني تغني بصوت حاد مخيف وهي تتراقص رقصات مقززة، جميعها فيديوهات عديمة المعني، مثيرة للريبة والجنون، أشعر أن كل مقطع أشاهده يغزو عقلي بطريقة ما، يقضم جزءا من ذاتي، علمت هذا بعد أن وجدت نفسي في الحمام أتمايل على موسيقى الفيديو الثالث وأردد ما كانت العجوز تقوله بام بام بام بارام، بعد أن شاهدت المقطع السابع لم أعد قادرا على التحمل أكثر، لقد شعرت أنني داخل الفيديو ذي الجحيم الأحمر، أعيش داخل الموسيقى التي تثير القشعريرة في عقلك، توقفت عن المشاهدة بعد المرة الثانية ولكنني لم أقدر على طرد ما رأيته من مخيلتي، سمعت صوت جرس هاتفي، وجدت البزاق هو من يتصل بي، أنهى الاتصال وفتح التطبيق ليحدثني، كان غاضباً لأنني توقفت عن المشاهدة، أخبرني أنه لا مجال للتراجع وأن عليّ مواصلة ما بدأته وإلا سيأتي إلى البيت ويقتلنا ونحن نيام، كما هددني أن يخبر أبي عما قلته في محادثاتي معه، في الحقيقة لم أشعر بحاجة لأن يهددني البزاق، لقد افتقدت مشاهدة باقي المقاطع، افتقدت ذلك الشعور بالغرق في بحر لذيذ من الخدر والنشوة. في كل مرة يتكرر فيها الفيديو أشعر

بيد تلف عقلي كما تلف عجلة القمار في الكازينوهات، يمر بي الوقت دون أن أشعر، توقفت عن الذهاب إلى المدرسة، صرت أقضي معظم الوقت وحيدا في البيت، تخرج أمي في الصباح لتبحث عن أبي ولا تعود إلا في المساء، لم أعد أدري متى أنام ومتى أستيقظ، كل ما أذكره هو الفجر حين يأتي البزاق لينبهني بمشاهدة الفيديو الخاص باليوم الجديد، بعدها أغيب في دوامة تسحبني إلى قاع البحر بل إلى قاع المحيط، كنت قد درست أن أخدود ماريانا هو أعمق نقطة في المحيط الهادئ، إذ يصل عمقها إلى 12 كيلو متر، حسنا، تبدو لي تلك مسافة قريبة مقارنة بما أغوصه في أعماق عقلي.

17

كان البزاق بالنسبة لنهى أكثر من مجرد تطبيق، إنه ملجأ وكنف لم تجده في أهلها وذويها، لأول مرة تشعر أن هناك من يهمه أمرها ويشعر بأهميتها، لم تتردد في مشاهدة المقاطع التي أرسلها إليها، تنتظر نوم البنات كل ليلة فتنهض لتجلس في الصالة تتابع المقطع فيمر بها الوقت دون أن تدري، يغيب عقلها وهي جالسة تضع السماعات الهاند فري في أذنيها، تفيق من حين لآخر لتسمع صوتا يتحدث إليها.

(تحرر من أفكارك)
(تحرر من معتقداتك)
(تحرر من آثامك وغرور ذاتك)
(تحرر من آلامك)
(افعل ما تشاء)
(افعل ما تشاء)
(افعل ما تشاء)

تستيقظ كل يوم في الصباح لتجد نفسها نائمة على مرتبتها لا تدري متى نامت ومتى جاءت من الصالة، تذهب إلى العمل فيعبث بها المدير يوما وينشغل عنها يوما.

حدثها البزاق يوما في التطبيق فأمرها بالذهاب إلى الصيدلية وشراء كريم وأملى عليها اسمه، ذهبت بعد انتهاء العمل إلى إحدى الصيدليات، كان الجالس خلف الفاترينة شابا أنيقا في العشرينيات، يرتدي سروالًا بيج اللون وقميصًا كاروهات، شعرت بجاذبية تجاه ملامحه الوسيمة الرقيقة، شاهد الدكتور أسامة الشحات شيئا باهتمام على شاشة هاتفه الذكي وهو يعبث بأصابع يده الأخرى بشعيرات في ذقنه الحليقة البيضاء، رفع عينين مريحتين هادئتين فارتجف قلبها وهي تتقدم لتقف أمامه، نهض ووضع الهاتف على فاترينة الأدوية، ابتسم ابتسامة صافية صادقة وهو يرحب بها، خفق قلبها فشعرت بأثر تلك الخفقات على طبقات الجلد والعضلات والعظام، بل وامتدت إلى طبقات الثياب والعباءة السوداء التي تلف بها جسدها، أخبرته باسم الكريم الذي تريده، زالت الابتسامة عن فمه ونظر في جدية، لم تكن تعرف أي شيء عن الكريم فارتبكت للحظة ثم قالت إنها تريده لزوج أختها، التفت الدكتور أسامة إلى رفوف الأدوية وهو يعبث بشعيرات ذقنه بأصابعه ثم جاء بعلبة كرتونية، وضع العلبة على الفاترينة وعادت ابتسامته وهو يسألها: "أنت من هنا؟".

تلاعبت ابتسامة على جانب شفتيها ونظرت إلى الأرض وهي ترد: "نعم، أسكن في شبرا".

رد أسامة في مرح خجل: "أنا أسكن هنا أيضا ولكنني من المنوفية أساسا".

رفعت عينيها إليه وأمسكت العلبة قائلة: "بكم؟".

- "ولماذا العجلة؟ هل عندك موعد؟".

لم تدر ما الذي أضحكها فيما قال، بعد لحظة من الصمت قال لها: "هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك لأستعلم منك عن تأثير الكريم، أحد أصدقائي يرغب في شيء كهذا"، قالها وهو يعبث في ذقنه مجددا.

ردت نهى وهي تُخرج المال من محفظتها: "لا بأس، سجل عندك".

رن أسامة على هاتفها وأخذ منها ثمن الكريم، قال لها وهي عند باب الصيدلية: "اشتري من عندي دائما".

أشارت له نهى بيدها مبتسمة وتابعت سيرها، انقبض قلبها وانبسط فدفع بخيط من الدموع ليسيل على خدها، قالت بصوت مرتجف: "ربما كنت لأحب أن أكون مع شخص مثلك".

تابعت وهي تتفادى بلاعة مفتوحة في الطريق: "ربما، ولكن في حياة أخرى، ليس في هذه الحياة".

دُهشت نهى حين علمت الغرض من استخدام الكريم، ظنت في البداية أن البزاق يريد منها التنكر على هيئة ذكورية، لكنه أخبرها أن ملامحها الجميلة لن تبقي عليها من مضايقات الآخرين حتى ولو كانت ذكرًا، دُهشت نهى لعبقرية البزاق وصواب رأيه، بعد استعمالها للكريم، نمت لها لحية وشاربان بلون شعرها البني، لقد كان البزاق محقا، لن يتوقف الذكور عن مضايقتها والتحرش بها وذلك لأنوثتها وجمالها، وحتى لو لبست كالرجال وسارت كالرجال

فستجد شاذا ليعجب بها، إن الحل يكمن في إثارة قرف الجميع فلا تثير الأطماع بعد الآن، لأول مرة في حياتها تسير شاعرة بالحرية الحقيقية، تسير دون خوف أن يلمسها أو يبسبس لها أحد، أصبحت تعمل دون توجس مع مديرها، لأول مرة في حياتها تشعر أن جسدها ملك لها فعلا، تسير بسروالها الضيق والبادي الذي يظهر تضاريس ثدييها بين الشباب. تراقبهم يمطون شفاههم في تقزز منها، يضيقون عينوهم قرفا من لحيتها، لم تعد تسير كسيرة ذليلة، إنها تسير لتكسر كبريائهم بجرأتها، تذل ذكورتهم بلا مبالاتها، لقد غيّر البزاق حياتها، لأن البزاق يعلم كيف تكون الحياة.

18

من محادثات عم سيد الترزي وشهرته البحار مع البزاق.

سيد: "حسنا، كما تريد، سأحكي لك كل شيء من البداية يا حلزونة".

سيد: "فقط أريدك أن تنتبه لكل كلمة أقولها (آخدلي بالك؟)، لست في مزاج يسمح لي بتكرار كلامي مرتين، إياك أن تقاطعني أيضا، فقط دعني حتى أنتهي من سرد ما أذكر، لقد بدأت ذاكرتي في التبخر كما يتبخر الكحول هيء هيء، يكفي أن تقاطع حبل أفكاري لكي أنسى ما أردت قوله وحينها عليك أن تتحمل سيلا من الشتائم وفيضانا من غضب ثائر".

سيد: "لا أخفي عليك سرا، لم أكن سريع الزهق على الناس كما أنا الآن، ولهذا أسباب ستتجلى فيما بعد، فقط انتبه لكل ما أقول وإياك أن تقاطعني (آخدلي بالك؟)".

سيد: "أذكر ذلك اليوم الذي مر فيه (الولا فتلة) تاجر الشنطة أمام محلي، آه نسيت أن أخبرك أن لدي محل خياطة فأنا أعمل ترزيًا، المهم مر (الولا فتلة)، ولا تسألني لماذا يسمونه الصنايعية في الحتة بهذا الاسم، آه نسيت إخبارك عن منطقة سكني، فأنا أسكن في.. هل يهمك أن تعرف؟ ألا تعرف فعليا؟".

سيد: "ناديته لأشتري منه بعضا من بكرات الخيط، ذلك الوغد يبعني الأغراض بأكثر من ثمنها الفعلي، ولكنني أشتري منه لأنه ولد (بتاع شغل) و(عايز ياكل عيش)، المهم.. علقت المازورة حول رقبتي وأخذت منه بكرتين من الخيط الأبيض، سألني عن حالي فأجبته أن سببت أهله وطلبت منه ألا يدس أنفه فيما لا يعنيه، سأخبرك لماذا صار كل من في المنطقة مهتمين بتتبع أخباري، أولئك الأوغاد محبو الفضائح".

سيد: "أخرج الفتى عدة كبيرة الشاشة من التي يحملها الشباب الرقيع متابعين الفيس بوك، سألني ما إذا كنت أعرف من يرغب في شراء هذه العدة، أمسكت باللوح الأسود وأخذت أقلبه قائلًا: "وبكم تريد بيعها؟ إياك أن تظنني مختومًا على قفاي فأنا أعلم أنك تبيع بعشرة ما تشتريه بجنيه، أيها النصاب اللعين".

سيد: "رفع الفتى كفيه وقال: (أبدا والله يا عم سيد، عيب عليك)، جلست خلف طاولة ماكينة الخياطة وقلت له: "اجلس جلس عليك قطر، معك سيجارة؟"، ناولني الفتى سيجارة مارلبورو، أمسكتها ولعقتها بلساني قبل أن أقول: "والعة معاك يا ابن الجعانة"، أشعل (الولا فتلة) السيجارة ثم جلس على الكرسي المقابل، قلت له: "هل تدخل هذه العدة على النت؟"، غمز بعينه وقال: (تدخل على أحلى نت، سيبك بس)".

سيد: "قلت له وأنا أركب بكرة الخيط في الماكينة: "سآخذها بخمسمائة جنيه"، فتح فمه ليعترض فصحت فيه: "من غير ما

تحلف على المصحف، إذا لم يعجبك الثمن غادر ولا أريد رؤية وجهك القذر مجددا"".

سيد: "لمحت نظرة رضا حاول إخفائها وهو يأخذ النقود، ذلك الوغد سارق الكحل من العين يعلم أن عدته لا تساوي ومع هذا كان سيحلف بالطلاق على امرأة لم يتزوجها بعد أن العدة تساوي أكثر من هذا،(آخذلي بالك؟)".

سيد: "طبق الفتى المال ووضعه في جيبه والتفت خارجا فناديته، توقف ثم التفت إلي بعينين قلقتين خوفا من أن أكون قد غيرت رأيي، قلت له والسيجارة بين أسناني: "ستعلمني أيضا كيف أدخل إلى (التيت)"، قلتها فاردا ذراعي بجواري متراقصا".

سيد: "كنت أسمع رناتك على العدة طوال الأيام الماضية، لم أكن في مزاج رائق للحديث معك، من أنت على أي حال؟ كيف يمكنك معرفة كل ما أفعله ورؤية كل ما حولي؟ غريبة.. المهم.. أين توقفنا؟ لا أذكر.. ما الذي سيقوله عني أهل المنطقة الملاعين إذا علموا أنني أتحدث مع لعبة أتاري، هيء هيء، ولكن دعني أخبرك بشيء، منذ تدهور بي الحال مع هذا المرض اللعين وأنا أجد نفسي أقضي ساعات أتحدث فيها مع نفسي كما يفعل طفل في الرابعة، ربما لو تحدثت معك لصار الأمر أكثر عقلانية بالنسبة لي (آخذلي بالك؟)".

كان الهففي واليانكي جالسين يتابعان حديث العم سيد وهما ينظران إلى بعضهما من حين لآخر، قال الهففي: "يا دين أمي، هذا العجوز ثرثار وقح"، كانت شاشة الكمبيوتر مقسمة إلى عدة أقسام منها شاشة المحادثة، قسم آخر احتوى على مربع يعرض ما يقع أمام

كاميرا التابلت الخاص بعم سيد بعد أن اخترق شوقي جهازه، كان عم سيد في الخمسينيات نحيل الجسد، يرتدي جينز وتي شيرت قديماً يتأرجح فيهما جسمه كما تتخبط مطرقة الجرس في جوانبه النحاسية، يغطي رأسه شعر فضي ثائر، منذ أن وجد عم سيد تطبيق البزاق على هاتفه وهو يقضي معظم الوقت في الحديث معه، كان يظنها لعبة في البداية، لم يكن قد استعمل أي هاتف ذكي في حياته ولكنه لم يكن يتخيل أنه سيصير ذات يوم كشباب الفيس بوك الرقيع كما يرى، لقد صار محترفا في فتح المواقع المشبوهة وتحميل الصور والفيديوهات الخليعة، لم يكن يحتاج إلى أي وسيلة ضغط ليقص ماضيه، كان كإصبع مرهم، يكفي أن تضغط قليلا ليخرج لك أكثر مما تحتاجه فعليا.

19

من محادثات إيهاب عبد الحكيم مع البزاق.

إيهاب: "أعتقد أنك خطر حقا عليّ".

إيهاب: "هههههه أمزح معك بالطبع، الحقيقة هي أنني أفتح قلبي للمرة الأولى لأحد في حياتي، فأنا أعيش في دوامة من الأكاذيب، يقال إنك إذا أردت أن تكون كذوبا فعليك أن تكون ذكورا، إنك لا تبذل الكثير من الجهد لتقول الحقيقة لأنها الواقع، إذا أردت الكذب فعليك دوما تذكر كذبتك ومع من كذبتها. أحيانا يكون لك الكثير من المعارف والأصدقاء فتخبر كل منهم بقصة تختلف عن الأخرى متعلقة بنفس الموضوع، أسباب كهذه تجعل كشف الكذب سهلا عن طريق الأجهزة التي تقيس الانفعالات العصبية والجسدية، لأسباب كهذه يعمد المحققون إلى تكرار أقوال المتهمين حتى يقعوا في خطأ يتعلق بالذاكرة كالتفاصيل وترتيب الأحداث.

إيهاب: "الأمر يختلف معي، أنا أعيش الكذبة بكل تفاصيلها، أعيشها لدرجة أنني أنسى أنها مجرد كذبة، هههههه".

إيهاب: "اسمي إيهاب عبد الحكيم، من محافظة المنصورة، وُلدت وتربيت في السعودية حتى جاء موعد دخولي إلى الجامعة، كان مجموعي كبيرا حينها، لم أكن آخذ الدراسة بجدية حتى دخل

أخي الأكبر كلية الصيدلة، فرحنا لذلك جدا ولكنني أردت تحقيق شيء أكبر من هذا، في الثانوية العامة لم أترك دقيقة تمر دون دراسة، ساعدتني أمي على ذلك ووفرت لي الجو الملائم، كانت صدمة كبيرة لنا حين جاءت نتيجة التنسيق بكلية التمريض جامعة الإسكندرية، قال أبي حينها: "على الأقل ستكون مع أخيك".

إيهاب: "دعني أعود بك للوراء قليلا، نحن أربعة إخوة، ترتيبي هو الثاني، ليس فقط في ترتيب الولادة ولكن في ترتيب الدرجات أيضا، نعم هكذا تتم الأمور في البيت، الأفضل والأكثر حيازة على الاهتمام هو الأكثر دراسة ومجموع دراسي، على الرغم من ذلك كنت رقم واحد عند أمي وهذا كاف جدا بالنسبة لي، إنني مطيع وهذه هي كلمة السر، أفعل كل ما تطلبه مني دون جدل أو اعتراض كما يفعل بقية إخوتي، تقول أمي إنني أشبه أباها وهذا يضيف حبا فطريا وتعلقا طبيعيا بي".

إيهاب: "تعلمت من أحد زملائي في المدرسة وضع الشطة على الحلاوة الطحينية لأصبح مريضا وأغيب عن المدرسة، اعتدت فعل هذه الحيلة كلما أردت الغياب، كان الأمر ممتعا أن أبقى مع أمي بمفردنا في المنزل، أساعدها في الطبخ والتنظيف (حاضر يا ماما) هذه كلمة السر، أقولها في حماس وأنطلق كالبرق لأنفذ ما تطلبه".

إيهاب: "لم يقتصر أمر الشطة والحلاوة على الرغبة في الغياب فحسب، هههههه، كان الأمر مهربًا مثاليًا في كل مرة أحصل على درجات سيئة، (اترك الولد في حاله إنه مريض) هذا كان ردها دوما على انفعال أبي من درجاتي السيئة، تجلس أمي بجواري على السرير

تمسح رأسي، وفي عينيها خوف وحب بعكس ما أراه منها في الأيام العادية، إنها تحاول إخفاء حبها وتمييزها لي على باقي إخوتي كي لا يثير ذلك غيرتهم، تتعامل معي في برود كما تفعل معهم جميعا، ولكن لا بأس، أليست معي؟ تنادي أبي تطلب منه اصطحابي إلى المستشفى للكشف عليّ.. ياله من مسكين".

إيهاب: "سكنت مع أخي في شقة بالإسكندرية، لم أحتمل أن يتفوق عليّ، إنه في منزلة الطبيب.. وأنا؟ مجرد ممرض، لم أترك الأمر يمر هكذا، أخذت أردد بمناسبة ومن دون مناسبة كوني ظُلمت في هذا التنسيق، قلت له إنني حصلت على مجموع أكثر منه ومع ذلك كل ما حصلت عليه هو التمريض، في كل مرة يطلب مني الرضا وحمد الله فغيري يتمنون ما أنا فيه دون أن ينالوه، ياله من غبي، أنا لا أتحدث عن الرضا والسخط، كل ما أردت توصيله إلى عقله الثخين هو أنك لست أفضل مني".

إيهاب: "كنا نتناول العشاء ذات ليلة فقلت وأنا أنظر إلى التلفاز: "لقد انتهينا اليوم مع غروب الشمس، إنهم يظنون أنها كلية تستحق كل هذا العناء، إن مجموعي.....".

قاطعني حينها: "لماذا لا تتوقف دائما عن التذمر؟ فلتكمل في الكلية أو لتتركها، أتدري؟ ربما كانت هذه الكلية هي كل ما يناسب إمكانياتك العقلية".

لم أرد وتابعت عشائي، ولكن في قلبي غلى الدم وهو يندفع بين الحجيرات القلبية الأربعة".

إيهاب: "حاول أخي إرضائي بعدها والمزاح من حين لآخر، ليس هذا فحسب، أخذ يسألني عن المحاضرات والسكاشن اليومية، كنت دائم الرد ببرود يناسب وقاحته وتعاليه".

إيهاب: "بدأت أشعر بالملل من كل شيء، يأخذني أخي كل أسبوع لنمضي بعض الوقت خارج البيت، لم أعد أطيق العيش في هذه البلد، أدرك ضرورة وجودي هنا للدراسة ولكنني أفتقد أمي هذا كل ما في الأمر، لا تحاول أن تقنعني أن هذا الأخرق سيكون بديلا لأمي، مستحيل، تتصل بي من حين لآخر لتطمئن علينا ثم تقول: " تريدون شيئا؟"، تتحدث طبعا عن المال، وكأن هذا كل ما يحتاجه المرء ليعيش وينجح!".

إيهاب: "أتمنى لو جاءت أمي للعيش معي، إنها لن تستطيع ذلك طبعا لاعتنائها بإخوتي الصغار، زاد ذلك من قهري ووحدتي، لم أرغب في تكوين العلاقات والصداقات كأخي، ألا يعلم أن ما من شيء في الوجود يعوض عن الأم؟ إنني أمضي وقتي أشاهد التلفاز، توقفت عن الذهاب إلى الكلية، بدأ (البيه) في نصيحتي بالاهتمام بدراستي تارة باللين وتارة بالشجار، هاااه، إنه يظن أن له ولاية عليّ، لن أدرس ما دام ذلك يثير حفيظتك، يقول إن عليّ أن أنجح من أجل مال أهلي وتعبهم على الأقل ما دمت لا أهتم بمصلحتي، إنهم لا يتعبون من أجلي بل من أجل باقي إخوتي ولو كان يهمهم أمري ما كانوا ليتركوني وحيدا، ألا تتفق معي؟".

إيهاب: "أسمعه يتصل بها ليشكو استهتاري وعدم اهتمامي بدروسي بل وأخبرها بعدم انتظامي في الكلية.

- "خذ كلم أمك"، يقولها وهو يناولني النوكيا 1310، أقول بنبرة يكسوها الحزن والأسى: "نعم يا ماما".

أتجاهل نظراته النارية وأنا أقول مدعيا الحزن (بذاكر يا ماما والله)، ينظر إليّ بعينين تطلقان شررا وأنا أرد: "إنه خارج البيت طوال الوقت ولا يراني أذاكر"، ثم: "حاضر"، "حاضر يا ماما"، أناوله الهاتف وعلى جانب فمي شبح ابتسامة، أتظاهر بعدم الاهتمام وهو يصيح في الهاتف بأنه ليس مسؤولا عني بعد الآن.

لم يعلم طبعا أنه قد ساعدني بطريقة غير مباشرة، سمعت نبرات أمي المتعاطفة حين كلمتها في الهاتف، لا يهمني ما إذا كانت ستصدقه أم لا، على أي حال، إذا صدقته فهذا يعني اكتئابي وعدم قدرتي على التأقلم، إذا لم تصدقه فسيبدو لها أنه يضطهدني خصوصا مع تصريحه بعدم المسؤولية تجاهي".

❁ ❁ ❁

20

من محادثات عم سيد الترزي وشهرته البحار مع البزاق.

سيد: "لم أخبرك لماذا أطلق عليّ أهل المنطقة بالبحار، في الحقيقة لم أنس إخبارك كما صرت أنسى كل شيء، كما لو أن ذاكرتي كـ (السبيرتو)، سُميت بهذا اللقب لأنني كالبحارة، أرافق النساء التي تثير سمعتهن التساؤلات، هيء هيء هيء، كما تعلم فإن طبيعة عملي تفرض عليّ التعامل مع الكثير من النساء اللاتي لا يجدن أي اعتراض من أزواجهن للذهاب إلى عم السيد لتضييق هذه العباءة أو توسيع هذا الفستان، لم يعترض أحد على الرغم من سمعتي، فأنا بالنسبة للكثيرين مجرد عجوز بائس يأخذ حقن المقويات لكي يتمكن من وضع ساق على الأخرى، (آخدلي بالك؟)".

سيد: "دعني أخبرك حكمة لك وللزمن، اليمين يمين ولو كانت مع مين والشمال شمال ولو لبست إسدال، يمكنني معرفة الحرمة اللعوب بمجرد النظر، حينها أعبث فيما أشاء بينما أقيس جسمها بالمازورة، (يا راجل لأ) (يا راجل عيب) (بس حد يشوفنا) كلهن يرددن نفس الجمل، منهن من تسمح ظروفها بزيارة قصيرة من حين لآخر في غياب الزوج والأولاد، منهن من أكتفي بقضاء بعض الوقت معها في مخزن القماش الصغير،هااااا.. أيام".

سيد: "المهم.. ذات يوم جاءتني زبونة من إحداهن، أخرجت من كيس أسود قميص نوم أحمر، نشرته أمامي وقالت إنها تريد تضييقه من هنا ومن هنا ومن هنا، غير أن إشاراتها لم تكن إلى القميص أثناء تحديد الأماكن التي تريد تضييقها، كانت تشير إلى مناطق معينة من جسمها بإصبعها ذي المانيكير الأحمر، أخذت أراقبها وأنا أومئ برأسي مع كل إشارة قائلا: "تحت أمرك يا مدام"، لا أذكر آخر مرة أثارتني فيها امرأة بمجرد الحديث، ولكنني نهضت حينها ولم أفوت أن ألاحظ نظراتها إلى بنطالي المنفخ الذي ظهر من خلف ماكينة الخياطة، أشرت لها بالدخول إلى مخزن القماش لآخذ مقاساتها، خرجت المدام من الدكان وقد أخذت منها ما هو أكثر من مقاساتها، هيء هيء هيء".

21

من محادثات إيهاب عبد الحكيم مع البزاق.

إيهاب: "أذكر أنني كنت ذاهبا يوما إلى سكشن عملي، إنها من المرات القليلة التي أذهب فيها من حين لآخر حين يكون مزاجي رائقا، لم يعرفني الكثير من أفراد الدفعة، اثنان أو ثلاثة على أقصى حد، لقد صرت أشبه بخروف أسود وسط قطيع من الخراف البيضاء، الجميع يرتاب مني ويتحاشاني بالذات البنات، وعلى ذكر البنات، يطول الشرح في وصف علاقتي بالجنس الآخر لكنني سأختصر لك بقدر الإمكان".

إيهاب: "لقد تربيت في بيئة منغلقة لا يُسمح فيها بالاختلاط سواء في العمل أو التعليم، إن المرأة بالنسبة لي كائن غريب لا يمكنني فهمه بخلاف ما أمكنني فهمه عن أمي، المرأة بالنسبة لي هي أمي فقط ولا شيء آخر، أعترف أنها تسعى إلى امتلاك عقلي والسيطرة على عواطفي ولكنني أعترف أيضا أنني أحببت ذلك وسمحت به، أمي هي الأمان بالنسبة لي، لا تطلب مني رجاء الانخراط في المجتمع وخوض التجارب، لا تقل لي إن أمي لن تظل لي إلى الأبد، نعم أنا أعرف هذا ولكننا لسنا في خضم مناقشة المستقبل حاليا، لقد أعطتني شهادة ونيشانا وسط إخوتي لن أحنث به ما

دمت حيا، لا أذكر ما مناسبة قولها ولكنني أتذكر أننا كنا نتحدث فقالت راسمة ملامحا من الأسى على وجهها: "عندما أموت كلكم سينساني، إيهاب فقط هو من سيظل بجوار قبري وسيتمنى لو نام بجواري"، بالطبع إذا كنت تفكر كأخي فستقول إن الموت مصيرنا جميعا، ستقول إنه لا ينبغي على الأم أن تتمنى أن تضيع حياة أولادها بسبب موتها، قل ما شئت، ستكون النهاية بالنسبة لي حين تحين ساعتها، أعلم أن الكثير قد فاتني من الحياة ولكن على الأقل الحياة متوقعة ومحسوبة إذا سرت على الدرب الذي ترسمه لي".

إيهاب: "أعود لأحكي لك قصتي حين ذهبت إلى السكشن، أخبرتك طبعا عن شعوري بالوحدة والكآبة بعد استقراري في مصر، كان معي في الدفعة مجموعة من البنات تمنيت كثيرا لو تعرفت على إحداهن، لا تُسىء فهمي، لم أكن لأرغب في الحصول على شيء منهن بقدر رغبتي في تعويض ما أفتقده من غياب والدتي عني، خفق قلبي وأنا أصعد الدرج إلى الدور الرابع لدى سماعي لصوتهن يتحدثن من خلفي، كن يتمازحن ويضحكن وأنا أقطع درجات السلم، حين وصلت إلى الدور الثالث توقفت فجأة، أمسكت برأسي مسقطا البالطو وما كان معي من الكتب أرضا، سمعتهن عند نهاية صف الدرجات وقد توقفن عن الحديث، بدأت أتمايل ثم استندت بيدي اليسرى على الدرابزين الرخامي، شعرت بنشوة وسعادة وأنا

أسمع صرخاتهن بينما يتدحرج جسدي على الدرج حتى استقر بالقرب من أقدامهن، رأيت إحداهن تحاول أن تمد يدها إليّ ولكنها ترددت وتراجعت وجاء بعض من الأولاد أعرفهم شكلا لا اسما، قام اثنان بحملي من تحت إبطي على أكتافهم وسمعت إحدى البنات تناول ولدا البالطو والكتب ليعطيه لي، سرت بين الولدين أتطوح ورأسي تتمايل يمنة ويسرة، إنني بحق أستحق جائزة الأوسكار".

إيهاب: "عدت ذلك اليوم بمثبت قابل للفك على معصمي، فزع أخي لرؤية يدي بهذا الشكل فأخبرته أنني قد أغمى عليّ وأنا أصعد السلم، مجرد شرخ هو كل ما تضرر من سقطتي لذلك اليوم، ولكنني ظللت أياما أستعيد مشهد صراخ البنات وخوفهن علي، مشهد الفتاة التي حاولت أن تمد يدها لتطمئن علي، الأخرى التي جمعت كتبي وناولتها لمن كان معي من الأولاد.

إيهاب: "أخذت الشهور تمر وتمضي من عامي الأول في مصر، أشاهد التلفاز، أنام، أتناول الطعام، أخرج مع أخي للتنزه، أسافر إلى المنصورة من حين لآخر لأزور أقاربنا، تتصل أمي لتطمئن عليّ وفي كل مرة تقول: (عايز حاجة؟)، المال هو كل احتياجاتي بالنسبة لها، ليس عليها أي شيء ما دامت ترسل لي المال بانتظام، لم يعد أخي يطلب مني المذاكرة والدراسة، لم يعد يهتم سوى بنفسه

ودراسته، أحيانا يكلم أحد أصدقائي من الكلية لينصحني ولكن هذه الخدع الرخيصة لن تنطلي عليّ".

إيهاب: "اقترب أخيرا موعد الاختبارات النهائية، كان أخي يدرس كالببغاء دون كلل أو ملل، لقد ولى وقت المزاح بالنسبة له، أصبت حينها بدور برد لم يأخذ معي سوى أسبوع واحد، لم يهتم أبدا بأمري أو يحنو عليّ كما كانت تفعل أمي حين مرضي، استمررت في البقاء على السرير مدعيا المرض، أنهض من حين لآخر متطوحا لأذهب إلى الحمام فينظر إليّ ولا يقول شيئا، نزلت يوما واشتريت مقياس حرارة زئبقي، قمت بتسخينه بالولاعة من بعيد حتى ارتفع السائل المعدني، أبعدت الولاعة وانتظرت حتى نزل المؤشر إلى 40 درجة مئوية، ذهبت بالمقياس ووضعته أمام وجهه، كان يذاكر إحدى المواد فرفع رأسه لينظر إلى المقياس ثم عاد إلى النظر في كتابه، قال لي حينها: "تحملت ألاعيبك واستهتارك طوال العام والآن تريد مني الجري بك في المستشفيات وعندي امتحان بعد غد"، لم يزد على هذا، عدت إلى سريري وفتحت التلفاز أشاهد فيلما على إم بي سي تو وأخذت أفكر في ذلك الوغد الأناني".

إيهاب: "لم أنجح طبعا في تلك السنة، لم يفاجأ أخي كثيرا بعكس أمي التي بكت في ألم حقيقي، لم أتأثر لبكائها وبقائها أياما تقول تارة الحمد لله وتارة إنا لله وإنا إليه راجعون، كنت سعيدا لأنها

تذكرتني أخيرا وشعرت بالمسؤولية تجاهي، كنا في السعودية حينها لنقضي إجازة الصيف، توقظني بعض الأيام مع تباشير الصباح لأعد لها الشاي وأرافقها في الجلوس على سطح العمارة كما تحب أن تفعل".

إيهاب: "أجلس بجوارها واضعا يدي على رأسي مدعيا الحزن، تربت على كتفي قائلة (متزعلش)، تحاول إعدادي نفسيا لتجاوز الأمر والبدء من جديد، تتحدث معي محاولة فهم سبب عدم نجاحي، أخبرها بصوت مكتوم إنني كنت أذاكر ولكن الدكاترة جاءوا بأسئلة من خارج المنهج، تضع يدها على خدها وتنفخ قائلة: (حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل)، أتصنع البكاء وأعدها بنتيجة أفضل العام القادم ومن داخلي تتراقص ابتسامة، ابتسامة تعني أنها مجرد بداية".

22

من محادثات عم سيد الترزي وشهرته البحار مع البزاق.

سيد: "ذات صباح دخلت إلى الحمام استعدادا للخروج إلى العمل فوجدت شيئا، شيئا على قضيبي، ذُعرت وشعرت بقلبي ينفجر في صدري، لا أدري ما هذا، شيء كالجرح أو القرحة مستديرة الشكل ذات منظر قبيح ترتسم على قضيبي، أخذت أتحسسها بيدي وقد طار النوم من عيني تماما، تمنيت أن أكون في كابوس أستيقظ منه غارقا في العرق ثم أفحص نفسي فلا أجد هذا الشيء المفزع، لسوء حظي وميل بختي لم أكن نائما أو أحلم، لم أشعر بأي ألم في تلك القرحة وأنا أضغط عليها بإصبعي السبابة، نزعت سروالي ووقفت أمام الحوض أغسل عضوي بالماء والصابون هلعا، لا أدري لماذا جال في ذهني تلك المومس التي جاءت لكي أضيق لها قميص النوم، (من هنا ومن هنا ومن هنا)".

سيد: "خرجت إلى العمل حينها متعكر المزاج ضيق الخلق، لم أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف، عند الظهيرة دخلت إلى الصيدلية لشراء مرهم بيتاديرم، أخذت أستعمله يوميا حتى انتهى الإصبع دون أي أثر للشفاء، استعملت كل المراهم والكريمات بداية من الفازلين وحتى كريمات الحروق، (آخدلي بالك؟)".

سيد: "تحولت بعدها إلى العلاجات الشعبية حتى أنني وضعت عليه روث الخيل كما قال لي أحد العطارين، لم أخبره بالطبع بموقع القرحة ولكنني أخبرته أنني جربت كل أنواع الأدوية، أرجوك لا تتحذلق وتطلب مني الذهاب إلى الطبيب، لن أجلس أبدا أمام طبيب ليعبث في العدة، إنه مجرد جرح وسيزول، جميع الجروح تلتئم في النهاية، (آخدلي بالك؟)".

سيد: "ظل الأمر أسابيع دون تحسن، بدأت في القلق بعد أن بدأ الجرح في التلوث وزادت مساحته بعض الشيء، بدأت في القلق أكثر حين وضعت زوجتي مولودا، خرجت الفتاة الوليدة سليمة الجسد إلا من أنف غريب الشكل على هيئة حذوة حصان، ذهبنا بها إلى العديد من الأطباء، كلهم يمطون شفاههم ويكتبون الأدوية ولكن ليس لها بل لزوجتي، إنني لا أفهم شيئا، فليشرح لي أحد ما يحدث، انفعلت على أحد الأطباء ذات يوم فأخذني من ذراعي وسار بي جانبا، أخبرني أن زوجتي مصابة بمرض يدعى الزهري، رددت قائلا: (بمبي إزاي؟)، هز رأسه وقال: (اسمه الزهري وهو مرض ينتقل عن طريق الجنس).

شعرت كأن أحدا قد سكب عليّ دلوا من الماء المثلج، صمت ولم أرد".

سيد: "عُدت إلى البيت وسببتها وسببت أهلها ثم أعطيتها علقة تكسير عظام، اجتمع بي أهلها وعملنا جلسة عرب، قصصت لهم كل ما حدث في المستشفى، لم أكن أعلم أنني مريض بأي شيء حينها، مجرد قرحة في طريقها إلى الزوال فحسب، أخبرتهم بما قاله الطبيب،

أخبرتهم أن ابنتهم مصابة بمرض نجس نتيجة سيرها البطال وهذا أدى إلى عاهة الطفلة المولودة، وقفت مهللا وصحت بأعلى صوتي (ويا عالم البنت دي بنت مين)".

سيد: "وقف أخوها وأمسكني من ياقتي وبدأ ينهال عليّ بالضرب، (اخرس يا نجس، كلنا يعلم سمعتك القذرة)، ترك قميصي والتفت إلى الرجال قائلا: (لماذا لا يكون قد جاء منه ومن علاقاته المشبوهة؟)، رددت عليه أنني مجرد عجوز تحيط به الإشاعات والأقاويل، صرخت في وجهه أن يُحضر دليلًا واحدًا على قوله في حين أنني أمسك بيدي دليلًا ماديًا ملموسًا على سوء أخلاق ابنتهم ومِن مَن؟ من طبيب متخصص في الصحة، (آخدلي بالك؟)".

سيد: "قال لي خال زوجتي: (وما المطلوب الآن يا عم سيد؟ نريد أن نحل الموضوع دون شوشرة وفضائح؟)، رددت عليه فورا: "الطلاق، تحرم عليّ ابنتكم ليوم الدين، طالق طالق طالق".

سيد: "دخلت حينها إلى قعدة الرجال حاملة طفلتها بيد وتلطم خدها بيدها الأخرى: (أنا؟ تطلقني أنا يا صايع يا عديم الشرف)، صرخت فيها: "أنتِ آخر من يتحدث عن الشرف، اجمعي أشياءك وستصلك ورقتك عند أهلك"".

سيد: "بعد أسابيع سمعت صويتًا وعويلًا من منزل أهلها المجاور لبيتي، خرجت بالملابس الداخلية أركض إلى الشارع الذي كان مكتظا بسكان المنطقة، نساء يلطمن خدودهن، رجال يضربن أكفهن في بعضها قائلين: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، اخترقت تجمعات المتفرجين داخلا إلى بيتها، وجدت أهلها جالسين في الصالة وكأن على

رؤوسهم الطير، والدها الحاج محمود يجلس مرتديا جلباب أبيض على الكنبة مطأطئ رأسه ذات الطاقية البيضاء، مستندا بكفيه على عصا خشبية، رجال يقبضون كفوفهم ناظرين إلى الأرض في حسرة، نساء يولولن باكيات، لقد انتحرت زوجتي بتناول أقراص (الباريستيمول)، تركت رسالة فيها كلمة واحدة (بريئة)".

سيد: "حسنا، يبدو أن أهلها قد قاموا معها بالواجب وزيادة بعد أن خرجت من بيتي حتى قتلت نفسها كمدا وقهرا، قلت لنفسي (الله يرحمها، جابت العار لأهلها)".

23

من محادثات إيهاب عبد الحكيم مع البزاق.

إيهاب: "لم أنجح العام التالي، أو التالي أو الذي يليه، بدأت في تدخين السجائر، أستمتع برؤية أخي يتشاجر مع أمي على الهاتف يخبرها عن إهمالي للدراسة وتدخيني للسجائر، كانت دائما ترد عليه: (ملكش دعوة بيه)، نعم، فأنا أعدها كل عام أنني سأدرس جيدا، أنكر بتاتا أي علاقة لي بالتدخين، وفي كل مرة تصدقني".

إيهاب: "كانت الكلية تقبل اعتذاراتي سنويا حتى حفظني الموظفين، أعتذر عن امتحانات منتصف العام تارة وعن امتحانات آخر العام تارة أخرى، بعد أن شاهدت فيلم دم الغزال لنور الشريف بدأت في الوقوف عند الإشارات وإلقاء نفسي أمام السيارات المسرعة، إياك أن تظن أن ذلك عملًا سهلًا، إنه يحتاج إلى خبرة وتوقيت مناسب وإلا وجدت نفسك ميتا، بعد ذلك تعرفت إلى طبيب واتفقت معه على صنع جبيرة لي في قدمي، مرة أخرى في ذراعي، تعرفت إلى طبيب آخر واتفقت معه على كتابة تقرير عن ضعف في عضلة قلبي، ذات يوم كسرت غرفة نومها في المنصورة واستوليت على بعض من ذهبها، قمت بتزوير وطباعة فاتورة على

الكمبيوتر مفادها أنني أجريت عملية خياطة وتجميل في عيني، لماذا؟ كنت أتمشى على الكورنيش في الإسكندرية فدخل سن صنارة في عيني من أحد هواة الصيد،هههههه، يا لها من أيام".

إيهاب: "قضت أمي وأبي الإجازة الصيفية ذات عام في المنصورة، كانت نتيجتي الدراسية كالمعتاد، وكانت حجة العام جاهزة أيضا، بضع قطرات من الأتروبين أضعها في عيني فتتسع الحدقتين، جلست يوما بجوار أمي بعد أن وضعت القطرات، كنا نتحدث ونحن نشاهد التلفاز، التفتت إليّ فجأة وشهقت حين رأت عيني، تظاهرت بالاندهاش من ردة فعلها، صاحت تنادي أبي ليأخذني إلى المستشفى،هههههه".

إيهاب: "انتقل بي أبي المسكين من طبيب إلى طبيب ومن عيادة إلى عيادة، مرة عند طبيب عيون، مرة عند طبيب أعصاب، مرة عند أخصائي حساسية، أجمع الجميع بجهلهم بطبيعة حالتي، طلب طبيب الأعصاب أن نقوم بعمل أشعة مقطعية أو رنين لا أذكر، ذهبنا بالأشعة إلى الطبيب الذي أخذ يراقبها بحثا عن مشكلة ولكنه هز رأسه متعجبا، لا أدري لماذا شعرت بالانتصار على كل طبيب نذهب إليه، يعود أبي وأسمع أمي تتشاجر معه، (يعني إيه معندوش حاجة؟ الناس دي حمير؟)، يهز أبي رأسه في عجز ويقول:

(لقد فعلت كل شيء، أخبريني ما الذي تريدين مني فعله)، ترد حينها: (يعني نسيب الواد يموت؟).

في الحقيقة لقد أعجبتني فكرة القطرة هذه، كنت أقهقه ضاحكا من داخلي طوال الوقت، ليس هذا فحسب، لقد أعجبني في الأمر أن عيناي تصيران كعيني شخصية (ريديك) التي يمثلها فان ديزل. هههههههه".

❁ ❁ ❁

24

من محادثات عم سيد الترزي وشهرته البحار مع البزاق.

سيد: "أفضل ما فيك أيها الحلزون أنك تستمع إليّ طوال الوقت دون أن تقاطعني، من الجيد أن يكون للمرء شخص يتحدث إليه دون أحكام أو انتقادات".

سيد: "سأكمل لك باقي القصة، بعد انتحار زوجتي بأسابيع تطورت الأمور في عضوي العزيز إلى حد لا يمكن السكوت عنه، ظهرت العديد من القرح والدمامل، تجمعات صغيرة من الصديد تملأ أنبوبي الصغير، بدأت في تناول المضادات الحيوية بشكل عشوائي دون جدوى، مع مرور الوقت صار ذا لون بنفسجي قاتم تفوح منه رائحة كريهة، الأسوأ في الأمر هو أنني لم أعد أشعر به، تخيل؟".

سيد: "قررت أخيرا الذهاب إلى المستشفى، بعد أن فحصني الطبيب سألني ما إذا كانت لدي نشاطات جنسية مشبوهة، لم يعد هناك مجال للإنكار، أجبته بالإيجاب، ولكن ما علاقة هذا بحالتي، كل ما لدي هو مجرد جرح ملوث نتيجة الإهمال، أجابني الطبيب أنني مصاب بمرض الزهري، وما أمر به هو المرحلة الأولى فحسب، شعرت بنفس الدلو البارد ينهال على جسمي، لم تكن زوجتي هي أصل المرض، أنا من نقله إليها وإلى ابنتنا واتهمتها بهتانا بسوء سلوكها، (آخدلي بالك؟)".

سيد: "مضيت على إقرار بالموافقة على بتر عضوي بعد إصابته بـ(الغرغرينا)، صرت بلا عدة، أو لنكون أكثر دقة صرت بلا قضيب فقط، تثور خصيتاي لرؤية الحريم والتفكير في النساء بالرغم من كل ما حدث لي، لكنني لا أقدرعلى فعل أي شيء لألبي ذلك النداء المحموم، شعرت بالعجز وأنا أراقب الحريم (اللونة) دون أن أجد أي استجابة من الأسفل، لا أرد على تعليقهن (دمك بقى تقيل)، أصبت بالاكتئاب ولم أعد أخرج إلى العمل، بعد أن اشتريت التابلت من (الولا فتلة) صرت أقيم في المنزل طوال الوقت، أنزل أحيانا لشراء علبة تونة وعلبة جبنة وبعض الخبز بالإضافة إلى علبتين سجائر، داومت على أخذ العلاج الذي وصفه لي الطبيب، أذهب إلى المستشفى من حين لآخر لأتابع حالتي".

سيد: "تم حجزي في المستشفى أخيرا بعد وصولي إلى المرحلة الثانية من المرض، عانيت من انتشار طفح جلدي على مناطق متفرقة من جسدي، صداع دائم، توعك، ضعف في النظر وألم في العينين، سوء مزاج دائم، ولكنني شفيت في النهاية وخرجت من المستشفى لأعود إلى عزلتي المنزلية حيث تحول بيتي إلى مقلب (زبالة)، أكياس فارغة، علب تونة وفول مفتوحة، صحون متسخة نمت عليها الفطريات، علب سجائر مكرمشة، أعقاب سجائر، أوراق جرائد لف الساندويتشات، (آخدلي بالك؟)".

* * *

بعد أن انتهى العم سيد من قص تجربته، أعطاه البزاق الأمل في الخروج من تلك الحياة التي دخلها بقدميه، وعده أن يعطيه حياة

جديدة، وحينها لن يعود فقط عم سيد القديم فحسب، بل سيعود وقد نما له عضو جديد ويطوي الماضي بكل آلامه ومآسيه، ليس هذا فحسب، بل سيكون عضواً في جماعة البزاق ليمد يده بالعون لليائسين والضائعين من أمثاله، أرسل البزاق رابطا على اليوتيوب، ظنه عم سيد موقعًا إباحيًا في البداية، فأخبره البزاق كيف يتعامل مع فيديوهات القناة كما أخبر من قبل طارق ونهى، ولأن الأمل لا يموت ولأن البزاق يعلم كيف يعيدك إلى الحياة، فعل عم سيد الترزي كل ما طلبه منه البزاق.

❁ ❁ ❁

25

من محادثات إيهاب عبد الحكيم مع البزاق.

إيهاب: "قضيت أكثر من عشرة أعوام لم أتجاوز فيها السنة الدراسية الأولى، أعد أمي بالاجتهاد كل عام فتصدقني ويستمر تدفق المال، لم أعد أسكن في الإسكندرية وأقمت في بيتنا بالمنصورة حيث تعرفت على بعض الصنايعية، صار بيتنا تجمعا لشرب الحشيش،هههههه، يتصل الجيران ليشكوني إلى أهلي فأنفي كل شيء، تصيح أمي في الهاتف: (هو الناس دي بتقول كده على عيالي ليه؟)، بدأت أيضا في تجربة الأنواع المختلفة من حبوب الكيف".

إيهاب: "تم تجنيدي بعد بلوغي سن الثامنة والعشرين لأقضي عامين في الجيش بشهادة الثانوية العامة".

إيهاب: "خرجت من الجيش، لم يعد أهلي من الخارج، أصرت أمي أن أكمل دراستي الجامعية، لا جديد، عادت الحياة كما كانت، شرب وسكر، مخدرات وحشيش، فعلت كل شيء سوى التقرب من النساء، أعيش على ذكرى حنان مفقود، فقدت الأمل في عودة حياتي كسابق عهدها قبل مجيئي إلى مصر، هل يمكنك حقا إحيائي من جديد؟".

كرر معه البزاق ما فعله مع طارق ونهى والعم سيد، أربعون يوما يشاهد فيها أربعين فيديو، لم يجادل إيهاب كما لم يجادل سابقوه.

26

بعد انتهاء الأيام الأربعين وجد كل من طارق، نهى، إيهاب وعم سيد صفحة محادثات جديدة، لم تعد المحادثة تجري بشكل خاص وفردي، إنهم الآن في محادثة جماعية مع البزاق، ترك لهم البزاق الفرصة ليتعرفوا على بعضهم البعض، كل منهم يحكي تجربته وماضيه، كل منهم يروي كيف أنقذه البزاق من الضياع وأعطاه الأمل في حياة جديدة، كيف يستمع ويخفف عنهم دون إصدار الأحكام والانتقادات.

تحدث البزاق على الصفحة ليقول: (تقولون عني المخلّص، ولكنني أخبركم بأن خلاص كل منكم في يده، كل ما أفعله معكم هو الأخذ بأيديكم وإرشادكم إلى الباب، أنتم من عليه فتح الباب والدخول إلى حياة جديدة).

البزاق: (لقد اقترب موعد لقائنا، لن يكون عليكم الحديث عبر الأجهزة، سنلتقي وجها لوجه لنقوم بآخر خطوات التجديد).

البزاق: (خضتم بنجاح أول خطوتين، الاعتراف والأمل، اعترف كل منكم بما غيّر حياته إلى الأسوأ سواء كان بفعله أو بفعل الآخرين، أيقظت بداخلكم الأمل من جديد وكنت لكم معينا على تجاوز صدماتكم وآلامكم النفسية، تبقت لكم خطوة واحدة، البعث).

نهى: "هل ستطلب منا الانتحار كلعبة الحوت الأزرق؟ هههههه".

إيهاب: "ههههههعععععع".
طارق: "(إيموشنات ضاحكة حتى البكاء)".
سيد: "(حوت ماله)؟".
البزاق: (كنت صادقا معكم طوال الفترة الماضية ولن آتي الآن لأقول لكم الأكاذيب، لا.. لقد مررت بكل هذه الخطوات من قبلكم، وها أنا ذا أمد يدي إليكم لأبعثكم من جديد، وبعد ذلك سيكون الدور عليكم لتمدوا أيديكم إلى غيركم من الكثيرين).
طارق: "حسنا، ولكن من أنت؟".
نهى: "نعم، من أنت فعلا؟ إنني في شوق لمعرفة شخصيتك الحقيقية".
أرسل إيهاب إيموشن لوجه باك ثم كتب: "أرجوك أخبرنا، من أنت؟".
لم يحصلوا على رد في البداية ولكنهم صمتوا جميعا عن الكتابة والألوان تتموج على صفحة المحادثة.
رد البزاق بعد لحظة: "أناستازيا".
أرسلوا جميعا إيموشنات فرحة ومحبة ثم كتبت نهى: "أنتِ امرأة".
إيهاب: "سأكون مطيعا لكِ إلى الأبد، سأعتبرك أمي التي فقدت حبها وحنانها".
عم سيد: "لا مؤاخذة يا بنتي على الكلام القبيح الذي كنت أقوله، هيء هيء هيء".
طارق: "أنتِ المرأة الوحيدة التي أحبها في العالم".

البزاق: (سأرسل إليكم الآن رابطا بموقع تجمعنا، الموعد اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الأول، وليتبين لكم قولي ستشهدون علامة تعرفون بها صدقي، حين يرتفع القمر بلون الدم وسط ظلمة السماء ستعرفون أنكم على الطريق الصحيح، افرحوا حين ترون علامتي).

أرسل لهم اليانكي رابطا لموقع على برنامج الخرائط، كان موقعًا لأرض واسعة بجوار إحدى المدارس الدولية بالقرب من محطة بنزين توتال العبورعلى طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي.

بعد الانتهاء من تلك المحادثة احتفل كل من الهففي واليانكي بنجاحهم، كل شيء يسير حسب المخطط، لقد بذلوا الكثير من الجهد، ظلوا يبحثون لأشهر عن الشخصيات المستهدفة ليوم العملية، كانت لديهم قائمة طويلة من الشخصيات، وبالفحص والمراقبة تم الاستقرار على ستة أشخاص فقط، أيمن عبد الله، شوقي جابر وابنه طارق، نهى، إيهاب وعم سيد، لم تتفاعل معهم أناستازيا جونزاليس وهم يرقصونِ ويشربون البيرة على أنغام موسيقى الميتال، كانت تقرأ تقريرًا صادرًا من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لعام 1958 مفاده الآتي:

"سري

القدرة العملية للإدراك اللاشعوري

ريتشارد جافورد

<u>هو إدراك يحدث تحت عتبة الإحساس الواعي وذلك عندما يتعرض الشخص إلى مؤثر ذي شدة ضعيفة جدا أو إلى مؤثر ذي</u>

مدى قصير لا يمكن إدراكه، تمت دراسة ردود الأفعال الشخصية التي لا يتم بها إدراك المؤثر الحسي- والذي يشمل الإدراك اللاشعوري- في معامل نفسية لسبعين عاما، تم تعريض محور الدراسة إلى مجموعة كبيرة من البيانات التقنية، مؤخرا تم إضافة بعض النظريات عن التحليل العميق وتعميمها ليتم استغلالها في أغراض تجارية خاصة بعالم الإعلانات.

تم التوصل إلى نتائج ملموسة لهذه التجارب العامة، زادت مبيعات الفشار في دار سينما بنيوجيرسي وذلك نتيجة لإضافة مؤثرات لاشعورية حيث يتم قطع الفيلم لعرض إعلان يحث المشاهدين على شراء الفشار، كانت الرسائل الإعلامية للفشار وسط مادة الفيلم لا تتجاوز جزءا صغيرا من الثانية لا يمكن إدراكه بوعي المشاهد المنتبه إلى قصة الفيلم ولكنه كافي جدا لإثارة العقل اللاواعي، أدت هذه الوسيلة ذات المدى الزمني القصير جدا إلى نتيجة إيجابية في المبيعات مما أثار اهتمام رجال الإعلانات، على سبيل المثال، أمكن باستخدام هذه التقنيات لحث المشاهدين على شراء الفشار دون إثارة الشعور العقلاني للمتلقي بمقاومة الشراء سواء لرغبته في توفير المال أو لخفض الوزن.

أحيانا يكون الأمر معقدا باعتبار أن بعض المنتجات ليس لديها تأثير إيجابي مسبق بحيث يمكن حث المتلقي على الحصول عليه، في هذه الحالات يتم مناشدة المستقبلات العميقة والمحفزات اللاواعية والتي يفترض أنها دائمة العمل بلا اتخام كمستقبلات الدوافع الجنسية مثلا، يمكن إثارة الدوافع الجنسية الكامنة في العقل

اللاواعي عن طريق مؤثرات خفية على العقل الواعي، لا يمكن بشكل مباشر إثارة الدوافع الجنسية بسهولة في المجتمع المحترم بل إن مثل هذه المؤثرات المباشرة يمكنها إثارة المخاوف والقلق لدى المتلقين، عند إثارة المتلقين لمثل هذه الدوافع بشكل لا واعي فإن هذا يؤدي إلى شعور غامض بعدم الارتياح؛ ولهذا يجب إصحاب المؤثر بشعور من السرور والمرح، يمكن اعتبار أن هذا الشعور بالمرح والسرور المصاحب لتعريض المتلقي للمؤثر اللاواعي استحواذ مقبول مجتمعيا.

لقد أثارت تقنيات القدرة العملية اللاواعية اهتمام بعض ضباط المخابرات من ذوي الخيال، كان اهتمامهم بتقنيات إثارة الأفراد ليقوموا بأفعال محددة دون القدرة على إدراك المؤثر أو حتى مصادر التأثير.

أدى هذا الاهتمام بالقدرة العملية للإدراك اللاواعي إلى اعتبارات متقدمة في تقنيات التنويم المغناطيسي، الإدراك فوق الحسي وأشكال مختلفة أخرى من القدرات العقلية، بتطبيق هذه التقنيات على الأفراد أمكن دفعهم في مرات محددة وظروف محددة إلى القيام بشكل غير اعتيادي دون إدراك للمؤثر الدافع أو على الأقل عدم مقاومة المؤثر إذا تم إدراكه، الخطر الأساسي الذي لوحظ في بعض الحالات هو وجود مؤثر خفي سابق يؤدي رد فعل عكسي تماما للتأثير المطلوب.

بعد دراسات وأبحاث دقيقة على هذه التقنيات، على أي حال، صار من الجلي أن التقنيات المستخدمة تؤدي أحيانا إلى نتائج

مبهرة، على الرغم من ذلك ولقلة الدراية والمعلومات الدقيقة المطلوبة عن الفرد المتلقي لكي تعطي التأثير المطلوب، لا يمكن تطبيق هذه التقنيات إلا على فئات قليلة وظروف محددة حيث يتم إخضاع الأشخاص المختارين بعناية معا في ظروف وتوقيتات مدروسة بدقة.

هناك أربع أسس للتأثير اللاواعي:

:

1- لا يكون المتلقي مدركا للفعل المطلوب عمله.

ربما يهمس دون إدراكه لذلك أو يسير متجها إلى فخ دون إدراكه أنه فخ، يتصرف الشخص بشكل غير معتاد لأنه لا يلاحظ ما يفعله وذلك لتعتيم عوامل أخرى على إدركه الواعي كالخوف، القلق، المرض، الإحساس بالذنب، المخدرات والأدوية أو عن طريق التنويم المغناطيسي.

2- علاقة ردود أفعاله ببعض المؤثرات.

لا يشعر المتلقي بحقيقة أن مُحاوره يؤثر عليه وذلك بقول كلمة مثل "نعم" أو "صحيح" تعقيبا على جمل معينة وعدم الرد أو التعليق بعد جمل أخرى، تلك العملية تُدعى (operant conditioning)

3- المؤثر ذاته وذلك لشدته الضعيفة.

لا يشعر المتلقي أحيانا بصوت هامس أو فلاش سريع من الضوء.

4- الطبيعة الدقيقة للمؤثر.

أحيانا يدرك المتلقي شعورا غامضا دون معرفة مصدر أو طبيعة المؤثر، على الرغم من هذا يمكن تغيير ردود فعله وذلك عن طريق تغييرات في المؤثر، أحيانا لا يدرك الشخص مؤثرات معينة تؤدي إلى ردود أفعال معينة ولكن ذلك ليس لأن المؤثر غير كافي لإدراكه بشكل واعٍ بل بسبب المجهود العقلي الذي يبذله المتلقي لإدراك جميع المؤثرات في نفس الوقت مما يؤدي إلى مجهود إدراكي.

لإقناع شخص على فعل شيء لا يقتنع بفعله يمكن استخدام أي من الأسس الأربع السابقة، عادة يكون المطلوب إنتاج رد فعل لا يدركه المتلقي، لذا يستخدم الإدراك الحسي اللاواعي كأداة لإبقاء المتلقي غير مدرك لمصدر التأثير، تكون الرغبة هنا إبقائه غير مدرك لسبب فعله لأمر معين وذلك بإخفاء المؤثر أو الرسالة بعرضها لاشعوريا وتحفيز دوافع نفسية خفية.

للقيام بعملية إدراكية لاشعورية كتقنية فعالة يجب القيام بالتالي:

1- تصميم مؤثر لاشعوري يمكنه تحفيز دوافع نفسية معينة.
2- تحديد شدة المؤثر ومدى تعريضه على المتلقي بحيث يكون مؤثرا دون يتم إدراكه شعوريا.
3- تحديد المؤثرات المسبقة والتي قد تؤثر سلبا على رد الفعل المطلوب القيام به.
4- تجاوز الدفاعات النفسية تجاه الفعل المطلوب.

بالحديث عن تصميم الرسالة اللاشعورية، لا يمكن افتراض أن أي رسالة يتعرض لها المتلقي تحت عتبة الوعي سوف يتم ترجمتها إلى رد فعل مطلوب، يجب تحديد النوع الصحيح من الرسائل على صعيد المحتوى، عدد ونمط الكلمات أو الرموز، إن نجاح العملية يعتمد على عدم تنبيه وسائل الشخص الدفاعية، هذه الوسائل غامضة وتختلف من شخص لآخر كما إنه من الصعب اكتشافها، لذا يكون من الصعب التنبؤ بما يجب تجاوزه من دفاعات نفسية أثناء تصميم المؤثر.

عتبة الإدراك الشعوري أيضا متفاوتة من شخص لآخر ويصعب تحديدها، إذا كانت شدة المؤثر أضعف من العتبة بكثير فلن يكون للمؤثر فائدة ولن يصل حتى إلى أوهن مستقبلات الحس اللاواعي.

إن عتبة الشعور الواعي لا تختلف فقط من شخص لشخص، بل تختلف أيضا في الشخص الواحد من وقت لآخر بالنظر إلى وضعه البدني، حالته النفسية وفوق كل شيء درجة إدراكه لمحتوى المؤثر.

إن الإنسان العادي أشد تعقيدا من الأجهزة الإلكترونية في استقبال المؤثرات المختلفة؛ لذا فإن عملية تصميم المؤثر هي عملية صعبة جدا، في معظم الدراسات المعملية على الإدراك اللاشعوري تمت الاختبارات على أشخاص تعاونوا تماما على تلقي الرسائل والمؤثرات ولكن من الواضح أن مثل هذه التحضيرات لا يؤخذ بها على الصعيد العملي، بناء على ما سبق يجب أن تنتشر الرسائل على مدى تأثيري واسع بحيث يمكنها أو لا يمكنها التأثير على المتلقين وإثارة دفاعاتهم.

في حال استقبال المتلقي للرسالة يتم تحفيز بعض الدوافع الحسية اللاشعورية للقيام بأفعال معينة. هناك العديد من النظريات النفسية تناقش تلك الوظائف الداخلية ولكنها لا تصف سوى القليل جدا. إذا تم اختبار عينة متقاربة من الناس عددا من المرات فإن معظمهم سيستجيبون إلى المؤثرات اللاشعورية ولكن بعضهم لأسباب عدة لن يستجيبوا، في هذه المرات القليلة لن يفعل المتلقي أي شيء، ربما يفعل شيئا بخلاف المطلوب أو العكس تماما من المطلوب.

وأخيرا.. استخدام التقنيات اللاشعورية لتجاوز إنذارات الشخص الدفاعية عن طريق إخفاء المؤثر لا يمكنه بالضرورة إخفاء إدراك المتلقي للفعل المطلوب القيام به أو متضمناته أو عواقبه. إذا تم تعريض المستقبل لمؤثر معين فإنه لا يمكن زيادة قوة الفعل المطلوب دون إدراك المتلقي لذلك ودون تجاوز دفاعاته ومقاوماته النفسية.

الخلاصة أن هناك الكثير من المتغيرات والمصادر غير المنتظمة في عملية توجيه رسالة لاشعورية إلى متلقي لا تتوفر الكثير من المعلومات النفسية والعقلية بشأنه".

* * *

تركت أناستازيا التقرير على طاولة الأنتريه، وأخرجت سيجارة لتُشعلها، وضعت ساقا على ساق ونظرت إلى الهففي واليانكي اللذين كانا يلعبان دور طاولة، قالت بعد أن نفثت سحابة من الدخان:

"أخبار عملية سانت كاترين؟"، التفت إليها الهففي واليانكي، توقف الهففي عن هز الزهر في قبضته وقال: "يتم التجهيز على قدم وساق لاستقبال الأسلحة والرجال المتسللين من سوريا، إنهم ينتظرون الإبلاغ عن الموعد، يوم الرابع عشر من جمادى الأول، أليس كذلك؟".

- "نعم، ولكن لا تخبر أبا الفضل المغربي بعد، لا أريد أي عوائق غير محسوبة".

قال الهففي: "لقد جهزنا الموقع لليوم الثالث عشر أيضا".

- "جيد".

عادا للعب حيث رمى الهففي الزهرتين فخرج له 2و4، التقطهما اليانكي بينما يحرك زميله قطع اللعب البيضاء في الخانات المحددة، نظرت إليهما أناستازيا وهي تسترجع فقرة من التقرير الذي قرأته للتو (إذا تم اختبار عينة متقاربة من الناس عددا من المرات فإن معظمهم سيستجيبون إلى المؤثرات اللاشعورية ولكن بعضهم لأسباب عدة لن يستجيبوا، في هذه المرات القليلة لن يفعل المتلقي أي شيء، ربما يفعل شيئا بخلاف المطلوب أو العكس تماما من المطلوب)، أخذت الكلمات تتردد في عقلها وهي تفكر في شخص معين، شوقي جابر.

❁ ❁ ❁

27

استيقظ شوقي صباح اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الأول وفتح باب غرفته في شقة وسط البلد، كان اليانكي واقفا بقرب الباب فانحنى له على طريقة المطاعم، نظر له شوقي بطرف عينه وتقدم إلى الصالة المفعمة بدخان السجائر، جلست أناستازيا تجري اتصالات عبر هاتف أقمار صناعية، أما الهففي فجلس مسترخيا على الكرسي وقد فك الحزام والزر العلوي من سرواله، مال بظهره للأمام ليطفأ عقب سيجارته في منفضة السجائر، سعل ثم أخذ علبة بيرة مفتوحة ورفع يده ليناولها لشوقي، ظل شوقي واقفا دون أن يعيره أي اهتمام، ابتسم الهففي مضيقا عينيه وأشار بإصبعه إلى شوقي قبل أن يعود للاسترخاء على الكرسي ويشرب ما تبقى في العلبة. انتهت أناستازيا من الحديث في الهاتف فوضعته أمامها على الطاولة ثم قالت بصوتها المبحوح: "استيقظت مبكرا اليوم".

سار شوقي ليجلس على الكرسي المجاور لأيمن عبد الله الذي كان تائها في عالمه الخاص وقد سال خيط من اللعاب من فمه حتى امتد إلى قميصه.

قال شوقي: "لم يكن العمل كثيرا البارحة، لقد أنهيت ما طلبه مني هذان المهرجان".

- "هم همم، وماذا بعد؟".

أشار شوقي بكفيه قائلا: "وماذا بعد؟ لقد قمت بكل ما طلبتموه مني".

قال اليانكي: "في الحقيقة لقد قام الرجل بعمله على أكمل وجه، هففي أليس كذلك؟".

- "آه فعلا، إنه بارع، يكفي أن تعطيه أي رقم هاتف ليخترق الجهاز فنعبث نحن كما نشاء".

قالت أناستازيا: "بقى أمر واحد".

نهض شوقي منتفضا من كرسيه فاهتز جسد أيمن عبد الله ومعه خيط اللعاب قبل أن يعود ويستقر كما كان.

صاح شوقي: "أتعلمون؟ تبا لكم، تبا لكم جميعا، افعلوا ما شئتم، سأخرج من هنا ولن يوقفني أي من خفافيشك الرقيعة".

التفت اليانكي والهففي إلى بعضهما ضاحكين، نظر إليهما شوقي وصاح: "علام تضحكون؟"،

قالها وسار بأقدام تضرب الأرض متجها إلى باب الشقة فقالت أناستازيا: "كيف حال ابنك طارق؟".

توقف شوقي فجأة ثم التفت إليها.

تابعت أناستازيا: "أتعلم من هو رقم 2؟ إنه طارق ابنك، أنت اخترقت هاتفه بنفسك ووضعت برنامج البزاق".

نهضت عن كرسيها وقالت: "يا لكم من آباء أوغاد، تتركون أبناءكم تائهين وسط الغابات الموحشة وحين تسمعون صوت زئير الوحوش تهرعون للبحث عنهم".

قال الهففي: "كنتِ محقة يا سيدة، إنه حتى لم يكن يعلم رقم هاتفه المحمول".

أشارت أناستازيا إلى الهففي دون أن تحول نظرها عن شوقي الذي تمتم: "أين ابني؟ ماذا فعلتم به؟".

ضحكت من حنجرتها الجافة وقالت: "نحن؟ لا شيء، لا نعلم حتى أين هو".

انهار شوقي جالسا على أحد الكراسي ناظرا إلى الأرض متمتما: "أنا السبب في كل هذا، أنا من جلب كل هذا على نفسي".

وضعت أناستازيا يدها على كتفه وقالت: "لا تقلق، سيكون بخير، سنعيد بعثه من جديد، نحن سنصلح ما أفسدته أنت وزوجتك البلهاء".

رفع شوقي عينيه إليها وقال: "لم تكن هذه أبدا فكرتي عن الحياة، لم يكن هذا أبدا رأيي في....".

ضحكت أناستازيا ورفعت يدها عن كتف شوقي ثم قالت: "رأيك! لا يهمني رأيك اللعين في أي شيء، أنت مجرد أداة لتنفيذ ما يُطلب منك، لا يهمني إذا كنت تحب ابنك وزوجتك أو تكرههما، لا تسكب اللبن الثمين ثم تبكي وتقول إن لك رأيا".

عادت للجلوس على كرسيها وهمت بإشعال سيجارة جديدة، ولكنها نهضت تاركة السيجارة على الطاولة ثم قالت: "أتعلم؟ أنت

مهندس ناجح، تثير غيرة زملائك وإعجاب زميلاتك، ولكن دعني أخبرك بأمر لا تعلمه، إن آراءك، أفكارك، منطقك أيا كان ما تسميه ليس إلا علكة، مجرد قطعة علكة".

اعتدل الهففي واليانكي ونظرا إلى أناستازيا مستمعين باهتمام.

تابعت أناستازيا: "علكة طرية طازجة تحت التصنيع، مررت بالتجارب وخضت الاختبارات المختلفة في الحياة حتى جفت تلك العلكة وتصلبت، حينها صار لك صوت مسموع، صرت ناجحا في عملك، صرت....، صرت..."، تلفتت حولها وقالت: "صرت الباشمهندس شوقي مدير المبيعات، يصيبك الغرور ويسيطر عليك الكبرياء حتى مع زوجتك وولدك فصرت تلف تلك العلكة وتغلفها لتحميها من كل ما قد يصيب هذا الذكاء ويعيقك عن مواصلة التقدم حتى ولو كان من زوجتك وابنك".

لم ترفع أناستازيا عينيها اللتين لا تطرفان عن عينيه، أخرجت من جيبها لوح من العلكة المغلفة بورق القصدير ثم أخرجتها من الورقة، أكملت بصوت هادئ قوي: "لا تصدق حين يقوم أحدهم بفك الغلاف عن العلكة ورميه أرضا، لا تصدق حتى وهو يمضغ العلكة ناظرا إليك في لا مبالاة"، ألقت أناستازيا بالعلكة في فمها وأخذت تمضغها دون أن ترفع عينيها عن عينيه ثم تابعت: "تنهار حين يقوم ببصق تلك العلكة أرضا"، بصقت العلكة على سيراميك

الصالة ثم تابعت وقد ضيقت عينيها متصنعة الأسى على وجهها: "تحاول جاهدا يائسا أن تقنع الناس بأفكارك ومنطقك و.... و....."، التفتت إلى اليانكي مشيرة إليه بإصبعها فقال: "رأيك"،

عادت للنظر إلى شوقي كما لو أنها وجدت ريموت التلفاز الضائع وتابعت: "آه آه رأيك، تحاول التعلق بأقدام الناس"، قالتها وهي تسير في الصالة حتى داست العلكة بصندلها المنزلي ثم تابعت سيرها، في كل مرة ترفع فيها قدمها تتمدد العلكة بين الأرض والصندل ثم تعود لتلتصق بالصندل، تابعت قائلة: "تماما كما تتعلق الآن بابنك الذي لا تعرف حتى رقم هاتفه، ثم...."،

مالت أرضا لتنزع العلكة من صندلها قائلة: "إنني لا أقبل حتى أن يكون رأيك علكة عالقة في قاع حذائي المليء بالغبار والقذارة".

تلفتت حولها متسائلة: "أين نضعها، أين نضع رأيك يا ترى؟ آه هنا".

قالتها ثم اتجهت إلى سلة المهملات المليئة بعلب البيرة الفارغة وأعقاب السجائر، وقفت بشكل استعراضي مميلة خصرها جانبا ثم رفعت ذراعها الممسكة بالعلكة، ظلت للحظة على هذا الوضع قبل أن تترك العلكة دون أن ترفع عينيها عن عيني شوقي.

قالت: "هنا، هذا هو المكان الطبيعي لرأيك يا سيد شوقي".

ظل شوقي ناظرا إليها للحظات وقد تلون وجهه بالحمرة فصار كالمج الحراري الذي يتلون بألوان مختلفة إذا أضفت إليه الماء الساخن، تجمد الهففي واليانكي انبهارا ثم انفجرا ضاحكين وضربا بعضهم على الأكتاف، نهضا واقفين بجوار أناستازيا مصفقين ولكنها جلست على كرسيها ثم قالت: "إذا أردت رؤية ابنك فابق معنا، إذا أردت الخروج فاخرج، الباب مفتوح، يمكنك الذهاب في أي وقت، لن يمنعك أحد"، ثم نظرت إلى الشابين: "أليس كذلك يا شباب؟".

هزا رأسيهما قائلين: "لا أبدا يا سيدة، يمكنه الذهاب".

قال الهففي: "يانكي.. هل ستمنعه؟".

رد اليانكي: "أمنعه؟ لا لا أبدًا، يمكنه الذهاب في أي وقت يريد".

قالت أناستازيا: "ولكن حينها.....أو أوه".

أفاق حينها أيمن عبد الله من غفوة فاهتز رأسه وخيط اللعاب المنساب على قميصه، أطلق حشرجة وهو يفتح عينيه، تلفت حوله ثم قال: "نسيت الاعتراف بشيء".

التفت إليه الجميع حتى شوقي، نظرت له أناستازيا بلا مبالاة فتابع: "كنت أتصفح الفيس بوك فوجدت صفحة لهواة القطط والكلاب"، ضحك ثم تابع: "تعجبت لأمر أولئك التافهين وهم ينشرن صور حيواناتهم المنزلية، بعضهم يكتبون كم هم متعلقون بقططهم ويصفون تصرفاتهم، استرعى انتباهي شخص وجد كلبا

مكسور الذراع في الشارع، كان تحت المنشور صورتين صورة قبل للكلب وهو مكسور الذراع وصورة بعد أن عالجه وشفيت قائمته، المهم خرجت متجها إلى خرابة على ناصية الشارع كان سكان الحي يرمون فيها نفاياتهم....".

تابع أيمن وهو يمسح أنفه في كم قميصه: "عدت بعد ساعة إلى الشقة، غسلت يدي في حوض الحمام ثم جلست ممسكا بهاتفي المحمول، بحثت عن منشور ذلك الشاب وأضفت له تعليقا عباره عن صورتين، صورة قبل أظهر فيها وبجواري كلب يأكل رغيف فينو، وصورة بعد أظهر فيها أيضا ضاحكا ورافعا علامة النصر وبجواري الكلب ورأسه مقطوعة وقد وضعتها فوق ظهره".

اتسعت عينا أيمن وأخذ يضحك في هستيريا مكورا قبضتاه، لم يرد أحد عليه، نفثت أناستازيا الدخان في وجهه قبل أن تلتفت إلى شوقي قائلة: "ها، ماذا قررت؟".

28

اخترقت كشافات سيارة أناستازيا المرسيدس ظلمة المساحة الواسعة المجاورة للمدرسة الدولية، انحدرت السيارة يقودها أيمن عبد الله إلى الأرض الرملية لتتدحرج على المقبات والمطبات، لم تمض لحظات حتى توقفت السيارة، خرج أيمن وأغلق بابه بعد أن أطفأ المحرك والكشافات الإتش دي، نزلت أناستازيا جونزاليس من الباب الأمامي المجاور للسائق يليها الهففي واليانكي وشوقي من الكنبة الخلفية، ارتدى كل من أناستازيا، اليانكي والهففي رداء من ثوب أسود فضفاض وغطاء رأس قمعي طويل يُخفي الكثير من ملامح وجوههم، لمح شوقي في الظلام أشباحا لأربعة أجساد واقفين بجوار بعضهم البعض، سمعهم أيضا يهمسون: "أناستازيا.. أناستازيا"

رفعت أناستازيا ذراعها وصاحت: "أنا أناستازيا"، لم تكد تنهي كلمتها حتى صاحوا فرحين رافعين أيديهم في الهواء، تقدموا منها ممسكين بأطراف ثوبها، تابعت تقدمها تحت ضياء القمر الأحمر، وقفت بجوار الهففي واليانكي بينما تجمع شوقي، طارق، أيمن، نهى، إيهاب وعم سيد ناظرين إلى شبح جسمها.

رفعت يدها ليصمتوا ثم قالت: "اعترف كل منكم لي بكل شجاعة وقص ما غيّر حياته إلى الأسوأ، إنني تماما كالبزاق، لا يهمني جنسك أو لونك أو اعتقادك، كلكم فعل أمورا أغرقته في الوحل حتى ذقنه،

وأنا هنا اليوم لأطهركم، لأنظف أرواحكم وقلوبكم، لم أتعجب أبدا من تجاوبكم معي برغم جهلكم بحقيقة من يحدثكم، ففي الوقت الذي أدار الجميع لكم ظهورهم نحن تقبلناكم في صدورنا، في الوقت الذي تخلى فيه عنكم أهلكم وذويكم كنا لكم سندا وكنفا، أعطيناكم الأمل لتحيوا من جديد، أرشدناكم إلى الطريق للتخلي عن سيطرة كل من فرض قيوده عليكم في حياتكم، سواء كانت قيودا جنسية، نفسية، عاطفية أو أخلاقية، حررناكم من أوهام أفسدت عقولكم وأعمت قلوبكم، فلتكونوا ما تريدون لأنفسكم أن تكونوا".

رفعت يديها إلى السماء ثم قالت: "لتفعلوا ما تشاؤون"، رفع الجميع أيديهم وصاحوا في حماس.

تابعت أناستازيا: "اليوم تبقى لكم أمر واحد"، صمتوا جميعا مترقبين حديثها، "يجب أن تُبعثوا من جديد"، أشارت إلى الهففي الذي أخرج ولاعته وقام بإشعال مشعل خشبي، تابعت بينما تناول اليانكي جاروفا وانطلق إلى ما خلف المجتمعين الستة: "ستة توابيت في ستة قبور، تستلقون فيها حتى أصلي وأترحم على أرواحكم، تستلقي أجسادكم بينما أرواحكم معي لأوقظ فيها الحياة من جديد، لأصلح ما أفسدته أعمالكم وأعمال ظالميكم، ثم وبعد أن آمركم تنهضون لتفتحوا التوابيت مبعوثين إلى حياتكم الجديدة، حياة أنتم من يتحكم في مصيرها، لن يفرض أحد بعد الآن عليكم رأيا، لن يسيطر عليكم أحد بالعواطف والأفكار، لن تعيشوا مقيدين بعذاب ذنوبكم أو بأخطاء ليس لكم فيها ذنبا، ستكونون المرشدين

الجدد لمزيد من الأرواح التائهة"، التفت الجميع ينظرون إلى اليانكي الذي أزال الرمال عن ستة توابيت خشبية مرتبة على رسمة لنجمة خماسية كبيرة تم رسمها على الأرض، خمسة توابيت كل تابوت منهم عند طرف من أطراف النجمة بينما تمركز واحد وسطها.

عادوا للالتفات إلى أناستازيا التي قالت: "سيجد كل واحد منكم اسمه على تابوته".

- "هراء لن أفعل هذا"، قالها شوقي مشيحا بيده في الهواء.
- "بابا؟"، صاح طارق ناظرا إلى والده الذي ظهر جليا على ضوء مشعل الهففي.

التفت شوقي إلى طارق، ضيق عينيه للحظة قبل أن يخفق قلبه وقد اتسعت عيناه وتجمدت أطرافه.

على ضوء مشعل الهففي وقف طارق مرتديا قميص نوم حريمي وجده في دولاب ثياب أمه، لمع ضوء النار على القميص الأسود المرصع المثير، ارتسم القميص الضيق ذا الحمالتين الرفيعتين مجسما لجسد طارق قبل أن ينتهي طرفه عند منتصف فخذيه الحليقين، فغر شوقي فاه وهو يطالع وجه ولده المزين بالبودرة والفاونديشن، عينيه المرسومتين بالماسكرا والآي شادو والآي لاينر، شعر رأسه الذي ملسه بمكواة للشعر، الروج الأحمر الفاقع على شفتيه، شل عقل شوقي ولم يدر بم يفكر أو يقول، أصيب بالغباء لدرجة أن ذهنه أخذ يتساءل (كيف تمكن من الوصول إلى هنا بهذا المظهر؟).

فتح شوقي فمه أخيرا ليتحدث ولكن طارق صاح: "بابا، أريد أن أدفن هكذا، أرجوك يا أبي".

صاح اليانكي: "طارق.. هيا إلى تابوتك".

تحرك شوقي أخيرا صارخا: "لاااا".

ركض إلى ابنه وأمسكه من كتفيه، وقف أمامه في مواجهة أناستازيا وتابع الصراخ متشنجا وهو يهز رأسه حتى سقطت نظارته أرضا: "لاا.. لاا.. لااااا، لن يفعل ابني أي شيء".

رأى شوقي على ضوء النار نهى تسير بلحيتها أمام إيهاب الذي قال: "هيا يا نهى، ليس أمامنا الليل بطوله".

لم يتحرك أي من أناستازيا ورفيقيها من مكانهما، فقط تردد صوت أناستازيا المبحوح: "طارق، افعل ما شئت".

انتزع طارق نفسه من يدي أباه صائحا: "اتركني"، التفت إليه والده فتابع طارق: "لماذا لم تتمسك بي من قبل كما تتمسك بي الآن؟"، صرخ متابعا: "هاااا؟ قل لي، أين كنت؟".

فقد طارق أعصابه وهو يصرخ في هستيريا ملوحا بإصبعه أمام وجه شوقي الجامد: "الآن تتذكر أن لك ابنا؟ لازلت تريد حبسي وتقييدي؟ ربما ترغب بضربي وشتمي بالألفاظ أيضا؟ أتعرف؟ تبا لك، تبا لك".

رفع شوقي كفيه متمتما: "طارق.. تعلم أنني أحببتك دوما، أنسيت كل تلك الأوقات الجميلة التي قضيناها معا من قبل؟".

لمح شوقي دهشة على ملامح طارق واختلافا في نظرة عينيه المزينتين، بدا كما لو أنه تلقى صدمة للحظة، كما لو أنه أفاق

متسائلا ما إذا كان متأكدا مما يفعله، تبدلت ملامح طارق ونظراته ليعود إلى عدوانيته وشروده، سار إلى تابوته قائلا بصوت مهزوز وكأنه يوشك على البكاء:

"فات الأوان على ذلك، أنا الآن حر، أنا الآن أفعل ما أشاء".

ارتجف وجه شوقي وسالت دموعه وتمتمت شفتاه بكلمات غير مفهومة غير مسموعة، دخل طارق إلى تابوته مع باقي المجموعة، نهى، أيمن، إيهاب وعم سيد الذي بصق على الأرض قبل أن يتمدد في تابوته، ثم قال موجها حديثه إلى أناستازيا: "من الأفضل أن أنهض وقد نما لي واحد جديد كما وعدتي، هيء هيء هيء".

نظر شوقي إلى اليانكي وهو يغلق التوابيت بأقفال نحاسية، قال له عم سيد وهو يغلق تابوته: "لا تُضع مفتاحي يا ريس، (آخدلي بالك؟)".

قالت أناستازيا لشوقي: "كما ترى، لم نفعل له شيئا، إنه يفعل ما يراه مناسبا له وإذا أردت أن تراه مجددا فعليك أن تنام في التابوت بمنتصف النجمة".

تمتم شوقي: "أيها الشياطين".

رد الهففي: "نعم نحن مجرد شياطين لطيفة، ماذا كنت تظننا؟ سفاحين؟".

قال اليانكي: "لا تُضع الوقت ما هي إلا لحظات وستخرجون جميعا، بوسعك حينها أن تربي ابنك من جديد".

نظر شوقي إلى التابوت الذي دخل إليه ابنه ثم عاد للالتفات إلى أناستازيا باكيا: "أرجوك لا تؤذي ولدي، أتوسل إليك".

قالت بصوتها الحاد: "هذا يعتمد على قرارك".
رد الهففي ضاحكا: (أنا مو خسران شي أنت الخسران).

سار شوقي متجها إلى تابوته الذي وُضع في حفرة على نفس أبعاده، وضع قدمه في الداخل ثم استلقى على ظهره واضعا يديه على صدره، ابتلع ريقه وهو ينظر بعينيه الدامعتين إلى القمر الأحمر الدموي الذي اعتلى السماء، أغلق اليانكي تابوت شوقي الذي سمع صوت إغلاق القفل النحاسي، أغلق شوقي عينيه بعد أن تسللت إلى أنفه رائحة عطرية غامضة، أخذ وعيه يغيب على إثرها شيئا فشيئا.

29

انتفض جسد شوقي وهو يشهق مستيقظا، رفع يده ليمسح عرق جبينه وهو يتنفس بصوت مرتفع، تأوه وهو يتذكر كيف وصل إلى هذا التابوت، زفر وبدأ في الأنين وهو يتلفت حوله ملتقطا ما تبقى من الهواء المكتوم، أخذ يضرب بيده جدران التابوت ثم نظر للغطاء وضربه بيده، لم يفتح الغطاء ولكنه اهتز ليفتح فرجة صغيرة دخلت على إثرها ذرات من الرمال وسحابة من الغبار، سعل شوقي مختنقا من رائحة الرمال والتصق الغبار بعرق وجهه، استدار ليعطي ظهره للغطاء، سند بيديه وركبتيه على أرضية التابوت ثم بدأ برفع الغطاء بظهره، أغمض عينيه وعض أسنانه وهو يدفع بالغطاء الذي بدأ يرتفع تدريجيا ومع زيادة الفتحة تنهال الرمال إلى أرضية التابوت، تمدد شوقي على جانبه واستند على يده اليسرى وبدأ يدفع الغطاء بكتفه اليمنى، استمرت الرمال في التسرب إلى الأرضية لتغمر يد شوقي فينفضها ليواصل الدفع مجددا، استلقى على ظهره مجددا ورفع قدميه ليدفع بهما الغطاء لأعلى، تمددت ساقه والغطاء يرتفع حاملا فوقه طبقة من الرمال، وما إن مال الغطاء لأعلى حتى انزلق ما كان فوقه من التراب.

دخلت نسائم هواء الفجر الباردة لتلفح جسمه الغارق في العرق، شهق شوقي ليدفع بالهواء النظيف إلى رئتيه متأوها، بعد لحظات نهض عن التابوت الذي لم يكن مغمورا بالكثير من التراب، خرج متأرجحا وهو يصرخ: "طارق.. طاااااارق".

رأى قفلا نحاسيا ملقى بجوار تابوته أرضا، لم يكن هناك أثر لأحد سوى أماكن التوابيت الخمسة والتي ظهر فوقها آثار لدفن حديث، كان تابوت شوقي في منتصف النجمة، استرجعت ذاكرته التابوت الذي دخل إليه ابنه وانطلق إليه ليتعثر في صخرة صغيرة، سقط وزحف جسمه على التراب حتى استقر أمام تابوت طارق، اعتدل جالسا وبدأ ينبش الرمال وهو يصيح مناديا ولده. دفع شوقي بطبقة الرمال القليلة المغطية للتابوت الذي ظهرت أخشابه المتفحمة، فغر فمه وسال اللعاب منه ممتدا إلى الأرض، اتسعت عيناه وهو يبكي مرددا اسم طارق، حاول فتح الغطاء ولكنه اهتز مع القفل النحاسي الذي وضعه اليانكي ليلة أمس، أخذ يضرب على الخشب المحترق بكلتا يديه حتى تشقق الغطاء المتفحم، أدخل أصابعه في الشق وبدأ يكسر قطع الخشب واحدة تلو الأخرى حتى تسلل ضوء الصباح الأزرق إلى داخل التابوت ليرى شوقي جثة طارق الممددة في الداخل، كانت الفتحة كافية لرؤية جذعه ويديه وقد ظهرت عليه آثار الحريق والتفحم، ارتجف شوقي وهو ينظر

إلى قميص النوم الذي تجعد والتصق بجسم ولده، اندفع إلى الخلف زاحفا على يديه وقدميه مبتعدا، هز رأسه يمنة ويسرة لتتطاير دموعه حول رأسه، لمست يده شيئًا معدنيًا فالتفت ليجد نظارته وقد تحطمت عدساتها، نظر إلى النظارة للحظة ثم رفع رأسه إلى السماء باكيًا صارخًا.

30

بعد أن دخل الجميع إلى توابيتهم ليلة الأمس وقف كل من أناستازيا واليانكي والهففي صامتين،

رفعت ذراعيها إلى السماء قائلة بصوت مبحوح جهوري: "روى "بعل" الأرض بالأمطار

روى "آيل" الحقول بالأمطار

غمرت أمطار "بعل" الأرض عذوبة وحلاوة

على الحقول هطلت أمطار "آيل"

حينها قال الجليل "بعل": (أنتم يا أعداء "هداد" لماذا تهربون مسرعين؟

لماذا يا أعداء "دمرن" الشجاع؟)..

بعدها أنزلت السماء زيتا

وامتلأت الأودية عسلا

عندها علمت أن "بعل" الجليل حي

الأمير، ملك الأرض موجود".

ارتفعت أصوات همهمات وصيحات حماسية من داخل التوابيت المغلقة ثم عادوا للصمت بعد لحظات.

رفع الهففي يده الممسكة بالمشعل فصاحت أناستازيا: "الليلة ستدخل أرواحكم الخاطئة إلى مملكة الجليل "بعل""، سار الهففي حاملا المشعل إلى المرسيدس، أخرج من الصندوق الخلفي جركلًا بلاستيكيًا أحمر.

تابعت أناستازيا: "ولهذا وجب تعميدكم لتخرج أرواحكم طاهرة فيستقبلها العظيم في مملكته العظيمة، وفي حين يقوم الكهنة بالتعميد بالماء، أنتم سيتم تعميدكم بالنار".

أخذ الهففي جركل البنزين وبدأ يرش على التوابيت، أصيب أصحاب التوابيت بالذعر ورائحة البنزين تتسلل إلى أنوفهم بعد أن سمعوا تصريح أناستازيا، بدأوا في الصراخ وضرب أبواب التوابيت المغلقة بالأقفال، دار الهففي حول أطراف النجمة ليميل مشعله على كل تابوت، تصاعدت الصرخات والعويل المكتوم من الداخل، اهتزت التوابيت في حفرها ووقف الهففي واليانكي بجانب أناستازيا التي صاحت: "Principio immense

Materia e spirito

Te invoco, o satana"

وقفوا يستمعون إلى أصوات الطرقات على الأخشاب، الصراخ والسعال والبكاء المكتوم من تحت الأغطية الخشبية، هدأت الأصوات ثم توقفت تماما ومعها عم الصمت، منهم من مات محترقا

ومنهم من مات مختنقا بالدخان أو فقد الوعي أو أصيب بسكتة قلبية، أمسك اليانكي بالجاروف وقام بدفن كل تابوت بالرمال، بدأ الدخان يتسرب من بين الرمال متصاعدًا إلى السماء التي ظهر فيها القمر الدموي.

31

بعد شهر من الحادثة بدأ شوقي ينتظم في عمله بالشركة، أوقف السيارة في طريقه إلى الشركة بجوار سوبر ماركت لشراء كيسين من الباتيه وعلبة عصير، حمل سلته الصغيرة عند الكاشير واسترعى انتباهه صبي في العاشرة أو الحادية عشرة، نظر له شوقي شاردا وقد تذكر ابنه طارق في صغره.

كان الصبي أسمر اللون، يمسك بهاتف أندرويد يلعب لعبة عسكرية صاخبة، وقف والده يدفع ثمن مشترياته والصبي غائب تماما مع لعبته الإلكترونية، سار والد الصبي ليخرج من البوابة مناديا: "هيا يا وسيم"، رفع الفتى عينين بريئتين إلى أبيه وسار على عجل ليضرب بمرفقه علبة مليئة بكرات كيندر جوي، سقطت إحدى الكرات من علبتها، وقف شوقي متسمرا للحظة يراجع ما حدث غير متأكد مما إن كان ما رآه قد حدث فعلا، بعد أن وقعت الكرة البيضاوية عن العلبة أخذت تتدحرج عن الكاونتر لتسقط أرضا، هنا حدث ما أثار دهشة شوقي، تعلقت الكرة في الهواء فجأة قبل أن تلامس الأرضية، مال الفتى ليلتقط الكرة من الهواء ثم أعاد وضعها في العلبة مع رفاقها، انطلق ليلحق بأبيه قائلا في شرود: "آسف يا عمو".

خرج شوقي من الماركت ولم يُخرجه من شروده مع تلك الحادثة إلا جرس رسالة على هاتفه، أخرج هاتفه ونظر إلى الرسالة الجديدة من مجهول، غاص قلبه في أعماقه، دخل إلى السيارة ثم فتح الرسالة ليجد فيها: (افعل ما تشاء).

وضع يده على فمه وضرب رأسه على نافذة السيارة.

❁ ❁ ❁

32

جلس شوقي مع صديقه حسام فهمي في استراحة الشركة عند الظهيرة يتحدثان، سأل حسام ما إذا كان هناك أي معلومات جديدة عن اختفاء طارق، هز شوقي رأسه صامتا وهو ينظر إلى عامل البوفيه الذي يقوم بمسح الأرضية، أراد حسام تغيير مجرى الحديث بعد أن رأى حزن شوقي فقال: "أتعلم؟ سأروي لك شيئا عجيبا حدث معي".

شرب شوقي رشفة من كوب الشاي وهو لا يزال ينظر إلى البوفيه ثم قال: "ماذا حدث؟"، تابع حسام: "منذ فترة يا أخي وجدت طلب صداقة على الفيس بوك باسم منيرة الزعفراني".

سقط كوب الشاي من يد شوقي على الطاولة وسال الشاي ليِغرق سرواله، فُزع حسام قائلا: "انتبه يا رجل، يوم تُغرق قميصك ويوم تُغرق سروالك، ماذا بك؟".

مسح شوقي البقعة بيده وقال ناظرا إلى حسام: "لا يهمك، ها قل لي ماذا حدث بعد ذلك؟".

صمت حسام للحظة ثم قال: "كان الأمر غريبا بحق، قبلت طلب الصداقة وشاهدت صور الفتاة المثيرة، سأروي لك ما حدث ولكن هذا سر يا شوقي لا مزاح هناك".

أومأ شوقي برأسه محاولا عدم إظهار الكثير من الاهتمام فتابع حسام: "بعد أن تحدثنا معا طلبت مني أن أفتح الكاميرا وأمارس معها جنسًا مباشرًا"، شرب حسام رشفة من كوبه وتابع: "كان أسوأ موقف تعرضت له في حياتي، بعد أن فتحت لها الكاميرا انقطع الاتصال فجأة، حاولت معاودة الاتصال دون جدوى حتى وجدت وصلة يوتيوب على الماسنجر، فتحت الوصلة لأجد فيديو لنفسي بما فعلته معها على الكاميرا، لا يمكنني وصف ما حدث لي حينها ربما شعرت كأن أحدا قد قص لي خصيتي، اتضح أنه رجل ينتحل صفة فتاة لابتزاز الشباب مقابل المال".

صمت حسام وعاد بظهره إلى كرسيه ليتناول ما تبقى في كوبه.

قال له شوقي ولم يعد قادرا على إخفاء اهتمامه: "ثم ماذا؟ ماذا فعلت؟".

قوس حسام شفتيه لأسفل ثم وضع كوبه على الطاولة وقال: "ماذا فعلت؟ لا شيء، قمت بعمل حظر للحساب، وأغلقت هاتفي تماما، حاول الاتصال بي من حسابات مزيفة أخرى، ولكنني لم أرد، بعد أيام توقف عن مضايقتي".

قال شوقي: "ألا تخشى أن يقوم بنشر المقطع؟".

أجاب حسام: "بالطبع أخشى، ولكن صدقني إذا فعل شيئا كهذا فلن أتركه حتى أدخله السجن ولو كان آخر ما أقوم به في حياتي،

هناك هيئات ومواقع تعمل على مكافحة الابتزاز والجرائم المعلوماتية والإلكترونية، ثم لنفترض أنه نشر لي المقطع، من كان بلا ماضٍ فليوبخني أولا، إن ما قمت به مجرد تسلية عابرة".

تمتم شوقي وهو يهز رأسه: "تسلية عابرة".

قالها وهو ينظر إلى عامل البوفيه الذي انتهى من تنظيف الأرضية ووقف يغسل يديه على الحوض.

❁ ❁ ❁

33

بعد أسبوع من حديث شوقي مع حسام دخلت سعاد إلى الحمام لتجد زوجها ممددًا في البانيو الذي تلونت مياهه بلون أحمر، صرخت واضعة كفيها على خديها وهي تنظر إلى الموس المُلقى أرضا بجوار البانيو من ذراع شوقي التي سالت عليها الدماء من جرحين قطعيين عند الرسغ.

أحمد المحلاوي

March 2018

Baal the Phoenician deity.

Child sacrifice was a gross feature of Baal worship.